محجوب عمر

كتابات

◆ [illegible] ◆ أيلول فى جنوب الأردن

◆ حوار فى ظل البنادق ◆ الكلمة والبندقية

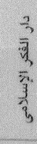
◆ وجهة نظر فى استراتيجية المفاوض المصرى



◆ الناس والحصار

◆ صبرا وشاتيلا

◆ أزمة الخليج وانعكاساتها الإقليمية والدولية





دار الفكر الإسلامى

إهـــــــداء ٢٠٠٧

السفير/ سعيد كمال

جمهورية مصر العربية

محجوب عمر

كتابات

الناشر : دار الفكر الإسلامي

رقم الإيداع في دار الكتب القومية : ٥٥١٠ / ٢٠٠٥
الترقيم الدولي للكتاب : ISBN 977-5378-47-8

محجوب عمر

كتابات

مقدمة : د. قدري حفني

تقديم النصوص : منى عبد الله عاقوري

دار الفكر الإسلامي

١٩٥ شارع الجيش- القاهرة ١١٢٧١ - هاتف وفاكس ٥٩٣٦٤٩٤

البريد الإلكتروني : e-mail : gamal_albanna@infinity.com.eg

موقع الإنترنت : http://www.islamiccall.com

تصميم الغلاف : إهداء من محيي الدين اللباد إلى الكاتب

الصورة الفتوغرافية للغلاف : إهداء من بركان قاوقجي إلى الكاتب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

إلى روح الأخ والأب والقائد الأعزّ الشهيد يـــاسر عرفـــات

إلى الذين شقّوا بدمائهم أفقا أحمر في ظلام التعصّب ..

إلى الذين قدّموا حياتهم طواعية واختيارا .. وشجاعة ..

إلـــى الذين لولا تضحياتهم لما أبصرت العيون، ولا تفتّحت الأذهان، ولا تهـــيّأت الآذان، ولا خفّت مرارة، ولا امتدّت الأيدي عبر الأسلاك ومن وراء القضبان تشدّ بعضها بعضا في النضال.

إلـــى الإخوة الشهداء والأسرى الذين سبقونا على الطريق، فشقّوا لنا الطريق ..

محجوب عمر

القاهرة، آذار/ مارس ٢٠٠٥

تقــديم

محجوب عمر... من هو؟

بقلم : د. قدري حفني

الكتابة عن محجوب عمر ليست أمرا سهلا بالنسبة لي لأنني لا أستطيع الكتابة عنه بتجرد. لقد تعرض محجوب لموقف مشابه حين كان عليه أن يقدمني لمجموعة منتقاة من المناضلين الفلسطينيين في مركز التخطيط ببيروت في أوائل عام ١٩٧٧ لأحدثهم عن سيكلوجية الصابرا الإسرائيليين. تردد محجوب قليلا وقال في مستهل تقديمه لي ما معناه أنه يصعب على المرء أن يتحدث عن نفسه. و كرر نفس المعنى بعد ذلك بسنوات و هو بصدد تقديمي متحدثا إلى وفد التفاوض الفلسطيني الذي استضافته القاهرة في منتصف مايو ١٩٩٢.

و أجد نفسي الآن في موقف أصعب، فالمطلوب مني ليس مجرد كلمات منطوقة ولا كلمات للنشر في صحيفة بل كلمات تطبع علي الورق لتبقى. وما أن شرعت في الكتابة حتى اكتشفت أنها المرة الثانية التي أحاول فيها الكتابة عن محجوب. كانت المرة الأولى في الأول من فبراير ٢٠٠٤، حين دعاني الصديق الأستاذ جمال الغيطاني لكتابة كلمات عن محجوب في مجلة "أخبار الأدب" بمناسبة تقليده وسام "نجمة القدس".

بعــد ما يزيد عن الأربعين عاما من العلاقة الممتدة التي تضافر فيها ما هــو شخصــي بمــا هو فكري بما هو سياسي، تصبح كتابتي عن محجوب

مســكونة بالكــتابة عــن الذات وهو أمر بالغ الصعوبة بالنسبة لي كما كان بالنســبة لمحجوب. ربما كان الأمر أيسر لو كانت الكتابة عن محجوب عمر الشــاعر العامي المبدع المقل، أو عن محجوب عمر كاتب قصص الأطفال المتميز والمقل أيضا، أو غير ذلك من مواهب محجوب المتعددة القابلة للنقد والتقيــيم، أما وقد اخترت الكتابة عن محجوب الإنسان الذي أعرفه، فالمهمة شاقة بالفعل.

لقد سمعت عن "الرفيق محجوب" قبل أن أراه. سمعت عنه في النصف الثاني من الخمسينات. همسات تتردد في حلقات التنظيمات الشيوعية عن مناضل شيوعي سجين "مثير للجدل". لم يعلق الإسم بذاكرتي طويلا فقد كنت وافدا جديدا على تلك الحلقات. كل ما رسخ عندي أنه "شخصية مثيرة للجدل"، وذلك يعني أنه شخص له حضور لا يمكن تجاهله أو اتخاذ موقف محايد حياله : من يحبه يؤخذ به تماما، ومن يرفضه يتجاوز في رفضه له كل الحدود، وساعد على هذا التباين الحاد – إلى جانب الحضور الشخصي الطاغي لمحجوب – طبيعة المناخ النفسي المتطرف الذي يسود عادة أجواء الحركات والتنظيمات السرية. هكذا سمعت عن محجوب قبل أن أراه.

ولم يَمْضِ وقت طويل حتى رأيت محجوب وعرفت اسمه الرسمي حين انضممت إلى نزلاء معسكر تعذيب أوردي ليمان أبو زعبل في ٢٦ نوفمبر ١٩٥٩. تحت سياط الجلادين رأيت المعتقل الشيوعي "رؤوف نظمي". رأيته ورآني وكلانا مثخن بالجراح، ولكنه كان دوما كعادته مبتسما متفائلا رغم العذاب. ويعرف منْ مرّوا بمثل تلك الخبرة القاسية كيف يتعرّى فيها الإنسان، ليس من ملابسه فقط، بل يتعرّى نفسيا بحيث يصبح شفافا تماما. وأستطيع القول أن علاقتنا الإنسانية قد بدأت حين رأى كل منا الآخر في لحظة الشفافية هذه، واستمرت ومازالت مستمرة عبر السنوات.

خرجنا من المعتقل مولين ظهورنا للعمل السياسي التنظيمي السري، دون أن تنقطع صلاتنا بهموم الوطن وقضاياه، وبدأ كلانا ممارسته المهنية. عدت أخصائيا نفسيا بوزارة الصناعة وعُيِّنَ رؤوف طبيبا بمستشفي دمياط

التابع لوزارة الصحة المصرية. ولم تمض سنوات قليلة حتى واجهتنا لحظة مكاشفة جديدة. لحظة كارثة يونيو ١٩٦٧. كانت لحظة صدمة شبيهة بصدمة التعذيب. عشتها مع محجوب وعدد من الأصدقاء. لحظة مراجعة قاسية للذات شملت كل شيء تقريبا. استغرق بعضنا في جلد قاس للذات استمر فيه واستمرأه ربما حتى يومنا هذا، وأولى بعضنا ظهره كلية للعمل العام بل ولكل ما هو عام، وتباينت اختيارات البعض لشكل إسهامهم في العمل الوطني، وكان خياري الشخصي أن أحاول فهم العدو الإسرائيلي فهما علميا من خلال تخصصي في علم النفس، أما رؤوف فقد اختار اختيارا آخر، اختار مواجهة العدو والاشتباك معه مباشرة. و كان قراره السفر إلى الجزائر طبيبا.

وصلني أول خطاب منه من الجزائر مؤرخ في ٢٣-١٠-٦٨ بعد سفره بأيام. وبدأت منذ ذلك التاريخ وطيلة سنوات غربته، سلسلة متبادلة من الخطابات المطوّلة بيني وبين محجوب، خطاب أسبوعي على الأقل من كل منا للآخر. نناقش فيه كل شيء. كنت أنصحه بألا يتخلى عن حرفته كطبيب لصالح العمل العسكري الثوري، وأن عليه ألا يستبعد العودة إلى مصر ليكافح كطبيب للغلابة، وكان ينصحني بالاستمرار في محاولة فهم العدو الإسرائيلي معترضا على تعبير كنت أستخدمه في وصف ما أقوم به من دراسة بأنها نوع من "الهروب الثوري". أظن أنني حاولت وما زلت أعمل بنصيحته ولكني أشك في أنه أخذ نصيحتي مأخذ الجد.

منذ وصول رؤوف إلى الجزائر، بدأ يتعجل الالتحاق بالمقاومة الفلسطينية وكتب لي بتاريخ ٢٩-١١-٦٨ بعد ما يقرب من شهر يقول "ما زلت أسعى للسفر حيث القتال يدور... وعلى الدوام أقابَل بابتسام ووعود... من المؤسف أن يقضي الإنسان أكثر من ثلاثة أرباع عمره منتظرا". كنت مشفقا عليه من المغامرة ولكنه كان قد أصبح مأخوذا بالثورة الفلسطينية. يقول لي في ٢٩-١١-٦٨ "أحاول الآن أن أذهب إلى الشرق، و أتوقع ردا على ذلك... الغريب أنني كلما قرأت عن الشهداء وأسرهم أو النضال في الشرق تقفز الدموع إلى عيني كأني طفل". و يبدو أن العديد من الأصدقاء

كانوا يلحون عليه في العودة، فيكتب لي في ٢١-٥-٦٩ "لن أعود إلا إذا تعودت أذناي صفير المدافع والطائرات والصواريخ، وتلطخت يداي بالدم والطين، وأكلت من عشب الأرض جوعا، و شربت دموع أطفال اللاجئين. حينئذ قد أعود، بل سأعود ربما عن طريق يسده العدو اليوم". هكذا كانت الأمنية وكان الحلم.

تحققت أمنيته أخيرا وكتب لي بتاريخ ٢١-٥-٦٩ مستهلا خطابه مباشرة بقوله "عزيزي قدري: هكذا حُسِمَ الأمر، و هاأنذا أمضي. أنا أعرف أنني سأواجه واقعا حيا مليئا بالمشاكل والتخلف، ولكني أثق أن الكفاح المسلح وحده هو الطريق إلى أي بلورة ثورية حقيقية، كما أنه السبيل الوحيد لكي يتعلم المرء من جديد كيف يناضل. لست مخدوعا في أي شيء، وقد كان من كرم هؤلاء الثوار أن سمحوا لي بالانضمام إلى ركبهم وقد حذروني بأنفسهم مما سأواجه وأجد. سأتعلم وأحاول أن أقدم للثورة أقصى ما أستطيع" ولا ينسى أن يوصيني "... لا بأس أن تبلغ الأصدقاء بين الحين والآخر أنك عرفت أنني بخير حتى ولو كذبت". بعد هذا الخطاب أصبحت الخطابات التالية لا تحمل توقيع "رؤوف"، بل "محجوب عمر" بعد أن انضم لصفوف فتـــح.

قبل أن يغادر الجزائر، جمع رؤوف ملابسه "المدنية" ووضعها في حقيبة وبعث بها إلي محملا إياي مهمة أن أسلمها إلي أسرته تاركا لي صياغة الرسالة المناسبة. وكانت مهمتي في إبلاغ الأسرة مهمة صعبة. ما أن فتح مراد شقيق محجوب الحقيبة واكتشف أن بها كافة الملابس التي أخذها محجوب معه حتى كاد أن ينهار باكيا. لقد استنتج أن مكروها قد حل بنظمي واستغرق الأمر وقتا لكي أخبره أن نظمي – أي محجوب – بخير و أن كل ما هنالك أنه قد التحق بصفوف فتح. ما زلت أذكر نظرة الشك في عينيه وهو يتساءل "هل في فتح لا يرتدون قمصانا وبنطلونات؟ لماذا هو بالذات يستغني عن ثيابه؟" وأخذت أحاول أن أشرح له أن محجوب لم يلتحق بفتح بوصفه

سياسيا أو طبيبا فحسب ولكن باعتباره من القوات أي من "العسكر". لا أظنه قد اقتنع ولكنه على الأقل قد اطمأن أو بدا لي كذلك.

و اندمج "الأخ الدكتور محجوب عمر" في صفوف مقاتلي فتح، وروى لي من عرفوه في أغوار الأردن ما يكاد أن يكون تكرارا لصورة "الرفيق محجوب" في زنازين سجن الواحات الخارجة، ولصورة "الدكتور رؤوف نظمي" الطبيب بمستشفي دمياط الأميري. الإقدام على الخدمة العامة دون تفلسف أو تأفف مهما كانت طبيعة تلك الخدمة. فكما كان يصر على تولي مسئوليات تنظيف الزنزانة الجماعية التي يقيم فيها، كان لا يجد حرجا وهو الطبيب المسئول في المستشفى الحكومي من أن يقوم بنفسه بعدّ الليمون الذي يورده المتعهد ليضمن شخصيا عدم تلاعبه في أغذية المرضى، لذلك لم أندهش حين روى لي أحد الأصدقاء الفلسطينيين كيف أن واحدة من المريضات ذهبت إلى عيادة منظمة فتح بإحدى مناطق الأردن لتجد شخصا منهمكا في تنظيف حجرة العيادة وتطلب منه مقابلة الطبيب فيرجوها الانتظار، وتنتظر السيدة، و ينتهي التنظيف، ليستدير لها "الأخ الدكتور محجوب" يسألها عن شكواها. وتكاد المرأة أن تصرخ وقد ظنت أن واحدا من عمال النظافة يحاول انتحال شخصية الطبيب.

عاش محجوب خبرة الثورة الفلسطينية في الأردن حتى مذبحة أيلول الأسود، وكتب لي بتاريخ ٢٣-١٠-٧٠، وقد آذنت قوات الثورة بالرحيل عن الأردن "بنينا هنا نصبا تذكاريا للشهيد المجهول... وفرغت منذ أسبوع من كتابة قصة مستشفى الأشرفية كما شاهدتها وعشتها، ولم أكن أظن أنني سأبقى لأسجلها."

وينتقل "الأخ الدكتور محجوب" مع قوات الثورة الفلسطينية إلى لبنان، وتكون أول طائرة أركبها في حياتي هي تلك المتجهة إلى بيروت في أوائل ١٩٧٧ وتكررت الزيارات لألتقي من خلال "الأخ الدكتور محجوب عمر" بالعديد من المناضلين الفلسطينيين. أبوعمار، والشهيد أبوجهاد، والشهيد أبو

الهول (هايل عبدالحميد)، وحمدان (يحيى عاشور)، وراجي النجمي، وأبوفادي (منير شفيق)، والشهيد جواد أبو الشعر، ومحمد المدني، وجمعة غالي، والياس شوفاني وغيرهم كثير. وما زلت أحتفظ ضمن أوراقي ببطاقة هوية تحمل صورتي ورقم ٣٠١ صادرة بتاريخ ٢٥ يناير ١٩٨٠ موقعة من محجوب عمر عن مركز التخطيط الفلسطيني. وفي حقيقة الأمر لم أكن في حاجة لتلك الهوية، كان يكفي أن أكون صديقا لمحجوب لكي تنفتح أمامي قلوب وعقول بل وبيوت الفلسطينيين، ليس في بيروت وحدها، بل في صنعاء، وعمان، ومدريد، ونيويورك أيضا.

وتخرج قوات الثورة الفلسطينية من بيروت، ويعود محجوب إلى القاهرة، وتظل علاقته النضالية مستمرة بالثورة. وفي مستهل عام ٢٠٠٤ يتوجه يحيى يخلف وزير الثقافة الفلسطيني نائبا عن الرئيس ياسر عرفات يرافقه غازي فخري المستشار الإعلامي بسفارة فلسطين، والشاعر المتوكل طه، وبركات الفرّا مساعد ممثل منظمة فتح، ولفيف من أصدقاء المسيرة إلي منزل الدكتور محجوب عمر، حيث قام يحيى يخلف بتلاوة قرار من اللجنة التنفيذية العليا لمنظمة التحرير الفلسطينية، ورئيس دولة فلسطين ياسر عرفات منح "الدكتور رؤوف نظمي ميخائيل عبدالملك (محجوب عمر)" وسام "نجمة القدس"، أرفع وسام فلسطيني تقديرا لدوره في الثورة الفلسطينية وكفاحه من أجل القضية الفلسطينية.

لا أزعم أنني كنت على اتفاق فكري دائم مع محجوب. لقد تباينت رؤانا في كثير من المواقف السياسية، وطالما تجادلنا واشتد الجدل، بل ولم نصل في بعض الأحيان إلى اتفاق. ولكن لم يكن لجدالنا مهما بلغ عمقه واشتدت حساسية القضايا التي يتناولها، أن يطمس تلك العلاقة التي بدأت في لحظة شفافية تحت سياط الجلادين، ولا أن يحولها إلى مجرد مجاملات شكلية باردة حفاظا على الشكل والتاريخ المشترك. ومن ناحية أخرى فلم يكن حرص كلانا على تلك العلاقة الشخصية الفريدة مبررا بحال للخوف من فتح أوسع

نوافذ الحوار بيننا. كان كلانا دائما على ثقة من وطنية الآخر وصدق مشاعره. ألم يَرَ كلانا الآخر في لحظة صدق شفافة صهرنا فيها الألم؟

قدري حفني

القاهرة، ٨ أكتوبر ٢٠٠٤

الأشرفيّة

قصّة مستشفى الأشرفيّة خلال أحداث أيلول في عمّان*

[إنهـا لحظـة مـن لحظات البشر المركّبة. تتشابك خيوطها في الفناء الذي يتخلّل المصـطلحات الراصـدة للوقائع التاريخية لتضفي على التاريخ كثافة الطيف اللامتناهي لحقيقة الإنسان.

كان ذلك في عمّان، سنة ١٩٧٠ في ما عهد تسميته بـ"أيلول الأسود"، شهر سبتمبر الدامـي حيث كانت الصدامات المتكرّرة بين العرش الأردني والثورة الفلسطينية قد بلغت أوجهـا. والزمان الفعلي هو الزمن الممتدّ للتجزئة العربية التي تقف سدّاً منيعاً أمام إزالة صفة اللاجئ عن الإنسان الفلسطيني وأمام استرجاعه لأبسط الحقوق.]

---

* الكاتب : الدكتور رؤوف نظمي (محجوب)
الطبعة الأولى أيار (مايو) ١٩٧١
دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت

إهداء ..

إلى الطفلة غادة

ضحيّة البربريّة ..

مقدّمة

ليس في هذا الكتيب كلمة واحدة من الخيال. ولا هو تسجيل لما حدث في مستشفى الأشرفية في الأيام العشرة الأسطورية التعسة التي مرت بها عمان خلال المذبحة، إنما هو محاولة سريعة لإعطاء القارئ العربي لمحة عن ما كان يجري... مجرد لمحة... إذ لا يستطيع أحد أن يصف كيف يمكن أن تهبط البلدان بلحظة واحدة تحت القصف المركز ومستشفى الأطفال يحترق أمام العيون مثلا.

الإنسان نفسه تغير في تلك الأيام... سقطت الأقنعة الاجتماعية... وبرزت بطولات بسيطة ومجهولة. وتجسدت الكلمات التي تحدثت عن طاقات الجماهير الخلاقة التي لا تفنى وقدرة الإنسان على التحمل التي لا حدود لها.

في الأشرفية كان الإنسان بكل ما فيه وما في تاريخه الطويل. كانت الحياة والموت. الحب والكراهية. الأنانية والتفاني... الإخلاص والانتهازية... البساطة والتعقيد... كل شيء، كل متناقضات الإنسان ونزواته ومخططاته.

لا شيء يمكن أن يحيط بما حدث إلا ابتسامات الأطفال وبكاء الأمهات.

والكتاب لا يحوي أسماء إلا من استشهدوا. والقليل ممن اقتضت الضرورة ذكر أسمائهم. ذلك أن الأسماء تحدد الأفراد. ولم يكن هناك أفراد. جماعة ومأساة جماعية...

الكثـــيرون برزوا بتضحياتهم وجدهم وجهدهم... بعثة الأطباء العربية التي أوفدها منذ سنتين اتحاد الأطباء العرب.. مجموعة الأخوات المتطوعات اللاتـــي شـــاهدن لأول مـــرة جموحا ثائرا وحملن بعد ساعات جثثا عفنة... وتحملـــن في صبر الصغائر والكبائر... مجموعة من الأخوات الممرضات ســـاهمن فـــي جلد مخففات الآلام عن الجميع... حتى المصابين الذين لمعت عيونهم بالمرارة والعزم لحظة احتلال المستشفى ولم يشِ واحد منهم بآخر أو بالمتطوعيـــن العامليـــن... وصـــمتوا علـــى آلامهـــم حتى لا يشمت فيهم الشامتون...

ولكـــن الجمـــيع كـــانوا معـــا أسرة... تآلفت في ساعات وعاشت أياما كالدهور... كانت فيها وجها مضيئا للأمة العربية كلها... وفي وقت واحد... كنـــت ترى الطبيب المصري... والممرضة الأردنية والمتطوعة الفلسطينية يتعاونون جميعا على تخفيف آلام مصاب سوري...

لقد سقط مستشفى الأشرفية في اليوم التاسع ولكن منطقة الأشرفية لم تسقط أبدا... ومنذ الأيام الأولى كان موقف الثوار هو أن المستشفى لن يكون ميدان قتال... وحتى اليوم الأخير ظل هذا هو موقفهم وحدهم...

وبرغم أن الذين كانوا داخل مستشفى الأشرفية كانوا يواجهون خسائر المعركة إلا أنهم عاشوا الأيام كلها بقلوبهم وأرواحهم مع المقاتلين البواسل الذين صمدوا اثني عشر يوما في حاووز الأشرفية وما يحيط به من شوارع وأزقة... كانوا معهم برغم أنهم حرموا شرف المشاركة في نضالهم.

مرة أخرى... هذه مجرد لمحة... كلها صادقة وبالشهود الأحياء والأدلة... وعذرا لكل الذين لم تشِر إليهم هذه الكلمات والذين قصرت في وصف بطولاتهم أحرف باردة... لا يمكنها تجسيد التضحيات...

* *
*

اليوم الأول

الســـاعة الرابعة بعد الظهر الخميس ١٧-٩-١٩٧٠، اثنتا عشرة ساعة قصفا منذ أن بدأ قصف عمان بالمدفعية الثقيلة وبمدفعية الدبابات، وبدا مجمع المستشـــفيات فـــي الأشـــرفية كأنه قد نقل على وجه السرعة إلى مكان آخر بعيد... الصمت في كل الأجنحة إلا الجرحى... وقطع الزجاج المتناثرة حوله تشير إلى نصيبه من القذائف التي انهالت على منطقة الأشرفية بأسرها...

الغرفة الأولى على يمين المدخل التي كانت طوال الشهور الماضية تعج بضـــجيج الزائريـــن والوافديـــن للســـؤال... ســـقطت من على بابها لافتة الاســـتعلامات وأغلقـــت "ضـــلفتي" الباب دون أحكام... وبدأت قطع القطن والملابـــس الغارقة في الدماء تتجمع في الزاوية القريبة منها وبداخلها كانت الأرض قد امتلأت بجثث الشهداء مصفوفة بجوار بعضها. وقد اتخذت أشكالا وأوضـــاعا مخـــتلفة إذ دب فيها التخشب الورمي... الغرفة التالية لها غرفة التسجيل كانت بالصورة نفسها... امتلأت الأرض ولم يعُد هناك مكان لجثث جديـــدة والفرق بين الغرفتين أن جميع الجثث في الغرفة الأولى كانت تحمل كل منها شريطا لاصقا أبيض اللون، ألصق على الجبهة وكتب عليه الاسم... أما الغرفة الثانية فبعض الجثث فقط كتب عليها والبعض الآخر ترك بلا اسم ولم يعُد هناك وقت لكتابة الأسماء والغرف تمتلئ بسرعة.

- لماذا لم تنقل الجثث إلى غرفة الموتى...
- الغرفة في الطرف الجنوبي من المستشفى.
- وبعد ...
- بيننا وبينها حوالي ثلاثمئة متر...
- ليست بمسافة طويلة...
- القصـــف شـــديد والطلقـــات تملأ الساحة بيننا وبينها ولن يغامر أحد بالوصول إلى هناك.
- الغرف امتلأت...
- لنبدأ بالقاعة.

- الجثث ستبدأ في التعفن...
- يفرجها الله... ربما توقف القصف الليلة...
- وإن لم يتوقف...
- غير معقول لابد سيتوقف... هذا جنون... لابد أن العقل سينتصر ويتوقف القتال...
- وإن لم يتوقف...
- سنموت وستنتهي المشكلة...

خلف الحاجز الخشبي الذي يصل بين قسم التسجيل والاستعلامات وقاعة الانتظار وبين قاعة القسم الجراحي كان الممر الطويل قد بدأ يمتلئ بالجرحى والمصابين وبعض المدنيين الذين جاءوا مع المصابين ولم يتمكنوا من العودة... لم يعُد هناك... ذلك الرجل الجالس خلف الباب يمنع الدخول إلا لمن معه تصريح... ربما لم يحضر أصلا في هذا اليوم من منزله... ربما اختار له مكانا آمنا في الداخل، وعلى أية حال لم يعُد وجوده ضروريا كما لم يكن ضروريا في الماضي...

الحمام على اليمين بدأ يمتلئ بالقاذورات والقاعة رقم ٢ على اليسار ما تزال تضم بعض الجرحى الذين أصيبوا قبل بدء القتال في الصدامات السابقة...

الصالة أمام قسم العمليات مملوءة بالناس... البعض جالس والبعض يتحرك خطوات قليلة حول نفسه في حيرة... والأنين والصياح يتجمع في نداء على الطبيب والوجوه مرهقة والتساؤل يملأ العيون... على اليسار صفت الحالات التي تنتظر إجراء عمليات جراحية عاجلة... الجميع على الأرض... والإضاءة ضعيفة والدماء تنزف بغزارة على الفرشات والبطاطين...

- يا دكتور يا دكتور...
- حاضر... حاضر
- يا دكتور... أنا دمي نزف

- اعطـــي له ٥٠٠ س. س دم بسرعة يا أخت ورباط ضاغط (الجميع منحنٍ على الأرض والجميع يتصايح...)
- أين زجاجة الكحول...
- فرغت
- كيف أطهر مكان الإبرة
- غير مهم... استعملي الماء
- يا دكتور... يا دكتور
- نعم...
- استرني... عريانة والرجال حولي...
- حاضر ... حاضر... أعطوني ملاءة...
- انقلوها إلى قسم النساء...
- مطلوبة للعملية...
- أمامها ساعات قبل أن يأتي دورها...
- ساعات ... دمي نزف كله...
- لا تخافي يا أخت... لا تخافي...
- دعني بلا غطاء... حتى لا تنسوني...
- حاضر.. حاضر...

كان الوضع في قسم العمليات أفضل إلى حد ما...

القذائف حطمت زجاج القسم والجراحون لا يزالون قادرين على العمل الـــذي بـــدأ مـــنذ الفجـــر والممرضات يصغين للأطباء بأذن وللقصف بأذن أخـــرى... وبيـــن كـــل عملية جراحية وأخرى كان الجراحون والمخدرون ومســـاعدوهم يغـــيرون ملابســـهم بملابس أخرى معقمة... وحذرت رئيسة العملـــيات مـــن أن الملابس المعقمة لن تكفي العمل ليلة أخرى... لم يناقشها أحد... البعض يتوقع توقف القتال والبعض يتوقع مجيء الأطباء الآخرين من منازلهم وهم سيواجهون المشكلة...

كـــان بالمستشفى عصر اليوم ١٧-٩ أربعة جراحين وطبيب للأمراض الباطنية انضم إليهم من المستشفى ولم يكن هناك سوى طاولتي جراحة... أما

أقسام العمليات في مستشفى التوليد ومستشفى العيون القريبة... فقد أخرجتهم قذائف المدفعية من الحساب منذ الساعات الأولى من الصباح... وعندما تمكن طبيبان آخران من الوصول إلى المستشفى من خارجها كان الرأي قد استقر على الاختيار... لابد من حصر كل الحالات... ثم اختيار الحالات التي يمكن أن تعيش إذا ما أجريت لها جراحة عاجلة... كان معنى هذا القرار الحكم بالموت على البعض وإعطاء الفرصة للبعض الآخر... وهي فرصة مشكوك فيها... فالاختيار يتم بالتقدير الشخصي ودون الاستعانة حتى بقياس الضغط... لم يكن في الإمكان اتباع القواعد الطبية المعتادة... لا وقت هناك... والإصابات تتوالى بأعداد كبيرة... وبعد ساعات من بدء القتال كانت المشكلة هي إيجاد فراش على الأرض للمصاب القادم...

ظل قرار الاختيار هذا سرا بين الأطباء... لم يكن في الإمكان إذاعته... فكل مصاب أيا كانت إصابته يتوقع بل يتمسك بالحياة... وهكذا كان المصابون جميعا يصيحون وينادون عندما ينفتح باب قسم العمليات عن طبيب... يا دكتور... يا دكتور أنا هنا من الصباح يا دكتور أنا دمي نزف... يا دكتور داخل على الله وعليك... وتمتد الأيدي المرهقة المصابة تمسك بأردية الأطباء والممرضين والممرضات، وتشدها في يأس لكي تلفت الانتباه لها... وتتقدم الأخوات المتطوعات للتمريض في محاولة فاشلة للتهدئة وينتهي الأمر إلى البثدين...

والبثدين مخدر ومزيل للألم...

هدأ القصف قليلا بين الرابعة والرابعة والنصف وجاءت دفعات جديدة من المصابين... ومع كل دفعة يزداد الضجيج... الجميع يطلب إسعافا عاجلا لمصابه... والجميع يصيح والفرشات تضم أكثر من مصاب على فرشة واحدة... والقاعات امتلأت حتى أبوابها... والممر لم يعُد صالحا لمرور الحمالات...

كانوا يأتون بالمصابين على ظهورهم أو محمولين على حمالات بلا أيدي أو في سيارات في بعض الأحيان... إذا كانوا من الفدائيين فإنهم يضعون مصابهم في أقرب مكان للطبيب ثم ينسحبون بسرعة إلى مواقعهم... وإذا كانوا مدنيين فإنهم يبقون بجوار مصابهم... وفي أحيان كثيرة كانت

الأسـرة كلها تأتي مصابة الأب والأم والأطفال... ثم تعرف أنهم تركوا جثة أو اثنتين في الدار التي هدمتها قذائف المدفعية الثقيلة...

انـتهى الـتحفظ في القاعات... لم تعُد هناك أقسام نساء وأقسام رجال وأقسام أطفال الجميع معا... الجميع على الأرض...

الجميع نسوا ما يسمى بالحياء إذا ما كشفت عوراتهم أو عورات آخرين أمامهم... الجميع ينظر في جزع ويسمع في خوف وأسى ويبحث لنفسه عن مكـان بعيد عن النوافذ التي تتطاير منها شظايا الزجاج وطلقات الرشاشات الثقيلة...

وفـي الخامسـة بـدأت موجـة من القصف الشديد المركز "الهاوزر" والدبابـات والهاونـات والرشاشـات الثقيلة... وتوقف سيل المصابين عن الوصول وكف الجراحون... والممرضون عن العمل... والأرض والجدران تـرتج مـن حولهـم... وصمت البعض وتصايح البعض وانهارت أعصاب بعـض الممرضات فبدأن في البكاء.. وأخذ بعض الأطباء يتنقل بسرعة بين المرضـى ليطمئـنوهم... واستمر القصف حتى ما بعد الغروب بقليل... ثم صمت... عندئذ سمع صياح امرأة عجوز في الطابق العلوي وعندما وصلوا إلـيها وجدوها في غرفة وحدها تحاول فك جبائر ساقها المكسورة منذ زمن لتزحف على الأرض بعيدا عن حطام النوافذ وأزيز الرصاصات. نقلوها إلى الممـر فـوق سريرها وهي تولول وتصيح وتشير إلى الغرفة المجاورة... هـناك... كـان السـقف قد انفتحت فيه طاقة كبيرة وامتلأت الغرفة بالركام والغبار والتَوت قوائم السرير من أثر الانفجار... ولحسن الحظ لم يكن هناك أحد...

* * *

المسـاء والليل صديق الثوار... خلا الجو من أصوات القصف ولم تبقَ إلا أصوات الرشاشات المتوسطة والثقيلة... لا خطر منها فأنت ترى الطلقة وهي آتية وإذا أجدت التمويه فلن يقتنصك أحد.

جاء المقاتلون للبحث عن رفاقهم المصابين فنسى الجميع آلامهم وتحلقوا حولهم يسألون...

- كيف الحال؟
- الوضع جيد جدا...
- والوحدات؟
- صامدة. أبيدت كل الدبابات...
- والحسين؟
- تمام...
- والمعنويات؟
- في السماء...
- الله يعطيكم العافية...
- بدكم شيء؟
- تموين وما في ضرورة للمسلحين بهذه الكثرة...
- كلهم ماشيين جاءوا يطمنوا على إخوانهم ويرحلوا.
- ديروا بالكم على حالكم.

وفي القاعات تعطل مرور أستاذ الجراحة الذي كان يحاول حصر المحتاجين إلى جراحات سريعة وتنوقلت الأخبار... سبع دبابات في الوحدات، ست في الحسين... يا سلام على حميد جرى وراء الدبابة... أسد عمل نفس الشيء في الحسين... وتناسى الجرحى آلامهم وانتعشت الحالة الصحية إلى حد ما ودب النشاط في العدد القليل من الأطباء والممرضات العاملات. وتراجعت إلى الوراء قليلا مشكلة إيجاد حل للفضلات التي لابد من أن يخرجها المصابون من أمعائهم وهم قعود لا يتحركون وعادت البسمات إلى الوجوه بعد يوم مرهق من التوتر من أن ينال الثورة شيء... وانكب الجميع على أجهزة الراديو يسمعون وعندما يعثر أحدهم على صوت العاصفة يرفع الصوت إلى أقصاه ليسمع الجميع.

استأنف الجراح الكبير دوره وحدد ترتيب الحالات التي ستجري لها عمليات جراحية وعاد إلى الصالة الملحقة بغرفة العمليات. بحث عن مكان للجلوس فأفسحت له إحدى الأخوات الممرضات مكانا بجوارها على الأرض وفرشت له بطانية فجلس مسندا ظهره إلى الحائط شاخصا إلى بعيد...

كان الحديث في هذه الصالة همسا في البداية ثم علت الأصوات واختلطت. هنا يجتمع خليط من الناس جراحون وممرضون وممرضات رسميون ومتطوعون، أردنيون وفلسطينيون ومصريون. واتجهت أطراف الحديث كلها في النهاية إلى مسألة قصف المستشفى وحاول القليلون أن يبرروا الجريمة بأن هناك فدائيين يتمركزون في المناطق المحيطة. استنكر أغلب الحاضرين هذا الكلام وأخذوا يجادلون ويبرهنون على أن القصف يشمل عمان كلها وأن الفدائيين موجودون في عمان كلها أيضا... وأخيرا اقترح البعض الاتصال بقيادة الجيش وبقيادة الفدائيين لمناقشة الموضوع وطلب تأمين المنطقة كلها... ودب الحماس في البعض وهم يؤكدون أنها الوسيلة الوحيدة الممكنة... عندئذ تكلم الطبيب... اتصلنا في الصباح عندما كانت خطوط التلفون ما تزال تعمل... اتصلنا بالوزير العسكري الجديد وكانت الإجابة "وما له انتوا بتعالجوا مين؟"... اتصلنا بقيادة الجيش وكان لها الموقف نفسه. صمت الجميع... فهذا الطبيب ثقة وابن ثقة والشهادة تتلى على رءوس الحاضرين دون همس أو تردد.. والأطباء الآخرون منهم من سمع الحديث بنفسه ويؤكده.. وتطلعت إحدى الممرضات المتحمسات للجيش في وجه الدكتور تحاول أن تكذب شهادة الطبيب فإذا إيماءته فيها ما يؤكد صحتها... تدخل الجراح الكبير فغير مجرى النقاش وأكد أنها الحرب وأننا لابد أن نعمل تحت هذه الظروف وعسى أن يهدي الله الجميع فيتصافحوا.. وزع العشاء البسيط القليل ولكن الكثيرين لم يقربوه. في الخارج من قسم العمليات كانت الحالات تصل بازدياد من أنحاء مختلفة من الأحياء المجاورة. كلها جروح منذ الصباح أسعفت بطرق بدائية وظلت لا تستطيع الانتقال إلا عندما حلّ المساء.

بدأت سيارة الفدائيين تنقل المصابين من مراكز الإسعاف المتقدمة في الوحدات والجوفة وحي النظيف وحي نزال... الحالات سبق أن أسعفت على أيدي الأطباء والممرضين وأرسلت لحاجتها إلى التدخل الجراحي وكان لابد من اتباع الترتيب السابق، حكم على البعض بالموت بعد أن كانت أمامهم فرصة إجراء الجراحة.

بــدأ الجراحون في العمل ثانية. فريق العمليات مرهق ولكنه نال قسطا من الراحة البدنية والنفسية ويمكنه أن يستأنف. المرضى بدءوا يصيحون من جديــد طلــبا للــنجدة والمســاعدة والأطباء يحاولون تهدئتهم بالبثدين أحيانا وبالكلام أحيانا أخرى.

وأخــيرا عثر كل واحد على مكان لرأسه يركنها لينام ولم يبقَ إلا فريق العمليات والأخوات المتطوعات وأربعة من الأخوات الممرضات، وكان على هــؤلاء أن يلبوا نداء المرضى المتألمين والعطشى وأن يتحايلوا على توفير الغطاء للجميع.

فــي الحادية عشرة مساء وعندما كانت عمان تضيؤها حرائق الدبابات والمنازل توقف مولد الكهرباء الخاص بالمستشفى عن العمل وعن الكلام... وفــي صالة العمليات ظل الجراح ممسكا بالشريان داخل بطن المصاب حتى لا يــنزف وعلــى الطاولة الثانية حل المصاب المشكلة بأن توقف قلبه عن الخفقان كأنه كان ينتظر لحظة حلول الظلام.

عــلا صــوت رئيســة المستشفى تبحث عن كبريت ثم عن المصابيح الغازيــة المخــزونة مــنذ زمن. انتابتها حالة عصبية من الصياح والشكوى وأســرع "الجمــل" ممــرض غــرفة العمليات الهادئ إلى إشعال المصابيح وإدخالها بسرعة إلى الصالة وهدأت الست الرئيسة وتناولت أقراص الفاليوم التي وزعها أحد الأطباء ثم جلست لتنام.

عندئذ بدأ صياح الأطفال والمصابين وتذكروا آلامهم في ظلام القاعات الذي يلفه الأنين وانطلقت الأخوات والأطباء لهم مهدئين.

- مالك يا حلوة؟
- بدي أسلب (أشرب)...
- حاضر... حاضر...
- وأتى لها بزجاجة فيها ماء ولكنها استمرت في البكاء.
- بدي أشرب...
- اشربي...
- لا... بدي أشرب بالتيلة (الكيلة)...

حاول الطبيب طويلا لكي ترضى فريال وتكف عن البكاء. لقد أتوا بها في الصباح مصابة بطلق ناري في كتفها اليمنى. أجريت لها الإسعافات الأولية والجبائر.

فقدت أباها وأمها... ولم تعطَ لها الفرصة في الاختيار سيشل ذراعها ولكنها لن تموت...

اليوم الثاني

الجمعة ١٨-٩ حانت ساعة أذان الفجر ولكن الشيخ الذي اعتاد أن يصعد إلى مئذنة جامع أبو درويش لم يصل... ولن يصل... فالقذائف في الطريق والقصف حل محل الدعوة إلى الصلاة... والمئذنة الطويلة التي تطل من فوق جبل الأشرفية على مدينة عمان كلها... هذه المئذنة زادت نوافذها بعد أن أصابتها مدفعية الدبابات... وللأسف هذه النوافذ مستديرة بينما الأصلية مستطيلة... تشوهت ووقفت تشهد على الجريمة النكراء...

لم يكن المصابون نياما عندما بدأ القصف... ولا الجراحون والأطباء والأخوات... كان الجميع في سرعة يتحركون ليعدوا مكانا فارغا في الممر الطويل لطابور المصابين المتوقع... والبعض كان يرفع جثث الذين غادرونا في ساعات الليل إلى القاعة الكبيرة على يسار الداخل إلى القسم الجراحي...

اقترب القصف من منطقة المستشفى ثم صار فوقها ثم غطاها.. إلى ما وراءها... تمشيط بالمدفعية الثقيلة... بدأت الأذن تعتاد على صوت القصف وتكسر الزجاج وصياح الأطفال والنساء... خليط مخيف يغطي على أصوات المنادين من المصابين...

عندما ابتعد القصف عن المنطقة بدأت الإصابات تتوافد وصل "عدنان" الطالب بكلية الطب الذي كان يستعد للسفر... كسر بعظمة الفخذ اليسرى... مصل مضاد للتتانوس بثدين ومحلول جلوكوز بسرعة وجيزة.. لا وقت لأكثر من ذلك.. إن معه أمه فلتعتنِ به... لا تخرجوا الأمهات أو الأخوات

دعوهـــن يعتنيـــن بالجـــرحى... وصلت أم ميخائيل... أرمنية في الخامسة والأربعيـــن... إصـــابة في الثدي الأيسر ونزيف... غرز فورا مع المصل والبثديـــن كالمعـــتاد... ابنـــي ... أين يا حكيم... أين، حاضر، اطمني، فين هـــو... مـــش عارفـــة.. مـــات.. وتصيح وتولول... وصل ميخائيل نفسه محمـــولا... معه أبوه، شاب في الخامسة والعشرين طويل عريض.. ممتلئ قـــوة، صاحت الأم أين ابني... ما في شيء يامَّه ما في شي... لم يكن ابنها هـــو المـــتكلم... كان الطبيب... أبعدوها بعيدا... إصابات ميخائيل خطيرة، طلق ناري نافذ في الصدر، وآخر في الجمجمة، ونزيف داخل المخ، ما يزال حـــيا... وصـــل محلـــول جلوكوز كالمعتاد.. أعطيه دم يا حكيم... صمت الطبيـــب... حكيم نعطيه دم... لا... الإجابة صدمت الأخوات الممرضات، لكن... انتحى الدكتور بهن جانبا... لا فائدة... خسارة الدم، نوفره لآخر...

الحالات تتوالى... فشل النظام الذي كان قد طبق لمدة ساعة... أن يأتي المصـــاب فيسجل اسمه ويخلع ملابسه كلها ويفحص ويسعف بشكل أولي ثم يصـــنف... حتى يمكن معرفة دوره في طابور العمليات الجراحية... انهار هـــذا الـــنظام... لم يعُد ممكنا إلا أن يكتب الاسم على مشمع لصاق ويلصق فوق الجبهة... وحتى ذلك لم يعُد ممكنا بعد قليل...

عاد الطبيب ليطل على ميخائيل... لم يمُت بعد ولكنه سيموت... أمسك بـــرداء الطبيـــب صـــارخا... افعل له شيئا... إنه يموت... وتحمل الطبيب نظـــرات الاتهام ومضى... كانت الأم تمشي في الممر بجوار مصابة أخرى تهذي عن الذي حدث... القذيفة حطمت الجدار... عليهم جميعا... ابنها ليس فدائـــيا... ولا أحد في الأسرة كلها... كانوا يظنون أن المسألة بين الفدائيين والجـــيش... أو بيـــن الأردنييـــن والفلسطينيين شارعهم كله أرمن... ولكنه قصـــف... حـــتى الكنيســـة قصفت... سألت عن ابنها مرة... ثم كفت عن السؤال... مات ميخائيل بعد دقائق ونقل إلى القاعة الكبيرة... ولم تبكِ أمه... وبحث أبوه عن طعام للإفطار..

منذ الخامسة والأخوات المتطوعات يحاولن توزيع إفطار بسيط... شاي وخبز وجبنة صفراء... كانوا يقدرون عدد الحاضرين بثلاثمئة فإذا بهم أكثر مـــن خمسمئة... التوزيع نفسه مشكلة... المشي بين المصابين يتطلب القفز

وطلبات المصابين لابد من تلبيتها... وأكثر من نصفهم يريد من يطعمه... وعمّت فوضى... الذين لا يسمح لهم بالطعام يأكلون والذين يحتاجون إليه لا يستطيعون... كان على الأخت التي توزع الطعام أن تعود لتسأل في كل مرة عندما تشعر بأن المصاب يكذب عليها ويدعي أنه صرح له بالأكل والشرب... ولم يكن ذلك سهلا... فالأذرع الممدودة تشد الأردية طلبا للعون والمساعدة... شربة ماء... وعاء للإخراج... مسند للركبة المكسورة... تعديل للساق المجبورة... نداء على الطبيب... وهكذا استمرت عملية توزيع الإفطار حتى الحادية عشرة... في أثناء القصف أصلح الفدائيون مولد الكهرباء... ودب النشاط مرة أخرى... وحدة تصوير الأشعة وثلاجة الدم وغرفة العمليات... وبدأ الصياح من جديد كل مصاب يحاول أن يذكر بموعد وصوله وبأنه وصل قبل زميله... ولكن الاختيار هو القاعدة والمصابون لا يعلمون...

حل موعد صلاة الظهر... الجمعة بلا صلاة... ربما لأول مرة في تاريخ عمان... لم يؤذن أحد ولم يجتمع أحد ولم يصلِ أحد ... إلا بالقلوب...

وفي وقت الأذان فتح البعض أجهزة الراديو لعلهم يسمعون أذانا من بعيد... وبدلا منه سمعوا إنذار المشير حابس المجالي الحاكم العسكري العام والقائد العام للقوات المسلحة الأردنية ينذر بأن كل من لا يسلم نفسه حتى الساعة الرابعة عصرا سيحاكم بتهمة العصيان وتهم أخرى كثيرة... البعض وجم "يتكلم من مركز القوة" والبعض ضحك وقال... سأقول لهم خرجت ولم أجد الجيش في عمان...

تم توزيع الغذاء بصعاب وجبة الإفطار... بقايا لحم في مطبخ المستشفى وأرز...

بدأ الأطباء في أقسام المستشفى الأخرى يتجمعون في الجراحي... معظمهم بلا عمل لعدم التخصص... بعض الموظفين أتى بأسرته كلها... العدد يتضاعف وتتفاقم معه مشكلة التموين والنوم...

هدأ القصف في الثانية وبدأ البحث عن حلول للمشاكل المتراكمة... الماء والطعام والشهداء والدم والبلازما والنوم والنظافة... وفوق كل ذلك

توتر الأعصاب الذي بلغ مداه... الوحدات يتصاعد منها الدخان منذ الصباح والدبابات وصلت إلى النظيف أمامنا... وأخذت تقصف منطقة المستشفى من الغرب... القصف الآن من الجنوب والغرب... وهذا معناه استحالة الوصول إلى مبنى المولدات الكهربائية والمستودع... لابد من حلول...

في الرابعة انتهت مدة الإنذار... وسخر صوت العاصفة من المشير وتحداه أن يعلن عن عدد المستسلمين... وتناقل المصابون النكتة التي أذاعتها العاصفة عن تجار القماش الأبيض الراغبين في فتح متاجرهم لمواجهة طلب المستسلمين المتزايد...

بدأ قصف متبادل على تجمع آليات في القويسمة... ومعه بدأ المصابون يتحاورون حتى تحت القصف... منا... لا مش منا... لا منا... لا مش منا، دوشكا، ٥٠٠ ... دبابات لا صواريخ، هاون، بعيد عنا، منا، لا مش منا... ثم يتحول النقاش إلى مزحة... مش منا أبدا... مش منا اللي يساوم على ثورتنا...

هدأ القصف قليلا في الخامسة وفجأة تجمد جميع من في المستشفى... مرت آليتان للجيش بسرعة من أمام المستشفى... وصلوا... أمسك الكل أنفاسه ثم انفجرت موجة من القذائف والطلقات لا يمكن تمييزها... حل السكوت المقبض بعد ربع ساعة... مضت دقائق ينتظر فيها الجميع دخول الجنود... تقدموا نحو الأبواب قليلا ولكن بحذر... لا يثقون حتى بجنودهم... بعد لحظات علا صوت من آخر الممر في فرح أسرناها... أسرناها... ومع تفاصيل ما حدث احتضن الجميع بعضهم البعض عندما عرفوا أن كمينا للثوار قضى على المسلحة الأولى وأسر الثانية وعاد بها إلى الوحدات...

هنأ الجميع أنفسهم وبالسرعة نفسها طرح الثوار في ما بينهم الموقف إذا ما وصلت قوة من الجيش إلى المستشفى نفسها... وفي الممر جاءت الأخت المتطوعة تهمس في أذن الطبيب: المقاتل ده استشهد... ذهب إليه الطبيب... ما كان يجب أن يموت... الآن لدينا كمية من الدم... مجرد كسر في عظمتي الساق... ونزيف... ذهب عبد الله حسنين وترك وراءه أختا أرملة وثلاثة أبناء... وأما عجوزا.

مـــع الغروب بدأ الكثيرون في الخروج... وتوقف أي عمل... البعض خـــرج ومنهم الممرضات إلى دارهم القريبة للاطمئنان... والبعض خرج في محاولـــة للوصول إلى الجبال الأخرى لمعرفة الأخبار... والبعض خرج بلا هدف إلا أن يشعر بأنه ما يزال حيا وقادرا على أن يتحرك من السجن الذي يطلق عليه اسم المستشفى الجراحي...

في الداخل علا صوت الست ماري الذي انبح من كثرة الصياح... علا في هستيرية وهي تحاور أحد الموظفين جاء يشكو من قلة الطعام ومن أنه لم يتــناول أي شـــيء طـــوال الـــنهار. ألقـــت المفاتيح الكثيرة التي لم يعُد لها ضرورة... وأعلنت أنها خلاص لم تعُد قادرة... وأنها لا تدري ماذا تفعل... وأنهـــا تعســـة الحـــظ فلم يبقَ لها من مدة الخدمة الرسمية في المستشفى إلا أيـــام... و... و... وتصـــيح في صوت مبحوح... في تلك اللحظة انهارت أعصاب الأخت سعدية وهي الممرضة المصرية... مات شاب بين يديها وهو يتشبث بها كأنها الحياة التي فارقته. أخذت سعدية تبكي بحرارة وأسرعت لها الست ماري وأخذتها بين ذراعيها وأخذت سعدية تصيح... أنا مش خايفة... أنا مش خايفة... كأنها تخشى أن يقول الآخرون إنها تبكي خوفا...

ويوزع طبيب الأمراض الباطنية أقراص الليبريوم والفاليوم... وتوزع الأخوات المتطوعات وجبة العشاء على المصابين والعاملين... وجاءت أخت منهن إلى الطبيب... الطابق الأعلى به مصابون من قبل القتال الأخير... ولا أحد يمر عليهم... صعدا معا وقبل أن يصلا تناهى إليهما صوت جهاد الذي أصـــيب بحـــروق متعددة في وجهه وذراعيه وساقية منذ عشرة أيام... كان يصـــيح فـــي بكـــاء مـــناديا على أي إنسان... عندما اقترب الطبيب أدرك السبب... حروقة متقيحة والرائحة العفنة تملأ الممر... والفراش امتلأ بالبول بعد أن مضى يومان لا يجيب عليه أحد ليساعده.

لـــم تكن هناك أي وسيلة للمساعدة... الطابق مظلم تماما... والكهرباء تضـــيء فقـــط الطابق الأرضي... المرضى جميعا في الممر بعد أن تساقط زجـــاج كل الغرف وقصفت غرفتان قصفا مباشرا... وكان لابد من اللجوء

إلـــى البثديـــن والكـــلام والوعد بأن الصباح له عيون... وأن الغيارات غدا والصبر جميل...

ونهايـــة الممر في الطابق الأعلى كانت النوافذ الكبيرة المهشمة تكشف عن بانوراما نادرة... لعمان من ناحية... وللوحدات من الناحية الأخرى...

في الليل عندما تنطلق الرشاشات الثقيلة فإن طلقاتها تصنع خطا متقطعا أحمـــر اللـــون، وفي الليل كانت عمان تبدو من بعيد كأنها مدينة في كرنفال صامت لا تطلق فيه إلا الصواريخ النارية والألعاب الضوئية...

فوق منطقة المستشفى كانت قوات الجيش تطلق طلقاتها الكاشفة كل ربع ساعة فتحيل الليل إلى نهار إلا أنها لا تكشف إلا أسطح المنازل والبيوت التي تهدمت...

أمـــا فـــوق الوحـــدات فـــإن الحرائق المتناثرة وظلالها أحالت الأكواخ وظلالهـــا إلى عمائر كبيرة كأنها ترفع الهامات فخرا لما استطاعت أن تفعله طوال النهار...

ومـــن بعـــيد، مـــن الطابق الأعلى للجراحي بالأشرفية كان لابد مـــن الحـــدس والتخمين، ترى أي حريق هذا... دبابة أم منزل أم محطة بنزين... الفروق واضحة... الدبابة حريق ومن قلبه انفجارات الذخيرة التي تحملها... والمـــنزل حريق يخبو وتحوم حوله أشباح الرجال... أما محطة البنزين فإن حريقها يغطي المنطقة المحيطة بشماغ أسود يزيد الليل وحشة وسوادا...

ويهـــبط الناظرون من الطابق الأعلى باستنتاجاتهم ليسألوا وليتأكدوا من الأخبار التي شاهدوها على شاشة نافذة الطابق الأعلى...

عاد الذين خرجوا للفرجة بالأخبار ولكن الممرضة سلوى عادت بهدايا تذكاريـــة: بقايـــا قذائف هاون ٨١ أخذت توزعها على الأطباء وهي تضحك كعادتها... المقاتلون تبادلوا هذه البقايا وناقشوا وهم جرحى عيارها والمسافة التـــي أطلقـــت مـــنها... والمدنيون تسابقوا عليها لكي يضعوها في منازلهم للذكرى بعد أن ينتهي القتال...

أمـــا أحد الأطباء فقد عاد وهو يحمل غلاف قذيفة كبيرة الحجم... ربما كانــت مـــن عيار ١٠٦ وقال إنه سيضعها في منزله، كمزهرية للزهور... أنعشــت الأخبار الروح المعنوية وأدى وصول كمية من الماء إلى موجة من النشـــاط تم فيها لأول مرة غسل أرضية قسم العمليات التي كانت قد امتلأت بالدماء... وانتعشت فرق العمليات وقامت للعمل...

فـــي هـــذه اللـــيلة أشعلت مصابيح النار مقدما خوفا من انقطاع التيار فجـــأة... وألف العاملون مشاكل إيجاد مكان للمصابين... كما اعتادت آذانهم نداء المصابين وأصبحوا لا يجيبون إلا بعد إلحاح... وفي هذه الحالة يهتمون بالمصابين الذين لا ينادون... فقد يكونون غير قادرين على النداء...

انقضى الليل في لقاءات واجتماعات مع الزائرين من الخارج... تريث وصول التموين والماء والكهرباء... مناقشة مشكلة دفن الشهداء بسرعة قبل أن يـــتحول المستشـــفى كلـــه إلى قبر... تنظيم وصول التموين إلى النساء والأطفـــال فـــي الجوامـــع القريبة... ورجاء بألا يرسل الأطباء في مراكز الإســـعاف من الوحدات إلى التاج أي مصابين إلا عند الضرورة القصوى... نظرا لظروف المستشفى...

تقرر توزيع سجائر على الجميع ابتداء من الغد، سبع سجائر للمصابين وعشر للعاملين...

وفـــي الواحدة صباحا دعت الأخوات الممرضات الأطباء الساهرين إلى كـــوب مـــن الشاي في آخر الممر المظلم... من أين لهن بذلك... آه ... ما أحلى كوب الشاي في ليل مرهق.

اليوم الثالث

بزغ اليوم كالعادة مع القصف والتمشيط... ولكن الحياة داخل الأشرفية كانت قد استقرت على النظام إن كان للفوضى نظام...

الواجبات قلت بالنسبة للأطباء لعدم توافر إمكانيات العمل... المستودعات ضربت والصيدلية بعيدة... وبنك الدم توقف لعدم وجود متطوعين...

وفي اليوم الثالث بدأ الإنسان بالتحول إلى الظروف الجديدة... العادات القديمة تتغير... والأقنعة الاجتماعية تسقط، ويظهر الإنسان بصورة أخرى غير التي كان يعيش بها من قبل...

الآذان اعتادت أصوات القصف وأخذت تتسلى بتصنيفها وتحديد مصادرها...

والعيون ألفت نقط الدماء على الأرض والموتى المنتفخين والأشلاء المتناثرة... الأنوف وحدها هي التي لم تألف تراكم رائحة الموت في طرق المستشفى المزدحمة... الاقتراب من الباب أصبح مغامرة... ليس فقط بسبب الشظايا والرصاص المتناثر ولكن أيضا بسبب الروائح التي تنبعث من القاعات التي امتلأت بالشهداء...

في قسم العمليات كفوا عن تعقيم الملابس لعدم توافر أدوات التعقيم والغسيل... وبعدها كفوا عن غسيل الأيدي لعدم توافر الماء ولكنهم على أية حال يحاولون العمل في فترات ما بين القصف المباشر على المنطقة.

الأخوات المتطوعات وحدهن اللاتي يعملن ليل نهار ويتحملن كل شيء... حتى انفلات أعصاب المصابين واستفزازات بعض الأطباء والممرضين والممرضات الذين لم يعجبهم أن يفقدوا مظاهر تحكمهم في حياة المستشفى.

كان وصول أي شيء من الخارج مغامرة... ولكنها ضرورية ليس فقط بسبب الحاجة إلى كل شيء ولكن لأن القادم من الخارج يرفع معنويات المقيمين في المستشفى.

كانت معنويات المصابين والعاملين تهبط مع اشتداد القصف ثم ترتفع ثانية مع إذاعة العاصفة... والأهم منها مع مواقف الناس الطيبين...

عندما جاءت عجوز طيبة في اليوم الثالث تسأل عن ما يريدون وتقول إنهـا جمعـت مـن الجـيران خمسة وتسعين قرشا... كما أنها أتت باثنتين وعشرين بيضة... كانت فرحة... طلبت منها أن تشتري بالنقود شاي وسكر وتصـنعه في منزلها وتأتي به عند الغروب... أما البيض فقد تقرر توزيعه على الأطفال...

وعـندما وصـلت سـيارة للهـلال الأحمر الفلسطيني حتى باب القسم الجراحـي اندفع عدد من العاملين إلى القادمين يحملون ما أتت به من أدوية وأدوات وأغطية... ويسألون عن الأخبار...

- من أين الأدوية؟
- من المركز الطبي...
- في الدوار الأول؟
- من الدّوار الأول (في جبل عمان)...
- جئتم من هناك؟
- طبعا...
- يعني لسه مسيطرين...

ويطـير الخـبر إلى قاعات المصابين ويتنهد البعض في راحة ويتقلب البعض باحثا عن شربة ماء...

فـي ذلك اليوم اشتد القصف فجأة في العاشرة صباحا... وسقطت قذيفة مباشـرة علـى سـيارة الهلال الأحمر الفلسطيني دمرت المحرك والزجاج والعجلات كلها إلا العجلة الخلفية.

أسـرع بعض المتطوعين إلى السيارة فأفرغوها من كل شيء وعندما وجدوا زجاجة عطر عادوا وهم يضحكون ويوزعونها على كل من يقابلهم. وقال أحدهم للقادمين بالسيارة... الحمد لله على سلامتكم... وقال آخر أوقفوا السيارة على الباب مباشرة ستمنع دخول الشظايا إلى حد ما...

تخطـى القصـف منطقة المستشفى إلى ما وراءها... أمكن النظر من النوافذ... قسم الأشعة ضرب... والأرض امتلأت بالحفر... ودخان يتصاعد

مـــن آخـــر منطقة بالمستشفى من بعيد ربما كان من معهد الشلل ومستشفى الأطفال.

ســـرعان مـــا جاء النبأ... قصف معهد مستشفى الشلل قصفا مباشرا... واختلطت التعليقات مع الاستنكار لهذه الوحشية إلى التساؤل عن عدد العجزة والمشلولين الموجودين هناك.

ذهبـــت مجموعـــة من الفدائيين وعادت تؤكد أن الجميع هناك سالمون وأنهـــم فـــي غرفة في الطابق الأرضي، وسيعملون على نقلهم عند الغروب وأنهم مزودون بما يحتاجون إليه من ماء وطعامٍ...

عـــندما عادت موجة القصف في الثانية كان عدد المصابين قد تضاعف وقاعات الموتى زادت حتى شملت مبنى الإسعاف... والمصابون في القاعة الثانـــية يصـــرخون جميعا ويطلبون نقلهم إلى الممر بعد أن حطمت الشظايا زجـــاج قاعتهم واصطدمت بالجدران فوق رءوسهم، تقدمت الأخوات وحولن المصـــابين واحدا بعد الآخر إلى قاعات أخرى إلا أن واحدا منهم أصر على الـــبقاء فـــي الممـــر يـــتأمل الشـــظايا من النوافذ... فألقوه على فراش على الأرض... كـــان مصابا بكسر في عظمة فخذه من قبل القتال الأخير... حالته طيبة ويمكن أن يعود إلى منزله. ولكن منزله تهدم في الوحدات واضطر إلى الـــبقاء... ولســـهولة اسمه فقد اشتهر بين العاملين والمتطوعين حتى أصبح علامة طريق في الممر المزدحم يحدد مكان المصابين الآخرين.

تطـــوع اثنان لعمل الغيار ونظافة المناضل جهاد في الطابق الأعلى... ولكن الغروب وحفلة القصف النهائية لم تمكنهما إلا من وجهه وذراعه اليمنى ونقله إلى سرير آخر نظيف وكانت المكافأة أن طلب جهاد كلا منهما ليقبله.

الليلة الثالثة كالنهار الثالث... بداية الحياة الجديدة المستقرة في الأشرفية ... كفّ الناس عن توقع وقف إطلاق النار في أي لحظة. وبدأ الناس يبحثون عن أبنائهم وأسرهم وأصبح القصف والدمار جزءا من حياتهم اليومية.

وجـــد الناس أن الغروب هو الأمان بالنسبة لهم... إلا القصف... وذلك هـــو كل ما يملكه الجيش الذي يقف خارج عمان... وعندما يتوقف القصف تهدأ المشكلة ويخرج الناس إلى الشوارع...

الجوع والخوف والعطش وفقدان الأحبة بالعشرات كل ذلك قضى على تردد القابعين في بيوتهم وتحت أنقاضهم.

إلـــى أيـــن؟ إلـــى الجراحي في الأشرفية... لماذا؟! ربما وجدت مصابا أعـــرفه... أو أسأل عن ابني... وامتلأ المستشفى بالناس وبين هؤلاء ظهرت تلك الوجوه المشئومة التي تتلصص بآذانها وعيونها... حتى على المصابين. ازدحمت القاعات بالزوار وانتعشت حالة الماء والطعام إلى حد ما...

وعندما جاءت العجوز بالشاي في أوعية كبيرة بدأت الأخوات من الفور فـــي توزيعهـــا بعـــد أن جمعـــن أكـــبر عدد ممكن من الأكواب... ارتفعت المعـــنويات مع مجيء الأهل والناس والشاي... وتجمع في الأركان والزوايا وحول كل مصاب جمع من النسوة والرجال يسألن ويحكين ويلعن.

وبيـــن كل هذه الوجوه كانت وجوه حائرة تسأل عن بقية أبنائها وتطلب في إلحاح أن ترى قاعات الشهداء.

وعـــندما فتحت أبواب القاعات لم يجرؤ أحد على الدخول وأخلي الممر أمامها من الناس فورا.

جـــاء الفدائـــيون بالأطفال العجزة والمشلولين من معهد الشلل... تركوا الأطفال في مستشفى الأطفال... وجاءوا ببعض الممرضات وخبيرة مصرية إلى القسم الجراحي... وبذلك زادت الأعباء...

أحضـــر الفدائيون خزانا كبيرا للمياه... أمكن التحكم في توزيعها حتى عرف الناس من أين يمكن أن يأخذوا الماء دون إذن... وفرغ الخزان قبل أن ينتصف الليل...

الجـــامع الكبـــير امـــتلأ بالنســـاء والأطفال... وكذلك مستشفى العيون وخرجـــت الرسائل على عجل تطلب مزيدا من التموين والماء والمتطوعين لنقل جثث الشهداء إلى خارج المستشفى بعد أن فشلت محاولة نقلهم في سيارة شحن. السيارة لا تأخذ إلا اثنتي عشرة جثة ثم لا تجد مكانا لدفنهم...

ما تزال بانوراما نوافذ الطابق الأعلى تجذب الأنظار وهي أيضا مكان هادئ للتأمل والتفكير...

وفـــي غمرة ظلام الطابق الأعلى تسللت أنغام كانت الآذان قد نسيتها، أحد المصابين يسمع أم كلثوم ولكنه لا يرفع صوت جهازه... حتى المصابون بدءوا يألفون الحياة الجديدة الكئيبة.

اليوم الرابع

عند الفجر حضر عدد من المقاتلين وثوار الميليشيا وأخذوا بالتعاون مع الأخوات يحملون جثث الشهداء من القاعات ويضعونها تحت الأشجار التي تفصل مستشفى الأشرفية والطريق العام...

كـــانوا يستوقفون القادمين إلى المستشفى لأي غرض ويطلبون من كل اثنيـــن أن يحملوا واحدا من الشهداء ويضعونه تحت الأشجار... البعض كان يعـــتذر والـــبعض كان يحاول فتهزمه رائحة العفن. ولكن الجميع كان يشعر بـــالخجل إزاء مـــا تنقله أختان من المتطوعات إذ كانتا تحملان الشهيد فوق الحمالة وتسيران مترنحتين تحت وطأة ثقل الجسد والدوار الذي تبعثه رائحة الموتى.

واســـتمرتا منذ أن بدأت عملية النقل هذه حتى انتهت، وكانتا قد سهرتا طوال الليل...

بـــدأ القصف كالمعتاد... بالوحدات ثم الزحف إلى الشمال الشرقي إلى الأشرفية... والقذائف تنهال صفا وراء الآخر في عملية تمشيط مجنونة...

انتهت عملية نقل الشهداء قبل أن يصل القصف إلى منطقة المستشفى... وغادر المقاتلون والميليشيا المكان ولم تكد تمضي دقائق على شروق الشمس حتى اختل النظام المعتاد للقصف وبدأت مدفعية الدبابات القصف بتركيز غير معهود على ساحة المستشفى ومنطقة الأشجار التي تبعد عن جدار المستشفى حوالـــي عشرة أمتار... سقطت القذائف تزرع المنطقة كلها... استعملوا كل أنواع الأسلحة الثقيلة حتى الهاوزر.

وتوقع الجميع أن تمر موجة القصف إلى ما وراء المستشفى ولكن ذلك لم يحدث... استمر القصف ساعتين... كف فيها كل من في المستشفى تقريبا عن الحركة، وتجمع الجميع في الممر وعلى السلم الواصل إلى الطابق الأعلى وامتلأت القاعات بالغبار والشظايا ولم يكن أحد يجرؤ على الوقوف بكامله في أي مكان...

أخيرا هدأ القصف وأمكن التحرك لتنظيم رقاد وجلوس المصابين الذين زحفوا من القاعات إلى الممر ولمحاولة توزيع إفطار سريع للمصابين والعاملين...

وجاءت إحدى الأخوات إلى طبيب باكية... قصفوا الشهداء ثانية... ومن نافذة في الطابق الأرضي اختفى الشهداء تحت ركام من التراب والحجارة وأغصان الشجر. وبعد أن كانوا مصفوفين بجوار بعضهم بعثرتهم القذائف بحيث دفعت باثنين منهم إلى وسط ساحة المستشفى وبثلاثة آخرين إلى الطريق العام... أما الباقون فلم يعُد في الإمكان حصرهم ولا لمّ أشلائهم.

لهم جثتان... فقد استشهدوا مرتين.

هبطت المعنويات، ما يزال للموت قدسية كبيرة في قلوب الذين واجهوا الموت مئات المرات... وعمّ صمت حزين بين المصابين والعاملين: القصف الشديد... وضحاياه من الشهداء... والرائحة التي لا تزال تملأ المكان. وظلام الممر وزحامه جعل الهزيمة تخيم على الجو الكئيب...

- وبعدين؟
- ما الجديد...
- لمتى؟
- ... حتى النصر...
- قصفوا الشهداء...
- كمين... عظيم... حتى الشهداء... شغلوهم ساعتين عن أهداف أخرى...

- وكيف شايفها...
- تمام... الناس تمام.
- الناس جاعت.
- متعودة...
- والعطش...
- لابد له حل...
- هل يمكن أن يوقف إطلاق النار...
- ضروري... لابد من فترة هدوء...
- سامع... بيانات السلطة...
- سامع... شيء منطقي إن أنصارها يرفعوا صوتهم.
- وبعدين؟
- افتحوا على صوت العاصفة وارفعوا الصوت لآخره.

ويبدأ المتطوعون موجة من التحرك والنشاط لابد من رفع معنوية الجرحى والعاملين ليست الأحوال بسيئة إلى الدرجة التي تعشيها المستشفى... المشكلة أن المستشفى لا تقاتل. ولذلك لا ترى من القتال إلا خسارة لا ترى من المعركة إلا الهزيمة... تلك كانت المشكلة... وعندما يشتد القصف وينقطع الاتصال بالخارج لا يبقى إلا جو الهزيمة... ولكن عندما تصل الأخبار والناس ترتفع المعنويات.

وصـــل الخـــبز ساخنا فوزع من الفور على المصابين والعاملين بهدف إشعارهم بمعنى وصوله:... ما يزال الثوار مسيطرين وقادرين على أن يقدموا الخبز ساخنا تحت القصف...

الأسر القادرة المحيطة بالمستشفى أرسلت فطارا مطبوخا ساخنا... وزع أيضا من الفور... بدأت المعنويات ترتفع ومعها أصوات المصابين وشكواهم وجدالهم وكاد اليوم يمر عاديا بموجات قصفه المعتاد لولا أن وصل شاب من الممرضـــين يلهـــث وهمـــس في أذن مدير المستشفى... مستشفى الأطفال

يحترق... في موجة القصف الساعة الرابعة أصابته قذائف حارقة واشتعلت النيران في مدخله الجنوبي... ولم تفلح محاولات إطفاء الحريق.

مـــا العمـــل؟ الأطفال هناك عجزة ومشلولون ومرضى ومعهم مرضى الأمراض الباطنية...

الدقائق تمضي وموجة القصف ما تزال في منطقة المستشفى...

– يا دكتور...

– نعم...

– مستشفى الأطفال يحترق..

– اخفض صوتك حتى لا تثير الفزع...

– جاء من هناك من يؤكد الخبر...

– كم عددهم؟

– حوالي خمسين...

– معهم كبار؟

– حوالي عشرين...

– سينقلونهم بعيدا عن النار والريح...

– وإن لم يفعلوا؟

– سأرسل من يستطلع المكان...

واندفع متطوع إلى مستشفى الأطفال عبر الساحة... التي تغطيها قذائف الدبابات من جبل النظيف وتتناثر فيها طلقات الرشاشات الثقيلة... اندفع وعاد مسرعا يؤكد انتشار الحريق... وهم الجميع... لابد من مغامرة. هيا يا رجال... لا مجيب... اندفع أربعة من الأطباء إلى الساحة وعندما وصلوا وجدوا الأطفال والمرضى متجمعين في نهاية المستشفى (مستشفى الأطفال) بالقرب من الباب بعيدا عن النار... والدخان يملأ المكان.

مـــا إن يصـــل أحد من الأطباء حتى يتعلق في رقبته ثلاثة أطفال وهم يصيحون ويبكون...

بدأ الأطفال يصلون إلى ممر المستشفى الجراحي... وبدأ الواقفون داخله يتشجعون...

بعــد دقــائق طــابور من المتطوعين يجري ذهابا وإيابا حاملا أطفالا ومرضى وفرشات وأدوية... وفي داخل مستشفى الأطفال كان البعض يجاهد مــن أجــل إبعــاد أســطوانات غاز الأكسجين وإلقائها بين الأشجار خارج المستشفى.

عــندما خيم الظلام كان قد تجمع في داخل ممر المستشفى الجراحي كل الأطفال والمشلولين والمرضى من معهد الشلل ومستشفى الأطفال ومستشفى الأمراض الباطنية ومعهم ممرضاتهم وأطباؤهم وحتى طباخوهم...

وفــي القاعــات الأخيرة أمكن صف الأطفال على فرشات صفت على عجل ومعهم شابتان مشلولتان هما غادة ونبيلة وعدد من العجائز المرضى. وأعدت الأخوات للجميع بسرعة وجبة الحليب المحلى والبسكوت... ساهمت في إشاعة الطمأنينة في نفوسهم... وسرعان ما بدأ الأطفال في نشيد الثورة... ثورة... حتى النصر.

*

* *

فــي المساء وصل إلى المستشفى اثنان من الإخوة المسئولين في الثورة تجمعــت حولهمــا حلقــة كبيرة من العاملين والمتطوعين وأهالي المصابين واللاجئين في المستشفى... أمكن في النهاية عقد اجتماع بينهما وبين الأطباء وطلب مدير المستشفى ورئيس البعثة الطبية العربية تأمين منطقة المستشفى كلهــا واعتــبارها منطقة حرام. وقد وعدا بذلك إذا ما وافق الجيش وأكدا أن أحــدا من الثوار لا يقبل أن يمس المستشفى وهو مملوء بالجرحى من رفاقه فــي الســلاح... وأن المشكلة أن الجيش يمشط المناطق كلها بالمدفعية دون تحديــد لهــدف معين له. عرف في ما بعد أن الجيش لم يجب على نداءات

صـــوت العاصـــفة الخاصة بمنطقة الأشرفية بل على العكس ازداد القصف وحشية... كما عرف أن الثوار نقلوا مواقع مدافعهم المتوسطة والثقيلة مسافة نصف كيلو بعيدا عن مواقعها الأولى...

اجتمع الإخوة في المستشفى في المساء وتم الاتفاق على موقف كل واحد إذا مـــا تم احتلال المستشفى وهو أمر محتمل. واعتبر المستشفى منطقة غير قتالية... وأخذت قطع السلاح القليلة حتى من غناصر الانضباط...

وفـــي تلـــك اللـــيلة زادت الوجـــوه المريبة والمشبوهة... وعرف من الإذاعات نبأ وصول بعثات الصليب الأحمر الدولي... ولكن المصابين ناموا وقـــد أراحتهم زيارة الإخوة المسئولين كما تسرب نبأ مرور الأخ أبو عمار علـــى مواقع المقاتلين والثوار في كل جبال عمان وزيارته للأسر التي ثكلت بالشهداء...

اليوم الخامس

اختلفـــت الأيام... ولم يعُد ممكنا تذكر التاريخ... واتصل الليل بالنهار وأخذ الناس يميزون الأيام بالحوادث والساعات بشدة القصف...

في الصباح أذاعت إذاعة عمان أن سيارات الصليب الأحمر ستصل إلى منطقة الأشرفية في الفترة من الحادية عشرة إلى الواحدة بعد الظهر...

انتعشت آمال البعض في إمكان أن يتوقف إطلاق النار.. ولكن المشاعر العامـــة كانـــت لا تتصور أن يتوقف القتال بعد الذي حدث... لا يوجد ماء أبـــدا... والمـــاء القليل ينقل إلى الأطفال في زجاجات عبر الشارع العام... الذي تقطعه الرشاشات باستمرار من ناحيتي جبل النظيف والمريخ...

تقـــرر أن تكون الأولوية في الأغذية والشراب للأطفال... ثم المصابين بالحـــروق والكسور ثم العاملين في قسم العمليات... وحسب هذا النظام ظل بعض الإخوة والأخوات المتطوعون بلا شراب أو طعام يوما وبعض يوم...

وفـــي الوقـــت نفســـه زادت متاعب المصابين وشكواهم وتحملت الأخوات المـــتطوعات الكثير وهن يحاولن تهدئة النفوس... وعندما اشتد العطش أخذ بعـــض المصابين يسب ويشتم بصوت عالٍ وهو غير مقتنع بأن الأخت التي تجيـــبه لم تأكل ولم تشرب... تلاقيكي حطة زلعة مية في بطنك يا دكاترة... يـــا دكاترة... يا دكاترة... يا ولاد الكلب يا للى بتاكلوا وتتخبوا ... وتحاول الأخـــت أن تهدئه... ويهدأ أخيرا من الإرهاق والتعب... وتعود الأخت إلى إحدى الغرف تبكي في مرارة...

وصـــلت ســـيارات الصـــليب الأحمر... أربع سيارات معها أربعة من الأجانـــب... مفزوعون خائفون... الكل يطلق النار في الطريق... أرجوكم أنزلوا الخبز من السيارات... هناك صناديق لحم محفوظ...

– معكم ماء...

– لا...

– معكم دماء...

– لا...

– معكم بلازما...

– لا...

– نحن في حاجة إلى كل ذلك...

– سنحاول في ما بعد...

– في ما بعد... المصابون يموتون...

– أعطونا بعضهم...

– إلى أين...

– إلى بيروت

وانتقل الخبر بسرعة إلى القاعات... وصاح كل المصابين القادرين على الصياح... والنبي خذوني... أنا أهلي في الشام... خذوا اسمي...

وفي الممر وقف طبيب يناقش أحد رجال الصليب الأحمر...

- إلى أين ستذهبون...
- إلى المستشفى العسكرى أولا... ثم إلا بيروت...
- وما الضمان للمصابين...
- أرجوكم لا تعطوني جنودا أو مسلحين مصابين... لا ضمان...

انتقل الخبر الثاني إلى القاعات وسكت المصابون... وتقرر نقل النساء والأطفال فقط. انتصف النهار... والعربات لا تزال بالباب... وفجأة اشتد القصف وتركز عليها ... انتابت مندوبي الصليب الأحمر نوبة من الفزع واندفعوا إلى داخل الممر...

خرج مدير المستشفى وطبيب آخر إلى سيارة الخبز وأخذا يقذفان بالأكياس... المسألة تستحق المغامرة... لم يعُد المصابون في حاجة إلى الأطباء... ولكنهم في حاجة ماسة إلى الخبز... تشكل طابور من الشباب الممرضين والأطباء ينقل صناديق العلب المحفوظة وأكياس الخبز إلى الداخل... القذائف تنهال على الساحة والنساء والأطفال يجلسون في سيارتين من سيارات الصليب الأحمر... بدأ الأطفال في البكاء والنساء في الصياح... لم يكن ممكنا أن ينزلوهم من السيارات ثانية تحت القصف...

اندفع أحد المتطوعين من الثوار وقاد سيارة منهما إلى الجانب البعيد عن القصف...

توقف القصف المدفعي وبدأ قصف الرشاشات الثقيلة وراءها تمشيط دقيق... الخطر هنا أكثر... القذائف تصيبك مباشرة أو لا خطر... أما الرشاشات فشيء آخر... الرصاصات تلاحقك وتملأ المكان...

اندفع الجميع إلى داخل الممر... وابتعدوا عن الباب وفجأة أمام القاعة رقم ٢ على بعد عشرة أمتار من الباب اخترقت الرصاصة صدر أحد سائقي الصليب الأحمر فصرخ... "تصويت" تصويت... حملوه فورا إلى قاعة الاستقبال وأرقدوه على الأرض... كان يرتدي الرداء الأبيض وعليه صليب

أحمـــر كبير فوق صدره وآخر فوق ظهره... وعندما نزف بدا كأنه يرتدي حزاما أحمر فوق الصليبين...

– هــذا جـنون... هذا جنون... شيء لا يصدق... كان وجه مندوب الصليب الأحمر قد استحال إلى رخام أبيض من الرعب والخوف...

– نستطيع أن نأتي لك بسائق...

– لا... لا... سأترك السيارة...

– والمصابين...

– يكفي الذين خرجوا

– إذن خذوا مصابكم معكم على الأقل...

– ألا يمكن أن تفعلوا له شيئا هنا...

– طــبعا لا... أنــت ترى... لا توجد كهرباء ولا ماء ولا دماء ننقلها له...

– حسنا سآخذه...

– هل ستعودون بالماء...

– طبعا... في أول فرصة...

ولكن الصليب الأحمر لم يعُد إلى مستشفى الأشرفية إلا بعد توقف القتال بثلاثة أيام... أي بعد هذه الحادثة بعشرة أيام...

فـــي الثانـــية ظهـــرا أذاع صـــوت العاصـــفة الخبر وذكر اسم السائق المصـــاب... وفـــي الـــرابعة أخذ واحد من المقاتلين عربة الصليب الأحمر وذهـــب إلـــى الدّوار الأول بجبل عمان وملأها بالأدوية والخبز من الهلال الأحمر الفلسطيني هناك... وعاد بها بعد الغروب...

أصـــبح من المعتاد بعد الغروب أن يأتي إلى المستشفى عدد من الإخوة المقاتليـــن يتزودون بالأربطة والقطن... لمراكز إسعاف عاجلة أقاموها تحت الأنقاض كل في منطقته... وقد يسأل واحد منهم عن كيفية التصرف مع أحد المصابين عنده. أو عن حالة مصابين أتى بهم من قبل... في بعض الأحياء

اجتذبـــت هذه المراكز الأطباء القريبين منها الذين بقوا في منازلهم عند بدء القـــتال... كانـــت الأســـر المحيطة بهذه المراكز تأخذ الجرحى بعد تضميد جـــراحهم عـــندها وترعاهم... وتقدم الماء والطعام وكل معونة ممكنة لهذه المراكز... وهكذا... قدمت المعركة شكلا جديدا من المستشفيات...

انقضـــى الـلـــيل بـــلا فرصـــة للنوم... لم يعُد في الإمكان صنع شيء للمصابين القادمين... حالاتهم لا تسمح بالجراحات نظرا للنزيف الشديد... ولا توجـــد دمـــاء ولا مـــتطوعون... كما أن زخات رصاص الرشاشات زادت كـــثافة... إذ يهـــاجم الثوار الدبابات التي تمركزت في بعض المناطق داخل عمان... لم يعُد يعمل من هيئة التمريض إلا أربع شابات وخمسة من طلاب كلـــية الـــتمريض أمـــا الباقون فقد هدهم التعب والتبلد... زاد عدد المدنيين اللاجئيـــن إلى المستشفى وحاول مدير المستشفى أن يقنع الأطباء المتطوعين بإجلائهم فرفضوا... ثم أثار نقاشا حادا حول الطعام الذي سرق في أثناء نقله من سيارات الصليب الأحمر...

– لازم نحقق...
– ما في ضرورة ولا وقت...
– هذه أنانية غريبة...
– شيء طبيعي الناس في محنة...
– لكن هذا طعام الجرحى
– الجرحى لن يأكلوا لحما محفوظا... والآخرون لابد لهم من طعام.
– نحن غير مسئولين عن المدنيين.
– الثورة مسئولة عن الجميع.

اليوم السادس

في الفجر خرجت إحدى الأخوات مع أحد الإخوة الأطباء إلى الجامع في محاولـــة لجلب متطوعين لنقل الدم... عندما وصلا كان الجامع الكبير ممتلئا

بالناس... لا مكان لقدم... والجميع جالسون... فلا مكان للرقاد اختلط الحابل بالـــنابل... الوجـــوه صــفراء كأنها نزفت طويلا... وأكثر الموجودين نساء وأطفال...

– خير يا حكيم.

– بدنا الناس تتطوع وتتبرع بالدم.

– (صمت)

– المقاتلين بيموتوا... لازم دم.

– خذونا.

– لأ... مقاتلين لا... يمكن تحتاجوا للدم بعد ساعة.

– والعمل؟

– الشابات...

ودخلت الأخت بين الناس وعادت ومعها شابتان، كانت تكلمهما برقة... هـــادول أخواتكـــم بيموتوا... وإحنا نأخذ نصف الكمية ونعطيكم خبز وعلب لحم... يا أختي أنا عارفة... ضروري نقدم الدم... لكن الناس ما بتقدر... لنا ستة أيام بلا طعام.

ظل الطبيب صامتا فقد القدرة على الكلام هؤلاء قد يصابون الآن... لن يعطي من دمائه؟ ولماذا؟ الكل مصاب والكل جائع.

عـــند بـــاب الجـــامع وصل القصف الشديد إلى المنطقة نفسها – هرع الواقفـــون إلى الداخل وبعد دقيقة لم يبقَ إلا مجموعتان من الشباب المسلحين والطبيب والأخت المتطوعة.

انتظر يا حكيم – انتظري يا أخت... الضرب على الشارع...

ولكـــنهما لم يجيبا... تقدما وحدهما إلى المستشفى ثانية، ولم يكن معهما أحـــد... عـــادت الشـــابتان إلى الداخل وتاهتا في الزحام. بعد ساعة وصلت واحدة منهما مصابة في صدرها... ولم يجدوا لها دماء...

اضطربت المشاعر وظهر القلق على الوجوه... لم يُعد في الإمكان مقاومة رغبة الناس في الإنصات إلى إذاعة عمان ربما كان هناك وقف لإطلاق النار... الناس يتتبعون أخبار مؤتمر القاهرة والإذاعة الوحيدة المسموعة هي إذاعة عمان وإذاعة عمان توزع اليأس والكذب وتصور الأمر كأن الثورة قد هزمت. قلت زيارات المقاتلين بعد أن زاد عبء القتال عليهم كما زادت نسبة المتوفين من المصابين بعد أن اقتصر علاج معظم الحالات على محاولة وقف النزيف فقط. الشهداء منتشرون حول مبنى المستشفى تحت الشجر في العراء. السيارات في الساحة لم يعُد منها ما يصلح. والذين حملوا عبء رفع المعنويات منذ أول يوم أخذوا يفكرون في لحظة الاحتلال القريبة...

كلما ازداد اقتراب قوات الجيش... ازداد عدد الوجوه المريبة... وزاد عدد الذين يحاولون لوم الطرفين معا...

في يوم واحد كئيب مات عدنان وشاب آخر في لحظة واحدة، عدنان هو طالب الطب الذي كان مصابا بكسر في عظمة الفخذ... مات بسبب مضاعفات في الرئة وهي شيء نادر الحدوث في الظروف العادية...

مضى عدنان في هدوء كما قضى أيامه في المستشفى في هدوء أيضا... لم يبكِ أحد فالموت حادث محايد... ولكن أمه أبكت الجميع وأضافت إلى مشاكل المستشفى مشكلة أخرى...

اليوم السابع

عندما لفظ أنفاسه فقدت أمه صوابها وانتابتها لوثة عقلية وأخذت تطلب من الحاضرين أن يلحقوا بابنها الذي قفز فوق سور المستشفى لينضم للفدائيين... أخذت تسير في ردهة المستشفى تتأمل الوجوه بحثا عنه... بينما

هــو راقــد أمامها فوق سريره ولا أحد تطاوعه نفسه على نقله إلى الخارج تحت الأشجار...

مضــت أمه تتطلع في وجوه المصابين وتسألهم عن عدنان... يجب أن تمنع من ذلك ولكن من الذي يملك القلب على أن يوقفها...

تقدم طبيب متطوع وأخذها بين ذراعيه في حنان... سألته عن عدنان... فســار بها مدعيا أنهما ذاهبان إليه... وأودعها في إحدى الغرف البعيدة مع أختين من المتطوعات بعد دقائق نودي عليه بعد أن انفجرتا في البكاء بجوار الأم الحزينة...

في الناحية الأخرى من الممر لفظ الشاب الذي تخرج من جامعة القاهرة هــذا الصــيف أنفاسه بين ذراعي أبيه... ركع الطبيب بجواره وأخذ يضغط على صدره لكي يستمر تنفسه، كان يدرك أن لا فائدة... ولكنه كان يريد أن يصنع شيئا من أجل الأب...

- اتركه يا حكيم... خلاص...
- لسه يا والدي...
- لا هو الأول ولا هو الأخير...
- الصبر يا والدي!
- من سنة تسعة وعشرين واحنا بندفع...
- تهون يابا...
- روح يا بني مع السلامة مع السلامة...

وأخذ الأب بهدوء يسبل جفون ابنه وهو يتمتم... روح يا ضحية حسين والمجالي... روح... عشر سنين وأنا منتظرك ما فرحت بيك... مع السلامة... وبجواره جلس الطبيب صامتا... قام الأب وساعد الطبيب على النهوض ولم يطلب إلا أن يعطى فرصة لدفن ابنه في مكان أمين... ولكن أين المكان الأمين... بعد أربع وعشرين ساعة... كان لابد من رفع جثته بعد

أن تكتم الطبيب وجودها في القاعة... وعندما رفعت سار خلفها الأب وأودعها تحت الأشجار في هدوء... وتحت القصف...

لــم تعُــد هــناك حــياة بمعــنى الحياة إلا في قاعة الأطفال المشلولين والمرضـــى... هـــناك كانـــت الأخـــوات لا يزلـــن يقدمـــن الحليب الساخن والبسكوت... ومن هناك كان صوت أناشيد العاصفة يعلو أحيانا على القصف البعيد...

وقلت الحركة في الممر إلا من حملة الموتى إلى الخارج... والأخوات المتطوعين يلبين نداءات المصابين والوجوه المريبة تتطلع وتتسمع...

في الممرات الجانبية وضعوا بضع حالات أصيبت بالغرغرينة الغازية وهي حالة معدية جدا... وفي كل قاعة ظهرت حالة إسهال شديد أو أكثر من حالة... ربما كانت كوليرا... ومع ذلك فما يزال تيار المصابين يتدفق...

جاء خمسة مقاتلين من الجبل الأخضر... معهم مصاب لم يستطع مركز الإسعاف الذي أقاموه هناك أن يسعفه... انهالت عليهم الأسئلة عن الأوضاع فـــي الجبل... الدبابات اخترقت الجبل في الساعات الأولى... ولكن المقاتلين موجـــودون... نحـــن نحـــارب حـــتى الآن... مَـــنْ... عماد... الله يرحمه استشـــهد... وشهق عدد من الواقفين... عماد استشهد يا خسارة... كان عماد مـــن أبطال معركة طوباس... ووقتها أذيع أنه استشهد فعلا... ولكن عاد... تصدى للموت مرات بعدها... وتلقى دورات تدريبية... وقبل معارك عمان... كـــان المقـــاتلون يتسابقون للعمل معه وتحت قيادته... وفي الجبل الأخضر ضـــرب أروع الأمـــثلة لمقاتلـــيه... اخترقـــت الدبابات الجبل ولم تعُد فائدة للأســـلحة الثقيلة... إلى الرشاشات والقنابل... إذن... وانطلق أمامهم وصمد معهم وتهاوت الدبابات...

في اليوم الخامس شاهد ثلاثة معهم آر بي جي ٧٠٠ وطلبه منهم...

– اعطوني الآر بي جيه لستم في حاجة له...

– لكنه السلاح الوحيد معنا

- ماذا ستفعلون به... نحن في حاجة إليه

- وكيف نمضي بلا سلاح...

- خذوا هذا الكلاشنكوف...

وأعطاهم رشاشه الذي لازمه شهورا... وأخذ الآر بي جيه وانطلق أمام رفاقه يدمر الدبابات... واستشهد على الجبل الأخضر...

اليوم الثامن

فـــي الـــيوم الثامـــن تركـــز القصف على الوحدات بشكل غير مسبوق والتقطت أجهزة اللاسلكي التي أخذت من آليات الجيش المحترقة... التقطت عـــدد القذائـــف التي انصبت على الوحدات في الفترة ما بين الثانية والرابعة عصـــرا... ثمانية آلاف وخمسمئة قذيفة... كما التقطت الأجهزة أمرا بصب أربعمئة قذيفة على مثلث الأشرفية...

وضع الثوار ألغامهم في كل الطرق المؤدية إلى هذا المثلث الذي يقع على أحد أضلاعه المستشفى وعلى ضلعه الآخر الجامع الكبير... وتوزعت مجموعات الآر. بي. جيه في كل الطرق.

وفي المساء تأكد ما توقعه الثوار من أن الخطوة التالية للجيش هي محاولة اقتحام منطقة الأشرفية كلها... وذلك أنه على غير العادة لم يتوقف القصف المدفعي عند الغروب... استمر متقطعا طوال الليل...

فـــي تلك الليلة جرح عدد من الثوار الذين كانوا يقومون في أثناء الليل بـــنقل المؤن والأغذية للمستشفى والجامع.. أتوا بهم إلى المستشفى... أربعة مـــن خـــيرة المقاتلين وأكثرهم خبرة وشجاعة... وبرغم أن وصول مقاتلين مصـــابين لـــم يعُـــد أمـــرا مثيرا ولا جديدا إلا أن وصول الوجوه المعروفة للمحاصـــرين فـــي المستشفى هز العواطف بعنف... خصوصا عندما جاءوا بحميدو...

حميدو من مقاتلي القطاع الجنوبي... خرج من غزة بعد أن كان السبب عـدة مـرات فـي أن يفرض العدو الصهيوني حظر التجول... كانت لعبته المفضلة هي إلقاء القنابل على آلياتهم... وخطف جنودهم وضباطهم... جاء إلـى القطـاع الجنوبـي وذاعت شهرته... فهو إلى جانب تكوينه الجسماني القـوي... بسيط ومتواضع لا يعرف التفاخر... اخترق منطقة البحر الميت علـى قدمـيه فـي ضوء النهار... وعلى الجانب المحتل اختار مكانا اعتاد الصـهاينة أن يـأتوا إلـيه بعد الغروب ليكمنوا... كمن لهم هو في كمينهم وعـندما جاءوا لم يأخذ الأمر أكثر من "صلية" كلاشنكوف... أطلقها حميدو على ثلاثة من الصهاينة سقطوا... وعاد هو ورفيقاه... لم تكن هذه هي المرة الوحـيدة... فقـد فعلهـا مرات... وأكثر من مرة كان دوره ومجموعة من المقاتلين هي أن يعبروا البحر الميت إلى محطة القوى والمضخات التي تمد مصنع البوتاس لينسفوه... وقد كان... ذات ليلة... أن قال واحد من رفاقه أن حمـيدو أضـاع الوقـت داخل محطة القوى هذه ... عندما أخذ يبحث عن الأوراق الموجـودة ليأتـي بهـا... كانت الأوراق التي أتى بها حميدو تلك اللـيلة... هـي سجل العمال في مصنع البوتاس... وبطاقات ساعات العمل والأجور... وحولت هذه الوثائق إلى الرصد العسكري فورا...

فـي كـل مرة كان يخترق فيها البحر الميت كان يعود سالما... إلا من تسـلخات جلديـة علـى كـل جسمه تقريبا بسبب مياه البحر الميت المالحة الثقيلة... ولكنه كان يعود سالما وباسما.

لم يكن يشكو من أمراض إلا من أنه لا يسمع جيدا... وذلك لأن طبلتي الأذن قد ثقبتا منذ بداية النضال من كثرة استعماله للآر. بي. جيه...

وعـندما بـدأت مؤامرة عمان الأخيرة... كان حميدو قد عاد لتوه من عملية قصف مصانع النحاس الصهيونية في وادي عربة...

وفـي مسـاء اليوم الثامن... وبعد أن حطم عدة آليات... سقطت قذيفة مدفعـية وراء ظهـره وهـو واقف واخترقت شظية صغيرة العمود الفقري وأصيب حميدو بالشلل النصفي...

حملوه إلى مستشفى الأشرفية... فنادى في هدوء على أحد الأطباء الذين يعرفهم.

- حكيم... انصبت يا حكيم...
- ولا يهمك... سليم إن شاء الله
- إحنا جايين نموت في هالبلاد
- إن شاء الله نعيش ليوم العودة
- أنا كنت جايب طحين للجامع
- الله يعطيك الصحة والعافية
- ما عملتش شيء وحش
- طول عمرك بطل
- ليه بيعملوا بأمتنا هيك؟
- مجرمين... اهدا... اهدا
- لا حول ولا قوة إلا بالله...

وانحنى الطبيب، فقبل جبينه وانسحب إلى زاوية بعيدة... ولكن للمرة الأولى منذ بدء المذبحة يشعر بالحزن، كثيرا ما كان ينتظر حميدو حتى يعود من عملياته مع رفاقه... وكثيرا ما مزح معه بسبب التسلخات التي تصيب أعلى فخذيه... الآن شل هذان الفخذان والساقان ولم يعُد حميدو قادرا على المشي في وادي عربة أو السباحة في البحر الميت.

اليوم التاسع

يوم الجمعة الحزين الخامس والعشرون من شهر أيلول سبتمبر ١٩٧٠.

لم يكن لذلك اليوم فجر... اتصل القصف طوال الليل وانقضى الليل في تغيير ملابس المقاتلين المصابين إلى ملابس مدنية ونقل القادرين منهم على

الحركة إلى منازل قريبة من المستشفى وفي الوقت نفسه نقل الذين فارقوا الحياة إلى مكانهم تحت الأشجار أو إلى الخندق في الشارع العام.

أشرقت الشمس والأخوات المتطوعات يوزعن طعام الإفطار على الجميع، وإحداهن تجلس في قاعة الأطفال العجزة توزع الحليب الساخن والبسكوت.

في الثامنة صباحا سمع هدير الدبابات بوضوح آتيا من جهة أخرى غير الطريق العام كان الصوت يشير إلى تقدم الدبابات من خلف منطقة الوحدات إلى الشرق فاتحة طريقها في أرض وعرة جبلية تصل إلى المستشفى من ناحية غرفة الموتى والمستودعات إلى الجنوب الغربي من القسم الجراحي.

ما زال صوت العاصفة يذيع أنباء المعارك والإذاعات الحكومية الأخرى تذيع أنباء اجتماع القاهرة وبيانات النميري ووصول أبو عمار إلى المؤتمر وسفر الملك حسين.

في الحادية عشرة صباحا تقرر أن يرتدي الجميع من المتطوعين والمتطوعات ملابس بيضاء... لم يكن ذلك بقصد إنكار صلتهم بالثورة ولكن كان احتياطيا ضد الصدمة الأولى وحتى لا يوجد ما يبرر للجيش أن يطلق النار داخل المستشفى بحجة وجود فدائيين.

جاءت الأنباء بأن المقاتلين قد عطلوا ثلاث آليات وبالفعل هدأ القصف المدفعي إلى حد ما.

في الثانية عشرة توقف القصف المدفعي الثقيل وبدأ قصف شديد مركز على باب القسم الجراحي بالرشاشات الثقيلة، لم يعُد أحد يجرؤ على الوقوف ولا حتى الانحناء في الممر فالرصاص يملأ الممر فوق رءوس المصابين والعاملين.

اخترقت بعض الرصاصات مواسير المياه والمجاري وبدأت المواسير تقذف ما كانت تختزنه متعفنا وصدئا... امتلأت أرض الممر بالمياه

والقاذورات واختلط كل ذلك بالدماء وقطع القطن والأربطة المتعفنة من قبل والمليئة بالدم والصديد.

كان واضحا لكل من له خبرة بالعمل العسكري أن هناك محاولة لاقتحام المستشفى. من الناحية العسكرية لابد من تركيز النيران على فتحة أي مكان يراد اقتحامه بحيث يتم تطهيره من أي مقاومة قبل الاقتراب منه... ذلك ما كان يحدث طوال الساعة والنصف تقريبا على باب القسم الجراحي. قبل أن يتوقف الرصاص علا صوت طبيب مصري من بعثة اتحاد الأطباء العرب... الأطفال أصيبوا... وفي الوقت نفسه أصيبت إحدى المتطوعات إصابة خفيفة في جبهتها... وأخذ الطبيب يضمد لها جرحها ثم اندفع طبيب آخر وأختان من المتطوعات ناحية الأطفال المصابين...

- حاسب يا دكتور... حاسب يا دكتور
- الأطفال ... الأطفال
- ذبحوا ولادي... ذبحوا ولادي... المجرمين
- الحقني يا حكيم... الحقني يا حكيم
- ارفعوا علم أبيض... أن بها أطفال يا ناس

لم يعد أحد يتبين الأصوات في غرة الصباح... الذين اندفعوا ناحية الأطفال بدءوا يعودون إلى قاعة الاستقبال أمام قسم العمليات وهم يحملون الأطفال المصابين.

أحدهم مشلول الساقين أصابته الرصاصة في كفه فأطارت أصابعه الثلاثة الوسطى ومع ذلك تعلق في رقبة الطبيب الذي انحنى عليه وهو يصيح مذعورا دون أن يشعر بآلامه...

طفلة صغيرة شقت الشظايا فمها من الناحية اليسرى حتى كادت فتحة الفم تبلغ الأذن

طفلة أخرى ماتت لساعتها...

رجل مسن كان مصابا في كتفه مزقت الرصاصات ساقيه... أبو ستيف علامة الممر الأرضية الذي تماثل للشفاء وطلبنا منه أن يغادر المستشفى إذا استطاع ولم يجد داره بعد أن هدمتها المدافع... أبو ستيف الراقد في الممر على بعد عشرين مترا اخترقت الرصاصات صدره من الخلف وأخذ ينزف... ولم يكن نقله ممكنا فساقه في الجبس ووزنه ثقيل... وضع له طبيب كمية من القطن على فتحة الوجه وأرقده على ظهره نزف ومات بعد ساعتين.

تجمع العاملون والعاملات يحاولون رفع علم أبيض والخروج ولم يبقَ إلا عدد قليل من الأطباء والأخوات والإخوة المتطوعين يجرون لإنقاذ المصابين.

عندما ظهرت فصيلة من الجنود مع أحد الضباط على باب القسم الجراحي كان الطبيب يندفع إلى الداخل بحثا عن الذين أصيبوا في الاقتحام...

- الحقني يا حكيم... الحقني يا حكيم.

التفت فإذا بها غادة الفتاة التي جاءوا بها من مستشفى الشلل منذ أيام والتي ترقد بجوار نبيلة المشلولة الأخرى... ما الذي أتى بهما إلى الممر... وتذكر أن الجميع قد أخرجوا إليه في أثناء القصف في الصباح... انحنى عليها فكشفت له على جانب بطنها الأيسر جزءا من أحشائها خرج من ثقب الرصاصة. حملها من فوره وعاد بها إلى القاعة وأطبقت دماؤها على ملابسه... أرقدها وأخذ يعد لها محلول الجلوكوز ليحقنها به... سمع أصوات الجنود... الحكماء الممرضون يخرجوا... إرفع يديك لفوق كلكم ميليشيا يا قوادين... واندفع الأطباء والممرضات والعاملون إلى الخارج رافعين أذرعهم إلى أعلى. انهارت أعصاب إحدى الأخوات وأخذت تصيح ذبحوا الأطفال ذبحوا الأطفال وأخذها من ذراعها طبيب متطوع ولحق بها الخارجين... حاول أكثر من طبيب متطوع أن يقنع الجنود والضباط بالسماح لهم بالبقاء

مع المصابين، كانت الإجابة ما يموتوا كلهم كلاب أي فدائيين... دخل الجنود إلـــى الممـــر المظلم وداسوا بأقدامهم المصابين والراقدين ولكنهم لم يفتشوا المكـــان لم يتقدموا لأن رائحة المستشفى العفنة فاجأت أنوفهم ولم يتحملوها وخرجوا.

فـــي قاعة الاستقبال انحنى الطبيب بجوار غادة وأمامه إحدى الأخوات المـــتطوعات وأخـــذ يحاول تركيب الإبرة في وريدها. ابيضّ وجهها وفجأة ارتســـم في عينيها ذعرها كله ومدت ذراعها الرقيقة وأمسكت بذراع الطبيب وامتدت ذراعها الأخرى ملوحة كأنها تدفع عنه خطرا ساحقا...

ســـمعها تقـــول بالنبي لا تمسكه لم يستدِر الطبيب وإن تجمدت يده على إبـــرة جهاز الجولوكوز... لم يطرف له جفن وهو يرى لون البدلة العسكرية خلفه وبريق ماسورة البندقية فوق كتفيه. مرت لحظات استدارت بعدها الأقدام الثقيلة ومضت وسمع صوت خليكوا هنا... كان الموجودون ساعتها الطبيب وأختين من المتطوعات وطالبا بكلية التمريض وممرضا اسمه إسماعيل.

في الخارج تجمع الذين خرجوا رافعين أيديهم في الهواء وساقوهم وراء مستشـــفى الأطفـــال ومن ثم أمروهم بالانبطاح إلى الأرض فانبطحوا. بكى البعض وضحك البعض الآخر من فرط التعاسة.

تحول المستشفى إلى قبر حقيقي لم يعُد أحد يصيح وتجمع الذين بقوا من العاملين والمتطوعين في قاعة الاستقبال وأخذوا يتساءلون... أين ذهبوا بهم... ثم بدءوا ينقلون المصابين الذين أصيبوا مرة أخرى إلى قاعة الاستقبال وأجروا لهم إسعافات أولية عاجلة. طلبت غادة أن يأتوا بنبيلة فأتوا بها وأرقدوها بجوارها... حاولت أن تحتضنها فلم تستطِع فقربوها لها لتقبيلها... ثم نقلها الطبيب إلى قسم العمليات.

وزع المتبقون في المستشفى الخبز وعلب اللحم المحفوظ والسجائر على المصابين بكميات كبيرة نسبيا... لا أحد يدري متى سيأكلون ثانية...

فجأة جاءت مجموعة من الفدائيين...

- خرجوا... أخذوا الأطباء والممرضين وخرجوا
- ضربوا أحدا منهم.
- لا أعرف...

وخرج الفدائيون... ثلاث مرات بعد ذلك اقتحم الجنود ممر المستشفى ولكن الرائحة ردتهم بعد خطوات من بابه.

وفي المرة الرابعة في الساعة الخامسة مساء جاءت مجموعة منهم وأدهشها أن تجد أحياء غير مصابين

- أنت ... قُمْ

وقف الطبيب الذي كان لا يزال يحاول جاهدا تعويض غادة عن نزيفها

- ماذا تعمل؟
- طبيب

نظـر الجندي بازدراء إلى مظهر الطبيب الذي لم يحلق ولم يستحم منذ عشرة أيام والذي غرقت ملابسه في الدماء.

- معك هوية؟
- لا ... في الدار

ابتسم الجندي مستهزئا كأنه كشف السر

- صف على الجدار
- الإصابة خطرة ستموت
- صف على الجدار في الخارج

كانت غادة غابت عن وعيها لحسن الحظ من ساعة ولم ترَ المشهد... أما الأخت المتطوعة فقد انفجرت باكية صائحة اتركوه... اتركوه... ما في حد غيره مع المصابين لكنهم أخذوه

- فـــي الخارج شاهده الحاج وهو من العاملين بالتخدير في المستشفى كان قد جاء مع جنديين ليأخذ ماء... اندفع إلى الجنود الآخرين

- عيب... عيب يا شاويش... هذا ضيف

- ما معه هوية

- أنا أعرفه... أعرفه جيدا.

- لشوف ...

اشتد تبادل إطلاق النار من الدبابات وتفرق الواقفون بالجدران فأسرع الحاج وأخذ الطبيب معه واتجه إلى حيث كان الآخرون قد تجمعوا تحت الحراسة في الطرف الجنوبي من منطقة المستشفى عند المستودعات.

الذيــن خرجوا وانبطحوا تمت عملية فرزهم، الشباب أخذوا إلى مركز الـــتجمع ومنه إلى المعتقل بغض النظر عن هوياتهم التي أثبتت أنهم عاملون في المستشفى. كلكم ميليشيا يا قوادين... الأطباء والممرضات صفوا جانبا... وبـــدأ البحـــث عن المتطوعين منهم وعن طبيب فلسطيني اشتهر بمناصرته للثورة والثوار.

عند الغروب عادوا بالجميع إلى المستشفى من مجموعات الدبابات والمجنزرات والإسكاوتات التي تطلق بالمدافع والرشاشات الثقيلة بكثافة في اتجاه الجامع المجاور على يسار وعن يمين المستشفى وأدرك العائدون أن الأشرفية لم تسقط.

عندما عادوا كانت غادة قد نزفت معظم دماءها ولكنها لا تزال على قيد الحياة.

* * *

أعــدت غرفة العمليات بسرعة وبوسائل بدائية، وعرض طبيب متطوع أن ينقل لها من دمائه. وبذل الجراح المصري الكبير كل ما يستطيع في سبيل إنقاذهـــا... ولكنها لفظت أنفاسها فوق طاولة العمليات... وفي الليل حملوها إلى أول الممر... وما تزال ترتدي حذاءها الخاص بقدميها المشلولتين...

المستشــفى التي اعتادت أصوات القصف حولها وفوقها لم تسمع طوال العشــرة أيام صوت طلقة واحدة من داخلها... ولكن منذ أن حل الجنود في الممــر بــدأت أصــوات البنادق السريعة الطلقات تلعلع في الظلام... كانوا يطلقون النار بغزارة على أي خيال يرونه متحركا حول النوافذ والأبواب... منعوا الدخول أو الخروج... ولم يعُد ممكنا أن تتحرك الأخوات المتطوعات ليلبين نداء الجرحى بعد أن وشت بهن الوجوه المريبة... وتجمعن مع الأطباء في صالة العمليات... الذين فارقوا الحياة في تلك الليلة لم ينقلوا إلى ما تحت الأشجار فالخروج ممنوع... حتى الجنود لم يعُد في استطاعتهم الاقتراب من الأبــواب والنوافذ بعد أن سقط منهم ثلاثة في أول محاولة للخروج... توقف الكلام وتحاشت العيون رؤية العيون وعافت الأذن أصوات الجنود التي تهدد وتتوعد... وخيم على المستشفى ليل مريض...

اليوم العاشر

تحولت ساحة مستشفى الأشرفية في صباح يوم ٢٦-٩-١٩٧٠ إلى مركز تجمع للآليات على اختلافها... ومن هذه الساحة التي تفصل بين المستشفى الجراحي ومستشفى الأطفال وتحدها من الشرق بناية قسم الأشعة... بدأت الدبابات تطلق المدفعية بغزارة في اتجاه الجامع والحاووز... أي على يمين المستشفى ويسارها... وتبين من حديث وسلوك الضباط أنهم لا يعرفون شيئا عن هذه المنطقة وأنهم جاءوا منذ ثلاثة أيام من غور الصافي...

أصــدر الجيش أمرا بإخلاء المستشفى. وتم ذلك في شاحنات عسكرية ســارت بالمصابين في طرق وعرة شقتها الدبابات... وظلت عملية الإخلاء هذه برغم معارضة بعثة الأطباء العربية حتى الغروب تقريبا... وحتى ذلك الوقت فشلت أربع محاولات لتقدم الدبابات إلى ما بعد المستشفى...

وعندما خرجت آخر دفعة من الأطباء والممرضين والممرضات لركوب الشاحنة التي ستقلهم إلى ناعور حيث حولت مدرستها إلى ما يسمى بالمستشفى... كانت الدبابات تطلق مدافعها بغزارة ولكن أحدا لا يرد عليها... كان المقاتلون يشاهدون عملية الترحيل فكفوا عن إطلاق النار إلا عندما تحاول الدبابات التقدم...

وعندما انطلقت السيارات من خلف الوحدات كانت الشمس تغرق في بحر من الدماء... فوق الأفق الغربي شخصت عيون الجميع إلى حاووز الأشرفية وجامعها... وانفجرت بعض الأخوات في البكاء... وقالت واحدة منهن بصوت عال... الله معهم الله ينصرهم ويحميهم وفي الطريق كان الذين لا يزالون أحياًء في بيوتهم ينطلقون... المشهد أمامهم غريب... البعض يصيحون... أسرى أسرى. والبعض ميليشيا... ميليشيا... والنسوة يرفعن رءوسهن ويتمتمن... ولكن الأطفال كانوا لا يزالون يلعبون... ويصنعون الكلاشنكوف من قطع الخشب... والصفيح...

*

* *

عندما وصل الجميع إلى ناعور كان الإرهاق قد نالهم... شاهد الطبيب طفلة في السادسة من عمرها... يدل مظهرها على البداوة والمرض...

– شو اسمك يا حلوة...

– صبيحة...

– منين يا صُبيحة...

– من بير السبع...

وانغسلت هموم الطبيب... من بير السبع... وعمرها ست سنوات... إنها لم ترَ هذه البلدة... وولدت في غيرها... ولكنها من بير السبع...

* * *

تعقيب

يقولون إنهم قصفوا مستشفى الأشرفية لأن قاعدة للثوار كانت بجواره... أو لأن الفدائيين كانوا بداخله... وينفي المسئولون منهم عن الجيش تهمة أنه قصف المدينة بلا تمييز... بل بلغ الأمر إلى حد إنكار المأساة كلها التي عاشها مستشفى الأشرفية... وقال طبيب مسئول للأسف إن المستشفى لم يعانِ إلا من قلة الماء بعض الشيء...

ولا يهمنا هنا قول الطبيب. ما تزال آثار الجريمة واضحة على المستشفى وستظل...

ولا يهمنا أيضا قولهم إن الفدائيين كانوا بداخله فربما قصدوا جرحى الفدائيين...

ولكننا سنرد على حجة قرب الفدائيين من المستشفى... ذلك لأن البعض يردد هذه الحجة بحسن نية.. ولا يتصور أن يقوم الجيش أي جيش بقصف مستشفى... والحقيقة أن الجيش لم يقصف المستشفى فقط... وإنما قصف عمان كلها... ومع ذلك سنذكر بعض الحقائق التي تبرهن هذه الحجة...

١- إن الجيش لم يكن يعرف أن هناك قاعدة في الحاووز عندما كان مستشفى الأشرفية قد قصف بالفعل... ذلك أن ثلاث آليات استطاعت عصر اليوم الثاني اختراق منطقة الأشرفية... ومرت من أمام المستشفى والحاووز دون أن تلتفت لأيهما... ولم تشعر بوجود الثوار إلا عندما اقتنصوها وعادوا بواحدة منها أسيرة إلى الوحدات...

٢- إن الجيش قصف مركز ستيشر لعلاج الشلل... ويبعد حوالي كيلومتر إلى الجنوب الغربي من مستشفى الأشرفية وليس بجواره قواعد حتى على حسب رأيهم...

٣- إن مستشفى الأطفال قصف حتى احترق وهو في الطرف الجنوبي من منطقة المستشفيات.

٤- إن الكنيسة والجامع قصفا وتهدمت الكنيسة وتضرر الجامع برغم بعد الاثنين عن المستشفى. والحاووز كان في جبل الأشرفية نفسه...

٥- إن رجلا يعمل مع الصليب الأحمر الدولي ويرتدي رداء أبيض عليه صليب أحمر فوق وآخر فوق الظهر أصيب في أثناء وقوفه في ممر المستشفى الجراحي بشظية من القذائف التي انهالت على المستشفى في الوقت الذي حددته إذاعة عمان موعدا لوجود بعثة الصليب الأحمر في الأشرفية...

٦- إن الكتيبة التي احتلت المستشفى في اليوم التاسع وصلت إلى عمان في اليوم السادس من الكرك... ولم تكن تعرف أن هناك حاووز ولا قاعدة... بل ركزوا نيرانهم على المستشفى بدعوى وجود فدائيين بداخلها... وعندما فتشوها لم يجدوا أحدا... وعندما حاولوا التقدم لم يستطيعوا ذلك لمدة ثلاثة أيام... ووضح من أحاديثهم هم أنهم لا يعرفون المنطقة ولا جغرافيتها...

٧- لا يمكن أن ينكر أحد قصف المنطقة بالمدفعية الثقيلة والهاوزر... ولا يمكن أيضا أن يدعي أحد أن في إمكانه ضرب الحاووز بالتحديد بهذه المدفعية... ولا التصويب بها...

٨- فإذا كان سبب قصف مستشفى الأشرفية كما يدعون هو وجود فدائيين بجوارها فما سبب قصف مستشفى ملحس مثلا... وهي في جبل عمان... والمستشفيات الأخرى في الأماكن الأخرى...

٩- فإن قالوا إن المستشفى قصف عن غير قصد بسبب وجود قاعدة للثوار بجواره... فكيف يمكنهم أن يفسروا اقتحام المستشفى عسكريا بالرشاشات الثقيلة والقنابل الفوسفورية الحارقة... مما أدى إلى مقتل وإصابة عدد من المرضى والجرحى كانوا راقدين في ممر القسم الجراحي على بعد ٣٠ مترا من الباب...

١٠- كشفت الخطة التي فضحها لواء الحسين الذي انضم للثوار والتي وضعت قبل بدء المذبحة بأربعة أيام... كشفت عن أن الأوامر صدرت لتقسم

عمـــان إلـــى مـــربعات وقصـــف وتمشـــيط هذه المربعات بالمدفعية الثقيلة والرشاشـــات... وهكـــذا نال مستشفى الأشرفية نصيبه من هذه الخطة بحكم كونه في عمان...

*

* *

إن واقـــع عمـــان يكذب التبرير المزعوم... ويدين الأيدي المجرمة... ويكفـــي أن نذكـــر أن القصف شمل كل أحيائها وبيوتها حتى منازل الضباط والجنود الذين كانوا يسكنون عمان...

ومنذ سنوات اتهم هوشي منه زعيم فيتنام الراحل... اتهم الإمبرياليين الأمريكيين بأنهم يقصفون المدنيين بغاراتهم الوحشية... ودافع الإمبرياليون عن أنفسهم قائلين كما يقول أذنابهم الآن... نحن نقصف الأهداف العسكرية فقط... وابتسم هوشي منه وقال في بساطة... كيف يمكن أن تصطاد سمكة دون أن تعكر الماء...

والفدائـــي هو ابن الجماهير... فكيف يمكن قتل الفدائي بالمدفعية الثقيلة دون أن تقتل الجماهير المحيطة...

ولأنهـــم يعـــرفون هذه الحقيقة... لأنهم يعرفون أن الفدائي كالسمكة... تعـــيش فـــي بحـــر من الجماهير ولا تخرج منها... قصفوا عمان كلها لكي يحرموا الفدائي من مصدر وجوده وطاقة حياته وبحر حياته...

ولكن هيهات...

أيلول في جنوب الأردن*

[في أثناء تواجدها في الأردن، أنشأت الخدمات الطبية لقوات "العاصفة"، الجناح العسكري لحركة فتح، عيادات شعبية منتظمة، لاسيما في منطقة الجنوب الصحراوية – في معان، والطفيلة، والشوبك – التي يغلب على تركيبتها السكانية الطابع العشائري.

بتعاملهم الجدّي مع الواقع، كسر الفدائيون الأفكار المسبقة عن البدو والمفاهيم الخاطئة المبنية على الإعلام والشائعات، وأسّسوا لعمل سياسي تعبوي حول فلسطين دَعَمَه أسلوب ثوري مبني على خدمة الناس ومشاركتهم همومهم اليومية. فالتحموا مع الأهالي في تجربة حضارية تضافرت خلالها قيم البداوة مع قيم الفدائيّة. وفي الشهور السابقة لأيلول/سبتمبر ١٩٧٠، بدت الجهود المضنية لإفشال خطة السلطة الأردنية لضرب المقاومة وكأنها الرافعة التي ارتقى بواسطتها العمل الفدائي في جنوب الأردن إلى مستوى منهج أخلاقي مبدأه **"أننا لن نطلق النار على الجماهير حتى لو كانت تطلق النار علينا".**]

* الكاتب : محجوب عمر
مجلة شؤون فلسطينية، عدد ٧٠
تشرين أول/أكتوبر ١٩٧٧

*

مرت بنا الشهر الماضي الذكرى السابعة لأحداث شهر أيلول – سبتمبر ١٩٧٠.

ومنذ عام ١٩٧٠ حتى الآن، تناول الكثيرون هذه الأحداث سردا وشرحا وتحليلا وتعليقا وتذكيرا. ورغم ذلك فإن هذه الأحداث لم تؤرخ بعد، بل لم يكشف عن الكثير من أسراها حتى الآن.

والصفحات التالية تتناول ساحة من ساحات "أيلول" لم يتعرض لها أحد من قبل، باستثناء تعليق قصير نشرته جريدة "فتح" بعد مرور عام على أحداث أيلول بعنوان "أيلول بدأ في الثامن عشر من حزيران" تناول فيه الكاتب المظاهرات المعادية للثورة الفلسطينية والتي دبرتها الشعبة الخاصة الأردنية في مدينة معان في جنوب الأردن في ١٨ – ٦ – ١٩٧٠.

ما عدا ذلك فإن ما يشاع ، أحداث أيلول في جنوب الأردن هو في مجمله شائعات غير صحيحة وحوادث مبالغ فيها. كأن يقال مثلا أن البدو قد ذبحوا الفدائيين بأسلحة الفدائيين، أو أن بعض المسؤولين من فتح قد قتلوا ضربا بالعصي أو شنقوا على الأشجار، أو أن البدو غدروا بالفدائيين وأنهم موالون للملك الذي استخدمهم في الذبح والتقتيل، إلى آخر هذه القصص التي تروي بلا تفاصيل لينتقل الراوي بعدها إلى استخلاص نتائج غريبة كأن " لا أمان، للبدو" أو "أن البدو جميعا موالين للملك" أو "ماذا فعلت فتح عندما سلحت للبدو في الجنوب فها هم غدروا بها بأسلحتها..." الخ..

والحقيقة أن كل ما يشاع حتى الآن لا يستند إلا إلى تعليقات إذاعية أو صحافية تحريضية أذيعت وكتبت من مسافة مئات الكيلومترات عن الأحداث نفسها دون تحقيق أو تدقيق وإنما انسياقا وراء شائعات تناقل بعضها، وساهم

فــي صنع بعضها الآخر، البدو أنفسهم بما طبعوا عليه من مبالغة وشاعرية في الرواية.

الحقـــائق التي سأحاول تذكرها وتأكيدها سجلتها مرتين قبل هذه المرة. المـــرة الأولى ضمن تقرير مفصل بالأسماء قدم لقيادة الثورة في عمان يوم ١٥ – ٩ – ٧٧ عقب وصولنا من الجنوب مباشرة. وقد فقد هذا التقرير ولا يعرف مصيره، والمرة الثانية في محاولة لإكمال الحقائق التي جمعها ورتبها وحللهـــا الكـــتاب القـــيم الـــذي صدر عن مركز الأبحاث بعنوان "المقاومة الفلســـطينية والـــنظام الأردني" (١٩٧١)، ولا أدري مصير بضع صفحات كتبـــتها على عجل تتضمن بعض ما فات الكتاب من حقائق، وهذه هي المرة الثالثة.

ولهـــذه المرة عيوب وميزات. من عيوبها أن الزمن يمحو الذاكرة ولا يمحو الحقائق، ومن ميزاتها أن الزمن يخفف التعصب لتنجلي الحقائق.

ولعـــل ما يهون مسئولية الكتابة في ما سأكتب أنني لن أتعرض لما هو مخـــتلف علـــيه، ولا لكل ما حدث في أيلول وقبله وإنما لرقعة محدودة في الزمان وفي المكان وفي الأشخاص ولتجربة لم تكن سائدة وقتذاك وإن كانت مختبرا لما تبلور بعدئذ.

كما أن ما أرويه ليس رواية ولا تقريرا وإنما مساهمة في إكمال صورة أصبحت في التاريخ وللتاريخ، ولعل المساهمة تفيد.

*
* *

في الطريق إلى أيلول

مـــرت أزمـــة شـــباط – فبراير ١٩٧٠ بين الثورة الفلسطينية والسلطة الأردنـــية دون أن يشعر بها جنوب الأردن تقريبا. ففيما عدا الانتقال الهادئ لبعض وحدات العاصفة إلى الشمال نحو العاصمة واتخاذ بعض المجموعات

مواقع لها عند المفارق الهامة لطرق الجنوب دون أن تظهر على هذه الطرق أو تعترض أحدا، فيما عدا ذلك فقد مضت الحياة في الجنوب دون أي تغيير أو تأثـر بـرغم ما كان سائقو "السرفيس" يحملون من أخبار عما يجري في العاصمة.

لا يمكن القطع بأن الناس لم تكن تتبادل فيما بينها أخبار أحداث شباط – فـبراير ١٩٧٠، فمعظم قرى وعشائر الجنوب لها أبناء في الجيش الأردني، وكلها بلا شك تتابع الأخبار لتطمئن على أبنائها. ولكن من المؤكد أنه لم تبدر من أي من سكان الجنوب أي بادرة عداء أو امتعاض من الوجود الفدائي في جنوب الأردن.

لهـذا الموقـف أسبابه بالطبع، فليس معنى عدم تحرك سكان وعشائر الجـنوب لتأيـيد الملك بالبرقيات والمظاهرات والوفود كما هي العادة، أنهم كـانوا قد تخلوا عنه أو بدلوا مواقفهم منه، بل يمكن تفسير هذا الموقف لعدد من الأسباب أهمها:

١- الاسـتقلالية النسـبية (مادية ومعنوية) عن السلطة الأردنية التي تمتعت بها جماهير جنوب شرق الأردن سواء من البادية أو الحضر، حتى ذلـك الوقـت على الأقل. فالغالبية تدين بالولاء للعشيرة ولا تتعامل مع السـلطات إلا مـن خلال شيخ العشيرة. وغالبية السكان بدو رحل وحتى المدن يحكمها قانون العشائر.

٢- قلـة عـدد السـكان وتوزيعهم، وقلة عدد الفدائيين (نسبيا أيضا) وتوزعهـم والأوامـر والإجـراءات الصارمة التي طبقتها قيادة القطاع الجنوبي لقوات العاصفة وأهمها عدم إقامة أي قواعد داخل أي قرية، مهما كـان المبرر، وعدم تجول المقاتلين، مهما كان السبب، في المدن والقرى تحاشـيا لأي خطأ أو احتكاك [أي خطأ فردي كان سيتحول إلى خصومة عشـائرية فورا]، أدى ذلك إلى انعدام أي احتكاك عدائي من أي نوع مع السكان طوال السنوات الثلاثة التي قضاها الفدائيون في جنوب الأردن.

٣- باسـتثناء مدينة الكرك، لم يكن للتنظيمات الفدائية الفلسطينية غير قوات العاصفة وجيش التحرير الفلسطيني (قوات عين جالوت)، أي وجود

مما ساعد كثيرا على عدم إعطاء أي فرصة لأنصار الملك لاستغلال التناقضات والصراعات بين المنظمات أو التصرفات غير المسئولة. وحتى في مدينة الكرك كان لسيطرة قوات العاصفة المتفوقة عددا وعدة ومكانة أثر كبير في ضبط أي خروج على التقاليد أو أي استفزاز سياسي وتصحيح آثاره فورا.

٤- اشتراك بعض زعماء الجنوب في الحكم وقيادة الجيش [بهجت التلهوني واللواء مشهور حديثه] واتخاذهم مواقف معتدلة خلال الأزمة، كان له أثره الكبير عند سكان الجنوب خلال هذه الأزمة وما تلاها.

٥- نجاح الفدائيين في اكتساب إعجاب الأهالي بدورياتهم الأسطورية في وادي عربة، مقبرة القوافل، وارتداد أثر الغارات الجوية الإسرائيلية على عكس ما كان العدو يهدف إليه إذ استنفرت نخوة وشهامة العشائر والقرى لنجدة إخوانهم المجاهدين من أجل فلسطين. وأخيرا أثر النشاط المكثف - برغم صعوبته للواقع الجغرافي والبشري - لشرح أهداف الثورة ولكسب ثقة الأهالي ولخدمتهم ["١٤" عيادة شعبية منتظمة، ووحدة سينمائية متنقلة، ووحدة إسعاف متنقلة، ونشاط تنظيمي دعائي في المدن والقرى] وإقامة علاقات وثيقة مع بعض شيوخ العشائر حسب التقاليد السارية.

هذه هي أهم الأسباب التي يمكن أن نفسر بها ذلك الموقف "المحايد" - إن جاز التعبير - خلال أمة شباط - فبراير ١٩٧٠.

وكما لاحظ الفدائيون هذا الموقف بالتقدير، لاحظته السلطات الأردنية بالقلق. ويبدو أن قرارا قد اتخذ لمعالجة هذا الوضع إذ بدأت المعلومات ترد عن زيارات مشبوهة يقوم بها مسئولون كبار للعشائر والقرى، ليعرضوا عليهم خلالا التسلح والانتظام في ما سمي "المقاومة الشعبية"، وبالطبع كان الأهالي يتسلحون. ولم يكن مطلوبا منهم أي موقف من الوجود الفدائي في ذلك الوقت، فلم لا يتسلحون؟.. "البارودة أحسن منهم". وأبرز هذه الزيارات كانت ولا شك زيارة الأمير حسن ولي العهد لمدن الجنوب.

ففي صيف ١٩٧٠ وصل الأمير حسن إلى الطفيلة حيث اجتمع بشيوخها ورئـيس بلديتها الشيخ عبد الله العوران. وتم الاجتماع في مبنى موتور الماء والكهـرباء على بعد أقل من خمسين مترا من بيت صغير كان بمثابة عيادة شـعبية فدائـية ومقر للقيادة العسكرية لوحدة عين جالوت. خلال الاجتماع حـاول الأمـير حسن استفزاز مشاعر الشيوخ عندما قال "كنا فاكرينكم أهل شـهامة، تاركين بناتكم لأيدي الأغراب"، وكان يقصد الأطباء. عندئذ أجابه أحـد الشـيوخ: "أن هؤلاء أشرف ناس". وعندما تطور النقاش طلب الأمير حسـن من الشيوخ أن يعملوا على إخراج الفدائيين من المنطقة فأجابه رئيس الـبلدية: "عـندما تخرجونهم من عمان نخرجهم نحن من هنا" فغادر الأمير حسن الاجتماع غاضبا.

ومـع ذلك فقد كانت الأخبار تصل عن نشاطات الشيخ فيصل الجازي شـيخ الحويطـات الـذي لعب دورا كبيرا في التعبئة ضد العمل الفدائي في اجتماع العشائر الذي تم في أوائل أيار – مايو ١٩٧٠ في بلدة سحاب بالقرب من عمان – والشيخ فيصل الجازي هو أكبر شيوخ العشائر في الأردن نفوذا وأكـثرهم طموحـا وخـال اللواء مشهور حديثة رئيس الأركان في الجيش الأردنـي. وقـد بنت السلطات الأردنية له ولعشيرته قرية حديثة البناء هي "الحسـينية" التي تقع على الطريق الدولي بين عمان والعقبة بين مثلث جرف الدراويش ومثلث عنيزة.

تقررت مضاعفة الجهود وتكثيفها في سبيل توثيق العلاقات مع العشائر وسـكان القـرى والمدن. ثم تغيير عدد من مواقع القواعد الفدائية إلى مواقع أكـثر ملاءمـة حيـث كانـت القاعدة الفدائية تشكل قاعدة للخدمات الطبية والعلاقـات السياسية والعشائرية وتستقطب الشباب من بين السكان، "وتخلق حالـة من النشاط الاجتماعي حولها". وفيما بين أزمة شباط – فبراير ١٩٧٠ وأحـداث أيلـول تضـاعف عدد العاملين في مجال الخدمات الطبية لقوات العاصفة وتضاعف ثلاث مرات عدد العيادات الشعبية المنتظمة، كما اتخذت عدة قرارات خاصة بالتنشيط التنظيمي في القرى.

ثـم وقعت أحداث ٩-٦ المعروفة باسم أزمة حزيران - يونيو ١٩٧٠. وكالأزمـة السـابقة مـرت هذه الأزمة أيضا دون أي تحرك في الجنوب. ومضى أسبوعان قبل أن تصل برقيات التأييد المعتادة إلى الإذاعات والقصر، بعد أن تم الاتفاق بين المقاومة والقصر. وحين توجه وفد من عشائر الجنوب إلـى القصـر الملكي للإعراب عن تأييده للملك - وهو إجراء بروتوكولي مـألوف - رفض الملك مقابلة الوفد، وبعد انتظار دام أكثر من ساعة قابلهم الأمير حسن الذي قال لهم صراحة: "لقد تأخرتم".

بالطبع لم يظهر بالطبع لم يظهر زعماء العشائر أي تأييد لنا، ونحن لم نطلـب ذلك مراعاة للظروف. وقال واحد من شيوخ العشائر: "المشكلة أنكم تصـطدمون بالملك ونحن نقع في المأزق. إذا أيدناه يكون ذلك موقفا ضدكم وإذا سكتنا يغضب هو، وفي الحالتين أنتم ستتفقون معه ونحن نواجه غضبه".

ولكن السلطات الأردنية كانت قد عزمت أمرها. فقدت الأمل في أن تؤدي عفوية الاحتكاكات إلى اشتباكات بين أهل الجنوب وبين الفدائيين فقررت افتعال تظاهرة معادية للفدائيين في بلدة معان، فكانت هذه التظاهرة أخطر إنذار لما حدث في أيلول. في ١٨-٦-١٩٧٠ وفي معان، مدينة الحدود الأردنية، استطاعت السلطة الأردنية تسيير مظاهرة من الجنود المجازين (!!) معها عدد من عملاء السلطة على رأسهم صباح كريشان الذي قفز من سائق باص إلى مالك كبير تجري بين أصابعه الدنانير. لم يكن للمنظمات الفدائية في ذلك الوقت إلا ثلاثة مكاتب: واحد لفتح وثان للجبهة الشعبية وثالث للصاعقة، وكلها تعمل في مجال الأرض المحتلة، فمعان تقع على الطريق التاريخي للقوافل بين الخليل والحجاز وبين غزة والحجاز. من هنا أهميتها الاستراتيجية بالنسبة للفدائيين.

ولأول مرة في تاريخ العرب علت أصوات تهتف ضد الفدائيين والوجود الفدائي. وسرعان ما اتضحت خطة المتظاهرين إذ توجهوا نحو بيوت الفلسطينيين المقيمين في البلدة وهم من المهاجرين إليها منذ ١٩٤٨، ومعظمهم من بلدة ؟؟ بقضاء الخليل، وبعضهم من غزة.

طـــرق المتظاهرون أبواب البيوت وسبوا الفلسطينيين وطالبوا بطردهم مـــن البلد، وأطلقوا عيارات نارية في الهواء وتوتر جو المدينة كلها وتبودل إطـــلاق الـــنار – في الهواء أيضا – كما تبودلت الاتهامات، واستمرت حالة الاضطراب المفتعل ثلاث أيام أمكن بعدها السيطرة على الأوضاع بالتعاون بين قيادة قوات العاصفة في القطاع الجنوبي، وبين رئيس بلدية معان الشيخ معـــن الشـــراري وبين محافظ معان ومدير الشرطة فيها اللذين أبديا تعاونا كبيرا لتقريب وجهات النظر والسيطرة على حالة الأمن.

لابـــد مـــن الاعـــتراف بـــأن هذا الحديث الخطير مر دون أن يلاحظه الكثـــيرون. كانت عمان تستقطب كل الاهتمام. قررت قيادة القطاع الجنوبي بعد هذه الواقعة تكثيف النشاط السياسي في مدينة معان.

بدأنا نبحث عمن يؤجرنا مكانا لإقامة عيادة شعبية. لم يكن سهلا بعد الذي حدث. ولكننا في النهاية وجدناه عند مدرس عائد من الخارج، ورث بيتا قديما في حارة الشرارية في معان، وكان على استعداد لتقديمه لنا بدون مقابل. كنا نرفض باستمرار أخذ أي شيء بدون مقابل وأصررينا على أن نحرر عقدا بالإيجار وأن ندفع مقدما. ووافق أخيرا وبدأنا نستعد، ولكن قبل مرور ساعات اتصل بنا ليبلغنا أن عشيرته كلها ترفض تأجير البيت لنا. وكانت فرصتنا. طلبنا الاجتماع مع شيوخ العشيرة لمناقشتهم. وتم الاجتماع واستمر أكثر من يومين كنا نتبادل فيه الحديث وقد قررنا أن نخرج بقرار منهم بتأجير المكان. لم نستعمل حقنا أبدا باعتبارنا نملك عقدا بالإيجار ولكننا أثرنا حقنا كعرب نجاهد من أجل فلسطين في أن نقيم في البلد وفي حماية أهلها أيضا.. وبعد يومين وافق شيوخ العشيرة واستأجرنا الدار بدون شروط.

بـــدأ العمل في العيادة ثلاثة أيام في الأسبوع وهو نظام مكثف، لكونها مديـــنة، ولكونـــنا نريد استباق العناصر المعادية التي كانت تنشط في تجنيد عناصـــر جديـــدة. وســـرعان ما انتقلنا من العمل الطبي إلى إقامة الندوات الجماهيرية السياسية. وتم دعم المجموعة العاملة في المدينة بعدد من الكوادر المدربة والتي تقوم في الوقت نفسه بتأدية خدمات طبية أو اجتماعية.

*

في معان قبل أيلول وقائع ذات دلالة...

بعد إحدى الندوات الجماهيرية التي حضرها مسئولون من عمان وقيادة القطاع الجنوبي لقوات العاصفة، طاف الأخوة حسب العادة على بعض بيوت الوجهاء والشيوخ تلبية لدعواتهم لشرب القهوة. في إحدى هذه الزيارات لاحظ واحد من الحاضرين من أهل معان باستنكار أن أحد الأخوة الفدائيين قد أرسل بذلته العسكرية للمصبغة للغسيل والكي ودفع ٤٠ قرشا لقاء ذلك. تقرر فورا نقل الأخ المذكور من المنطقة كلها وشكرنا الشيخ على ملاحظته.

وأصيبت ابنة مفتي الجيش الأردني – وهو الذي كان يلعب دورا كبيرا في التعبئة ضد الفدائيين في صفوف الجيش – أصيبت بنزيف تطلب إجراء جراحة عاجلة لها في مستشفى معان وقرر الأطباء ضرورة نقل ١٠٠٠ سم مكعب من الدم لها قبل العملية. ولم يكن هناك سوى الفدائيين الذين لم يتأخروا بتلبية هذا الطلب مما دفع المفتي أن يدعو لهم علنا أثناء صلاة الجمعة التالية.

ودبرت السلطة عن طريق أحد عملائها استفزازا للفدائيين في قرية وادي موسى التابعة لمعان. وللأسف وقع بعض الأخوة في الفخ فاعتقلوا العميل الاستفزازي الذي كان يطلق النار في الهواء وهو يسب فلسطين والمقاومة والفدائيين. قبل فجر اليوم التالي كان قد تم الإفراج عنه والاعتذار. ولكن ذلك لم يمنع عددا من شيوخ وادي موسى من التوجه في وفد إلى معان للشكوى، وهناك وجدوا عددا من المسئولين الفدائيين في مكتب المحافظ وبحضور رئيس البلدية وهم يعرضون حل المشكلة عشائريا، وتعاون المحافظ ورئيس البلدية والقتل الجميع إلى قرية وادي موسى وانتهت المشكلة.

وهكذا... كلما سعى العملاء للاستفزاز كان الموقف هو محاصرة هذا العمل بالناس وحسب التقاليد دون لوقوع في فخ استخدام القوة أو الرد على الاستفزاز.

واســتمر الحــال على هذا المنوال حتى شهر آب – أغسطس ١٩٧٠: توســع فــي النشاط والعلاقات لدرجة افتتاح عيادة شعبية في الحسينية معقل الشــيخ فيصــل الجــازي. وفــي "ادرح" المقــر السكني لعشيرة كبيرة من الحويطــات. وأرسى تقليد هام هو حل أي مشكلة فردية عن طريق الإحكام العشائرية، وكان معنى ذلك إبعاد لسلطة ورجالها وسد الطريق عليهم وعلى استغلالهم لمثل هذه الحوادث.

*
* *

مقدمات أيلول الأولى

في أواسط آب – أغسطس ١٩٧٠ قررت القيادة العامة لقوات العاصفة تدعيم القوة العسكرية الموجودة في عمان بوحدات من القطاع الجنوبي، بعد أن بينت قيادة القطاع أن من الخطر الانسحاب كليا من الجنوب إذ يؤدي ذلك إلــى اختلال في الموازين بين العشائر الصديقة للثورة وتلك الموالية للملك، كمــا يــؤدي إلــى تشجيع القوى العملية على التحرك العلني ضد الوجود الفدائي.

تــم ســحب الوحدات المقاتلة واحدة بعد لأخرى بأكبر قدر من الهدوء الممكــن وحل محلها مجموعات من "ميلشيا" البدو من عشائر "العزازمة" و "التياها" أساس الذين يقيمون في بيوتهم على طول سلسلة الجبال وتم تجميعهم لمواجهة الأوضاع الجديدة.

وبقــي في الجنوب كله غير هذه المجموعات، قسم من جهاز الخدمات الطبــية، وبعض مراكز التموين، وقوة من قوات عين جالوت التابعة لجيش التحرير الفلسطيني. وهذه الأخيرة تمركزت في الطفيلة والكرك.

فـــي هـــذا الوقـــت كانت الشعبة الخاصة – الجهاز المكلف بتنفيذ خطة السلطة الأردنية لضرب المقاومة قد فشلت في الرهان على احتكاكات عفوية بين أهالي الجنوب والفدائيين. وباقتراب أيلول ١٩٧٠، وازدياد هذا النوع من المشاكل العفوية والمدبرة في عمان والمدن الأخرى في الشمال، لوحظت في الجنوب أحداث غريبة مثيرة.

فجأة أعلن الشيخ فيصل الجازي أن اثني عشر رأسا من الغنم قد سرقت من بيته في الحسينية!! وأن الآثار تدل أنها نقلت في سيارة لاندروفر خارج المنطقة. لم يصدق الناس. فالبدو أعرف من غيرهم بهذه الروايات. أن الذي يمكـــن أن يصـــل إلـــى بيت الجازي في الحسينية يمكنه أن يفعل أي شيء، فالبيت تحت الحراية، وبه عشرات العبيد [العبيد فعلا!!] المسلحين، ولا يمكن لغريـــب أن يقترب منه. ومع ذلك كان مجرد الإعلان عن هذه الواقعة أمرا مثيرا.

بعـــد ذلك بأيام سرقت بالفعل أعداد من رؤوس الغنم من المدعو هويمل العوران الذي تقع أرضه على الطريق إلى الطفيلة، والذي يمت بصلة قرابة لرئيس بلديتها. تكثفت جهود من تبقى من الفدائيين ومسئوليهم لمعرفة الفاعل إذ كـــان واضحا أن المقصود هو تشويه سمعة الفدائيين وتوريطهم في صدام مـــع السكان. ثم حجزت سيارة لاندروفر وعثر على آثار أغنام بها، وكانت تخـــص شخصـــا من معان على صلة بصباح كريشان [العميل السابق ذكره] ولكـــن إثـــبات الواقعـــة كـــان مستحيلا في ظروف الجنوب. فكل السيارات لاندروفر وكل السيارات تحمل أغناما!!

ثـــم حـــدث أن صدمت إحدى سيارات الفدائيين طفلا من الطفيلة وقتلته وكادت المشكلة أن تتطور على غير العادة. إذ جرت العادة أن تحل مثل هذه المشـــاكل حســـب قـــانون العشـــائر، ولكن رجال السلطة حاولوا هذه المرة تحـــريض أهل الطفل على عدم القبول بالحق العشائري، ومع ذلك فقد فشلوا لسرعة تحرك الفدائيين وحل المشكلة، ودفع الدية قبل مضي ساعات.

كـــان من الواضح أن هناك محاولات مقصودة لافتعال الصدام بين من تـــبقى من الفدائيين والأهالي. ولوحظ في هذا الشهر كثرة تردد الشيخ فيصل

الجازي على الحسينية وعلى قرى الجنوب المختلفة بعد أن كان يمضي معظم وقته في عمان.

*
* *

الأيام الخمسة الأخيرة

انعكست الأحداث اليومية في عمان على الحالة العامة في الجنوب، توتر وقلق وشائعات ينقلها السائقون عند عودتهم من عمان. السير أسبح قليلا على الطرق حتى الطريق الدولية بين عمان والعقبة. ولكن لم تحدث بادرة علنية واحدة ضد الوجود الفدائي واستمر التحرك الخاص بهم كما هو وإن كان قد قل بعد رحيل معظم القوات إلى عمان.

ازداد الشعور بالتوتر بعد أن أذيع نبأ عن محاولة اغتيال الملك وأذيع تعليق من إذاعة الثورة يكذب هذا الإدعاء مما يشير إلى أنه ربما كان إشارة للبدء بتحرك عام ضد الفدائيين بدعوى تأييد الملك. ومع ذلك، مر يوم ٣١ – ٨، و ١ – ٩ بهدوء ولم يحدث النبأ ولا التكذيب أي ردود فعل، وكان ذلك دليلا هاما على أن عملاء السلطة عاجزون عن استثارة الأهالي ضدنا.

حتى كان يوم ٢-٩-١٩٧٠..

كـــان يوم أربعاء، وككل يوم أربعاء يلتقي الأطباء العاملون في الجنوب فـــي عـــيادة الطفيلة لعرض الحالات المؤجلة التي تتطلب تشاورا جماعيا أو تدخلا جراحيا.

فـــي ذلـــك اليوم كانت ابنة رئيس المجلس البلدي تشكو من التهاب في الـــثدي وقـــد نصحت من قبل بإجراء جراحة فرفضت وحاولت الذهاب إلى عمـــان، وهناك وجدت الأحوال غير هادئة فعادت، وكان لابد أن نقوم نحن بالجراحة.

قام بالجراحة زميلنا الدكتور – يسري هشام وقمت بمعاونته في التخدير. وأثناء وجودنا في المستشفى الحكومي حيث أجريت الجراحة جاء من يبلغنا أن السائقين العائدين من عمان يقولون أن جنديا أردينا من منطقة الشوبك قد قتله فدائيون أثناء عودته من عمان إلى قريته وأن التوتر يسود الجنوب كله.

تأكد لنا النبأ، فطلبنا من الأخوة عدم التحرك على الطرق حتى نتبين ما حدث وتركت الطفيلة متوجها إلى الشوبك بسرعة ومعي أخ يسوق اللاندروفر كان مقاتلا وأصيب في ساقه وآثر البقاء في القطاع.

وكان هذا آخر عهدي بالطفيلة.

لم نقابل أي حادثة تذكر في الطريق ولكننا لاحظنا أن الطريق خالية من أي سيارات مما جعلنا نتوقع أنها مقطوعة في مكان ما شمال مثلث جرف الدراويش.

عند وصولنا إلى "نجل" وهي مقر مديرية الشوبك لاحظنا تجمع الشيوخ عند مكتب البريد والدكان وهذا معناه أن ثمة خبرا خطيرا يتوقعونه أو يتشاورون بشأنه.

وسرعان ما وصلت الأنباء وتحققت قصة مقتل الجندي وهي قصة غريبة ومريبة لم تتضح حقيقتها حتى الآن:

أثناء خروج سيارة سرفيس من عمان إلى معان تقل الجندي وأخاه، وزوجة أخيه وابنه أخيه السابة وراكبا خامسا غير السائق اعترضها حاجز لمسلحين يرتدون زي الفدائيين عندما كان يسمى وقتئذ بملجأ العجزة، أو قاعدة الشهيد حسن سلامة.

كان الوقت حوالي العاشرة صباحا، والجندي يحمل بندقيته كما كانت أوامر الجيش وقتها. أمره المسلحون بالنزول وأطلقوا عليه النار في منتصف

الطريق وأخذوا بندقيته وطوحوا بها داخل الحرش المجاور ثم أمروا السيارة بمواصلة السير وهي تحمل بقية الركاب. وهم أسرة الجندي والراكب والسائق. الواقعة مؤكدة ولكن لم يتضح حتى الآن هو من هم هؤلاء المسلحون؟ ولماذا فعلوا ذلك؟ ولماذا تركوا السيارة تواصل سيرها وفيها أهل القتيل الذين سيروون الواقعة بلا شك بمجرد خروجهم من تحت إرهاب الرصاص ؟؟

مضت السيارة في طريقها، توزع النبأ على كل مكان، بل وتستوقف السيارات الذاهبة إلى عمان وتروي لها القصة. وبدأت السيارات في العودة ومعها القصة الرهيبة، وانتشر النبأ في كل قرى الجنوب وجباله وبيوته وضياعه.

كان أول رد فعل هو تحرك عرب "الحاجيا" عند منطقة القطران لقطع الطريق الدولي. وتصادف مرور سيارة تموين لفتح من عنصرين مسلحين فاحتجزوهما والسيارة. [كان لمجرد احتجازهما دون قتلهما دلالة على أن رد الفعل عفوي وغير جاد، وقد أفرج عن المسلحين في اليوم التالي وما تزال السيارة أمانة لدى شيخ عرب الحجايا حتى الآن حسبما أعلم].

أما ردود الفعل التالية فقد تركزت في منطقة الشوبك، فالجندي القتيل من عشيرة الروافعة من قرية بيرضداد من منطقة الشوبك.

ومنطقة الشوبك تقع على مشارف وادي عربة ولكنها منطقة زراعية غنية، وفيها مدرسة زراعية عليا وقراها متناثرة وتسكنها عشائر حضر ويتجول في أراضيها وحواليها عشائر بدو وفيها قلعة الشوبك الصليبية الشهيرة. وكان لقوات العاصفة في المنطقة ثلاث قواعد اختصرت إلى قاعدة واحدة بعد رحيل القوات ولم يكن في هذه القاعدة أكثر من خمسة عشر مسلحا من مليشيا البدو بالإضافة إلى هذه القاعدة كان في إحدى القرى (أبو مخطوب) مستودع تموين وعنصران فقط، كما كان في قرية نجل نفسها مقر العيادة الشعبية فيها الطبيب والسائق وشبل متدرب، وانضم لنا يوم ٢-٩ أخ من التنظيم كان يعمل معلما – وسنلقبه "بالمدرس". وعلى بعد أربعة كيلو مترات من العيادة كانت المدرسة الزراعية التي تضم عددا من المدرسين

الفلســطينيين والأردنييــن المتعاطفين مع الثورة الفلسطينية وهم يقيمون مع أسرهم داخل المدرسة.

فــي مــنطقة الشــوبك أيضا مشروعات زراعية سكنية تبنيها السلطة الأردنــية وتملكهــا لضــباط الجيش خصوصا ضباط المدرعات الذين كان معظمهــم مــن عشائر الحويطات. وفيها كانت مزرعة لقائد سابق للحرس الملكي مكنى بأبي جميل.

دعا أبو جميل هذا شيوخ العشائر في الشوبك للاجتماع مساء يوم ٢-٩-١٩٧٠ للبحث في حادثة مقتل الجندي.

قــبل مغيب الشمس جاء منهم من يسألني عن الأخبار فأكدت له أنه لو صح هذا الحادث فإن الفاعل جاسوس وعميل ولا يمكن أن يكون من فتح أو من الفدائيين عموما.

غابــت الشــمس وكــنا أربعة، والصمت العادي أصبح صمتا متوترا مشــحونا، لــم نضيء الأنوار في مقر القيادة [كوخ من سقف وثلاثة جدران والجدار الرابع هو كتف الجبل وأمامه باحة مسورة بسور من أحجار مكونة سلســالا] ووزعــنا أنفسنا للحراسة اثنين اثنين. عند الحادية عشر مساء جاء الشبل باثنين من أهل الشوبك الشباب وجدهما يتسللان إلينا، عرفتهما وجلسا وأبلغاني قرارات اجتماع الشيوخ كما سمعاها من أبويهما وهي:

- إجلاء قواعد الفدائيين من المنطقة.
- إجلاء الفلسطينيين من المدرسة الزراعية وإهانتهم.
- الثأر بقتل الطبيب.

ولكنهما أكدا لي أن هذه اقتراحات "أبو جميل" ولم يستطع الشيوخ معارضتها علنا خوفا منه ومن علاقاته مع القصر. وأن شيئا من ذلك لن ينفذ ولن يسمح أحد بوقوعه. أرسلتهما إلى المدرسة لتحذير الأخوة هناك طالبا منهم عدم التحرك واختيار من يمكن أن يحمل رسالة إلى عمان دون أن يعترضه أحد.

فـــي الثانـــية عشـــر ليلا حضر من معان عدد من الأخوة الذين سمعوا بالحـــادث وخافوا أن يحدث رد فعل فوري ضدنا في الشوبك، فجاؤوا ومعهم سيارة مسلحة عليها رشاش جرينوف. وكانت هذه غلطة استفزازية ولا تفيد على أي حال. قضينا بعض الوقت نتداول ثم اتفقنا على ما يلي: رغم وضعنا الحـــرج وعـــدم وجود وسائل اتصال بين المناطق ولا بيننا وبين القيادة في عمان علينا أن نتصرف لا كمتهمين ولكن مراعين مشاعر السكان، ونحن لن ننســـحب من أي موقع مهما كان الخطر عليه لأن الانسحاب معناه نهاية ما بنيـــناه، وأننا لن نطلق النار على الجماهير حتى لو كانت تطلق النار علينا، وأنـــنا سندافع بالسلاح عن مواقعنا في حال هجوم من قوات الأمن أو الجيش علينا.

لـــم يكن الوصول إلى هذا الاتفاق بيننا سهلا، بعضنا كان يقدر الأمور بأنـــنا يمكـــن "تربيهم"، والبعض كان يرى أن لا فائدة وعلينا الانسحاب إلى عمان. ولكن النقاش أكد أننا لن نتعامل مع الناس من موقع القمع والقوة ولن ننسحب من مواقع هي في الأساس سياسية أكثر منها عسكرية، وأنه حتى لو حدثت خسائر فعندما تدرك الجماهير أنها كانت مخطئة فستأتي إلينا أفواجا.

عـــند فجر اليوم التالي، ٣-٩، تحرك اثنان من الأخوة إلى عمان عبر طـــرق فرعـــية كانت مفتوحة وحملا معهما رسالة إلى الأخوة هناك تشرح الوضـــع وتقـــترح تفويـــت الفرصة على أي عميل بأن تطلب ما يسمى في أعـــراف البدو "بعطوة تفتيش" أي أن نقبل الاتهام، ولكننا نطالب بتحقيق من المشايخ وذلك بدلا من اعتبار الأمر كأنه سيئا لم يكن. للأسف جاء الرد بعد يومين بأنه لا ضرورة لذلك مع تبرير استفزازي عن عواقب أي مساس بنا. ولقد فضلت عندها ألا أبلغ مضمون الرد لبقية الأخوان. ولا أعرف حتى الآن من الذي أرسل هذه الإجابة!!

٣-٩-١٩٧٠ ..

مضـــى النصـــف الأول من النهار في حوار مرهق مع شيوخ العشائر فرادي ومجتمعين. أكد كل منهم على انفراد عدم موافقته على قرارات الأمس

بعد أن عرفوا أنني عرفتها ولكنهم، مجتمعين، كانوا يصرون على ضرورة فعل شيء ما ينقذ الموقف بعد حادثة القتل هذه.

كانت السيارة المسلحة التي جاء بها الأخوة من معان لا تزال تقف بجوار العيادة وقد لاحظها الأهالي، وعندما صعد الشبل إليها وانزل رشاش الجرينوف جاؤوا واحدا بعد لآخر واعتبروا أن هذه البادرة دليل النوايا الطيبة من ناحيتنا ودليل الثقة فيهم أيضا.

بعد الظهر أخذت حركة السير تنشط قليلا بين الشوبك ومعان وكانت فرصة لعودة الأخوة مع سيارتهم ولكن بدون الرشاش إلا بعد الوصول إلى الطريق الدولية، أي خارج منطقة الشوبك. كما أمكن إرسال رسالة أخرى إلى عمان مع أحد الأخوة الطلاب من المدرسة الزراعية الذي أكد لي أنه سيمر بأمان لأسباب عشائرية باعتباره من أبناء عشيرة أردنية كبيرة في الشمال.

عند الغروب توجهت لزيارة القاعدة القريبة في المنطقة [٧كم] وعند مروري بقرية "الجاية" دعاني شيخها ولما جلسنا اجتمع حولنا أهلها. وحين أبلغني أننا يجب أن نرحل في أمان بدلا من المشاكل انقسم أهل القرية وتصايحوا، فذكرت له أنني مطمئن لأننا لم نفعل ما يسيء وأنني لن أتصرف إلا بأوامر من القيادة.

في هذه الليلة اتصلنا تليفونيا بالطفيلة. كان الوضع متوترا ولكن دون أن يحدث شيء. أما في الكرك فقد عرفنا أنه تمت محاولة استفزاز من جانب جنود يرتدون ملابس مدنية [اصطلح على تسميتهم بالجنود المجازين] حاولوا التظاهر ضد العمل الفدائي والوجود الفدائي وإطلاق النار ولكن القوة المتمركزة بالقرب من الكرك [سرية جيش التحرير وبعض عناصر من فتح والصاعقة والجبهة الشعبية] أسرعت بالتمركز في قلعة. وفي الوقت نفسه تحركت القوى الوطنية في المدينة وهي قوى ذات نفوذ سياسي وعشائري وأوقفت محاولة الاستفزاز وطردت العناصر الاستفزازية من المدينة وهدأت الحالة.

٤-٩-١٩٧٠ ..

كـــان اليوم يوم الجمعة: موعد عيادة معان، وموعد اجتماع أكبر مؤتمر للعشائر دعا إليه الشيخ فيصل الجازي في "الحسينية". وكان لابد من الذهاب إلى معان حتى لا يفسر عدم فتح العيادة في هذا اليوم كبادرة انسحاب وحتى تكون متابعة أخبار توتر العشائر أولا بأول.

وصلت إلى معان عند الظهر، لم يكن هناك أي شيء على الطريق من الشوبك حتى معان. لاحظنا يومها أن عدد المرضى الذين جاؤوا قد انخفض إلـــى الثلث ومعظمهم حذرنا مما يدبر لنا. أكدت تقارير "الرصد" أن وجوها غريـــبة كثـــيرة موجـــودة في البلد، وأن سيارات لاندروفر مسلحة وتحمل مسلحين تجوب البلدة أيضا تستفز الفلسطينيين بالشتائم والإهانات. أما أخبار مؤتمر العشائر فقد وصلت في السادسة مساء.

عقدنـــا اجـــتماعا في مقر مكتب "فتح" في معان وتداولنا في الأوضاع وعرفنا أن قرارات مؤتمر العشائر تتضمن إجلاء الفدائيين عن الجنوب وغير ذلك من قرارات تدعم الملك. وأعلن واحد من الشيوخ أنه في حال عدم تنفيذ المطالـــب "نفصل من القطرانة وجنوب وننضم للسعودية". قدرنا أنه في حال بدء أي هجوم ستكون منطقة الشوبك هي هدف المهاجمين لوجود قاعدة فدائية هـــناك. وأكدنـــا اتفاقـــنا السابق: لا انسحاب ولا اختفاء ولا إطلاق نار على الجماهـــير. وعدت إلى الشوبك فبلغتها في المساء. وهناك عرفت أن جثمان الجندي القتيل سيصل المنطقة في اليوم التالي وكأن الأمر مرتب لكي يتوافق وقرارات مؤتمر العشائر.

٥-٩-١٩٧٠ ..

مـــنذ الصـــباح الـــباكر تواردت شائعات عن تظاهرات معادية للوجود الفدائي في الجنوب تطوف شوارع معان وتطلق النار في الهواء، وأن هناك تظاهرة مماثلة تتجمع في ساحة الطفيلة ولكنها لم تنجح في جمع أحد حولها.

أمـــا في الشوبك فقد عقد شيوخ العشائر اجتماعا في ساحة أمام العيادة الشعبية عند مكتب البريد، ثم أرسلوا في دعوتي إليهم.

ذهبت حيث وجدت معهم من قدموه باسم الزعيم علي م من الجيش ومن أبـنـاء المنطقة. دار الحديث حول ضرورة عمل شيء [أي أخذ عطوة ودفع دية] بالنسبة لحادث القتل حتى يمكنهم تفويت الفرصة على "أولاد الحرام". لم يكن الرفض المباشر ممكنا ولا معقولا ولكنني طلبت منهم أنه "إذا اقسم أربعة مـــن العقـــال علـــى أن القاتل هو من "فتح" أو حتى من الفدائيين فأنني على اســتعداد لطلــب العطــوة فــورا بــل وأفوضهم هم كجاهة لطلبها من أهل المغدور". بالطبع لم يقبل واحد منهم بأن يقسم على ما طلبت. فليس من بينهم من شاهد الحادث ولا تحقق من تفاصيله. انتهى الاجتماع بأن استأذنت منهم وتركـــتهم يتداولون وعدت إلى العيادة. ومضى النهار في اتصالات مع أهل الشوبك أنفسهم الذين كانوا يتصرفون جميعا كأنهم يبحثون عن مخرج يضمن عـــدم المساس بالفدائيين وفي الوقت نفسه يهدئ ثائرة عشيرة المغدور ويغلق الباب أمام الذين يحاولون تفجير منطقة الشبوك من خارجها.

طوال الوقت كانت الشائعات تصل عن أحداث دامية في معان.

وعند الغروب اتصل محافظ معان بي تليفونيا وأبلغني بصوت متأثر أنه حدثـــت أحـــداث مؤســـفة وأن هناك أربعة قتلى وسبعة جرحى من الفدائيين وســـألني عن كيفية التصرف بجثث القتلى: هل يدفنون في معان أم سننقلهم إلى عمان؟. سألته عن هوية القتلى فقال بعد تردد: أحدهم كان يعمل ممرضا معـــك. عـــرفات أنه سمير عزام لم استطع السيطرة على انفعالاتي "بكيت" ورفضـــت دفـــن الشهداء في معان وطلبت منه ضرورة تسهيل وصولي إلى معان حتى أرى الشهداء والجرحى قبل أن أقرر أي شيء.

*

أحداث معان

هذه هي أحداث معان كما رواها لي من شهدوها والذين شاركوا فيها في اليوم الثاني:

في السابعة والنصف من صباح يوم ٧٠/٩/٥ دخل إلى المدينة حوالي " ١٥٠" من الجنود الذين يرتدون ملابس مدنية ["جنود مجازون"] وانضم إليهم صباح كريشان وعدد من رجاله في سيارات مسلحة، وطافوا في البلدة يهتفون بشعارات معادية للفدائيين والثورة وبحياة الملك حسين. أغلقت المدارس وخلت الشوارع من الناس خوفا مما سيحدث وتجمع عدد من تلاميذ المدارس حول التظاهرة التي توجهت إلى مقر المحافظ. هناك خرج إليهم المحافظ وألقى فيهم كلمة حاول فيها تهدئتهم وطالبهم بالعودة إلى أعمالهم والكف عن أعمال الإثارة ووعدهم بأن ينقل مطالبهم [إجلاء الفدائيين] إلى "سيدنا" [الملك]. ولكن التظاهرة تركت مبنى المحافظة وتوجهت نحو مكتب "فتح".

طلب المحافظ إنزال قوات الجيش الموجودة بالقرب من معان ولكن هذا الطلب لن ينفذ على الفور وأرجيء البت فيه.

في هذه الأثناء كانت عناصر مكتبي الجبهة الشعبية والصاعقة (وهم ثلاثة في مجموعهم) قد انتقلوا إلى مكتب "فتح" وأصبح عدد الموجودين فيه أحد عشر أخا.

أخذت مظاهرة الجنود تطلق النار وقذائف الانيرجا نحو المكتب وقد ساقت أمامها مجموعة من أطفال المدارس. لم يطلق أحد من الموجودين في المكتب النار. ولم يكن ممكنا ليس لأننا اتفقنا على عدم إطلاق النار على الجماهير فقط وإنما لأنه: "على من نطلق النار، على أولاد وبناء صغار؟!" حسب ما قاله لي أحد الأخوة الجرحى في اليوم الثاني.

استمر إطلاق النار نصف ساعة. طوال الوقت كان الشهيد سمير عزام [كادر من التنظيم الطلابي لفتح التحق بالقطاع الجنوبي في أول حزيران

١٩٧٠ وأرسل إلى معان لدعم النشاط فيها بالكوادر] يردد بأعلى صوته الأمر بعدم إطلاق النار على الجماهير. استشهد اثنان من الأخوة. نزل سمير من فوق سطح المكتب وفتح الباب وخرج إلى المتظاهرين، وتقدم حتى وقف بينهم. توقف إطلاق النار وسمع سمير وهو يقول بصوت عال: "نحن أخوة. جينا هنا لمحاربة الإسرائيليين وتحرير فلسطين..." ثم سمعت طلقة واحدة [أطلق أحدهم النار من الخلف على الشهيد]. سقط سمير على الأرض وتقدم عميل وداس على رقبته بالبسطار وقال: "جول يعيش سيدنا".حاول سمير أن يرفع جسمه على ذراعيه فأطلق عليه العميل النار فاستشهد...

في هذه اللحظة أنتشر إطلاق النار في المدينة كلها. خرج الأهالي من البيوت وخرج من بقي حيا من الفدائيين من المكتب وأخذت العائلات تدفع بهم إلى البيوت. وأطلق رجال الأمن النار على بعضهم البعض وعلى المتظاهرين والفدائيين وكاد الأمر يتحول إلى حرب أهلية. عندئذ وصلت كتيبة من الجيش وفرض حظر التجول. ونقل أربعة شهداء وسبعة جرحى إلى المستشفى. وبدأت الاتصالات مع شيوخ العشائر للسيطرة على الموقف. وانسحب الجنود المجازون.

الشهداء في هذه المذبحة هم الشهيد سمير عزام (سبق تعريفه) والشهيد صبحي جبريل (مساعد صيدلي – كادر في القطاع الجنوبي) والشهيد حسن سليم (من التنظيم الطلابي – فتح معان، من أسرة فلسطينية تقيم في المنطقة منذ ١٩٤٨) ولشهيد محمود حسن (من التنظيم الطلابي – فتح – معان – من أسرة فلسطينية تقيم في المنطقة منذ ١٩٤٨).

لابد أن نذكر أن جميع الأخوة في المكتب كانوا مسلحين بأسلحتهم الفردية، بالإضافة إلى رشاش متوسط مع ذخيرته، و١٠ صواريخ ٣,٥ بوصة. وهو قدر من السلاح كاف إذا استخدم لإيقاع إصابات كبيرة بين المهاجمين. كما لم تحدث حوادث سلب ونهب لأي مقر أو مكتب باستثناء المكتب الذي هوجم واحترق نتيجة قذائف الانيرجا. ظلت العيادة بما فيها سليمة لم يتقرب منها أحد.

*

أحداث الطفيلة .

فـــي الطفيلة كانت المحاولة نفسها التي تمت في معان، ولكن الأوضاع في الطفيلة كانت غير الأوضاع في معان. فالطفيلة منذ بداية الوجود الفدائي فـــي جنوب الأردن، كانت مركزا للقيادات والنشاطات كما أنها سكانيا تتكون مـــن عشائر غير بدوية وذات تاريخ وطني وفيها عناصر نشطة سياسيا لعدد من الأحزاب العقائدية.

صــــباح يـــوم ٧٠/٩/٥ لم يكن في الطفيلة سوى أربع عناصر حراسة موجوديـــن في العيادة ومقر قيادة جيش التحرير الفلسطيني. دخلت مجموعة من "الجنود المجازين" القادمين من خارج الطفيلة وبدأوا الهتاف ضد الوجود الفدائـــي في ساحة البلدة ثم أطلقوا النار في اتجاه مقر العيادة والقيادة. خلت الشـــوارع مـــن الـــناس تماما وكان واضحا أن مجموعة "الجنود المجازين" معـــزولة عـــن أهـــل البلدة. استخدم الفدائيون مكبر صوت يدوي في توجيه نـــداءات وإنـــذارات تطالـــب بوقـــف هذا العمل الاستفزازي ولكن "الجنود المجازين" استمروا في إطلاق النار. أصيب إصابة قاتلة رجل بسيط كان في حديقـــة مبـــنى الـــبلدية الواقع بين ساحة البلدة وبين العيادة. حاول الفدائيون الأربعـــة الوصول إليه وسحبه إلى العيادة لعلاجه، ولكن الجنود أطلقوا النار تجاههم. عندئذ أطلق الأخوة قذيفة "ب٧" انفجرت في الهواء [العيادة تقع أسفل تلة والساحة عند منتصفها] ثم وجهوا نداءاتهم بمكبر الصوت. توقف إطلاق الـــنار، ثم حضرت امرأة إلى العيادة وأبلغت الشباب أن الشيخ رئيس البلدية يطلب منهم عدم إطلاق النار وأنه سيتم إبعاد "الجنود المجازين" من البلدة.

فـــي هذا الوقت كانت مجموعة من مجموعات جيش التحرير المتواجدة علـــى طـــريق الكرك – الطفيلة قد بلغها ما يحدث في الطفيلة فتحركت نحو مثلـــث الطفـــيلة الواقع على قمة الجبل وأغلقت الطريق إليها. وعند وصول

بـــاص من الكرك إلى الطفيلة احتجزته بركابه وأطلقت ثلاثة صواريخ على الـــوادي المجاور للطفيلة كإنذار ثم أرسلوا وفدا من ركاب الباص إلى البلدة يحمل رسالة إلى شيوخها.

ثـــم وصل من الكرك عدد من الأخوة المسئولين بينهم طبيب الخدمات الطبية بقوات العاصفة المتواجدة في منطقتي الكرك والطفيلة وساهم ذلك في عـــدم تصعيد الرمايات وتهدئة خواطر ركاب الباص الذين سمح لهم بمتابعة السير إلى الطفيلة.

أعقـــب ذلك اجتماع عقد في مبنى المديرية في الطفيلة حضره ممثلون عن الفدائيين بينهم الطبيب كما حضره شيوخ عشائر الطفيلة ورئيس المجلس الـــبلدي اتضح في هذا الاجتماع أن ما حدث كان من تخطيط وتنفيذ قوى من خارج الطفيلة لتنفيذ قرارات مؤتمر العشائر الذي عقد في اليوم السابق. ولكن ســـكان البلدة تمسكوا بوجود "فتح" وجيش التحرير وواجهوا المطالبين بإبعاد الفدائيين بحزم. وتم الاتفاق على ذلك، إذا لم يكن موجودا في المنطقة بالفعل ســـوف فـــتح وجـــيش التحرير ولكن لسبب لم أفهمه حتى الآن قرر الأخوة العســـكريون مـــن جيش التحرير ضرورة سحب المتواجدين في الطفيلة لى لكـــرك بحجة التجمع وعدم الانتشار في هذه الظروف والتركيز على مدينة الكرك.

وهكـــذا خرج الفدائيون من البلدة، وقد أدى ذلك – كما ابلغني واحد من شيوخ الطفيلة فيما بعد – إلى إضعاف موقف العشائر المؤيدة للفدائيين وسمح لأنصـــار الملـــك بأن يعيثوا فوضى وفسادا في البلدة، فهاجموا العيادة ومقر القيادة المجاور ونهبوهما وعندما حاول رئيس المجلس البلدي وقفهم، صفعه على وجهه في ساحة البلدة واحد من "الجنود المجازين". فانسحب الرجل إلى قريته خارج الطفيلة بعد أن أدرك أن هذه هي أوامر القصر عقابا على موقفه السابق.

٦-٩-١٩٧٠ ..

قبل الفجر وصلت من معان إلى عيادة الشوبك سيارة جيب تابعة للأمن العام وفيها أربعة جنود مسلحون. كان الاتفاق قد تم مع محافظ معان أن لا يتم دفن الشهداء الأربعة قبل أن أراهم، فأرسل السيارة في هذا الوقت لاصطحابي إلى معان. كان الجنود متوترين وعندما خرجت معهم طلبوا مني أن أحمل سلاحي كاملا معي وأكون مستعدا في الطريق. أجلسوني في المقعد الخلفي بين اثنين منهم. من الواضح أنه تم اختيار الجنود بعناية على أساس موقفهم من العمل الفدائي. كان اثنان منهم فلسطينيين والآخران من منطقة الشمال.

وصلنا إلى معان وتوجهنا على الفور إلى منزل رئيس شرطة المحافظ الزعيم نواف سعود القاضي. هناك تركت سلاحي وتوجهت في السيارة نفسها مع الجنود ذاتهم إلى مستشفى معان.

كنت أعرف المستشفى جيدا، والعاملين فيه بل وبعض المرضى أيضا. أسرعت إلى القاعة التي خصصت للشباب الجرحى الذين أصيبوا في اليوم السابق. أحدهم أجريت له عملية بتر تحت لركبة والباقون في حالة جيدة نسبيا. بكى واحد منهم عندما ذكر سمير عزام وما يجري له، وقال الآخر: "ما طخيناش ولا كان ممكن نطخ، نطخ على مين، على أطفال سايقينهم قدامهم". طلب مني أحدهم أن اطمئن عائلته ونبهني أن إذاعة الثورة قد أذاعت في مساء اليوم السابق أن جميع الموجودين في معان قد ذبحوا وعائلته تعرف أنه في معان. طمأنتهم ووعدتهم بالعودة مرة أخرى، ونزلت إلى حيث قيل أن الشهداء أودعوا.

كانت غرفة كبيرة نسبيا في الطابق الأرضي.. ليست هي غرفة الموتى في المستشفى ولابد أنها مخزن أفرغ على عجل.. كانت عارية من كل شيء. ليس فيها إلا الشهداء الأربعة الذين وضعوا على الأرض بجوار بعضهم وبين كل منهم والآخر مسافة متر تقريبا. أمام الباب الذي يفتح مباشرة على الساحة الخلفية للمستشفى كان صبحي جبريل، بشعره الأحمر

ووجـــه ذي النمش وصرامته المعهودة. بقعة صغيرة من الدماء كانت تحت الـــرأس مباشرة. على يساره كان سمير عزام. ازداد وجهه سمرة وهدوءا. ذراعاه مثنيتان على صدره ولكن دون أن تتقاطعا، بنطلونه مخضب بالدماء مـــن الناحية اليمنى وقد انزاح قميصه الخارجي والداخلي عن بعض صدره وخاصرته ومخرج الرصاص القاتلة واضح. على يسار سمير كان واحد من الشـــهيدين محمود حسن أو حسن سليم كان يميل بوجهه نحو الحائط الأيسر ولـــم استطع رؤيته جيدا فقد كان في زاوية الغرفة البعيد المعتم ولكن مؤخرة الرأس كانت مهشمة تماما، ثم الشهيد الرابع.

اقتربـــت من صبحي ومن سمير ووقفت بينهما، وقبل أن انحني عليهما ســـمعت صوت الممرضة خلفي وهي تناديني "الحق يا حكيم.. الحق يا حكيم واحـــدة بتولد وجالها نزيف".. استدرت وتبعتها. في الطابق الثاني، في غرفة الولادة كانت امرأة على طاولة التوليد شاحبة الوجه وفي جوارها طفل حديث الـــولادة، وهي تنزف. أدركت أن الحبل السري قد انقطع من الممرضة أثناء التولـــيد. طلبـــت من الممرضة أن تجهز كفوفا طبية وأسرعت أربط الحبل السري للطفل بملقط جراحي. وربت على رأس المرأة مهدئا فتمتمت بدعوات لـــم أسمعها ثم ارتديت الكفوف وأخذت أحاول الإمساك بطرف الحبل السري الآخـــر الذي ارتد إلى رحم المرأة نازفا. بعد دقائق أمسكت به وربطه بملقط جراحي آخر وطلبت من الممرضة تركيب مصل للمرأة. وعندما كنت أنزع الكفـــوف سمعت المرأة تمتم بصوت أعلى بالدعوات. استدرت قبل أن أغادر الغرفة وقلت لها : "الحمد لله على السلامة".

نزلـــت إلى مدخل المستشفى حيث الجنود ينتظرونني. سمعتهم يتحدثون عـــن توجه شاحنات تحمل أعدادا كبيرة من بدو وادي القويرة [لم نكن نصل إلى هناك أبدا ولا صلة لنا بهم] إلى الشوبك حيث سيقومون بحصار القاعدة والعـــيادة. طلبـــت من الجنود أن نسرع بالعودة فأخذوني إلى منزل الزعيم نواف القاضي (أبو عرب) حيث تركت سلاحي. حاول أن يقنعني بالبقاء عنده ولكنني أقنعته أن وجودي في الشوبك ضروري لحماية بقية الأخوة هناك وأن

عــدم عودتــي سيقلقهم على أي حال. أمرهم بإعادتي بسرعة والاحتياط في الطــريق. وعــندما قطعنا مثلث أبو مخطوب على طريق عنيزة – الشوبك شــاهدت أحد الأخوة من ميليشيا البدو المفترض وجودهم على مسافة "٤" كم من هذا المكان. كان وحده ومتجها نحو الجنوب. أدركت أن شيئا ما قد حدث للقاعدة.

عند وصولي إلى العيادة أصبحنا أربعة: السائق والشبل والمدرس وأنا. علــى بعــد ســبعة كــيلو مترات كانت القاعدة وبالقرب منها كان مستودع التموين، وعلى مسافة أربعة كيلومترات جنوبا كانت المدرسة الزراعية حيث أقرب تجمع غير عشائري.

ســلاحنا كان أربعة بنادق آلية مع كل منها وحدتان ناريتان ومسدسان ورشاش متوسط ""الفا" مع سبعة مخازن. كان لدينا طعام محفوظ وبطاطا.. لم يكن لدينا خبز.

أشــرقت الشــمس من وراء التلة الواقعة أمام العيادة. كانت الساعة قد بلغت حوالي السابعة صباحا... حضر قائمقام الناحية معزيا في شهداء معان وطلب مني بلطف أن نضبط أعصابنا وقال أنه سيبذل أقصى ما يستطيع.

عــند خروجه تقابل في الطريق أمام العيادة مع جرار يسحب مقطورة مليــئة بالبدو القادمين من خارج المنطقة. أشار لهم بالوقوف فأجابوه بإطلاق الرصاص في الهواء.

لاحظــنا من باحة العيادة أن المسلحين ينتشرون في حرض التلة الواقع أمام العيادة وحتى الساعة العاشرة كنا نسمع طلقات نارية من مسافات بعيدة ولكن لم يكن إطلاق النار من الحرش..

بعــد حوالي نصف الساعة سمعنا هرجا شديدا على الطريق وصيحات، ثــم لاحظــنا ازدياد عدد المسلحين في الحرش أمامنا. وبدأ إطلاق النار في الهــواء بكثافة، جاءنا من يقول أن القاعدة لم يعد فيها أحد منذ الصباح وأن الجيش قد أخلى مستودع التموين واعتقل الأخوين الموجودين هناك.

تقــدم نحونا رجل مسن يحمل بندقية إنجليزية قديمة. لم يكن من أهالي الشــوبك. كــنا نحن الأربعة متوزعين داخل وخارج غرفة العيادة في الظل وخلــف الجــدران ولم يكن سهلا على الواقفين في الخارج تحت الشمس أن يــرونا.. بســرعة خلعت الجبعة الصدرية ووضعت البندقية جانبا وخرجت لملاقاة الرجل.

عــندما وصــل إلــى باحة العيادة سأل عن الحكيم فلما أجبته أخذ يهدد ويــتوعد ويلوح ببندقيته ويطلب منا أن نرحل. كانت كلماته: "أجلب (اقلب) وجهك" تتكرر كأنما لا يعرف غيرها.

فــي لحظات، وكأنما هبطوا من السماء، وجدت عددا من رجال ونساء الشــوبك وقــد أحاطونــي بحيــث يصعب إطلاق النار من على التلة دون إصــابتهم، علــت أصــواتهم جميعا تطالب الرجل بالرحيل وتطيب خاطرنا وتنصحنا بالابتعاد عن الخطر. عندما خرج الرجل مهددا بقي عدد من أهالي الشوبك معنا.

قــال لــي شيخ جليل منهم: "نحن لم نقتل الأتراك كغيرنا وقت أن جاء لورانــس. أنــتم خدمــتمونا ولم نر منكم شرا ولا يمكن أن نسمح لأحد بأن يمسكم".

عرفــت ســاعتها أن هذا هو قرار أهل الشوبك.. بقينا في العيادة حتى الواحــدة ظهرا. لاحظنا وصول سيارات مسلحة من الأمن والبادية والجيش. وعرفــنا مــن أهل الشوبك أن المحافظ ومدير شرطة معان وشيوخ العشائر مجتمعون في مقر مديرية الشوبك التى تبعد حوالي مئتي متر عن العيادة.

ثــم حضــر إلــى العيادة ملازم أول يدعي رياض ومعه سيارة مسلحة برشــاش "٥٠٠"، وأبلغنــي أن "ســعادة المحافظ يطلب حضوري إلى مقر المديرية".

خرجــت معه فأسرع واحد من جنوده بالسير بجواري فأصبحت بينهما وفهمــت أن ذلــك لحمايتي من أي محاولة قنص. ورغم أن المسافة قصيرة ركبنا السيارة المسلحة.

أمـــام مبـــنى المديرية لاحظت أن عددا من أتباع الشيخ فيصل الجازي وحراساته يقفون على الجانب الأيسر من الطريق. نزلت من السيارة فسمعت أحدهم يقول بلهجة مصرية متعمدة: "هوه ده الجدع.. معاه فرد على وسطه... خذه منه".

هي لحظات، وأمامي درج من خمس درجات كنت على أولها عندما سمعت وقع الأقدام خلفي وكنت على آخرها عندما دفعت اليد التي امتدت إلى مسدسي ودخلت غرفة الاجتماع.

كان محافظ معان يجلس خلف طاولة قائمقام الناحية، بجواره جلس الزعيم نواف سعود القاضي. وكان الشيخ فيصل الجازي جالسا أمام الطاولة وفي الغرفة الصغيرة اجتمع كل شيوخ عشائر الشوبك وعدد من شيوخ الجنوب.

دار حوار متوتر.. وفهمت أن هناك بعض العشائر تطلب رحيلنا من المنطقة، ولكن عشائر الشوبك ترفض أن تطلب منا ذلك، ولا أن يمسنا أحد بسوء. والمشكلة أن هذا الموقف قد يؤدي إلى اقتتال العشائر. عندما تحدث الشيخ فيصل الجازي حاول أن يفصل بين العيادة ومن فيها وبين وجود القواعد الفدائية فأوضحت لهم أن وجود العيادة هو نتيجة وجود الفدائيين.. ثم سألته: "لنا ثلاث سنوات في الجنوب، هل يمكن أن تذكر خطأ واحدا ارتكبناه في حق سكانه؟". فقال: "اشهد بالله أبدا.. ولكن أخوانكم في عمان ذبحوا ولادنا". قالها بإشارة من يده تدل على الذبح..

قلت على الفور: "ولا تزر وازرة وزر أخرى". فصاح الشيخ هارون الجازي شيخ الحويطات أدرح "صدق اله العظيم.. صدق الله العظيم".. وتمتم الحاضرون بها.

هدأ الجو قليلا. سألت عن مصير الأخوين اللذين اعتقلا، فأخذني الزعيم أبو عرب (نواف القاضي) إلى غرفة أخرى حيث وجدتهما جالسين وأمامهما طعـــام الغـــذاء. كما عرفت أنه تم تفتيش المدرسة الزراعية ومنازل الأسر الفلسطينية بحثا عن السلاح.

أما عن القاعدة القريبة، فعندما بلغ من فيها من الأخوة نبأ الانسحاب من الطفيلة انسحبوا باتجاه الكرك عبر الجبال تاركين وراءهم الأخ الذي رأيته في الصباح ليبلغهم بما سيجري.

ألح المحافظ ومدير الشرطة، على ضرورة مغادرة المنطقة ضماناً لأمننا، ونبهانا إلى حرج عشائر الشوبك التي لا تريد الدخول في قتال ضد عشائر أخرى وبالذات ضد فيصل الجازي. وفي الوقت نفسه لا تريد إخراجنا من عندها. اتفقنا أخيرا أن أعلن رغبتنا في مغادرة المنطقة مؤقتا حتى نحول دون اقتتال الأخوة شاكرين لأهل الشوبك ما قدموه، وأن يعلن المحافظ من جانبه استضافتنا عنده حتى تهدأ الأحوال ونعود، وأن نخرج بكامل سلاحنا وسيارتنا العسكرية معنا.

عدنــا إلــى مقر الاجتماع حيث أعلنا ما اتفقنا عليه. بالطبع مانع أهل الشــوبك من قبيل المجاملة والحفاظ على الكرامة ولكن كان واضحا أنهم قد ارتاحوا للقرار.

رتــب المحــافظ ومديــر الشــرطة "موكبنا".. عدنا إلى العيادة، ومعنا الأخــوان اللــذان كانا قد احتجزا من مستودع التموين. حمل كل منا سلاحه ووزعــنا مدير الشرطة على السيارات المسلحة بين جنود البادية وضباطها. أمــا سيارتنا فقد قادها أحد شيوخ الشوبك وجلس بجواره الأخ السائق وعلى يمينه بجوار النافذة شيخ آخر. كما تعمد مدير الشرطة أن يعلن عن الطريق الــذي سنسلكه إلى معان أمام الحاضرين والمتجمهرين. ودعنا بعضنا وبكينا وانطلق الموكب.

غــير ضابط القوة طريق الموكب المعلن وقال لي – وكنت أجلس بينه وبين سائق السيارة: "هذه هي الأوامر الحقيقية".

كــان مدير الشرطة يخشى الكمائن على الطريق وقد رأينا واحدا منها ينتظر عند مدخل معان الشمالي من حيث كان يتوقع وصولنا، ولكننا دخلناها من الجنوب.

أفــردت لنا قاعة كبيرة في الطابق الثاني من مبنى المحافظة أمام مكتب مديـــر الشرطة وبجوار مكتب المحافظ. فرشت بالفرشات والبطاطين. وفيها أقمنا تسعة أيام حتى رحيلنا إلى عمان يوم ١٥-٩-١٩٧٠.

فـــي مساء يوم ٦-٩-١٩٧٠، زارنا في مقرنا الجديد في محافظة معان الشـــيخ محمد الشراري وعدد من شيوخ معان ومعهم مدير الشرطة وكانت مناســـبة نشرح فيها وجهة نظرنا فيما حدث. كانوا متأثرين لاستشهاد الشباب الأربعـــة وأنكروا مرارا أن يكون أي واحد من أبناء معان قد شارك في هذا العمل. أكدنا لهم أننا نعرف الفاعل بالاسم وأنه حتى لو كان من معان فليس معنى ذلك أن عشيرته أو أبناء بلده يوافقونه.

ســـألنا الشـــيخ الشراري عن السبب الذي جعل الشباب لا يطلقون النار على "المظاهرة" فقلت له: "لأننا نريد تحرير فلسطين، ومعان مدينة هامة في الطـــريق إليها. ولو كنا أطلقنا النار لقتلنا على الأقل عشرين قبل أن يستشهد لشباب، ولكننا كنا قد أقمنا بذلك عشرين حاجزا من الدم العشائري بيننا وبين أهل معان. الآن نحن لنا حق.. نؤجله حتى تحرير فلسطين، وقد نتنازل عنه لوجهها بعد ذلك".

قـــال واحد من الشيوخ: "سيبقى دم الشباب على رؤوسنا في معان وحق لكم.. عار علينا وعلى أولادنا".

ثم استأذننا الشيوخ في دفن شهدائنا الأربعة نظرا لانقطاع طريق عمان. وافقنا شرط أن يودع كل منهم في تابوت ويكتب عليه الاسم حتى يمكن نقله فيما بعد..

وانـــتهى يوم ١٩٧٠/٩/٦، وقد انتهى الوجود الفدائي العلني في جنوب الأردن باســـتثناء قوة جيش التحرير الفلسطيني ومن لحق بها المتمركزة في مدينة الكرك.

*

* *

خاتمة بدون تفاصيل

بقينا تسعة أيام في "ضيافة" المحافظ. كنا "معتقلين" فيما يخص التحرك ولكن كان معنا صلاحنا، ونستقبل زوارنا ونتلقى الطعام من منازل الأنصار والعشائر الصديقة.

زارنا كل شيوخ العشائر التي كانت لنا بها علاقة تقريبا، استنكروا ما حدث وجددوا تأييدهم لنا، وكان أبرز الزائرين الشيخ محمد أبو تايه الذي لم نكن قد اتصلنا به من قبل لوجود عشيرته الكبيرة شرقي الطريق الدولي في الصحراء الممتدة حتى العراق.

تجمع معنا في القاعة عدد من الأخوة الذين خرجوا من المستشفى بعد شفائهم واثنان آخران كانا مختبئين.

في يوم ١٩٧٠/٩/٩ عرفنا من إذاعة الثورة أنه قد تقرر الدعوة إلى الإضراب العام حتى إقامة حكم وطني ديمقراطي في الأردن. كان معنى ذلك ضرورة الإسراع بالوصول إلى عمان قبل صدام محتوم ونحن في عزلة في معان.

ألحينا على مدير الشرطة أن يسهل لنا ذلك قبل موعد بدء الإضراب [١٩٧٠/٩/١٧] وقد فعل. رتب لنا موكبا مسلحا، انتقى له ضباطا وجنودا من البادية ليضمن أن يحافظ علينا خلال الطريق الدولية الطويلة المهجورة والمقطوعة إلى عمان التي وصلناها في عصر يوم ١٩٧٠/٩/١٥ ونقلنا على الفور إلى مقر قيادة الكفاح المسلح، ومنها إلى مقر القيادة العامة لقوات العاصفة، ومن ثم التحق كل منا بوحدته وقطاعه.

أما القوة المتبقية في مدينة الكرك، فإنها قرب انتهاء أحداث أيلول وتوقف القتال تركت الكرك بدون سبب واضح لي حتى الآن، وتمركزت في وادي الموجب السحيق. وهناك شن الطيران الأردني غاراته عليهم وتم الاتفاق على انتقالهم إلى عمان برعاية اللجنة العربية.

*
* *

اعتذار ضروري

بعض التفاصيل كان من الضروري ذكره، والكثير منها أغفل عمدا رغم تذكره.

لـــم تكـــن أيام أيلول في جنوب الأردن ثمرة جهود أفراد معينين وإنما جهـــود مجموعـــة كبيرة من الأخوة الذين لا يزال بعضهم يمارس مسئولياته والذين قدم بعضهم حياته على الطريق في أيلول وبعد أيلول.

كما أن عدم ذكر مواقف وأسماء أولئك الذين وقفوا إلى جانب الفدائيين فـــي جنوب الأردن دافعه الخوف عليهم فهم لا يزالون هناك، وهم لا يزالون معـــنا.. لـــم نـــنقطع عنهم ولم ينقطعوا عنا، وبعضهم دفع الثمن من راحته وحريته ورزقه.

يقـــول "خـــبراء" أن البدوي لا يحترم إلا أحد أحمرين: الدم أو الذهب، وتقـــول خبرة الثورة الفلسطينية في جنوب الأردن أن شيئا آخر يحبه البدوي ويحـــترمه أكـــثر كثيرا من هذين الأحمرين: ذلك هو الانتماء الفعلي للناس وللأرض وللقضية.

حوار في ظلّ البنادق

التاريخ والأمة والطبقة والتجمع الصهيوني*

[يدور "الحوار" في هذا الكتاب حول فكرة "**فلسطين الديمقراطية**" الحاضنة للمسلمين والمسيحيين واليهود على أساس المساواة في الحقوق، التي طرحتها حركة **فتح** على العالم في أواخر ستينات القرن العشرين كحلّ لمشكلة فلسطين الناجمة عن الغزو اليهودي–الصهيوني لأرضها وعن إقامة دولة إسرائيل، وتفريغ الأراضي المحتلّة في عام ١٩٤٨ من معظم أهاليها الذين تلقّفتهم مخيمات الشتات في البلدان العربية وفي قطاع غزّة والضفّة الغربية لنهر الأردن، أي في ما تبقّى من أراضي فلسطين التي رسمت حدودها القوى الاستعمارية في عام ١٩١٧، ضمن مشروع تفتيت منطقة الشرق الأوسط المسمّى باتفاقية سايكس–بيكو.

والحوار الدائر هنا حول الحل المستقبلي لقضية فلسطين ليس مع من يتقدّم بأيديولوجيا معينة – الماركسية هنا – معتبراً أن الأمر محسوم لمجرّد أن من يبادله الكلام محسوب على المعسكر الأيديولوجي نفسه، وكأن الحلّ يكمن في الانتماء إلى شعار وليس في الموقف العملي من اغتصاب إسرائيل للأرض الفلسطينية. أي أنه لا يتم بين عضو في فتح مصنّف يساري وبين إسرائيلي أو أي فرد آخر ممن يهمّهم الأمر من "الصنف" نفسه. وقد يكون هذا هو جوهر "الحوار" الذي تعبّر عنه كلمات الطرف الإسرائيلي

---

* الكاتب : محجوب عمر
الطبعة الأولى أيار (مايو) ١٩٧٥
الطبعة الثانية تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٨
دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت

المذكـور فـي الكتاب، يهودا أديف، أمام قضاة حيفا حيث كان يُحاكم : "إن هذا الوضع الأعـوج يجب تغييره، وهذا ما حاولت أن أفعله، بالتهيئة للنضال ضدّ دولة إسرائيل وهو ذلك الذي كان حتى الآن بمثابة حرب من جانب العرب ضد اليهود، ونضال للمضطَهَدين ضـدّ مضطَهِديهم في الوقت الذي يقف فيه كل من العرب واليهود على جانبي المتراس.. وهـذا يمكـن عمله بأن يقوم يهود ويثبتوا للعرب الذين يحاربون الصهيونية منذ عشرات السـنين، بـأنهم (أي اليهود) يقفون إلى جانبهم ومستعدّون أن يضحّوا بكل ما لديهم، وأن يتعرّضوا للمعاملة ذاتها وأن يقتسموا وإياهم كل الأمور دون أي تمييز أو أفضلية لكونهم يهودا. وبدون ذلك لن يثق أي عربي بصدق ثورية أكثر ثوري يهودي استقامة"..

عادت الأفكار المعروضة في هذا الكتاب إلى الصدارة بعد أن احتلت إسرائيل مجددا الضـفة الغربية وقطاع غزّة خلال الانتفاضة الثانية –إنتفاضة الأقصى، وبعد أن تكاثرت المسـتوطنات إلـى درجـة تجعـل من التواجد الإسرائيلي على جانبي "الخط الأخضر" (الفاصل بين الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨ وتلك المحتلة عام ١٩٦٧) المُعَرْقِل الرئيسـي للحل القاضي بوجود دولتين متجاورتين، إسرائيلية وفلسطينية، ذلك الحل الذي فرضته معطيات الواقع الإقليمي والدولي، وتبنّته منظمة التحرير الفلسطينية رسميّاً، ربما حقـناً للدمـاء، بإعلان الرئيس ياسر عرفات قيام الدولة الفلسطينية المستقلة في ١١/١٥/ ١٩٨٨، فـي ختام الدورة التاسعة عشر للمجلس الوطني الفلسطيني المنعقدة في الجزائر حيـث تمّ التأكيد على ضرورة عقد مؤتمر دولي ترعاه الأمم المتحدة لحلّ صراع الشرق الأوسـط ولـبّه قضية فلسطين، بحضور الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن والأطراف المعنـية، على أن تشارك فيه منظمة التحرير الفلسطينية، الممثل الشرعي والوحيد لشعب فلسـطين علـى قدم المساواة مع سائر أطراف النزاع، على أساس قراري مجلس الأمن ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧ و٣٣٨ لسنة ١٩٧٣ في مقابل الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني بوطن مسـتقل. وقد رحّبت القيادة الموحّدة للانتفاضة آنذاك، في بيانها رقم ٢٩ الصادر بتاريخ ١٩٨٨/١١/١٩، وبإسـم جميع الفلسطينيين في فلسطين المحتلّة، بالقرارات الصادرة عن المجلـس الوطني وبإعلان الدولة الفلسطينية. وأكّد أبو عمار قرارات المجلس الوطني في كلمته أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة المنعقدة في جنيف، في ١٩٨٨/١٢/١٣.

وكانت بداية المسيرة التي تجسّدت في مؤتمر مدريد، بعد حرب تدمير العراق، سنة ١٩٩١، وفـي اتّفاقـيات أوسـلو سنة ١٩٩٣، وإنشاء السلطة الفلسطينية على جزء من

الأراضي الفلسطينية المحتلة، وما تبعها من محاولات لإرساء السلام أفشلها بداية الجانب الإسرائيلي باغتياله لإسحاق رابين سنة ١٩٩٥، وباختياره خلفا له، من خاض حملته الانتخابية على خلفية المعارضة لمسار أوسلو، بنيامين نيتانياهو الذي بنى استراتيجيته على المراوغة في المفاوضات (ألوف بن، هآرتس ١٩٩٦/١٢/٢٦) وصولا إلى نسف الإطار التفاوضي برمّته، ورفض التعامل بمبدأ "السلام الشامل" و"الأرض مقابل السلام"، واستبداله بما تفرضه "موازين القوى" في ما يتجاوز النطاق الإسرائيلي-الفلسطيني، لشطب مسألة فلسطين من المعادلة إنطلاقا إلى إعادة تشكيل الشرق الأوسط بعد ضرب العراق وسوريا، الخ، وتهميش القانون الدولي بغرس مفهوم الضربات الإستباقيّة.. وهذا بنصّ ما جاء في دراسة عنوانها "**التحوّل الجذري، استراتيجة جديدة لحماية الدولة**" حقّقها سنة ١٩٩٦، بناء على طلب نيتانياهو، فريق إسرائيلي-أمريكي مشترك، "فريق البحث في استراتيجية جديدة لإسرائيل في عام ٢٠٠٠" (ضمّ بعض العاملين الحاليين في إدارة بوش، مثل رتشارد بيرل ودوجلاس فيث)، في إطار مؤسسة الدراسات الاستراتيجية والسياسية المتقدّمة (IASPS)، وهي دراسة كشف عنها في فبراير ٢٠٠٣، صحفيون ومحرّرون أمريكيون (لاسيما روبرت كايزر في الواشنطن بوست بتاريخ ٢٠٠٣/٢/٩، والكاتب الجمهوري جوستين ريموندو في موقع المناهضة للحرب antiwar.com على شبكة الإنترنت، بتاريخ ٢٠٠٣/٢/١٩) قبل أسابيع من اشتعال الحرب الجديدة ضدّ العراق، لدهشتهم من تطابق توصياتها مع السياسة الخارجية للإدارة الأمريكية الحالية.

ناهيك عن تكثيف النشاط الاستيطاني الدال على النوايا التوسّعية الرافضة لقيام دولة فلسطينية مستقلّة، غير مجزّأة. تلك النوايا التي تبلورت أكثر في ظلّ حكومة باراك العمّالية والتي فضحها الرئيس السابق للولايات المتحدة، جيمي كارتر، في مقال نشرته "**الواشنطن بوست**" الأمريكية، بتاريخ ٢٠٠٠/١١/٢٦، بقوله أن "سبب فشل سنوات من الجهد الديبلوماسي للولايات المتحدة واستمرار العنف في الشرق الأوسط يكمن في أن بعض القادة الإسرائيليين يواصلون «فرض الواقع» ببناء المستوطنات في الأراضي المحتلة". وردّد الكثيرون رأي الرئيس كارتر، لاسيما المبعوث الخاص للأمم المتحدة إلى منطقة الشرق الأوسط، تيري رود لارسن، وإن شجب في الوقت نفسه ما سمّاه بـ "العمليات الإرهابية" الفلسطينية.

وفي هذا الإطار، نقلت مجلة "فورواردز" الأمريكية الناطقة بلسان قطاع من الجالية اليهودية، بتاريخ ٢٠٠٢/١٠/٢٥، نبأ مفاده أن السلطة الفلسطينية قد أبلغت إدارة بوش نيّتها التخلّي عن فكرة الدولتين كحلّ للصراع الإسرائيلي-الفلسطيني وأنها، بدلا من ذلك، سوف تدفع باتجاه المطالبة بحقوق المواطنة المتساوية داخل دولة واحدة ذات القوميتين في حال عدم وضع حدّ للنشاط الإستيطاني. وجاء في تفاصيل النبأ أن في ٢٠٠٢/١٠/٧، سلّم وزير المالية الفلسطيني، سلام فياض، وزير الخارجية الأمريكي كولين باول ومعاونه الأول ديفيد ساترفيلد، وثيقة من عشر صفحات حول الوضع الإستيطاني في الأراضي المحتلّة مرفقة بخمس خرائط توضيحية أُطْلِعَت عليها في اليوم التالي، مستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس، وأن أبو علاء، أحمد قريع، رئيس المجلس التشريعي الفلسطيني والمفاوض المرموق، قد بعث برسالة مماثلة إلى البيت الأبيض بعد أسبوع. وقد رأت المجلّة في خطاب السلطة الفلسطينية المستجدّ "إنعكاساً للتدهور الحاد الذي طرأ على المسار الدبلوماسي منذ اندلاع الإنتفاضة الثانية"، وأن هذا الخطاب يأتي في وقت تدفع فيه إدارة بوش باتجاه قيام الدولتين من خلال برنامج عمل يستمرّ ثلاث سنوات ضمن ما سُمّي بخريطة الطريق. ونقلت المجلّة عن ستيفن كوهين، خبير الشرق الأوسط في "منتدى إسرائيل السياسي" (مؤسسة خبراء ومستشارين سياسيين، ذات الميول اليسارية)، قوله أن "هناك إدراك متنامي في إسرائيل وبين الفلسطينيين أن الوضع على الأرض أصبح يبيّن اختفاء الخط الأخضر بمفهومه المعهود.. [وأن] لديك الآن، **دولة يهودية على جانبي الخط الأخضر، يحتوي جانب منهما على أكثرية يهودية في حين أن الجانب الآخر يحتوي على أقليّة يهودية تتحكّم في أكثريّة من العرب.** وبالتالي تشعر بأن الأمر يعيدنا إلى مفهوم اكتساب الفلسطينيين حقوق المواطنة في إطار دولة واحدة".

وقد لفت إلى ذلك أيضا كل من أحمد سامح الخالدي، الكاتب الفلسطيني والمفاوض السابق والعضو الرئيسي في هيئة تدريس كلّية سانت أنطوني في أوكسفورد، ومايكل طرزي المستشار القانوني لمنظمة التحرير الفلسطينية، في مقالين منفصلين، متطابقين من حيث الجوهر، نشر الأول (**"حلّ الدولة الواحدة"**) في **"الجارديان"** بتاريخ ٢٠٠٣/٩/٢٩، والثاني (**"شعبان ودولة واحدة"**) في **"النيو يورك تايمز"**، بتاريخ ٢٠٠٤/١٠/٤. يلاحظ طرزي أن مصطلح الدولتين يعني لدى إسرائيل العمل باستراتيجية ضمّ أكبر مساحة ممكنة من الأراضي الزراعية والحصّة الأكبر من الثروة المائية إلى ناحيتها والدفع بمعظم

الأفـراد الفلسطينيين إلى الناحية الأخرى، مع العلم أن المستوطنين أصبحوا منتشرين بين كـل المـدن والقرى الفلسطينية، ويشكلون الآن خمس سكان الضفة الغربية، وأن الكيان المستقل المقترح على الفلسطينيين لا يتعدّى الحظيرة المجرّدة من مقتضيات العيش، تعتمد اقتصـاديا علـى إسرائيل وتفتقر حتى إلى حقّ الدفاع عن النفس. ويضيف أن "في دولة الأمـر الواقع هذه، يعيش ٣،٥ مليون فلسطينيا من المسيحيين والمسلمين، في حرمان من الحقـوق السياسـية والمدنـية الآيلـة إلى اليهود" وأن "في جنوب إفريقية، كان مثل هذا التخصـيص للحقـوق والامتيازات المبني على الانتماء العرقي أو الديني، يُسَمّى بالفصل العنصـري فـي حين أنه يطلق على هذا النظام في إسرائيل <الديمقراطية الوحيدة> في الشـرق الأوسط". ويدعو طرزي الفلسطينيين إلى النضال من أجل المساواة في الحقوق، متخطّيـن المصـاعب ومحتذين بحذو جنوب إفريقية التي برهنت على إمكانية الانتصار، وأن الأمـر بـات مجـرّد مسألة الوقت الذي سوف يُستَغْرَق، وحجم المعاناة التي سوف تـتحمّلها الأطـراف كافـة قبل أن ينظر اليهود الإسرائيليون إلى المسيحيين والمسلمين الفلسطينيين ليس كخطر ديمغرافي وإنما كمواطنين متساوين معهم".

وعلى الصعيد غير المؤسسي، تكاثرت، خلال السنوات الأخيرة، الأصوات المطالبة بدولـة واحـدة مطابقـة لمشـروع فتـح المطروح في الستينات أو بدولة واحدة "ثنائية القوميّة"، صدرت عن أطراف فلسـطينة، وإسرائيلية أو يهودية مستقلّة.

كمـا ظهرت في السنوات الثلاث الماضية، مبادرات أخرى، رسمية وغير رسمية، تؤكّـد مطلب إقامة "دولتين لشعبين". فكانت القمة العربية المنعقدة في بيروت في ٢٨/٣/٢٠٠٢ التي غاب عنها أبو عمّار بسبب الحصار المفروض عليه، وشهدت إقرار الزعماء العـرب بالإجمـاع لمـبادرة ولي العهد السعودي الأمير عبد الله بن عبد العزيز لإنهاء الصراع العربي-الإسرائيلي وإقامة علاقات طبيعية مع إسرائيل في إطار السلام الشامل. المبادرة المشروطة بانسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة حتى حدود ٤ يونيو/حزيران ١٩٦٧، وبحـلّ قضـية اللاجئيـن الفلسطينيين وفقاً للقرار ١٩٤ للجمعية العمومية للأمم المـتحدة المبنـي علـى ضمان حق العودة، والقبول بقيام دولة فلسطينية على الأراضي المحتلة في الضفة الغربية وغزة، وعاصمتها القدس الشرقية.

وفـــي ٢٠٠٣/٤/٣٠، تسلّم محمود عبّاس، أبو مازن، بعد ساعات من ادائه اليمين القانونـــية كرئيس للوزراء، نصّ "خريطة الطريق" المبنية على رؤية الرئيس الأمريكي، كما تسلّمها نظيره الإسرائيلي. تهدف "الخريطة" إلى تحقيق "تسوية شاملة ونهائية للصراع الفلســطيني-الإسرائيلي في حلول سنة ٢٠٠٥، وفقا لما جاء في خطاب الرئيس بوش في ٢٠٠٢/٦/٢٤، الذي لاقى ترحيبا من قبل الاتحاد الأوروبي وروسيا والأمم المتحدة عبّرت عنه البيانات الوزارية للّجنة الرباعية في ٢٠٠٢/٧/١٦ و٢٠٠٢/٩/١٧". وجاء في نصّ "خريطة الطريق" أن "تسوية عن طريق التفاوض بين الطرفين سوف تؤدي إلى قيام دولة فلســطينية مســتقلة وديموقراطــية قابلة للحياة، تعيش جنباً إلى جنب في أمن وسلام مع إسرائيل وجيرانها الآخرين. هذه التسوية ستنهي الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني، وستنهي الاحــتلال الــذي بدأ عام ١٩٦٧، وستقوم على أسس مؤتمر مدريد ومبدأ الأرض مقابل السلام وقرارات مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ و١٣٩٧ [٢٠٠٢/٣/١٢]، والاتفاقات السابقة المــبرمة بيــن الطرفيــن ومبادرة ولي العهد السعودي الأمير عبدالله – التي تبنتها قمة الجامعـــة العربية في بيروت – الداعية إلى قبول إسرائيل جاراً يعيش في أمن وسلام في إطـــار تسوية شاملة. هذه المبادرة هي جزء أساسي من الجهود الدولية الهادفة إلى تحقيق ســـلام شامل على كل المسارات، بما في ذلك المسارين السوري-الإسرائيلي، واللبناني-الإسرائيلي."

هـــذه المـــبادرات الرسمية واكبتها، في عام ٢٠٠٢، "الحملة الشعبية للسلام" الممثّلة بـــــ"وثــيقة أيلـــون-نسيبة" (إشارة إلى القائمين عليها، عامي أيلون مسؤول جهاز الأمن الداخلي الإسرائيلي السابق، وسري نسيبة رئيس جامعة القدس الشرقية)، وفي عام ٢٠٠٣ ، "وثيقة جنيف" الصادرة عن المبادرة التي قام بها كل من ياسر عبد ربّه، رئيس "تحالف الســـلام الفلسطيني" والعضو في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، ويوسي بيلن، وزير العدل الإسرائيلي السابق ورئيس حزب "ياحد" ("هناك حدّ"). تثني الوثيقتان على حلّ الدولتين. إلاّ أن معظم الهيئات الشعبية والتنظيمية الممثلة للاجئين الفلسطينيين قد شجبتهما بسبب ما رأته فيها من إجحاف في حقّهم في العودة.

وتضـــاربت الآراء وعلـــت أصوات الإدانة أو التأييد، لدى الطرفين، داخل فلسطين وخارجها، في ما يبدو انعكاسا لواقع بلغ حدّاً فائقاً من التعقيد مع بناء السور العازل الذي

يلتهم المزيد من الأراضي ويدمّر المزارع، ويفتّت المدن والقرى الفلسطينية، ومع الغارات اليومية للجيش الإسرائيلي وتدميره لأجزاء كبيرة من رفح، وخان يونس، وجباليا، ونابلس، وجنين، والخليل..، وتشريد أهاليها، واقتلاع مئات الآلاف من أشجار الزيتون وغيرها من الأشجار المثمرة.. إن حجم المأساة التي يعيشها شعب فلسطين يبرّر التساؤل حول جدوى التفاوض مع "شريك" إسرائيلي، وما إذا كان موجوداً بالفعل ويريد إقامة دولة فلسطينية.

يقول أحمد سامح الخالدي، في خاتمة مقاله المذكور أعلاه، أنه "يوجد بديل لخياري الدولة الواحدة أو الدولتين، وهو الانزلاق في اتجاه الفصل العنصري أو الانخراط في حلقة التصعيد الدائم للمقاومة والعنف المقابل، مع ترجيح استمرار الطرفين حتى النهاية القصوى.. إلا أنه يجب عدم الاستهانة بتواتر خيار [الدولة] الديمقراطية. فقابليتها للنجاح عمليا، خلافا لحلّ الدولتين، ليست رهينة التطوّرات على الأرض، إنما تتوقف، في الحقيقة، على تحوّلات تمسّ القلوب والعقول. نعم، هناك مثل جنوب إفريقية."

بعد ٣٤ عاما من مثول **يهودا أديف** أمام قضاة محكمة حيفا، قدمت النيابة العامة الإسرائيلية في ٢٠٠٤/١٢/٢٦، لائحة اتهام ضد ناشطة السلام الإسرائيلية **طالي فحيمة**. وقالت الإذاعة الإسرائيلية أن النيابة العامة نسبت لطالي تهما بينها "تقديم المساعدة للعدو في أثناء الحرب ونقل معلومات للعدو وحيازة السلاح". وجاء في لائحة الاتهام أيضا أن طالي دخلت مدينة ومخيم جنين قبل سبعة شهور، واتصلت بنشطاء من كتائب شهداء الأقصى. ولم تنفِ فحيمة اتصالاتها وصداقتها مع قائد كتائب الاقصى في جنين، زكريا الزبيدي. وكانت فحيمة قد دخلت مخيم جنين في شهر أيار/مايو ٢٠٠٤ وأعلنت أنها تهدف من وراء ذلك إلى جعل نفسها درعا بشريا لزبيدي تحسبا من قيام الجيش الإسرائيلي باغتياله. وادعت النيابة العامة الإسرائيلية في لائحة الاتهام أن فحيمة أحبطت حملة عسكرية أطلق عليها اسم "دموع التماسيح" من أجل اعتقال "مطلوبين" لقوات الجيش الاسرائيلي. ووفق لائحة الاتهام فإنه خلال الحملة العسكرية الإسرائيلية "دموع التماسيح"، فقدت القوات الاسرائيلية وثائق سرية للغاية وصلت الى أيدي مقاتلي كتائب شهداء الأقصى في جنين. وادعت النيابة الإسرائيلية أن فحيمة ترجمت هذه الوثائق المكتوبة باللغة العبرية لصالح مقاتلي الكتائب ما مكّنهم من الاختباء والإفلات من الاعتقال. وفي شهر آب/أغسطس ٢٠٠٤، اعتقلت قوات الأمن والعاملين في جهاز الشاباك طالي فحيمة،

ثـم وقّـع وزير الأمن الإسرائيلي، شاؤول موفاز، وقائد الجبهة الداخلية، في الخامس من أيلـول/سـبتمبر، أمرا بفرض الإعتقال الإداري على فحيمة، لمدة أربعة أشهر، خضعت خلالهـا للتحقـيق المكـثف. وتوقّـع الإعلام الإسرائيلي وقتها أن تُفرض عليها العقوبة القصـوى، وهـي السـجن المؤبّد. وفي أواخر شهر كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥، حكمت محكمة إسرائيلية بالإفراج عنها. وقرر قضاة المحكمة إخضاعها للاعتقال المنزلي بضمانة مالية تصل إلى عشرات الآلاف من الشيكلات.

. تقـول طالـي فحـيمة فـي مقابلـة أجرتها معها صحيفة "هاعير" الإسرائيلية، في فـبراير/شباط ٢٠٠٤ : "لقد نشأت على اعتبار العرب كالشيء الذي يجب ألا يكون هنا. وفـي يـوم، أدركـت أن في معلوماتي فجوات كبيرة، وأن هناك أموراً لا يتطرّق إليها إعلامـنا. وفهمتُ فجأة، أن الأمر يتعلّق بكائنات بشريّة وأننا مسؤولون عما أضحت عليه حياتهم. ومنذ ذلك اليوم، توقّفت عن مشاهدة التلفزيون".]

مقدّمة

- ١ -

في صيف ١٩٧٠، وفي معسكر عمل دولي أقامته فتح في ضواحي مدينة الكرك في جنوب الأردن، وشاركت فيه مجموعة من الشباب من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، دعاني مفوض المعسكر إلى المشاركة في ليلة من الليالي السياسية التي كان يعقدها الضيوف والمقاتلون وأعضاء الميليشيا كل مساء.

كان من المفروض أن أتحدث عن تجربة النضال المسلح الفلسطيني في منطقة جنوب الأردن التي تميزت بأن أغلبية سكانها من البدو.. ولكن الحديث جرى مجرى آخر.

فقد ذكرت فيما بدأت حديثي أنه لا توجد "بروليتاريا إسرائيلية"، ولا "طبقة عاملة يهودية".. وبدأ حوار خصب، استمر ثلاث ليالٍ متوالية، تعرضنا فيها للأمة، والطبقة، والتاريخ، والخصوصية ومستقبل فلسطين الديمقراطية.

ونبتت فكرة كتاب يجمع هذه الأفكار، ولكن الأحداث التي توالت بعد ذلك والتقدير بأن الوقت لم يحنِ بعد لطرحها للحوار على نطاق واسع دون أن نفقد صداقة صديق ولا أن يخطئ أحد الفهم في هدف الحوار.. كل ذلك عطل الكتاب حتى مطلع عام ١٩٧٤.

- ٢ -

في ذلك الوقت وصلت إليّ نسخة من الدفاع السياسي الذي ألقاه الرفيق رامي ليفنه عضو الاتحاد الشيوعي الثوري (في فلسطين المحتلة) أمام

المحكمــة المركزية في حيفا، عندما حوكم بصفته عضوا في تنظيم **الجبهة الحمــراء** الــذي ضم عربا من مختلف الأديان والذي تبنى خطة العنف في مقاومــة الاغتصــاب الصــهيوني، وأعلــن أنــه يناضل من أجل **فلسطين ديمقراطــية**. لم تكن هذه الوثيقة هي أول ما يصلنا من وثائق سياسية لقوى معارضة للصهيونية داخل الكيان الصهيوني نفسه، قبلها قرأنا كتابات "الفهود السود"، وحتى كتابات مجموعة "ماتسبن" الأولى، ولكنها كلها لم تكن تختلف كثيرا، أو جوهريا، عن آراء عديدة أعلنت منذ نكبة ١٩٤٨، ومع ذلك ساهم قائلوهــا في بناء "الكيان الاغتصابي" ومؤسساته، وظلت كلماتهم كلمات، أو اتجهــت مواقــف أصــحابها وجهة غير التي نسير فيها بل هي تؤدي رغم المعارضة – العنيفة أحيانا – إلى تدعيم المؤسسة الصهيونية.

هــذه المــرة كــان الأمر مختلفا.. هنا برنامج معلن.. وموقف نضالي أوصل صاحبه إلى الأسر.

كــان في خطاب الرفيق رامي ليفنه ما نتفق عليه، وما نختلف حوله.. ولا شك أنه في سجنه قد قابل ما قابلنا عندما قرأنا كلماته. ودار الحوار مرة أخــرى عبر الأسلاك الشائكة.. ثم وصلتنا مقتطفات من كلمات الرفيق يهودا أديــف، وقد حوكم في القضية نفسها، وكانت "الاتهامات" هي ذاتها، واتضح مــنها أن اتفاقــنا أكثر وضوحا، وأن حوارا بالأفكار والمواقف العملية يدور الآن[1] بين أولئك الذين يشكلون جانبا هاما من تصورنا للحل الديمقراطي في

---

(١) قــال الرفــيق أديــف خلال المحاكمة في حيفا "إن هذا الوضع الأعوج يجب تغييره، وهذا ما حاولــت أن أفعله، بالتهيئة للنضال ضد دولة إسرائيل وهو ذلك الذي كان حتى الآن بمثابة حرب من جانب العرب ضد اليهود، ونضال للمضطهدين ضد مضطهديهم في الوقت الذي يقف فيه كل مــن العرب واليهود على جانبي المتراس.. وهذا يمكن عمله بأن يقوم يهود ويثبتوا للعرب الذين يحــاربون الصــهيونية مــنذ عشرات السنين، بأنهم (أي اليهود) يقفون إلى جانبهم ومستعدون أن يضــحوا بكــل ما لديهم، وأن يتعرضوا "للمعاملة" ذاتها وأن يقتسموا وإياهم كل الأمور دون أي تمييــز أو أفضلية لكونهم يهودا. وبدون ذلك لن يثق أي عربي بصدق ثورية أكثر ثوري يهودي اســتقامة. وإن أية أيديولوجية، ولو كانت الأكثر مساواة وتقدمية، لن تستطيع أن تقنع العرب ما لم يــرافقها عمــل من قبل أولئك الذين يحملونها. إن التنظيم الذي كنت عضوا فيه أصدر عددا من النشرات شرحت برنامجه وأهدافه. وبما أن حلفاءنا في صراعنا هم المنظمات الماركسية اللينينية فــي المــنطقة، فقد حاولت وسأحاول طالما استطعت ذلك أن اتصل بهم من أجل خلق جبهة عمل مشــتركة. إن موقفي من الكفاح المسلح هو موقف إيجابي، طالما كان يعمل على دفع الثورة، أي

فلسطين بحكم معتقداتهم الدينية، أي بين الذين هم طرف في المشكلة لكونهم ذوي عقيدة يهودية.

وازدادت فكرة الكتابة إلحاحا، فبدأت الكتابة وفي النية أن يكون حوار مع الرفاق الذين اتخذوا "مواقفنا"، وهكذا جاء الفصلان الأول والثاني حوارا مع الرفيق رامي ليفنه ورفاقه الذين يحملون الأفكار نفسها ولهم المواقف نفسها، أو هم يقتربون منها أو تخطوها إلى أفضل.

- ٣ -

في تلك الفترة - أي في أوائل عام ١٩٧٤ - وعندما بدأت الكتابة وتجميع المواد والوثائق المطلوبة لها، كانت ثمار حرب أكتوبر - تشرين الأول ١٩٧٣ قد بدأت في النضوج، فكريا على الأقل.. أصبح السؤال الملح في كل حوار "إذن ما الحل؟". كان ذلك دليلا على انتصار قضية فلسطين وعبورها "خطة التصفية". وتنوع السؤال من هذا الشكل البسيط إلى أشكال أخرى معقدة وفيها مراجعة لأفكار سابقة كثيرة، كما طرحت السؤال نفسه جهات متنوعة بل ومتناقضة، صديقة وعدوة، قديمة وجديدة، وكأن السائلين قد انزاحت عن عيونهم وآذانهم وعقولهم غشاوة دامت أكثر من ربع قرن عندما كانوا يناقشون "الظاهرة" باعتبارها "إسرائيل" ولا ذكر إطلاقا لفلسطين وشعبها. ثم فجأة أصبح واضحا للجميع أن أي "**حل**" للتناقض الحاد والقائم والمستمر في فلسطين يبدأ، في كل شكل من أشكاله، من فلسطين ومن فعل شعبها.

وبدأت جمع الأفكار التي تكاثرت في ساحة الحوار العالمي حول هذه القضية، وتباطأت الكتابة بعد الفصل الثاني. ثم تدخلت ظروف تتراجع أمامها الكتابة، فتوقفت فترة. وفي تلك الأثناء ألقى الأخ ياسر عرفات رئيس منظمة

عملية تحرير الجماهير، إلى الأمام، وبشكل ملموس. فإن المقصود هو تنظيم يضم مئات من الأشخاص، ويعمل بشكل شرعي، أي عن طريق الصحف والمنشورات والدعاية، وبشكل غير شرعي، أي عن طريق الجناح العسكري للتنظيم، الذي يعمل من أجل تحقيق كل ما ذكر أعلاه".(عن نشرة "الأرض" عدد ٧-٨ في ١٩٧٣/١٢/٢١)

التحرير الفلسطينية كلمته في الأمم المتحدة، الكلمة التي تضمنت شرحا مناسبا للحل المقترح من جانب الثورة الفلسطينية ألا وهو **فلسطين الديمقراطية**.

وتلقف الفكرة – وهي الحل الذي قدمته فتح منذ ١٩٦٨ – الأصدقاء والأعداء... الأصدقاء بالترويج والدعوة، وأيضا **الاستيضاح. والأعداء بالمعارضة والتشويه**، وأيضا بمحاولات ذكية تدعي القبول بها ثم تقترح ما يعرقلها أو ينفيها.

وعدت إلى الكتابة محاولا الإجابة عن التساؤلات التي وصلتنا والرد على الحجج التي أثيرت ضد فكرة **فلسطين الديمقراطية**.

وحتى لا يخطئ أحد الفهم أو التفسير من غرض هذه المحاولة، فمن الضروري أن أشدد أنها كتبت حوارا مع أولئك الذين يتخذون **مواقف عملية** معادية للكيان الصهيوني وتضامنا معهم في معركتهم "الفكرية" الدائرة حول "فلسطين الديمقراطية" وعلى ساحات لا تسمح الظروف الموضوعية بالوصول إليها.

– ٤ –

عندما اقتربت من الانتهاء من فصول الكتاب، كتابة، كانت أمواج المحيط الهائج من الحوار والجدل قد أخرجت من بطنه أفكارا أخرى تستحق بلا شك المناقشة والتعليق. كما تبين لي أنها مهمة صعبة أن يحيط كتاب واحد بعشرات "الأفكار" التي تطرح يوما بعد يوم سواء بشكلها "الفكري" المجرد أو كشعارات سياسية. وفي الوقت نفسه طرح غيري من الرفاق الذين هم على الجانب نفسه من الأسلاك الشائكة الذي أقف عليه، طرحوا أفكارا يردون بها على بعض أفكار الجانب الآخر(٢) . ووجدت أن هناك خلافا في بعض الجوانب بيني وبينهم وتباطأت الكتابة مرة أخرى.

---

(٢) أشير هنا إلى كتاب الأخت هدى حمودة الذي صدر بعنوان "نحو حل بروليتاري ثوري للصراع العربي الصهيوني" والذي تناقش فيها آراء موردخاي بنطوف التي وردت في كتابه "إسرائيل واليسار والفلسطينيون". الكتاب العربي، من منشورات الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين في ١١– ١٩٧٤.

للأفكار أهميتها الأساسية ولكن الممارسة وحدها هي التي تنضجها وتصقلها وتوحد أصحابها. والأحداث تتسارع بما تحمل من واجبات تزيح الكتابة عن مواقع الأولوية. وهناك أسئلة كثيرة وتفصيلية يطرحها علينا الأصدقاء ونطرحها على أنفسنا، حملتها لنا انتصارات الأعوام العشرة وتحملها لنا السنوات المقبلة.

واستقرت بي مشورة الأصدقاء أن استمر فيما نويت وأن أعد الكتاب للنشر وأسعى له. **استأذنت الأخ أبو عمار القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية** أن أصدّر الكتاب بخطابه في الأمم المتحدة **فوافق مشكورا.**

واستأذنته فوافق مشكورا أن يسمح لي بنشر ما جمعت وكتبت من فصول، **هي وإن استندت والتزمت بمبادئ وأهداف وأساليب حركة التحرير الوطني الفلسطيني** "فتح" ألا أنها لكونها موجهة لقطاع معين من المعنيين بالقضية هو قطاع الملتزمين أو المعلنين التزامهم بالماركسية اللينينية كمنهج وفكر – تقدم، أي فصول الكتاب، أفكار الثورة الفلسطينية من زاوية رؤية حاولت أن تكون ماركسية لينينية توحيدا للغة الحوار دون المساس بجوهر الأفكار.

ولئن كشفت الأيام عن فهم غير دقيق للأفكار، فلعل ذلك لأننا ما زلنا على طريق النضال نكتسب المعرفة يوما بعد يوم، فنصحح طريقنا خطوة إثر خطوة..

ولئن طرحت الأيام طرقا وسبلاً غير التي نقترحها الآن إلى **فلسطين الديمقراطية** فلن يعوقنا جمود أو تعصب عن محاولة الرؤية وعن شجاعة الاعتراف بالخطأ..

– ٥ –

مساهمات غنية في هذا الكتاب قدمها إخوة وأصدقاء ورفاق عديدون..

الأخ الدكتور نبيل شعث لآرائه ومناقشاته الخصبة حول "فلسطين الديمقراطية".

الأخ الدكتور إلياس شوفاني لخبرته وآرائه الواضحة حول "الكيان الصهيوني" ولقراءته الكتاب قبل دفعه للنشر ولملاحظاته البناءة.

الأخ الدكـــتور قدري حفني، الصديق والرفيق في رحلة العمر والفكر، الــذي قـــدم خــلال دراســاته المنشورة وغير المنشورة والمتعلقة بالتكوين الســيكولوجي للمســتوطن الصـــهيوني، قدم أفكارا جريئة وتعريفات دقيقة، شجعتني، كما شجعني، على الاستمرار في كتابة هذا الكتاب.

والإخــوة والــرفاق العديــدون الذين ساعدوني بالحوار أحيانا، وبجمع الوثائق أحيانا أخرى، وبالترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية.

الإخوة الذين ساعدوا في طبع مواد هذا الكتاب على الآلة الكاتبة والذين ساعدوا في مراجعة أصوله الخطية.

ومـــع اعتزازي العميق بكل ما قدمه الإخوة والرفاق لي، فإنني وحدي أتحمل مسئولية ما قد يظهر من خطأ أو أخطاء.

لهم كل الشكر، ومنهم ما زلت أتوقع النقد والتوجيه.

- ٦ -

أهدي هذا الكتاب...

إلى الذين شقوا بدمائهم أفقا أحمر في ظلام التعصب..

إلى الذين قدموا حياتهم طواعية واختيارا.. وشجاعة..

إلى الذين لولا تضحياتهم لما أبصرت العيون، ولا تفتحت الأذهان، ولا تهيأت الآذان، ولا خفت المرارة، ولا امتدت الأيدي عبر الأسلاك ومن وراء القضبان تشد بعضها بعضا في النضال. إلى الذين يعيشون اليوم في زنازين العــدو "فلســطين ديمقراطية" مصغرة، من كل ملة وعقيدة، تجمعهم مواقف النضال وانتظار الفجر الجديد.

إلـــى الإخـــوة الشهداء والأسرى الذين سبقونا على الطريق، فشقوا لنا الطريق..

طريق الثورة حتى النصر...

بيروت – ١٩٧٥/٤/٢٥

محجوب عمر

خطة النضال وإطار الحوار

خطاب الأخ ياسر عرفات – رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية والقائد العام لقوات الثورة الفلسطينية في الجمعية العامة للأمم المتحدة في دور انعقادها العادي التاسع والعشرين ولدى افتتاح المناقشة الخاصة "بقضية فلسطين" في الجمعية العامة تحت بند رقم (١٠٨) من جدول الأعمال.

الأربعاء : الموافق ١٣نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٧٤

سيدي الرئيس،

أشكر لكم دعوتكم منظمة التحرير الفلسطينية لتشارك في هذه الدورة من دورات الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة. وأشكر كل الأعضاء المحترمين في هيئة الأمم المتحدة الذين أسهموا في تقرير إدراج قضية فلسطين على جدول أعمال هذه الجمعية وفي إصدار قرار بدعوتنا لعرض قضية فلسطين. كما أود أن أتقدم بالشكر إلى الأمين العام لكل معاونة قدمها لتسهيل حضورنا بينكم هنا.

إنها لمناسبة هامة أن يعود بحث قضية فلسطين إلى هيئة الأمم المتحدة. وإننا نعتبر هذه الخطوة انتصارا للمنظمة الدولية كما هو انتصار لقضية شعبنا. وإن ذلك يشكل مؤشرا جديدا على أن هيئة الأمم اليوم ليست هيئة الأمم بالأمس، ذلك لأن عالم اليوم ليس هو عالم الأمس.

فقد أصبحت هيئة الأمم المتحدة اليوم تمثل ١٣٨ دولة وأصبحت تعكس بصورة نسبية أوضح إرادة المجموعة الدولية، ومن ثم فقد أصبحت أكثر

قدرة على تطبيق ميثاقها ومبادئ الإعلان العامي لحقوق الإنسان، وأكثر قدرة على نصرة قضايا العدل والسلام.

وهذا ما بدأ يلمسه شعبنا وتلمسه شعوب آسيا وأفريقية وأمريكا اللاتينية، الأمر الذي أخذ يعلي مكانة هذه المنظمة الدولية في عيون شعبنا وعيون بقية الشعوب، ويزيد من الآمال التي تعلقها شعوب العالم على مساهمة هيئة الأمم المتحدة في نصرة قضايا السلم والعدل والحرية والاستقلال، وتشييد عالم خال من الاستعمار والإمبريالية والاستعمار الجديد والعنصرية بكافة أشكالها بما فيها الصهيونية.

سيدي الرئيس،

إننا نعيش في عالم يطمح للسلام والعدل والمساواة والحرية، يطمح إلى أن يرى الأمم المظلومة الرازحة تحت الاستعمار والاضطهاد العنصري وهي تمارس حريتها وحقها في تقرير المصير، يطمح إلى أن يرى العلاقات الدولية بين الدول كافة تقوم على أساس المساواة والتعايش السلمي وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، وتأمين السيادة الوطنية والاستقلال ووحدة الأراضي الإقليمية لكل دولة، وإقامة علاقات اقتصادية على أساس العدل والتكافؤ والمنافع المتبادلة، يطمح لأن تصب الجهود الإنسانية على مكافحة الفقر والمجاعة والأمراض والكوارث الطبيعية، وعلى تطوير القدرات الإنتاجية والعلمية والتقنية للبشر لزيادة الثروات وتضييق الفروق بين الدول النامية والدول المتطورة، ولكن ذلك كله يصطدم بواقع عالمي ما زال يسوده الاضطراب والظلم والاضطهاد العنصري والاستغلال، وما زال مهددا بالكوارث الاقتصادية والحروب والأزمات.

ما زالت شعوب كثيرة منها زمبابوي وناميبيا وجنوب إفريقية وفلسطين وغيرها ضحية للعدوان والقهر والبطش. وتشهد تلك المناطق من العالم صراعا مسلحا فرضته قوى الاستعمار والتمييز العنصري ظلما وإرهابا. فاضطرت الشعوب المضطهدة إلى التصدي له، وكان تصديها عادلا ومشروعا.

لابــد يــا حضرة الرئيس من أن تسهم المجموعة الدولية في دعم هذه الشــعوب ومســاعدتها على انتصار قضاياها العادلة ونيلها حقها في تقرير المصير.

ومــا زالــت شعوب الهند الصينية تتعرض للعدوان وتواجه المؤامرات لمــنعها مــن إحلال السلام على أرضها وتحقيق أهدافها. فإذا كانت شعوب العــالم قد رحبت بالاتفاق في لاوس وباتفاقية السلام في جنوب فيتنام إلا أن الســلام في جنوب فيتنام ما زال بعيدا عن أن يكون سلاما حقيقيا لأن القوى التي شنت العدوان تصر على بقاء فيتنام في الاضطراب والحرب. وكذلك ما زال الشــعب الكمــبودي يواجه عدوانا عسكريا. لابد حضرة الرئيس من أن تســهم المجموعــة الدولية في دعم هذه الشعوب وشجب المعتدين ومعكري السلام. وما زالت القضية الكورية بعيدة عن أن تحل حلا عادلا وسلميا، رغم الموقف الإيجابي السلمي الذي عبرت عنه المقترحات المقدمة من جمهورية كوريا الديمقراطية.

ولقــد عشــنا قــبل شهور تفجر المشكلة القبرصية. وشاركنا في تحمل همومهــا مع شعوب العالم أجمع ولابد لهيئة الأمم المتحدة أن تتابع جهودها للتوصل إلى حل عادل للمشكلة يجنب الشعب القبرصي أهوال الحرب ويحفظ اســتقلاله. ولا شــك في أن المشكلة القبرصية تدخل في هذا الإطار ضمن هموم بلدان الشرق الأوسط والبحر الأبيض المتوسط.

وما زالت دول آسيا وإفريقية وأمريكا اللاتينية تواجه اعتداءات ضارية على نضالها من أجل تغيير النظام الاقتصادي العالمي الحالي بنظام اقتصادي عالمــي جديــد أكــثر معقولية ومنطقية وقد عبرت هذه البلدان عن ذلك في مؤتمــر "المواد الأولية والتنمية" حيث لابد من أن يوضع حد لعمليات النهب والاســتغلال وامتصــاص ثروات الشعوب الفقيرة وعرقلة جهودها من اجل التنمية والسيطرة على ثرواتها ورفع الحيف عن أسعار موادها الأولية.

وكذلــك فــإن هــذه الدول ما زالت تواجه عراقيل أمام مطالبها العادلة المعــبر عــنها فــي مؤتمر البحار في كراكاس، ومؤتمر السكان، ومؤتمر الــتغذية، ولابد للهيئة الدولية من أن تقف بحزم إلى جانب النضال من أجل

إحـــداث تغيـــيرات جذرية في النظام الاقتصادي العالمي لأن ذلك وحده يتيح للشعوب المتخلفة إمكانية التقدم بسرعة. ولابد لهذه الهيئة من أن تقف بحزم ضـــد القـــوى التي تحاول تحميل مسئولية التضخم المالي على كاهل البلدان النامية، خاصة، البلدان المنتجة للبترول، وأن تشجب التهديدات التي تتعرض لها هذه البلدان بسبب مطالبها العادلة.

سيدي الرئيس،

ما زال السباق على التسلح على أشده في العالم، الأمر الذي يهدد العالم بضـــياع ثـــرواته وتبديد جهوده على هذا السباق، فضلا عن إبقائه في خطر انفجـــارات مســـلحة خطـــيرة. إن الحد من السباق على التسلح، وصولا إلى تدمير الأسلحة وتخصيص ما يصرف من مبالغ طائلة على مجالات التقنيات العســـكرية في ميدان تقدم العلوم وزيادة الإنتاج وتحقيق الرفاه العام، هذا ما تتوقع الشعوب أن تعمل هيئة الأمم باتجاهه. وما زال الاضطراب على أشده في منطقتنا. فالكيان الصهيوني متشبث بالأراضي العربية التي احتلها ويتابع عدوانـــه علينـــا بجانب استعداداته العسكرية المحمومة بشن حرب عدوانية جديـــدة ســـتكون الخامسة في سلسلة حروبه العدوانية ولنا أن نتحسب مع ما يصدر من إشارات عنه من أن تكون حربا نووية تحمل الفناء والدمار.

سيدي الرئيس،

إن العـــالم بحاجة إلى أقصى الجهود من أجل تحقيق مطامحه في السلم والحـــرية والعـــدل والمســـاواة والتنمية وفي مكافحة الاستعمار والإمبريالية والاستعمار الجديد والعنصرية بكافة أشكالها بما فيها الصهيونية، لأن هذا هو الطـــريق الوحـــيد لتحقيق آمال الشعوب كافة بما في ذلك شعوب الدول التي تعـــارض هـــذا الطـــريق. إنـــه طريق لتكريس مبادئ ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان. أما بقاء الوضع الحالي فلن يفعل أكثر من أن يـــبقى العـــالم معرضا لأخطر الصراعات المسلحة، للكوارث الاقتصادية والإنسانية والطبيعية.

سيدي الرئيس،

رغم هذا الوضع المتأزم الذي يسود العالم ورغم ما في عالمنا من قوى ظلام وتأخر فإن عالمنا اليوم يعيش أياما مجيدة. إنه يشهد انهيار العالم القديم عالم الاستعمار والإمبريالية والاستعمار الجديد والعنصرية بكافة أشكالها وأبرزها الصهيونية، ويشهد الاتجاه التاريخي العظيم لشعوب العالم نحو انبثاق عالم جديد تنتصر فيه القضايا العادلة، وإننا واثقون من انتصار هذه القضايا.

سيدي الرئيس،

إن قضية فلسطين تدخل كجزء هام بين القضايا العادلة التي تناضل في سبيلها الشعوب التي تعاني الاستعمار والاضطهاد، وإذا كانت الفرصة قد أتيحت لي أن أعرضها أمامكم فإنني لن أنسى أن مثل هذه الفرصة يجب أن تتاح لكل حركات التحرر المناضلة ضد العنصرية والاستعمار. ولهذا فإنني باسم هؤلاء المناضلين من أجل الحرية وحق الشعوب في تقرير مصيرها، أدعوكم لأن تعيروا قضاياهم، كما قضيتنا، من همومكم واهتماماتكم الأولوية ذاتها مما يشكل مرتكزا أساسيا لحماية السلم في العالم وتكريس عالم جديد تعيش الشعوب في ظلاله بعيدا عن الاضطهاد والظلم والخوف والاستغلال. ولهذا فإنني سأعرض قضيتنا ضمن هذا الإطار وفي سبيل هذا الهدف.

وإننا حين نتكلم من على هذا المنبر الدولي فإن ذلك تعبير في حد ذاته عن إيماننا بالنضال السياسي والدبلوماسي مكملا ومعززا لنضالنا المسلح وتعبير عن تقديرنا للدور الذي يمكن للأمم المتحدة أن تقوم به في حل المشكلات العالمية، بعد أن تغيرت بنيتها في صالح أماني الشعوب وفي حل مشكلتنا التي تتحمل فيها هذه المؤسسة الدولية مسئولية خاصة.

إن شعبنا يتكلم وهو يتطلع إلى المستقبل أكثر مما هو مقيد بمآسي الماضي وأغلال الحاضر. وإذا كنا ونحن نتحدث عن الحاضر نعود إلى الماضي فلأننا نريد أن نوضح بداية الطريق الذي نشقه إلى المستقبل المشرق مع كل شعوب العالم عامة، وحركات التحرير خاصة. وإذا كنا نعود إلى

جـذور قضيتنا فلأنه ما زال بين الحاضرين هنا من يحتل بيوتنا ويرتع في حقولـنا ويقطف ثمار أشجارنا ويدعي أننا أشباح لا وجود لنا ولا تراث ولا مستقبل. ولأن هنالك من كان يتصور وإلى وقت قريب، وربما حتى الآن، إن مشـكلتنا هي مشكلة لاجئين، أو أن مشكلة الشرق الأوسط هي مشكلة خلاف علـى حدود بين الدول العربية وبين الكيان الصهيوني، أو يتصور أن شعبنا يدعـي حقوقـا ليست له ويقاتل دونما سبب معقول ومشروع إلا رغبة في تعكـير السلام وإرهاب الآخرين. ولأن هنالك بينكم وأعني الولايات المتحدة وغـيرها من يموّن عدونا بطائراته وقنابله وكل أدوات الفتك والتدمير ويقف مـنا موقـف العداء ويعمد على تشويه حقيقة المشكلة، كل ذلك على حساب الشـعب الأمريكي وعلى حساب رفاهيته، وعلى حساب الصداقة التي نتطلع إلـيها مـع هـذا الشعب العظيم الذي نكن له ولتجاربه في النضال من أجل حريته ووحدة أراضيه كل تقدير.

وإننـي لأنتهز هذه المناسبة لأتوجه إلى الشعب الأمريكي وأخاطبه من مكانـي هنا أن يقف مع شعبنا الشجاع المناضل. أن يقف مع الحق والعدالة. أن يـتذكر بطلـه جـورج واشنطن الذي ناضل لاستقلال أمريكا وحريتها. ويـتذكر أبراهام لنكولن الذي وقف مع المحرومين والمعذبين ويتذكر وصايا ويلسـون الأربعـة عشـر التـي يتبناها شعبنا إيمانا بهذه المبادئ الإنسانية العظيمة.

وأتوجـه إلـى الشعب الأمريكي وأتساءل، هل هذه التظاهرات المعادية التـي تنطلق في الخارج هي وجهه الحقيقي. وما هي الجريمة التي ارتكبها شعبنا ضد الشعب الأمريكي.

لمـاذا هـذا الوجـه المعـادي. هل هو لصالح أمريكا. هل هو لصالح الجماهير الأمريكية. حتما لا. وأرجو أن يتذكر الشعب الأمريكي أن صداقته مع أمتنا العربية هي أهم وهي أبقى وهي أنفع.

سيدي الرئيس،

إن شرحنا لجذور قضيتنا نابع من إيماننا بأن العودة إلى أصول القضايا التـي تشغل العالم أمر ضروري عند تلمس الحلول لها. وهذا منهج نطرحه

على السياسة الدولية لتأخذ به بعد أن عانت الكثير وعانت الشعوب معها من محاولات تجاهل الأصول والقفز عليها أو إنكارها رضخوا واستسلاما للأمر الواقع.

ترجع جذور المشكلة الفلسطينية إلى أواخر القرن التاسع عشر أو بكلمات أخرى إلى ذلك العهد الذي كان يسمى عصر الاستعمار والاستيطان وبداية الانتقال إلى عصر الإمبريالية حيث بدأ التخطيط الصهيوني – الاستعماري لغزو أرض فلسطين بمهاجرين من يهود أوروبا كما كان الحال بالنسبة للغزو الاستيطاني لإفريقية. تلك الحقبة التي توطدت فيها سطوة عتاة الاستعمار القادمين من الغرب إلى إفريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية للاستيطان وإقامة المستعمرات وممارسة أشد أشكال الاستغلال والاضطهاد والنهب لشعوب القارات الثلاث. إنها الحقبة التي ما زلنا نشهد آثارها العنصرية البشعة في الجنوب الإفريقي، وكذلك في فلسطين.

وكما استخدم الاستعمار والمستوطنون أفكار "التمدين والتحضير" لتبرير الغزو والنهب والعدوان في إفريقية وغيرها. كذلك استخدمت هذه الذرائع لغزو فلسطين بموجات المهاجرين الصهاينة. وكما استخدم الاستعمار والمستوطنون الدين واللون والعرق واللغة لتمرير عملية استغلال الشعوب وإخضاعها بالتمييز والتفرقة والإرهاب في إفريقية، كذلك استخدمت هذه الأساليب لاغتصاب الوطن الفلسطيني واضطهاد شعبه ومن ثم تشريده.

وكما استخدم الاستعمار، وقتئذ، المحرومين والفقراء والمستغلين كوقود لنار عدوانه، ومرتكزات للاستيطان، كذلك استخدم الاستعمار العالمي والقادة الصهاينة اليهود المحرومين والمضطهدين في أوروبا كوقود للعدوان ومرتكزات للاستيطان والتمييز العنصري.

إن الأيديولوجية الصهيونية التي استخدمت ضد شعبنا لاستيطان فلسطين بالغزاة الوافدين من الغرب استخدمت في الوقت ذاته لاقتلاع اليهود من جذورهم في أوطانهم المختلفة ولتغريبهم عن الأمم. إنها أيديولوجية استعمارية استيطانية عنصرية تمييزية رجعية تلتقي مع اللاسامية في منطلقاتها، بل هي الوجه الآخر للعملة نفسها. فعندما تقول إن تابعي دين معين هو اليهودية، أيا كان وطنهم، لا ينتسبون إلى ذلك الوطن ولا يمكنهم

أن يعيشوا كمواطنين متساوين مع بقية المواطنين من الطوائف الأخرى، فإن ذلك التقاء مباشر مع دعاة اللاسامية، وعندما يقولون إن الحل الوحيد لمشكلتهم هو أن ينفصلوا عن الأمم والمجتمعات التي هم جزء منها عبر تاريخ طويل، ثم يهاجروا ليستوطنوا أرض شعب آخر ويحلوا محله بالقوة والإرهاب يأخذون من تميزهم الموقف نفسه الذي أخذه دعاة اللاسامية منهم.

ومن هنا نلاحظ مثلا العلاقة الوثقى بين رودس وهو يوطد استعماره الاستيطاني في جنوب شرق القارة الإفريقية وبين هرتزل الذي راح يخطط ويصمم لاستعماره الاستيطاني على أرض فلسطين. وعندما حصل هرتزل على شهادة حسن سلوك استعماري استيطاني من رودس قدمها للحكومة البريطانية ليستصدر منها قرار التأييد والدعم مقابل أن يبني على أرض فلسطين قاعدة للاستعمار تؤمن مصالحه في أهم النقاط الاستراتيجية في الشرق الأوسط.

وهكذا باشرت الحركة الصهيونية متحالفة مع الاستعمار العالمي غزوتها لبلادنا، واسمحوا لي أن أوجز بعض الحقائق التالية حولها.

– كان عدد سكان فلسطين عند بداية الغزو عام ١٨٨١ وقبل قدوم أول موجة استيطان حوالي نصف مليون نسمة كلهم من العرب، مسلمين ومسيحيين، ومنهم حوالي عشرين ألفا من يهود فلسطين يعيشون جميعا في كنف التسامح الديني الذي اشتهرت به حضارتنا.

– وكانت فلسطين أرضا خضراء معمورة بشعبها العربي الذي يبني الحياة في وطنه ويغني ثقافته.

– وعمدت الحركة الصهيونية إلى تهجير حوالي خمسين ألف يهودي أوروبي بين عامي ١٨٨٢ و١٩١٧ لاجئة إلى شتى أساليب الاحتيال لتغرسهم في أرضنا. ونجحت في الحصول على تصريح بلفور من بريطانيا، فجسد التصريح حقيقة التحالف الصهيوني الاستعماري. وعبر هذا التصريح عن مدى ظلم الاستعمار للشعوب حيث أعطت بريطانيا وهي لا تملك وعدا للحركة الصهيونية وهي لا تستحق. وخذلت عصبة الأمم المتحدة بتركيبها القديم شعبنا العربي وتبخرت وعود ومبادئ ويلسون في الهواء وفرضت

علينا قسرا الاستعمار البريطاني بصورة الانتداب. وتعهد صك الانتداب الذي أصدرته عصبة الأمم صراحة بالتمكين للغزوة الصهيونية من أرضنا.

– وعلـــى مدى ثلاثيين عاما بعد صدور تصريح بلفور نجحت الحركة الصـــهيونية مـــع حلـــيفها الاســـتعماري في تهجير مزيد من يهود أوروبا واغتصاب أراضي عرب فلسطين. وهكذا أصبح عدد اليهود في فلسطين عام ١٩٤٧ حوالـــي ٦٠٠ ألـــف يملكون أقل من ٦ بالمئة من أراضي فلسطين الخصبة. بينما كان تعداد عرب فلسطين حوالي مليون وربع المليون نسمة.

– وبفعـــل تواطؤ الدولة المنتدبة مع الحركة الصهيونية ودعم الولايات المـــتحدة لهما صدر عن هذه الجمعية وهي في بداية عهدها التوصية بتقسيم وطننا فلسطين في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ وسط تحركات مريبة وضغوط شديدة، فقســـمت ما لا يجوز لها أن تقسم – أرض الوطن الواحد. وحين رفضنا ذلك القرار فلأننا مثل أم الطفل الحقيقية التي رفضت أن يقسم سليمان طفلها حين نازعـــتها علـــيه امـــرأة أخرى. ومع ذلك فقد منح قرار التقسيم المستوطنين الاستعماريين ٥٤ بالمئة من أرض فلسطين. وكأن ذلك لم يكن كافيا بالنسبة إليهم، فشنوا حربا إرهابية ضد السكان المدنيين العرب واحتلوا ٨١ بالمئة من مجمـــوع مساحة فلسطين وشردوا مليون عربي. مغتصبين بذلك ٥٢٤ قرية ومديـــنة عربـــية. دمروا منها ٣٨٥ مدينة تدميرا كاملا محاها من الوجود. وحيـــث فعلـــوا ذلـــك أقاموا مستوطناتهم ومستعمراتهم فوق الأنقاض وبين بساتيننا وحقولنا.

ومـــن هنا يبدأ جذر المشكلة الفلسطينية، إن هذا يعني أن أساس المشكلة لـــيس خلافا دينيا أو قوميا بين دينين أو قوميتين وليس نزاعا على حدود بين دول مـــتجاورة، إنـــه قضـــية شعب اغتصب وطنه وشرد من أرضه لتعيش أغلبيته في المنافي والخيام.

وقـــد اســـتطاع هـــذا الكـــيان الصـــهيوني وبدعم من دول الاستعمار والإمبريالـــية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية أن يتحايل على هيئة الأمـــم لقبولـــه في عضويتها ومن ثم على شطب قضية فلسطين من جدول أعمالهـــا، وتضـــليل الـــرأي العام العالمي بتصوير المشكلة كمشكلة لاجئين بحاجة إلى عطف المحسنين أو إعادة توطينهم في بلاد الآخرين.

علـــى أن هـــذه الدولـــة العنصـــرية التي قامت على أساس الاستعمار الاســـتيطاني لـــم تكـــتفِ بكل ذلك حيث جعلت من نفسها قاعدة للإمبريالية وراحت تتحول إلى ترسانة من الأسلحة لإكمال مهمتها في إخضاع الشعوب العربية والعدوان عليها طمعا في المزيد من التوسع على الأرض الفلسطينية والأراضـــي العربية. فإلى جانب عشرات الاعتداءات التي شنتها هذه الدولة ضد البلاد العربية قامت بحربين توسعيتين كبيرتين عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ عرضت خلالهما السلم العالمي لخطر حقيقي.

فقد كان من نتائج العدوان الصهيوني في حزيران ١٩٦٧ أن احتل العدو ســـيناء المصرية حتى مشارف قناة السويس، واحتل الجولان السورية فضلا عـــن احتلاله للأرض الفلسطينية حتى نهر الأردن، الأمر الذي يشكل وضعا جديدا في منطقتنا وخلق ما يسمى بمشكلة الشرق الأوسط. ومما جعل الوضع يـــتفاقم أكـــثر إصرار العدو على استمرار الاحتلال وتكريسه، مشكلا رأس حـــربة للاستعمار العالمي ضد أمتنا العربية. وقد ضرب عرض الحائط بكل قـــرارات مجلس الأمن ونداءات الرأي العام العالمي للانسحاب من الأراضي التي احتلها بعد حزيران. ولم تجدِ كل المساعي السلمية والدبلوماسية لردعه عـــن هـــذه السياسة التوسعية، فما كان أمام أمتنا العربية وفي مقدمتها دولتا مصر وسورية إلا أن تبذل الجهود المضنية في الاستعداد العسكري من أجل الصمود أولا في وجه هذه الغزوة الهمجية المسلحة بالقوة، وثانيا تحرير تلك الأراضي واستعادة حقوق الشعب الفلسطيني بعد استنفاد كل الوسائل السلمية. وضـــمن هـــذا الإطـــار اندلعـــت الحرب الرابعة حرب تشرين لتؤكد للعدو الصـــهيوني عقـــم سياســـته الاحتلالية التوسعية واعتماده على شريعة القوة العســـكرية، ولكن رغم ذلك فإن قادة الكيان الصهيوني ما زالوا بعيدين عن الاتعـــاظ بهذه الدروس، فهم يعدون العدة للحرب الخامسة ليعودوا من جديد إلـــى سياسة مخاطبة العرب بلغة التفوق العسكري سياسة العدوان والإرهاب والإخضاع والحرب.

سيدي الرئيس،

لشد ما يتألم شعبنا حين يسمع تلك الدعايات التي تقول إن أراضيه كانت صحراء فعمَّرها المستوطنون الأجانب، وإن وطنه كان خاليا من السكان، وإنه لم يتضرر أحد من بني البشر نتيجة قيام هذا الكيان الاستيطاني. لا .. يا سيدي الرئيس، يجب أن ندحض هذه الأكاذيب على هذا المنبر العالمي، ويجب أن يعرف الجميع أن فلسطين كانت مهدا لأقدم الحضارات والثقافات واستمر شعبها العربي بنشر الخضرة والبناء والحضارة والثقافة في ربوعها طوال آلاف السنين. ويرفع لواء التسامح الديني ضاربا المثل على حرية العقيدة وحارسا أمينا على مقدسات جميع الأديان في وطنه. وإنني كأحد أبناء بيت المقدس احتفظ لنفسي ولشعبي بذكريات جميلة وصور رائعة عن مظاهر التآخي الديني التي كانت تتألق في مدينتنا المقدسة قبل حلول النكبة بها. ولم ينقطع شعبنا عن ذلك إلا بعد تمكن الغزوة الصهيونية الهمجية من إقامة دولة إسرائيل وتشريده. ولكنه ما زال مصمما على الاستمرار في أداء دوره الحضاري والإنساني على أرض فلسطين، ولا يسمح بأن تتحول هذه الأرض إلى بؤرة للعدوان على الشعوب، وإلى معسكر عنصري ضد الحضارة والثقافة والتقدم والسلام. ولهذا فإن شعبنا لا يستطيع إلا أن يواصل تراث أجداده في الكفاح ضد الغزاة، وأن يحمل شرف المسئولية في الدفاع عن وطنه وعن أمته العربية وعن الثقافة والحضارة ومهد الديانات السماوية.

وتكفينا نظرة سريعة لمواقف إسرائيل العنصرية عندما دعمت منظمة الجيش السرية في الجزائر، وفي دعمها للمستعمرين في إفريقية سواء في الكونغو وأنغولا وموزمبيق وزمبابوي وروديسيا وجنوب إفريقية وفي وقوفها إلى جانب حكومة جنوب فيتنام ضد الثورة الفيتنامية، فضلا عن مواقفها المتتابعة في هذا السياق إلى جانب الاستعماريين والعنصريين في كل مكان وعرقلتها لعمل لجنة تصفية الاستعمار ورفضها التصويت لمصلحة استقلال بلدان إفريقية ووقوفها ضد مطالب بلدان آسيا وإفريقية وأمريكا اللاتينية وبلدان عديدة أخرى في مؤتمرات "المواد الأولية والتنمية"، و"قانون البحار"، و"السكان" و"التغذية". كل ذلك يعطي دليلا إضافيا على صورة العدو الذي

اغتصـــب بلادنا، ويكشف عن شرف النضال الذي نخوضه ضده. إننا ندافع عن حلم المستقبل، وهو يدافع عن أساطير الماضي.

سيدي الرئيس،

إن لهـــذا العدو الذي نواجهه سجلا حافلا ضد اليهود أنفسهم فهنالك في داخـــل الكيان الصهيوني تمييز عنصري بشع ضد اليهود الشرقيين. وإذا كنا نحن ندين بكل ما أوتينا من قوة مذابح اليهود تحت الحكم النازي، فإن القادة الصهاينة كان يبدو أن همهم الأكبر حينذاك هو استغلالها لتحقيق الهجرة إلى فلسطين.

سيدي الرئيس،

لو كان تهجيرهم إلى فلسطين بهدف العيش كمواطنين متساوين بالحقوق والواجـبات لكـنا أفســحنا المجال لهم ضمن إمكانات وطننا، كما حدث مع عشــرات الآلاف مـــن الأرمن والشركس الذين ما زالوا بيننا إخوة مواطنين مثلنا تماما، أما أن يكون هدف ذلك اغتصاب أرضنا وتشريدنا وتحويلنا إلى مواطنيـــن مـــن الدرجة الثانية وإنزال المعاملة نفسها بنا فهذا ما لا يمكن أن ينصـــحنا أحد بالقبول به أو الإذعان له. ولهذا فإن ثورتنا منذ البداية لا تقوم علـــى أسس عرقية أو دينية عنصرية، وليست موجهة للإنسان اليهودي من حيث كونه إنسانا وإنما هي موجهة ضد العنصرية الصهيونية وضد العدوان. وبهذا المعنى فإن ثورتنا هي أيضا من أجل الإنسان اليهودي. إننا نناضل من أجل أن يعيش اليهود والمسيحيون والمسلمون بمساواة في الحقوق والواجبات وبلا تمييز عنصري أو ديني.

أ- إننا إذن يا سيدي الرئيس نفرق بين اليهودية وبين الصهيونية. وفي الوقـــت الـــذي نعـــادي الحـــركة الصهيونية الاستعمارية، فإننا نحترم الدين اليهودي. وإننا نحذر اليوم وبعد قرابة قرن من بروز هذه الحركة العنصرية مـــن أن خطرها يتزايد ضد اليهود في العالم، وضد شعبنا العربي وضد أمن العـــالم، وســـلامته. فالصهيونية لا تزال متمسكة بتهجير اليهود من أوطانهم واصطناع قومية لهم يستبدلون بها قومياتهم الأصلية.

إن الصـــهيونية تتابع نشاطها التخريبي هذا على الرغم من ظهور فشل الحــل الــذي قدمته وإن ظاهرة النزوح من التجمع الإسرائيلي المستمرة منذ قــيامه والتـــي ستقوى مع سقوط قلاع الاستعمار الاستيطاني العنصري في العالم، لدليل على هذا الفشل.

ب- إننا ندعو جميع الشعوب والحكومات لمجابهة مخططات الصهيونية الرامــية إلـــى تهجـــير مزيد من يهود العالم من أوطانهم ليغتصبوا وطننا. وندعوهم في الوقت نفسه للوقوف في وجه أي اضطهاد للإنسان بسبب دينه أو جنسه أو لونه.

ج- وإنني أتساءل يا سيادة الرئيس، لماذا يدفع شعبنا العربي الفلسطيني الثمن. لماذا يتحمل شعبنا ووطننا مسئولية مشكلة الهجرة اليهودية إذا كانت لا تــزال مـــثل هـــذه المشـــكلة فـــي مخيلة البعض. وأتساءل لماذا لا يتحمل المتحمسون لهذه المشكلة إن وجدت المسئولية فيفتحوا بلادهم الكبيرة الرقعة والقادرة لاستيعاب هؤلاء المهاجرين ومساعدتهم.

سيدي الرئيس،

إن الذين ينعتون ثورتنا بالإرهاب، إنما يفعلون ذلك لكي يضللوا الرأي العـــام العالمـــي عن رؤية الحقائق، عن رؤية وجهنا الذي يمثل جانب العدل والدفاع عن النفس ووجههم الذي يمثل جانب الظلم والإرهاب.

إن الجانـــب الـــذي يقـــف فـــيه حامل السلاح هو الذي يميز بين الثائر والإرهابي، فمن يقف في جانب قضية عادلة ومن يقاتل من أجل حرية وطنه واســـتقلاله ضـــد الغزو والاحتلال والاستعمار لا يمكن أن تنطبق عليه بأي شـــكل مـــن الأشكال صفة الإرهابي وإلا اعتبر الشعب الأمريكي حين حمل السلاح ضد الاستعمار البريطاني إرهابيا، واعتبرت المقاومة الأوروبية ضد النازية إرهابا، واعتبر نضال شعوب آسيا وإفريقية وأمريكا اللاتينية إرهابا. لا يا سيدي الرئيس إن هذا هو الكفاح العادل والمشروع والذي يكرسه ميثاق هيـــئة الأمـــم والإعلان العالمي لحقوق الإنسان. أما الذي يحمل السّلاح ضد

القضايا العادلة.. الذي يشن الحرب لاحتلال أوطان الآخرين ونهبهم واستغلالهم واستعمارهم فذلك هو الإرهابي وأعماله هي التي يجب أن تدان وينسحب عليه لقب مجرم حرب ذلك أن عدالة القضية هي التي تقرر عدالة السلاح.

سيدي الرئيس،

إن الإرهاب الصهيوني الذي ارتكب بحق الشعب الفلسطيني لإجلائه عن وطنه واقتلاعه من أرضه مدوّن لديكم في وثائق رسمية وزعت في الأمم المتحدة. لقد ذبح الآلاف من أبناء شعبنا في قراهم ومدنهم وأجبر عشرات الألوف تحت نار البندقية وقصف المدافع والطائرات أن يتركوا بيوتهم وما زرعوا في أرض أجدادهم. وكم من مسيرة أجبر فيها أبناء من شعبنا نساء وأطفال وشيوخ على الخروج دون زاد أو ماء وأرغموا على تسلق الجبال والتيه في الصحراء. إن الكوارث التي حلت عام ١٩٤٨ بأهالي المئات من القرى والمدن في السهل والجبل، في القدس ويافا واللد والرملة والجليل، لم ولن ينساها من عانى أهوالها لحظة رغما عن التعتيم الإعلامي العالمي الذي نجح في إخفاء هذه الأهوال كما أخفى أثر ٣٨٥ قرية ومدينة فلسطينية دمرت في حينه وأزيلت من الوجود. إن نسف ١٩ ألف منزل على مدى السبع سنوات الأخيرة أي ما يساوي تدمير مئتي قرية فلسطينية أخرى تدميرا كاملا والأعداد الضخمة من مشوهي الإرهاب والتعذيب ومن في السجون لا يمكن أن يطمسه التعتيم الإعلامي. ولقد وصل إرهابهم إلى الحقد حتى على شجرة الزيتون في بلادي التي اعتبروها علما شامخا يذكرهم بسكان البلاد الأصليين، يصرخ أن الأرض فلسطينية، فراحوا يعملون على اقتلاعها أو قتلها بالإهمال والتحطيب. ماذا يمكن أن يسمى تصريح جولده مئير عندما عبرت عن "قلقها من الأطفال الفلسطينيين الذين يولدون كل صباح". إنهم يرون في الطفل الفلسطيني والشجرة الفلسطينية عدوا يجب التخلص منه. يا سيادة الرئيس، طيلة عشرات السنين وهم يتعقبون قيادات شعبنا الثقافية والسياسية والاجتماعية والفنية بالإرهاب والتقتيل والاغتيال والتشريد. لقد سرقوا تراثنا الحضاري، وفولكلورنا الشعبي وادعوه لهم ومدوا إرهابهم إلى

مقدسـاتنا في مدينة السلام القدس الحبيبة وعمدوا إلى إفقادها طابعها العربي المسيحي الإسلامي من خلال تهجير سكانها وضمها لدولتهم، ولا حاجة لأن نسترسل في ذكر حرق المسجد الأقصى وسرقة ثروات كنيسة القيامة والتشويه الذي لحق بعمرانها وطابعها الحضاري. فالقدس بروعتها وبالعبق التاريخي المسيطر عليها تشهد لأجيالنا المتعاقبة التي مرت عليها تاركة في كل ركن من أركانها أثرا خالدا وبصمة حنونا حضارية ونبضة إنسانية.

وليس غريبا أن تتعانق في سمائها الرسالات السماوية الثلاث وتتهادى في ركبها وآفاقها تنير للبشرية طريق جلجلتها وهي تحمل أشواكها وآلامها لترسم مستقبلها بكل ما فيه من آمال وأماني ومعطيات.

السيد الرئيس،

إن العدد القليل من العرب الفلسطينيين الذين لم يستطع العدو تهجيرهم من أرضهم عام ١٩٤٨ هم الآن لاجئون على أرضهم وقد عوملوا في القانون الإسرائيلي كمواطنين من الدرجة الثانية، بل والثالثة باعتبار أن اليهود الشرقيين هم مواطنو الدرجة الثانية، ومورست ضدهم كل أشكال التمييز العنصري والإرهاب وصودرت أراضيهم وممتلكاتهم، وتعرضوا لمذابح دامية كما حدث في قرية كفر قاسم، وهجروا من قراهم وحرموا من العودة لها كما حدث لأهالي قريتي كفر برعم وإقرت. كما أن أهلنا عاشوا هناك ثمانية عشر عاما تحت الحكم العرفي لا يحق لهم الانتقال من مكان إلى مكان مجاور دون إذن مسبق من الحاكم العسكري. تصور، يا سيادة الرئيس، في الوقت الذي يسن فيه المشرع الإسرائيلي قانونا يعطي حقا تلقائيا بالمواطنية لأي يهودي يهاجر إلى أرضنا فور أن يطأها، يسن قانونا آخر يعتبر الفلسطينيين الذين بقوا في فلسطين، ولم يكونوا في قراهم أو مدنهم ساعة احتلالها محرومين من المواطنية.

السيد الرئيس،

إن سجل حكام إسرائيل الحافل بجرائم الإرهاب يمتد ليشمل عددا من أبناء أمتنا العربية الذين بقوا تحت الاحتلال في سيناء أو الجولان، كما أن

ذكرى جريمة قصف مدرسة بحر البقر ومصنع أبو زعبل في مصر العربية مـــا زالت ماثلة للأذهان، وأما تدمير مدينة القنيطرة السورية فما زال شاهدا لكل من يريد أن يرى ما يفعله الإرهاب، وإذا فتح سجل الإرهاب الصهيوني على جنوب لبنان وهو الإرهاب الذي ما زال مستمرا، فسوف تقشعر الأبدان مـــن هـــول ما يرتكب من أعمال القرصنة والقصف والعدوان، بما في ذلك تهجـــير المدنيـــين وتدمـــير بـــيوتهم وخطفهم وحرق مزارعهم إلى جانب الاعـــتداءات المستمرة على سيادة الدولة اللبنانية، والإعداد لسرقة مياه نهر الليطانـــي. ولنذكر في هذا المجال بالمقررات العديدة التي صدرت عن هذه المـــنظمة، والتـــي تديـــن إسرائيل بارتكاب الاعتداءات ضد الدول العربية، وبالاعـــتداء علـــى حقوق الإنسان، وفيما يتعلق بضم القدس وتغيير وضعها السـابق للاحـــتلال، وإدانتها لمخالفات متعددة لبنود اتفاقيات جنيف في حالة الحرب.

السيد الرئيس،

إن الـــتأمل بكـــل هذه الأعمال لا يمكن أن يطلق عليه من وصف غير وصـــف الإرهـــاب الهمجـــي، ومـــع ذلـــك يتجرأ أولئك الإرهابيون الغزاة العنصريون على تسمية نضالات شعبنا العادلة بالأعمال الإرهابية. هل يوجد ثمـــة تجـــرؤ على الباطل والتزييف أشد من هذا. وإننا نقول إن على أولئك الذين اغتصبوا أرضنا وارتكبوا من جرائم الإرهاب والتمييز العنصري أكثر ممـــا فعـــل ويفعل العنصريون في جنوب إفريقية، أن يتذكروا قرار الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة الذي أعلن طرد جنوب إفريقية من عضويتها، لأن ذلـــك هـــو المصير المحتوم لكل الدول العنصرية التي تطبق شريعة الغاب وتغتصب وطن الآخرين وتضطهدهم.

السيد الرئيس،

لقـــد قاوم شعبنا الفلسطيني خلال ثلاثين عاما تحت الاحتلال البريطاني والغـــزو الصـــهيوني كل محاولات انتزاع أرضه، وناضل في ثورات ست،

ومن خلال عشرات الانتفاضات الشعبية ومن أجل إحباط المؤامرة ليبقى على أرضه وفوق تراب وطنه، قدم في سبيل ذلك ولغاية ١٩٤٨ ثلاثين ألف شهيد (أي ما يوازي ٦ ملايين أمريكي بالنسبة لعدد السكان اليوم).

وعندما اقتلعت غالبيته من الأرض الفلسطينية التي احتلت عام ١٩٤٨ ظل يقاوم في ظروف صعبة محاولات إفنائه. وحاول شعبنا بكل الطرق استمرار نضاله السياسي من أجل حقوقه، دون جدوى. وناضل للحفاظ على وجوده فتعلم أبناؤه في النزوح والشتات وكدحوا تحت أصعب الظروف ليستطيعوا الاستمرار، وأصبح لدى الشعب الفلسطيني آلاف الأطباء والمهندسين والأساتذة والعلماء توجهوا بعملهم وإمكانياتهم للأقطار العربية المحيطة بوطنهم المغتصب فساهموا في البناء والتعمير والتطوير وحصلوا على دخل استخدموه لمساعدة أقربائهم الصغار والعجائز الذين استحال عليهم مغادرة مخيمات النزوح. علّم الأخ أخاه وحافظ على والديه وربى أولاده ولكنه ظل يحلم في قلب ذاته بالعودة إلى فلسطين.. ظل فلسطينيا متمسكا بوطنه لا يهتز ولاؤه لها ولا تهون عزيمته ولا يفتر حماسه. لم يغرِه شيء للتخلي عن فلسطينيته ووطنه فلسطين. لا ولم ينسهِ الزمن إياها كما توقع المتوقعون.

وعندما خابت آمال شعبنا بالأسرة الدولية التي نسيته وتغافلت عن حقوقه وثبت لشعبنا عجز النضال السياسي وحده عن استعادة شبر أرض من وطنه لجأ شعبنا إلى الثورة الفلسطينية وأعطاها كل إمكانياته المادية والبشرية وخيرة شبابه. وواجه شعبنا ببسالة إرهابا إسرائيليا لا يتخيله بشر ليثنيه عن طريق النضال.

لقد قدم شعبنا في السنوات العشر الأخيرة من نضاله آلاف الشهداء وأضعافهم من الجرحى والمشوهين والأسرى والمعتقلين، من أجل ألا يفنى أو يذوب، ومن أجل انتزاع حقه في تقرير مصيره على وطنه وفي عودته إلى ترابه.

وتعيش جماهير شعبنا الآن تحت الاحتلال الصهيوني تقاوم بكل الكبرياء المتأصلة فيها وبكل الشموخ الثوري الملازم لها سواء من زج منها في

السـجون والمعتقلات أو من يعيش داخل السجن الكبير في قصف الاحتلال. يقـاومون مـن أجـل أن تـبقى الأرض عربية ويكافحون الطغيان والظلم والإرهاب بشتى صوره المأساوية الخطيرة.

ومـن خـلال ثـورة شعبنا المسلحة تبلورت قيادته السياسية وترسخت مؤسسـاته الوطنـية وبنيـت حركة التحرير الوطنية التي تضم كل فصائله وتنظيماته وقدراته والتي جسدتها منظمة التحرير الفلسطينية.

ومـن خـلال حركة التحرير الوطنية الفلسطينية المناضلة نضج نضال شعبنا وتعددت أساليبه فشمل النضال السياسي والاجتماعي بالإضافة للنضال المسـلح. واندفعـت منظمتنا تساهم في بناء الإنسان الفلسطيني المؤهل لبناء المستقبل الفلسطيني وليس فقط لتعبئته لمواجهة تحديات الحاضر.

وتعـتز منظمة التحرير الفلسطينية بأنها وهي تخوض المعارك المسلحة وتواجـه قسـاوة الإرهاب الصهيوني، قامت بمآثر عديدة حضارية وثقافية فشـكلت مؤسسـات البحـث العلمي والتطوير الزراعي، والرعاية الصحية وإحياء التراث الحضاري لشعبنا، وتطوير الفولوكلور الشعبي، وخرجت من بيـن صفوفها عددا من الشعراء والفنانين والكتاب الذين يسهمون في تطوير الثقافة العربية، وربما امتد ذلك إلى الثقافة العالمية، وكان المحتوى لكل ذلك يحمل طابعا إنسانيا عميقا أثار إعجاب كل الأصدقاء الذين اطلعوا عليه وكنا بذلـك النقـيض لعدونا الذي قام على هدم الحضارة والثقافة بترويج الأفكار العنصـرية والاسـتعمارية وكـل مـا هـو معادٍ للشعوب والتقدم والعدل والديمقراطية والسلام.

سيادة الرئيس،

لقـد اكتسـبت مـنظمة الـتحرير الفلسطينية شرعيتها من طليعتها في التضـحية ومـن قـيادتها للنضـال بكافة أشكاله، واكتسبتها من الجماهير الفلسطينية التي أولتها قيادة العمل واستجابت لتوجيهها، واكتسبتها من تمثيل كـل فصيل ونقابة وتجمع وكفاءة فلسطينية في مجلسها الوطني ومؤسساتها الجماهـيرية. وقد تدعمت هذه الشرعية بموازرة الأمة العربية كلها لها. كما

تكرس هذا الدعم في مؤتمر القمة العربي الأخير بتأكيد حق منظمة التحرير الفلســطينية في إقامة السلطة الوطنية المستقلة على كل الأراضي الفلسطينية التي يتم تحريرها بصفتها الممثلة الشرعية الوحيدة للشعب الفلسطيني.

كمـــا أن شـــرعيتها تعمقت من خلال دعم الإخوة في حركات التحرر ودول العـــالم الصديقة المناصرة التي وقفت إلى جانب المنظمة تدعمها وتشد أزرها في نضالها من أجل حقوق الشعب الفلسطيني.

وهـــنا لابد أن أعلن بكل اعتزاز شكر ثوارنا وشعبنا للمواقف المشرفة التـــي وقفتها مع نضال شعبنا دول عدم الانحياز والدول الاشتراكية والدول الإسلامية والدول الإفريقية والدول الصديقة في أوروبا وكذلك الأصدقاء في آسيا وإفريقية وأمريكا اللاتينية.

سيادة الرئيس،

إن مـــنظمة الـــتحرير الفلســـطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلســـطيني وهي بهذه الصفة المعبرة عن رغبات وأماني هذا الشعب وهي بهذه الصفة تنقل إليكم تلك الرغبات والأماني وتحملكم مسئولية تاريخية كبيرة تجاه قضيتنا العادلة.

سيادة الرئيس،

لقد تعرض شعبنا لويلات الحرب والدمار والتشريد سنين طويلة، ودفع شـــعبنا مـــن دماء أبنائه وأرواحهم ما لا يعوض بثمن، وعانى من الاحتلال والتشـــريد والنزوح والإرهاب ما لم يعانِ منه شعب آخر. ولكن ذلك كله لا يجعـــل شعبنا حاقدا يحلم بالانتقام، كما أنه لا يجعلنا يا سيادة الرئيس نقع في سقطة عدونا العنصرية، أو نفقد الرؤية الحقيقية في تحديد أعدائنا وأصدقائنا.

إنـــنا نديـــن كـــل الجرائم التي ارتكبت ضد اليهود وكل أنواع التمييز الصريح والمقنع الذي عانى منه معتنقو اليهودية.

سيادة الرئيس،

إنني ثائر من أجل الحرية. وأعرف أن كثيرين من الجالسين في هذه القاعة كانوا في مثل المواقع النضالية التي أقاتل منها الآن واستطاعوا من خلال نضالهم أن يحولوا أحلامهم إلى حقائق. إنهم شركائي في الحلم إذن. من هنا أسألهم أن نمضي في تحويل الحلم المشترك بمستقبل السلام في هذه الأرض الفلسطينية المقدسة إلى حقائق ساطعة.

لقد وقف المناضل اليهودي يهودا اديف في المحكمة العسكرية الإسرائيلية قائلا: أنا لست مخربا.. أنا من المؤمنين بإقامة الدولة الديمقراطية على هذه الأرض. إنه الآن في غياهب سجون الزمرة العسكرية الصهيونية مع زملاء له.

ويمثل الآن، أمام هذه المحاكم ذاتها، أمير شجاع من أمراء الكنيسة المسيحية هو المطران كبوجي. إنه يرفع أصابعه بعلامة النصر – شعار ثوارنا – ويقول: "إنني أعمل من أجل السلام في فلسطين ليعيش الجميع على أرض السلام بسلام". وسيلقى هذا الأمير الراهب المصير ذاته في غياهب السجون.

فلماذا لا أحلم، يا سيادة الرئيس، وآمل، والثورة هي صناعة تحقيق الأحلام والآمال. فلنعمل معا على تحقيق الحلم في أن أعود مع شعبي من منفاي لأعيش مع هذا المناضل اليهودي ورفاقه، ومع هذا المناضل الراهب المسيحي وإخوانه في ظل دولة واحدة ديمقراطية يعيش فيها المسيحي واليهودي والمسلم في كنف المساواة والعدل والإخاء.

ألا يستحق هذا الهدف الإنساني النبيل أن أناضل من أجل تحقيقه مع كل الشرفاء في العالم؟ ولعل أروع ما في هذا الهدف العظيم هو أنه من أجل فلسطين.. أرض القداسة والسلام.. أرض الاستشهاد والبطولة.

لقد ناضل اليهود يا سيادة الرئيس في أوروبا وهنا في أمريكا من أجل أوطان لا طائفية تنفصل فيها الدولة عن الكنيسة وقاتلوا ضد التمييز على أساس الدين. فكيف يمكن لهم أن يرفضوا هذا النموذج الإنساني المشرف

على الأرض المقدسة، أرض السلام والمساواة؟ وكيف يمكن لهم أن يستمروا في دعم أكثر دول العالم انغلاقا وتمييزا وتعصبا.

إنني أعلن أمامكم هنا كرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية وقائد للثورة الفلسطينية أننا عندما نتحدث عن آمالنا المشتركة من أجل فلسطين الغد فنحن نشمل في تطلعاتنا كل اليهود الذين يعيشون الآن في فلسطين ويقبلون العيش معنا في سلام ودون تمييز على أرض فلسطين.

إنني بصفتي رئيسا لمنظمة التحرير وقائدا لقوات الثورة الفلسطينية أدعو اليهود فردا فردا ليعيدوا النظر في طريق الهاوية الذي تقودهم إليه الصهيونية والقيادات الإسرائيلية، وهي التي لم تقدم لهم غير النزيف الدموي الدائم والاستمرار في خوض الحروب واستخدامهم كوقود دائم لها.

إننا ندعوكم للخروج إلى مجال الاختيار الرحب بعيدا عن محاولات قياداتكم لغرس عقد الماسادا وجعلها قدرا لكم.

إننا نقدم لكم أكرم دعوة.. أن نعيش معا في إطار السلام العادل في فلسطيننا الديمقراطية.

إنني كرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية، وكقائد للثورة الفلسطينية أعلن هنا أننا لا نريد إراقة نقطة دم يهودية أو عربية.. ولا نستعذب استمرار القتال دقيقة واحدة إذا حل السلام العادل المبني على حقوق شعبنا وتطلعاته وأمانيه.

إنني كرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية وكقائد للثورة الفلسطينية أتوجه إليكم أن تقفوا مع نضال شعبنا من أجل تطبيق حقه في تقرير مصيره. هذا الحق الذي كرسه ميثاق منظمتكم وأقرته جمعيتكم الموقرة في مناسبات عديدة. وإنني أتوجه إليكم أيضا أن تمكنوا شعبنا من العودة من منفاه الإجباري الذي دفع إليه تحت حراب البنادق وبالعسف والظلم ليعيش في وطنه ودياره وتحت ظلال أشجاره حرا سيدا متمتعا بكافة حقوقه القومية ليشارك في ركب الحضارة البشرية وفي مجالات الإبداع الإنساني بكل ما

فـــيه من إمكانيات وطاقات وليحمي قدسه الحبيبة كما فعل دائما عبر التاريخ ويجعلها قبلة حرة لجميع الأديان بعيدا عن الإرهاب والقهر.

كمـــا أتوجـــه إليكم بأن تمكنوا شعبنا من إقامة سلطته الوطنية المستقلة وتأسيس كيانه الوطني على أرضه.

لقـــد جئـــتكم يـــا سيادة الرئيس بغصن الزيتون مع بندقية الثائر .. فلا تسقطوا الغصن الأخضر من يدي.

سيادة الرئيس،

الحرب تندلع من فلسطين، والسلم يبدأ في فلسطين.

الفصل الأول

خطاب مفتوح إلى الرفيق رامي[1]

رفيقنا المناضل

تحية الثورة،

نكتب لك. ونأمل أن تصلك كلماتنا، كما وصلتنا كلماتك التي واجهت بها أولئك الذين حكموا عليك بالسجن عشر سنوات..

وبرغم أننا من الناحية الجغرافية قريبون جدا منك ومن كافة الرفاق (فنحن على الجانب الآخر من الأسلاك الشائكة التي تحرس الكيان الصهيوني) إلا أن كلماتك تأخرت حتى وصلتنا. ولكنها وصلت على أي حال، كالحقيقة، تصل دوما إن تأخرت..

قرأناها مرات، واستكملنا ما غمض منها من حديث صحفي خاص وصلنا أيضا، وكان المتحدث فيه واحد من رفاق الاتحاد الشيوعي الثوري (نضال)[2].

أول ما لاحظناه في كلمتك، وفي حديث الرفاق، هو المواقف الفكرية والنضالية التي تجمع بيننا. لم نبحث عنها كثيرا، فهي واضحة، ونحن أيضا نمارسها. ولذا عندما يعبر عنها أي إنسان فإن في مقدورنا أن ندركها،

---

(١) ألقى الرفيق رامي ليفنه خطابا خلال محاكمته في حيفا "بتهمة" انضمامه إلى تنظيم "الجبهة الحمراء". كما تكلم في هذه المحاكمة عدد من الرفاق الآخرين معبرين عن الأفكار والمواقف نفسها. وقد تميز من بينهم الرفيق يهودا أديف الذي أعلن عن مواقف وأراء أكثر وضوحا وحسما.

(٢) يعرف هذا التنظيم، أيضا، باسم Ma'Afak، وهي عند نطقها بالعربية تكون بالهمزة المخففة، وسيرد ذكرها بعد ذلك بالعربية باسم الماهفاك.

ونــدرك أعماقهــا من فورنا. إن الإنسان يستطيع أن يلتقط شبيهه من وسط الزحام دون أدنى جهد.

وبــرغم الملاحظات التي وردت، أساسا في كلمتك، وبعضها تردد في حديــث الرفاق، فإننا نعتقد أن هناك أرضية مشتركة صالحة لكي نطور معا أفكارنا، ولكي نوضح ما نعتقد أنه فهم خاطئ عن أفكارنا، وأيضا ملاحظاتنا على بعض أفكاركم.

ولكــيلا يتشــابك الحــوار، فإننا نفضل أن نقسم حديثنا معكم إلى أقسام ثلاثة:

أولا: المواقف والأفكار المشتركة.

ثانيا: ملاحظاتكم على حركة فتح، والمقاومة بشكل عام.

ثالثا: ملاحظاتنا على مصدر الخطأ في بعض أفكاركم.

ونعــتقد أنكم لستم بحاجة إلى دليل يوضح أننا – حركة فتح والمقاومة بشكل عام – لا نتأخر عن الحوار مع كل من نعتقد أنه يتخذ موقفا إيجابيا من نضالنا. ويكفي أن إحدى التهم الموجهة لك يا رفيقنا، هي أنك قابلت مناضلا فلســطينيا من "فتح". وما كان من الممكن أن يتم ذلك لولا أن هذه هي خطتنا النضــالية. وهــي كما ترى ليست "انعكاسا لأفكار شوفينية قومية، ولا هي ممارسة لها نفس الطابع" (٣).

* *
*

---

(٣) رامــي ليفــنه يتكلم، أقوال معتقل سياسي، الطبعة العربية، ص١١، إصدار القائمة الاشتراكية الثورية ر. س. (فلسطين المحتلة ١٩٧٤).

القسم الأول

المواقف والأفكار المشتركة

مــن المؤكد أن اتفاقنا في بعض الأفكار العامة، لا ينفي اختلافنا حول أفكــار عامــة أخرى، كما أن الاتفاق نفسه لا يعني تطابقا في التصور حول الطريق الذي سيسلكه النضال في سبيل تحقيق هذا الهدف العام.

ونحــن لا نخشــى الخــلاف، فهو أثر طبيعي ناتج عن اختلاف زاوية الرؤية التاريخية، وواقع الممارسة الفعلية والظروف الذاتية أيضا.

إلا أنــنا نــرى أن الســبيل الرئيســي لتوحيد الأفكار سواء العامة أو التفصيلية إنما يكون بتوحيد الممارسة، فالممارسة المشتركة تؤدي إلى الفكرة الواحدة وتطورها وتدعمها.

هذه مقدمة لابد منها.

ولنحاول فيما يلي أن نسجل الأفكار التي التقينا حتى الآن حولها..

١ – فلسطين الديمقراطية

تبينــت في خطابك يا رفيق ما طرحه مندوب "فتح" في اجتماع رسمي عــن دولة علمانية ديمقراطية يعيش فيها المسلمون واليهود والمسيحيون مع بعضهم البعض(٤).

صــحيح أنــك في الخطاب نفسه، وفي نهايته تقريبا، نفيت أن تكون قد قمت بما يحقق أذى لأمن الدولة(٥).

---

(٤) هذه المحاولة لمعالجة وجود يهودي في المنطقة تظهر جليا وبشكل رسمي في برنامج فتح الذي يتكلم (عن دولة علمانية ديمقراطية يعيش فيها المسلمون واليهود والمسيحيون مع بعضهم البعض)، المصدر السابق ص٩.

(٥) المصدر نفسه ص٢٤.

فـــي تقديـــرنا أن هذا "النفي" ضروري خلال محاكمة كالتي تمت وأنه بالتأكـــيد لا يعنـــي شـــيئا بالنســـبة لموافقتك الواضحة على شعار "فلسطين الديمقراطـــية" والتـــي تعني بلا شك القضاء على الكيان الصهيوني المسمى بإسرائيل.

ولقـــد تأكد لنا هذا الاستنتاج بالرجوع إلى الحديث الصحفي الذي تم مع أحـــد رفـــاقك فهو يستنكر "الاعتراف بشرعية دولة إسرائيل"(٦)، ويعتبر ذلك "خيانة بالنسبة لمصالح الشعب الفلسطيني الوطنية وحركة التحرر العربي"(٧)، وهو يرى أن الحل الجذري "يقضي على الدولة الصهيونية"(٨).

هـــنا جوهر الاتفاق بيننا، وهو كافٍ حتى ولو لم نكن متفقين على غير ذلـــك، كافٍ لأن نبدأ معا حوارا وممارسةً من أجل تبين سبل تحقيقه، وتجنيد أوسع القوى في سبيل ذلك..

لابد أن نوضح مفهومنا عن دولة فلسطين الديمقراطية، فنحن نؤمن بأن الثوار لا يخفون أهدافهم النهائية أبدا..

أ- نعـــم هـــي دولة تضم مسلمين ومسيحيين ويهودا على قدم المساواة. ولكـــن لابـــد أن نوضح أننا لسنا مثاليين، أو نحن نحلم بأن تقوم هذه الدولة بمجـــرد توفـــر النيات الحسنة، ولا هي يمكن أن تخلو من آثار السنين التي مارســـت فيها الصهيونية كافة أشكال التعصب والعنصرية والقمع والدعايات التي تحشو بها عقول "اليهود" عن العرب على حد تعبيرك(٩). لذا فإننا نعتقد أن السبيل الوحيد لتقليل آثار هذه الجرائم، هو شن حرب شعبية لتحرير كامل فلســـطين، ونؤمن بأن هذه الحرب ستحرر "العقول" مما حشيت به من أفكار

---

(٦) حديث مع رفيق عضو في الاتحاد الشيوعي الثوري، ص٣.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) المصدر نفسه، ص١٥.

(٩) مـــن خطـــاب رامـــي ليفنه: "أجهزة الدولة تحشو عقول السكان (الذين هم في معظمهم يهود قـــادمون من الدول العربية وفلسطينيون عرب): إن العرب شعب بربري يريد القضاء علينا ولهذا فـــإن علينا أن نهزمهم قبل أن يفعلوا هم ذلك. إنهم يعطون هذا التحريض والدعاية لليهود القادمين مـــن الدول العربية الذين عاشوا في هذه المنطقة "الهمجية" لقرون عدة "أنتم أنفسكم بدائيون وسود" تقول الحكومة الإسرائيلية لليهود الشرقيين وتقول إن العرب أكثر بدائية واسودادا". ص١٧

متعصبة وعنصرية. كما أننا نتوقع أن تؤدي مساهمة **الثوار اليهود** معنا في النضال المسلح، إلى التخفيف من آثار ما تفعله الصهيونية، وفعلته وستفعله. إن حربنا كما ترون ليست "حربا أهلية" تنتهي بانتصار طبقة أو مجموعة من الطبقات، على طبقة أو مجموعة أخرى من الطبقات، ولكنها حرب من أجل استعادة الأرض وتحريرها كاملة، هذه الأرض التي ستكون من حق الذين ناضلوا من أجل تحريرها.

إن الأرض ستكون للسواعد التي تحررها بالسلاح، هذا ما نؤمن به وندعو له. لذا فنحن نرى أن مسئوليتكم، أيها الرفاق، ليست هينة، كما أن ظروفكم ليست سهلة، إن المبادرة والإسراع في الاشتراك في هذا النضال المسلح الشعبي، يقللان بلا شك خسائرنا في المستقبل كما أنهما يعجلان نهاية هذا الكيان العنصري البشع، فيخففان من كوارثه وآثار تعصبه على عقول الجماهير سواء التي قدمت إلى فلسطين أو التي طردت منها.

ب- إن هذه الدولة هي عربية، ولا يمكن أن تكون غير ذلك، وقد أشرت في خطابك إلى ذلك عندما نقلت عن لسان موشيه شاريت قوله "لا يوجد عربي واحد لا يرى نفسه جزءا من الشعب العربي الذي حكم هذه البلاد لمئات السنين..."(١٠). ونحن نعتقد أنه من المستحيل "تاريخيا" أن تفلح الصهيونية في تغيير وجه فلسطين فالشعب العربي الفلسطيني ليس الهنود الحمر، ولا يمكن القضاء عليه ولا إذابته كما حدث في أمريكا الشمالية، فهو شعب له حضارة متطورة(١١)، ومجتمع هو جزء من المجتمع العربي الكبير، تطور (بغض النظر عن درجة التطور) لأكثر من ألفي عام. هو إذن صاحب الموقع الأصيل في الحركة التاريخية. هذه الحركة التي لابد أن تتطور وتنمو لتصل إلى الوحدة العربية التقدمية الكبرى.

---

(١٠) خطاب رامي ليفنه، ص٨.

(١١) ذكر رامي ليفنه، المصدر السابق، حديثا لدايان يقول فيه:

"يجب القول بحزم إن دولة إسرائيل قامت على حساب العرب وفي ديارهم، إننا (أي اليهود الإسرائيليين) لم نأت إلى بلاد خالية (من السكان) لقد كان هناك استيطان عربي في هذه البلاد... إننا نوطن اليهود في أماكن كان يسكنها العرب، إننا نحول بلادا عربية إلى بلاد يهودية". (يديعوت أحرونوت ١٠- ٥- ١٩٧٣).

ليس معنى ذلك أن كل من ليس عربيا لابد أن يغادر فلسطين، فالوطن العربي عرف ويعرف أقليات غير عربية، تعيش في مساواة كاملة مع العرب. إلا أننا لا نقيس عروبة الإنسان بديانته، كما أننا لا نحوط العروبة بسور "عرقي" يمنع الانخراط في صفوفها.

ج – إن هذه الدولة الفلسطينية العربية الديمقراطية هي جزء أو ستكون جزءا من دولة عربية موحدة تقدمية كبرى، ستكون تتويجا لنضال الجماهير العربية من أجل التحرر والحرية. ونحن لا نقول ذلك لأننا نؤمن بالوحدة العربية فقط، ولكن لأننا نرى أن هذا هو المستقبل التاريخي لأمتنا العربية، كما أننا نرى في الحرب الشعبية التحريرية سبيلا مؤكدا وأساسيا لتحرير الجماهير العربية كلها، وتوحيدها.

هذا هو مفهومنا، ونعتقد أنكم توافقوننا عليه، فقد أشرت في خطابك قائلا: "إن الكفاح المشترك للجماهير المستغلة لكلا الشعبين هو الطريق الوحيد للتحرر وإن هذا التحرر لا يمكن أن يكون تحرر الفلسطينيين السياسي فقط. نحن نعرف أنه من أجل التحرر من الارتباط الأيديولوجي مع البرجوازية العربية والعمل من أجل نظام يمثل الجماهير المحرومة في المنطقة ككل ومن أجل التحرر من التشرد ومن أجل استرجاع الكرامة ومن أجل التحرر من اليأس والعذاب – يجب على الشعب الفلسطيني أن يقبل التحالف مع جماهير اليهود المستغلين في إسرائيل نفسها. هذه الجماهير نفسها التي تدير ظهرها اليوم لأي تصور حول التعاون بين اليهود والعرب"[١٢].

متفقون بشكل عام. ونؤكد على نقطتين: **الأولى:** هي أن هذا النضال المشترك **يوجه أساسا ضد الكيان الصهيوني، وأي إغفال لذلك من شأنه أن يحرف اتجاه البنادق ويشتت القوى الثورية المناضلة ضد هذا الكيان.** **والثانية:** هي أن مسئولية تحقيق الأشكال والصيغ السياسية لهذا التحالف، هي مسئولية مشتركة. من جانبنا نحن لا نتردد أبدا في تناول أي يد تقدم لنا، فما

---

(١٢) خطاب رامي ليفنه، ص١٠.

هي مسئولية القوى الثورية الداعية بين الجماهير اليهودية في الوطن المحتل الآن؟ وكيف يمكن أن نميز بينها؟ نعتقد أن السبيل الوحيد لذلك هو ممارسة النضال فعلا بكافة أشكاله المسلحة وغير المسلحة. **ذلك هو الفصل بين الثوري وغير الثوري، بين التقدمي وغير التقدمي، بين اليساري وغير اليساري.** ذلك هو الطريق إلى استقطاب جماهير يهودية لتلتزم بالموقف الفكري والنضالي نفسه. ونحن نعتقد أنه من الخطر التعمية على هذا الجانب ليس فقط لأنه يضلل قطاعات من الجماهير ويحرف نضالها، وليس فقط لأنه يشوه الأفكار التي يحاولون بها تبرير استمرار "الاعتراف بشرعية إسرائيل"، وإنما أيضا **لأن أي نضال لا يوجه ضد العدو الرئيسي وبشكل مباشر من شأنه دعم هذا العدو وتثبيت مواقعه.**

بهذا المقياس استطعنا نحن هنا أن نميزكم من بين عشرات الجماعات التي ترتدي مسوح التقدمية واليسار، ثم هي لا تؤمن بالعنف وسيلة للنضال، وتنكر علينا حقنا في أن نقاتل من أجل القضاء على الدولة الصهيونية.

٢- العنف

وإذ نتفق على الهدف، يتدعم اتفاقنا عندما نتبنى الوسيلة نفسها: "العنف".

ولقد دافعت يا رفيق عن العنف. برغم ظروف المحاكمة كان موقفك واضحا من هذه المسألة. أنتم مع العنف. ونحن نمارسه. تقول في خطابك "لا يمكن أن يكون هناك رد فعل سوى المقاومة". كما تقول: "إن كل هذا (الموقف المتصلب للدولة الإسرائيلية) يحتم على الجماهير العربية العيش تحت اضطهاد شنيع ويفرض على الجماهير اليهودية (الإسرائيلية) **حربا أزلية** غير عادلة ضد حقائق التاريخ نفسه"[١٣] (التخطيط من عندنا). وتقول أيضا إن نوعية الاستيطان الصهيوني بذاته هي التي خلقت حلقة من العنف

---

(١٣) المصدر نفسه، ص٩.

والكراهية لأنها بنيت على الدماء والفظائع[١٤]. وتصنف اتهام الدولة لكم بتأييد العنف والدعوة للثورة المسلحة بأنه "لا حدود للنفاق الذي تتسم به الدولة"[١٥]. وتقول موضحا "أن النظام لن يزول بمجرد أن ينظم العمال والشغالون والفقراء أنفسهم – يهودا وعربا معا – لكي يستبدلوه بطريقة ديمقراطية بنظام شعبي. إنه سيهاجم وسيقوم ضد الجماهير اليهودية والعربية معا بطريقة يائسة. لهذا فنحن نقول للعمال والفلاحين والفقراء: يجب أن تكونوا مستعدين لذلك الهجوم"[١٦].

أنتم إذن تؤمنون بالعنف، ونعتقد أن التحفظ بأن هذا العنف سيكون فقط عندما يهجم النظام، إنما هو تحفظ فرضته ظروف المحاكمة. ذلك أن النظام يهاجم منذ أمد بعيد، وهو يقمع منذ تسلله وقيامه، وهو يمارس العنف يوميا بكافة أشكاله كما ذكرت في خطابك.. لا جواب عليه إذن إلا العنف. وقد تأكد لنا ذلك بالرجوع إلى الحديث الصحفي نفسه، إذ يقول الرفاق "إن هناك مهام ليست فقط عسكرية، بل سياسية أيضا مطروحة على الثوار وإنهم لن يتمكنوا من الانتقال إلى مرحلة النضال العسكري إلا إذا توفرت بعض الشروط السياسية التي تضمن فعالية النضال المسلح".

توافقون على العنف، وتدافعون عنه، وهي نقطة التقاء إيجابية وهامة، لا يقلل منها أنكم تتحفظون "بضرورة توافر بعض الشروط". لا شك أنه لابد من توفر الشروط والظروف الملائمة لكل عملية نضالية، كما لا شك أيضا أن ممارسة العنف لا تمنع بل هي تدعم الممارسات غير العنيفة السياسية الأخرى. لذا فنحن لن نناقش هذا التحفظ تاركين تقدير الظروف، خصوصا الذاتية، لكم.

---

(١٤) المصدر نفسه.

(١٥) المصدر نفسه، ص١٨.

(١٦) المصدر نفسه، ص١٩.

هنا أيضا لابد أن يكون موقفنا واضحا :

أ- نحن نؤمن بالعنف **سبيلا وحيدا** لتحرير الأرض المغتصبة ولكن ما نؤمن به من عنف يتصف بأنه **عنف جماهيري** منظم، وهو يتطور إلى حرب شعبية شاملة. نحن نعتقد أن من واجبنا أن ننمي قدرات الجماهير على ممارسة العنف المنظم وذلك لا يتحقق ولا يمكن أن يتحقق ما لم توجد القوى المنظمة الواعية التي تمارس العنف، فتدعو وتنظم بممارستها إلى جانب دعوتها. كما أننا نعتقد أن **استمرار ممارستنا العنيفة هو الذي من شأنه هز الأوهام الإصلاحية** والسلبية التي زرعتها قرون من القهر الواقع على جماهيرنا، وأننا بذلك أيضا نوسع رقعة الصدام مع العدو الصهيوني أرضا وجماهير.

ب- إن العنف المنظم يجب أن يهدف إلى تجنيد أوسع الفئات والقوى الجماهيرية بحيث يتحول إلى حرب شعبية شاملة، هي بلا شك أيضا طويلة الأمد. ذلك لأننا لن نعبئ الجماهير "بقرار" ولن نهزم الأفكار القديمة في جولة واحدة. ونحن لا نحارب في فراغ وإنما من حولنا أعداؤنا الأذكياء الساعون إلى تفتيت صفوفنا وعزلنا.

ج- إن هناك مكانا في هذه الحرب لكل القوى الثورية العربية. فقضيتنا هي قضية العرب جميعا. كما أننا نرحب بل نسعى لأن يكون بين صفوفنا مناضلون من غير العرب لنحقق بالفعل الموضوعي جذورنا في حركة النضال الأممي ضد الاستعمار الذي هو أصل الكيان الصهيوني.

د- إننا نتوقع في مراحل مقبلة أن تساهم معنا وبنشاط فئات من الجماهير اليهودية التي قدمت إلى الوطن المحتل فلسطين، بعد أن تدرك أن لا خلاص لها ولا تحرر إلا بالقضاء على الكيان الصهيوني.

هـ- إن الحرب الشعبية الفلسطينية العربية (ضمت وستضم) في مراحل مقبلة أيضا، **جيوشا عربية** ويتحدد موقف وطريقة كل جيش منها، **بقدر تأثير جماهير البلد المعين ومدى ما حققته من تغيرات سياسية.**

و- أننا برغم اقتناعنا بأهمية تنظيم العنف وجماهيريته، إلا أننا نتوقع أن تقــع علــى الدوام أشكال من العنف عفوية أو غير جماهيرية، كرد فعل لوحشية الصهيونية ومؤامرتها ضد جماهيرنا ونحن في هذه الحالة لا نفقد رؤيتنا أبدا، ولا نلقي اللوم إلا على المستعمرين الغاصبين لأرضنا(١٧).

هذه بإيجاز الخطوط العامة لفهمنا "للعنف". يبقى أن ننبه أننا على الداوم نحاول تطوير أساليبنا وتعميق جذورها التنظيمية في الداخل. ولكن طالما أن "العنف" عندنا ممارسة، فإن كل ممارسة تجمع الصواب والخطأ، ولا ضمان بــأن يغلــب جانب الصواب على جانب الخطأ إلا باستمرار هذه الممارسة وارتباطها دوما بالجماهير منبعا للقوى المقاتلة، ودرعا لحماية أمنها ومصدرا لأفكارها وتكتيكاتها.

كمــا أننا لا ننزلق إلى مقاييس عاطفية نقيس بها الحرب وأشكال العنف الأخــرى، وإنمــا نلتزم بما ذكرنا من أن تكون منظمة وجماهيرية وموجهة لخدمة هدفنا الاستراتيجي. وهي بهذا الشكل لا يمكن أن تكون كما ذكرت في خطــابك "أعمــالا إرهــابــية"، ولا "ممارسة قومية شوفينية وبرجــوازية صغيرة"(١٨). وسنعود إلى هذه الملاحظة فيما بعد.

٣- استقلالية الإرادة الجماهيرية الثورية

نحن ننادي ونعمل على الدوام **لتحرير الإرادة الجماهيرية الثورية الفلسطينية من أي وصاية عربية أو غير عربية.** وقد أشرت إلى ذلك في خطابك عندما تحدثت عن أن "الانسلاخ عن الحكومات العربية والمشاركة

---

(١٧) يقول إنجلز عن حرب الأفيون في الصين ١٨٥٧ :

"بــدل الوعظ عن فظائع الصينيين الشنيعة، كان من الأفضل الاعتراف بأن هذا احتراب على الأرض ومــن أجــل الأمــة. حرب شعبية من أجل وجود الأمة الصينية. وعلى الرغم من جميع تحديداتها المسبقة والكثيرة وعلى الرغم من السخافة وعدم المعرفة والوحشية المتمكنة فهي حرب شعبية مع ذلك".

(١٨) رامي ليفنه، المصدر السابق، ص١١.

الفعالة للجماهير الفلسطينية نفسها هي شروط لا غنى عنها لدفع النضال إلى الأمام"[١٩]. ولكن يبدو أن هذه الفكرة، ونضالنا في سبيل تطبيقها، يتوهان أحيانا في خضم الأحداث اليومية. إن ما نريد أن نوضحه **إن دعوتنا إلى رفض الوصاية ليست بأي حال دعوة "إقليمية" أي "انفصالية" عن مجموع الأمة العربية.**

إننا كما ذكرنا لكم نؤمن بالوحدة العربية، وبأن الشعب الفلسطيني شعب عربـــي، وبأن قضيتنا هي قضية العرب جميعا. ذلك معناه أن كافة العوامل الموجودة على الساحة العربية تؤثر حتى على مسيرة نضالنا. كما نؤثر نحن أيضا على هذه العوامل فرادى ومجتمعة. إننا نؤمن بضرورة تحرير الإرادة الـــثورية لكـــل الجماهير العربية، وبالذات للجماهير الفلسطينية فيما يخص حرب التحرير الشعبية من أجل تحرير فلسطين. ذلك لأن هذه الجماهير بحكم ظـــروفها التاريخـــية، هي أكثر قطاعات الجماهير العربية تأثرا باغتصاب فلســطين، وبالتالـــي اســتعدادا للنضـــال في سبيل استعادتها. هذه الجماهير الفلسطينية تعد بحكم هذا التطور التاريخي طليعة ومحور النضال العربي من أجـــل تحريـــر فلســطين ورأس رمحـــه الضـــارب قلب الاستعمار الملقب (بإسرائيل).

٤- الفصل بين الصهيونية وبين اليهود كيهود[٢٠]

وهـــذه أيضـــا نقطة التقاء هامة.. نحن نفصل بلا شك بين الصهيونية كحـــركة استعمارية استيطانية وبين اليهود كيهود. وقد طبقنا فهمنا هذا، في

---

(١٩) المصدر نفسه، ص٩.

(٢٠) يقول الرفيق رامي ليفنه في دفاعه، ص٩ :

"غير أن الحركة الفلسطينية أرست مفهوما جديدا له معنى عميق. إن الإنسلاخ عن الحكومات العربـــية والمشاركة الفعالة للجماهير الفلسطينية نفسها هي شروط لا غنى عنها لدفع النضال إلى الأمام وأكثر من ذلك: إن أحد دروس حرب حزيران هو أن شعارات الإبادة الموجهة ضد السكان الـــيهود خلال حرب حزيران ١٩٦٧ تدعم الأيديولوجية الصهيونية ويجب التفرقة بين الصهيونية وبين اليهود كيهود".

شـــعار "الدولـــة الديمقراطية" وفي سعينا باستمرار ويوميا لفضح الصهيونية كحركة سياسية استعمارية وليست دينية. ولسنا في ذلك مبتدئين بل مستمرين فـــيما عاشت عليه جماهيرنا العربية قرونا لا تميز الناس بأديانهم. ونحن في الوقـــت نفسه لا نفهم اليهودية **إلا أنها دين** ونعتقد أنه فهم صحيح تماما وإلا وقعـــنا فـــي شرك العنصرية لو اعتبرناها "عرقا" مميزا، أو "قومية مستقلة". وصفوفنا تضم من هم يدينون باليهودية، أو ينحدرون من ذوي عقيدة يهودية، ولا يقف ذلك حائلا بينهم وبين الكلاشنكوف نفسه الذي يحمله كل المناضلين.

هـــذا هـــو موقفنا، ولكننا على أي حال لا نجد أنه موقف سهل كما أن الحفاظ عليه عبء ضخم، ويجب أن يكون مشتركا بيننا وبينكم.

إذن كـــيف يمكـــن أن نميز الصهيوني من غير الصهيوني في الوطن المحتل؟ لا يكفي أن يعلن "**المستوطن**" (تأملوا هذه الكلمة) أنه ليس صهيونيا لكي يكون غير ذلك، وإنما يجب أن يناضل ضد الكيان الصهيوني ومن أجل القضاء عليه لكي يتحقق لـــه فعلا التحرر من الصهيونية.

قد تدهشون إن عرفتم **إننا نقدر كل التقدير موقف اليهودي الفقير الذي لا يهاجـــر إلـــى فلســـطين رغم كل الإغراءات الصهيونية والاضطهاد الذي تمارسه عليه مجتمعات استعمارية فاشية أو شبه فاشية**، وكيف نحتقر كل الاحـــتقار الأغنـــياء الـــيهود الذين يشجعون فقراء اليهود على الهجرة إلى فلســـطين، وهم باقون على عروش دولهم الاستعمارية وشركاتهم الاحتكارية المســـتغلة.. نحن نعرف يا رفاق أن الكثيرين ممن جاءوا إلى الوطن المحتل فلســـطين ضللتهم دعايات صهيونية، وطاردتهم مؤامرات فاشية استعمارية، ولكن، رغم أننا لسنا المسئولين عن هذه الإغراءات، ولا عن تلك المؤامرات، فإنـــنا حين نحدد هدفنا "بدولة ديمقراطية"، وحين نمارس نشاطنا بدون تمييز على أساس العرق أو الدين فإننا نفتح باب الخلاص والتحرر أمام الكثيرين، **ولكنه باب يمر منه فقط من يحمل السلاح.**

*
* *

هــذه هي أهم الأفكار التي تبين لنا اتفاقنا عليها. وهي في نظرنا كافية كمــا ذكرنا لكي نستمر معا في حوار وممارسة يطوران هذا اللقاء، ويعمقان هذه الأفكار، وينميان ويخلقان أشكالا من الممارسة الفعلية الخصبة.

ونحــن لا نخدعكم، ولا نخدع أحدا، عندما نعلن هذه الأفكار ولا حاجة لأن ندلل على ذلك بأدلة (عملية)، فنحن نقدمها أرواحا وممارسة في كل يوم.

بودنا أن يعرف الجميع، أن مثل هذه الأفكار وإن كنا نمارسها منذ سنوات، فإننا نعرف أن أمامنا سنوات عديدة قبل أن يتحقق لها الانتصار سواء في "العقول" أو على "الأرض".

لسنا "مثاليين" حالمين بأن تنتشر هذه الأفكار بمجرد قولها، فنحن نعرف ترســبات القرون، ونقيم تماما مهارة الأعداء، وندرك تشابك العوامل وتعقد الطريق. ولقد لمستم أنتم بأنفسكم وفي واقعكم ذلك، بل نعتقد أن الفلسفة التي تؤمنون بها تؤكد أن **الصراع ضد ظاهرة لابد أن يترك بصماته على النقيض الناشــئ**. وهكــذا فإن الصراع ضد العنصرية لابد وأن يتأثر بها في بعض جوانــبه. ومهمــا كــان هذا التأثير ضئيلا فإننا نراه ضارا. ولذا نسعى لأن نقاومــه ونصــفيه ولا ســبيل إلى ذلك بدون تنمية قدرات تلك المجموعات الــيهودية الموجودة داخل الوطن المحتل، والتي بدأت تدرك خطر استمرار الكيان الصهيوني فضلا عن جريمة إقامته نفسها.

مــن هــنا مسئوليتكم ومسئولية كافة القوى والجماعات التي تلتقي معنا حــول فكــرة "**دولــة فلســطين الديمقراطية**". وهي مسئولية نعلم أنها شاقة ومرهقة، ولكننا أيضا نثق بأنها ممكنة وحتمية النجاح.

ذلك "**أن كل ضروري ممكن**"، هكذا قال لينين.

* *
*

القسم الثاني

ملاحظاتكم على حركة فتح والمقاومة بشكل عام[٢١]

نرحب بملاحظاتكم أيها الرفاق.. ولا نخشى من نشرها حتى عن طريقنا. ليس ثوريا من يكره النقد وليس صديقا مخلصا من لا يصارح بملاحظاته.

نحن لا نتوقع أن نكون متطابقين في آرائنا، لا الآن، ولا في المستقبل، فظروفنا مختلفة سواء منها التاريخية أو الحاضرة، كما أن الممارسات مختلفة أيضا في الزمان والمكان، لذا فمن الطبيعي أن تتعدد الآراء وتختلف، **وتبقى الممارسة هي السبيل لتوحيد المواقف ومن ثم الآراء**، لتبرز بعد ذلك ملاحظات جديدة، وهكذا.

ولقد راجعنا بعناية واهتمام ملاحظات الرفيق رامي ليفنه التي أدلى بها في خطابه أمام المحاكمة كما قرأنا تحفظات الرفاق في حديثهم الصحفي، وحاولنا أن نجد مصدر الخلاف الأساسي، وأن نتأكد من صحة الملاحظات التفصيلية.

وتبين لنا أن الملاحظات تنقسم **إلى مجموعتين**، إحداهما مبنية على خلاف حول فكرة أساسية هي نظرتكم إلى **"التجمع الإسرائيلي"** وتقديركم أنه **"مجتمع قومي"**، وأنه **"مجتمع طبقي"**. والأخرى ناتجة **عن عدم وضوح بعض أفكارنا ومواقفنا اليومية وهو أمر مترتب على عدم قيام حوار بيننا،**

---

(٢١) يتناول هذا الفصل الملاحظات النقدية التي يذكرها عدد من الرفاق الذين يتفقون معنا في الأفكار الأساسية الخاصة بفلسطين الديمقراطية. وهي الملاحظات التي ورد بعضها في خطاب الرفيق رامي ليفنه والرفاق الآخرين خلال المحاكمة، وترد أيضا في كتابات وأحاديث رفاق آخرين.

كما ترتب على الانعزال الموضوعي المفروض علينا معا بحكم الصدام القائم والقيود البوليسية التي يفرضها عدونا وعدوكم، ألا وهو الكيان الصهيوني.

بالنسبة للمجموعة الأولى سنناقشها معكم في الفصول التالية، وسنحاول توضيح موقفنا من هاتين المسألتين: القومية والطبقية.

أمـــا بالنسبة للمجموعة الثانية فسنناقشها ملاحظة، ملاحظة، ونأمل أن نوضحها قدر الإمكان، فإن لم نفلح ففي استمرار الحوار والممارسة المشتركة ضد الصهيونية ضمان لمزيد من الوضوح.

أولا : الانتصار على إسرائيل والثورة الاجتماعية في العالم العربي

تقــول الملاحظة الأولى "إن منظمات المقاومة الفلسطينية – وبالأخص حركة فتح – غير قادرة على حل المشكلة الفلسطينية لأسباب مختلفة منها: ١ – لأنهــم يحلمــون بإمكانية انتصار عسكري على دولة إسرائيل بدون ثورة اجتماعية عميقة في العالم العربي..."[٢٢].

ويهمنا أن نوضح ما يلي :

---

(٢٢) قال الرفيق رامي ليفنه في خطابه أمام المحكمة (ص١٠) :

"أصبح من الواضح لنا أن منظمات المقاومة الفلسطينية – وبالأخص حركة فتح – غير قادرة على حل المشكلة الفلسطينية لأسباب مختلفة، منها:

أ- لأنهــم يحلمــون بإمكانية انتصار عسكري على دولة إسرائيل بدون ثورة اجتماعية عميقة في العـــالم العربـــي وبدون فصل حقيقي بين الجماهير اليهودية المستغلة في إسرائيل والأيديولوجية الصهيونية (المسيطرة عليهم حاليا).

ب- لأنهم يقفون في منتصف الطريق في محاولاتهم تقييم موقفهم حيال وجود الشعب الإسرائيلي ويســتعملون معادلات تصنف اليهود كطائفة دينية وتتجنب الاعتراف التام بأن اليهود في إسرائيل هم في الحقيقة مجتمع قومي وليس مجتمعا دينيا.

ج- لأنهــم يــرون أن مــن الممكن الفصل بين النضال ضد الصهيونية من جهة وضد الرجعية (العربية) من جهة أخرى منتظرين النضال ضد الرجعية إلى مرحلة لاحقة".

١- إننا لا نحلم بالانتصار العسكري على دولة إسرائيل، وإنما نحن نثق ونسعى لتحقيق انتصار الثورة، وبلا شك فإن تحطيم الآلة العسكرية الإسرائيلية في سلسلة طويلة من المعارك التي تعتمد على أسلوب حرب الشعب، سيكون أساس هذا الانتصار الثوري. ليست هذه مماحكة لفظية وإنما تحديد هام وضروري نابع من الفرق **بين أن نكون دولة في مواجهة دولة، نريد إخضاعها كما أخضع "الحلفاء" مثلا "ألمانيا النازية" وبين أن نكون ثورة شعبية تناضل من أجل تحرير الأرض واستعادتها، والقضاء على الكيان الصهيوني المسمى "بإسرائيل" وتصفية كل مؤسساته السياسية والاقتصادية والعسكرية. مع إيماننا بأن ذلك سيؤدي إلى تحرير الأرض والجماهير العربية من هذه السيطرة الاستعمارية، كما سيؤدي إلى تحرير اليهود أنفسهم من الابتزاز والقمع الصهيوني.**

٢- إننا لم **نفصل** يوما بين الثورة الفلسطينية وبين الثورة العربية، ولا نتخيل ولم يحدث أن تخيلنا إمكان انتصار الثورة الفلسطينية **بمعزل** عن الثورة العربية، أو "**بدون**" الثورة العربية على حد التعبير المستخدم.

٣- إن الثورة العربية، وقلبها وطليعتها الثورة الفلسطينية، هي ثورة قومية معادية للاستعمار ونحن نعرف تماما أن الاستعمار هو مصدر التخلف الاجتماعي للأمة العربية، ومخطط ومنفذ تقسيمها، وأن إقامة الكيان الصهيوني قصد بها تكريس مصالح الاستعمار في المنطقة سواء في إبقاء البلاد العربية مفتتة أو متخلفة. **لذا فإن الثورة المسلحة ضد الاستعمار وقاعدته الصهيونية ستؤدي بلا شك إلى تفجير طاقات الجماهير العربية وتوحيدها، وبالتالي تحقيق أعمق تغير اجتماعي في حياة الأمة العربية.**

٤- إننا أيها الرفاق تخطينا منذ أمد بعيد، وربما بطريقة عملية في التفكير: سؤال **من يسبق من؟** أيهما قبل الآخر؟ **التحرير أم القضاء على التخلف الاجتماعي بأشكاله؟**.. فنحن نعرف أولا أن **التحرير هو جوهر ومحور نضالنا طوال المرحلة التاريخية الحالية، وأن "عملية" التحرير لن تتم في يوم وليلة، وأنها غير معزولة إطلاقا عن عملية التغير الاجتماعي في البلاد العربية فهي تؤثر فيها وتتأثر بها.** ولا شك أن الرفاق يوافقون

معنا أن العلة تؤثر في المعلول وتتأثر به، وأنها أيضا قد تتبادل المراكز معه بين حين وآخر.

٥- إن الــرفاق يعــرفون جــيدا أن **الصراع الاجتماعي لا يفتعل**، ولا يستطيع أحد أن يتجاهله أو يوقفه. ويعرفون أن مهمة القوى الثورية الواعية هــي دفعه في اتجاه الاحتدام والصدام موجهين ضرباتهم إلى الحلقة الرئيسية للنضــال فــي كــل مــرحلة. ولا شك أنهم يوافقوننا أن الحلقة الرئيسية في المــرحلة الحالية هي التحرر من الاستعمار بأشكاله المختلفة التي تبلغ أعلى درجــة من الحدة على أرض فلسطين. ثم ألا يوافقنا الرفاق أن نقل مستوى الصــدام مــع الاستعمار إلى درجة الصدام المسلح، والملتزم بأن يكون هذا الصــدام جماهيريا، وما يترتب على ذلك من تسليح الجماهير، وتنظيمها، **ألا يوافقــنا الرفاق أن هذا الوضع هو أنسب الأوضاع للجماهير المناضلة من أجل مطالبها الاجتماعية؟** لقد دلت أحداث السنوات الماضية على صحة ذلك، وأكدتــه. إن مؤامــرات الاستعمار وعملائه المتتالية التي تهدف إلى تصفية البندقية الجماهيرية وفكرة الكفاح المسلح، تؤكد أيضا صحة هذه الفكرة.

ثانــيا : الانتصار على "إسرائيل"، وعلاقة الجماهير اليهودية بالأيديولوجية الصهيونية.

تســتمر الملاحظة السابقة في أننا "نحلم بالانتصار.. بدون فصل حقيقي بيــن الجماهــير الــيهودية المستغلة في إسرائيل والأيديولوجية الصهيونية" (المســيطرة عليهم حاليا) (ص١٠ من خطاب المحاكمة). **الملاحظة غامضة للأسف**، ولذا نتساءل ونوضح:

١- نحن نفرق بين الصهيونية كحركة استعمارية عنصرية وبن اليهودية كديــن، واليهود كيهود. ما هو المطلوب منا على وجه التحديد لكي يمكن أن نفصل الإنسان عن أيديولوجيته أكثر من ذلك؟ عندما يتعلق الأمر بأيديولوجية

فئة من الناس، فإن الرؤية الفكرية أي التحليل الفكري لهم هو أيضا المقياس. ونحن نعرف جيدا أن الأيديولوجية الصهيونية مسيطرة حاليا على الجماهير اليهودية في الوطن المحتل. لذا نحن **نشن نضالا** على مختلف الساحات وبمختلف الأساليب ضد الصهيونية، وهذا في رأينا ليس هو **السبيل للقضاء على الصهيونية كعدو مغتصب لنا فحسب، وإنما أيضا لتحرير اليهود من هذه الأيديولوجية.**

٢- نحن نتصور انتصارنا النهائي، بأنه انتصار على الاستعمار والاغتصاب والعنصرية والعرقية أي على الصهيونية ككيان فعلي له أجهزته ومؤسساته (التي تضم أغلبية البالغين من النساء والرجال للأسف)، ولا يمكن أن يتطرق شك في أن **تصورنا للانتصار ليس هو بأي حال القضاء على هؤلاء الرجال والنساء ولكنه بفصلهم عن هذا الكيان وبضم جهودهم إلى جهودنا ضده.** هل يعتقد الرفاق أن في إمكاننا في المرحلة الحالية، بل وفي المستقبل أيضا، **أن نفصل بين الإنسان والبندقية التي يقاتل بها ضدنا، وكيف يمكن ذلك؟**

٣- مع الفارق في الظروف والتشبيه، هل كان من الممكن لقوى الأنصار في الحرب العالمية الثانية أن تفصل بين ملايين "العمال" الألمان الذين جندتهم النازية في جيوشها وسيطرت عليهم بفكرها، أن تفصل بين هؤلاء وبين الدولة النازية؟ إن السبيل الوحيد لتحقيق هذا الفصل بطريقة ثورية، وليس على طريقة فصل القوات على الجبهات بعد حرب أكتوبر - تشرين الأول، يكون بالقضاء على الصهيونية ومؤسساتها. **يكون بأن تنفصل فعلا الجماهير اليهودية عن الصهيونية.**

ثالثا : الفصل بين الصهيونية والرجعية (العربية)

تستطرد الملاحظات النقدية الواردة في خطاب المحاكمة فتقول بعدم قدرة المقاومة وبالأخص حركة "فتح" على حل المشكلة الفلسطينية لأنهم

"يـــرون أنـــه من الممكن الفصل بين النضال ضد الصهيونية من جهة وضد الرجعـــية (العربـــية) مـــن جهة أخرى، منتظرين النضال ضد الرجعية إلى مـــرحلة لاحقة".[٢٣] **ولسنا ندري من أين جاءت هذه الفكرة**، وكيف انطبعت لـــدى الـــرفاق، إلا أن يكونوا قد فسروا إلحاحنا على توجه كل البنادق نحو العدو الصهيوني، بمثل هذا التفسير الذي قدموه. سنحاول فيما يلي أن نوجز أفكارنا حول هذا الموضوع.

١- أوضـــحنا فـــيما سبق تصورنا للعلاقة بين الثورة الفلسطينية وبين الـــثورة العربية. وحين نقول "ثورة" فإننا نعني كافة أبعادها وأوجهها القومية والاجتماعية والثقافية.. إلخ.

٢- إن التـــناقض الرئيســـي الذي يحكم المرحلة التاريخية الحالية للأمة العربـــية كلهـــا هـــو التـــناقض بيـــن هذه "الأمة" وبين الاستعمار وقاعدته الصهيونية.

٣- أنـــه لهذا ترى قوى الثورة الفلسطينية وعلى وجه الخصوص "فتح" ضرورة "التوجه الكلي نحو ساحة فلسطين"[٢٤]... (أي ضرورة التوجه الكلي نحو مركز التناقض الرئيسي). ذلك أن "الوجود الصهيوني هو جذر أمراضنا وليس نتاجا من نتائجها"[٢٥].

٤- و"فتح" ترى "أن التوجه نحو فلسطين أن **إشعال المعركة في الأرض المحـــتلة محك لا يخطئ أبداً، وميزان صادق حتما يميز الخائن العميل من الوطنـــي المخلص..**[٢٦]. **ذلك أنه عندما يكون الحديث عن تحرير فلسطين كلاما يذاع وبيانات تصدر فإن الفئات العميلة أقدر على تنميق العبارات من**

---

(٢٣) رامي ليفنه، المصدر السابق، ص١٠.

(٢٤) فتح، دراسات وتجارب ثورية، من منطلقات العمل الذاتي، ص١١

(٢٥) المصدر نفسه، ص١٢.

(٢٦) المصدر نفسه.

القوى الثورية[٢٧]... كذلك كان لابد من اتباع أسلوب حرب التحرير الذي لا يستطيع الاستعمار والصهيونية أن يفشلاه "**والذي يستطيع أن يعري العملاء والخونة**"[٢٨]. (التأكيد لنا).

٥- إن تحاشينا الدخول في معارك جانبية، نابع من قناعاتنا بأن الاستعمار والصهيونية وعملاءها يسعون على الدوام لحرف اتجاه النضال عن وجهته التاريخية الصحيحة، وانحراف الجماهير العربية في معارك جزئية تغطي وجه العدو الرئيسي، وتشتت القوى التي يمكن أن تتوحد في النضال ضده. خصوصا بالنسبة لقوى الشعب الفلسطيني المشتت عمليا على أراضي بلاد عربية عديدة، وهو ما حدث بعد نكبة ١٩٤٨.

٦- إن إعلان "فتح" عند **عدم تدخلها** في الشؤون المحلية للبلاد العربية نابع من وعيها **بأنها ليست بديلا للقوى الثورية في "البلد المعين**، تاركة محاسبة الخونة والعملاء والرجعيين إلى جماهير كل بلد وقواه الثورية. ولو أن "فتح" تبنت غير هذه الخطة لأدى ذلك إلى حرف اتجاه البنادق الثورية، وتشتت قواها. **كما كان يمكن أن يؤدي إلى إجهاض المبادرات الجماهيرية لكل بلد.** إن رفضنا للوصاية على الإرادة الجماهيرية ينسحب أيضا على أي فكرة تحاول أن تجعلنا نفرض وصايتنا على إرادة الجماهير العربية في أي بلد عربي آخر. **ولا يعني ذلك أن كلا منا يعمل بانعزال عن الآخر، وإنما نحن نسعى على الدوام "للتنسيق مع القوى الثورية العربية"**[٢٩]. (التأكيد بالحرف الأسود لنا).

٧- إن كل ذلك لا يعني، أننا لا نملك أحكاما وتقييما للقوى العربية المختلفة الحكومية منها والجماهيرية، الرجعية منها والتقدمية، وإنما هناك فارق بين أن نعرف وبين أن نعلن. بين أن يكون لدينا تقييم واضح للقوى، وبين الدخول في معارك غير ناضجة معها.

---

(٢٧) المصدر نفسه، ص١٣.

(٢٨) المصدر نفسه، ص١٦.

(٢٩) المصدر السابق، ص١٣.

رابعا : العلاقات بين قيادات المقاومة والحكومات الرجعية في المنطقة

تشير الملاحظة "د" من خطاب المحاكمة، إشارة طويلة إلى علاقات قيادات المقاومة بالبرجوازية العربية، و"الحكومات الرجعية"... إلخ.

هذه الملاحظة تفصيلية جدا، فهي تتعلق بموقف "أفراد" هم قيادات المقاومة، وننقل لكم هنا ما تقدمه فتح في وثائقها: "**وثقوا أن "فتح" لا تحتج بالرصاصة الأولى لتكريس زعامتها لشعب فلسطين: إن الزعماء الحقيقيين لشعب فلسطين هم قواد حرب التحرير الذين يدكون حصون تل أبيب**"[٣٠].

ومع ذلك يهمنا أن نؤكد مرة أخرى على الحقائق التالية:

١- إن الحركة الثورية الفلسطينية، لا يمكن أن تتحرك في انعزال عن الواقع العربي الرسمي والجماهيري، فقضية فلسطين هي كما ذكرنا قضية العرب جميعا، ومحور نضالهم ضد الاستعمار[٣١].

٢- إن رفضنا للوصاية الرسمية العربية على الإرادة الحرة الثورية الفلسطينية **لا يعني انفصالا عن هذا الواقع العربي**، كما أن "تحاشينا الدخول في معارك جانبية أو تدخلنا في المشاكل المحلية للدول العربية" ليس إلا تجنبا لحرف اتجاه بنادقنا. كما أنه السبيل للاحتفاظ باستقلالية وتمايز موقفنا وعدم تورطنا في مواقف ذيلية.

٣ – إن الواقع الحكومي العربي، **هو في كل وقت محصلة صراع القوى الداخلية لهذا البلد العربي أو ذاك**، وهو واقع لابد متغير مع تزايد ونمو النضالات الجماهيرية، وازدياد حدة التناقضات الداخلية. ولما كانت معركة تحرير فلسطين طويلة الأمد، فإن أنماطا من النظم والحكومات العربية ستتبدل عبر مرحلة التحرير ونحن نثق بأن استمرار النضال المسلح

---

(٣٠) المصدر السابق، ص١٩.

(٣١) حول بروز دور النظم وتأثيرها في قضية فلسطين، راجع جذور القضية الفلسطينية لإميل توما، دراسات فلسطينية.

هو الكفيل بالإسراع بسقوط العميل والخائن منها، بل وكشف مدعي الوطنية بينها.

٤ – إن منطلقات فتح تحدد بالنص ما يلي: "**إن القيادات تتغير والحكام يتبدلون والدول تتلاشى ولكن الجماهير باقية بقاء أزليا ولا يمكن لنا بأي حال من الأحوال أن نعتمد العناصر الزائلة في معركة مصيرية مثل هذه وإن كنا ندرك أن هذه العوامل الزائلة لها فعلها وأثرها الإيجابي ولكن إلى حين**"[٣٢]. (التأكيد لنا)

٥- إننا في كل الأحوال، **لا يمكن أبدا أن نسوي بين "الكيان الصهيوني"، وبين أي نظام عربي مهما بلغت درجة ارتباط هذا النظام العربي بالإمبريالية**. إذ أننا لا يمكن أن نسوي بين مركز التناقض الرئيسي وهو الاستعمار بأعلى درجة الاستيطانية الإجلائية "إسرائيل" وبين "نظام عربي" يستغل الجماهير ولكنه على أي حال لا يطردها، ولا يغير طبيعة أرضها، ولا يؤدي النضال ضده إلى تصفيته كما يجب أن يصير مع الكيان الصهيوني، وإنما إلى تغيير طبيعة علاقاته كما يمكن أن يصير مع أي نظام عربي.ولكي نزيد الأمر وضوحا فإننا نأخذ جانبا من نضالنا التحريري: **نحن مع الوحدة العربية، أي وحدة عربية**، (ونعتقد أن هذا أيضا هو موقف اللينينية التي تؤكد على عدم معارضة بل وتأييد كل عمليات التوحيد حتى لو قامت بها قوى رجعية لأن ذلك سيؤدي إلى توحيد طاقات الجماهير في وجه مستغل واحد وسلطة قمعية واحدة). **ولكننا طبعا ضد أي تنازل أو شكل من أشكال العلاقات مع "الكيان الصهيوني" الذي نناضل من أجل القضاء عليه.**

لا يعني ذلك أننا لا نناضل ضد ارتباط هذا النظام أو ذاك بالاستعمار وعلى كل الساحات، كما **لا يعني أننا "نؤجل" النضال** ضد هذه الارتباطات. ولكن الفرق يكمن في أن استمرار الكفاح المسلح ضد الكيان الصهيوني، من شأنه ليس فقط دعم النضالات المختلفة ضد كافة أشكال الاستعمار في كل بلد عربي وإنما يعني أيضا، "**كشف زيف المدعين بالوطنية في البلاد**

(٣٢) بيان التوقيت، منطلقات العمل الفدائي، فتح، ص٢٦.

العربية"[٣٣]. أي أن الحلقة الرئيسية للنضال ضد الاستعمار في الأمة العربية هي النضال ضد الكيان الصهيوني من أجل القضاء على مؤسساته المختلفة، من أجل القضاء عليه. هذا النضال الذي يرفع حدة الصدام مع الاستعمار على كل الساحة العربية وبمختلف المستويات.

إن نظرية التسوية بين النظم العربية المرتبطة بالاستعمار وبين "الكيان الصهيوني" راجت مؤخرا بأكثر مما كانت عليه قبل حرب أكتوبر (تشرين الأول)، واستند مروجوها إلى تزايد نفوذ الولايات المتحدة في المنطقة العربية، وحاول البعض تصوير رحلات كيسنجر أنه "ضغط أمريكي" على (إسرائيل). وواضح أن مثل هذا المفهوم **لا يؤدي إلا إلى تشتيت الجهود الثورية المعادية للكيان الصهيوني (قلب الاستعمار) كما أنه يخفي الطبيعة اللاتاريخية لهذا الكيان،** مفترضا أنه "كيان" له "موقعه" في "الحركة التاريخية" وبالتالي يمكن تغيير طابعه بالقضاء على "ارتباطاته" بالاستعمار وبقائه هو. **فهل هذه النتيجة صحيحة؟ كلا طبعا..** وإلا فما معنى ضرورة القضاء على الكيان الصهيوني؟[٣٤].

خامسا : أعمال إرهابية ضد مواطنين أبرياء(!!)

تقول الملاحظة بالنص: "إذن فإن الأعمال الإرهابية ضد مواطنين أبرياء تساهم في إبقاء، بل زيادة الكراهية والخوف المتبادلين بين الشعبين العربي واليهودي – وذلك بالإضافة إلى أنها تشكل جرائم بحق بعض المواطنين ووسائل سيئة لكسب الدعم والتأييد"[٣٥].

---

(٣٣) المصدر السابق.

(٣٤) إن التسوية بين الكيان الصهيوني، وأي كيان "عربي" هي المدخل الذي يؤدي إلى اقتراحات "تصفوية للنضال"، من طراز "التعايش السلمي بين كيانين أحدهما "إسرائيل" والآخر "فلسطين"، ومن طراز "حق تقرير المصير للإسرائيليين"!!... إلخ. أي هي في النهاية تبرر استمرار الكيان – الاغتصابي على رقعة من أرض فلسطين.

(٣٥) رامي ليفنه، المصدر السابق، ص١٠.

هذه الملاحظة تفتح بابا واسعا وأليما في الحوار.. فنحن لسنا "مثاليين"، ونعرف أن **"الوعي" بالظاهرة، لا ينفي تماما مشاعر الإنسان، في حال تناقضها معه، لذا يجب أن نؤكد على الحقائق التالية:**

١- إنه في حال نشوء قتال فإن المسئولية في هذا القتال، ليست ولا يمكن أن تكون متساوية بين أطرافه. وإنه لابد من تحديد المسئولية في هذه الحرب على طرف من الأطراف. وقد حددت أنت يا رفيق في خطابك مسئولية "الاستيطان الصهيوني" الذي خلق **"حلقة من العنف والكراهية لأنها بنيت على الدماء والفظائع"**.

٢- **ترى من هم المواطنون الأبرياء؟** تساءلنا من قبل **من هو الصهيوني ومن هو غير الصهيوني؟** وخلصنا إلى أن غير الصهيوني هو ذلك الذي يناضل فعلا ضد الصهيونية. كيف يمكن أن نميزه؟ إلا بنضاله، بمواقفه العملية. وحتى في حالتنا هذه (كما في حالة أي حرب حيث يوجد بعض المعارضين لأهداف جيوش بلادهم ضمن صفوفها) فإننا لابد أن نوازن بين أن نكف عن القتال، ويستمر العدو في قتلنا، وبين أن نقاتل الذين اغتصبوا أرضنا فتقع بعض الخسائر المؤلمة التي لسنا مسئولين أصلا عن خلق ظروف وقوعها.

إننا نتوقع، مع تصاعد النضال المسلح وتزايد اشتراك فئات من الجماهير اليهودية معنا في القتال ضد الكيان الصهيوني، أن نصل عبر ممارسات مشتركة "عملية" إلى مزيد من تحديد الأهداف المؤثرة التي توفر علينا الجهد، وتوفر على الجماهير اليهودية المعادية للصهيونية الخسائر.

٣- إننا لا نوافق على **"انتقائية"** في تقييم أعمال العنف. فنقول مثلا أن حرب أكتوبر (تشرين) مبررة وعادلة، بينما معركة فندق سافوي في تل أبيب "إرهابية". ربما احتلت عملية فندق سافوي موقعا أفضل وأكثر تأثيرا في الحركة التاريخية. فحرب أكتوبر (تشرين) حرب نظامية حملت معها كل بصمات وتأثيرات القوى الحكومية العربية والدولية، وبرغم اشتراك الجماهير العربية فيها بأبنائها، فإنها ظلت حربا **نظامية**، أما عملية "فندق سافوي" فهي

حلقة من حلقات نضالنا المشروع والعادل من أجل تحرير فلسطين، خالية من كل أثر للوصاية، أو التبعية الحكومية، موجهة مباشرة لإحدى المخافر الأمامية للكيان الصهيوني. حرب أكتوبر (تشرين) كانت محدودة، أما عملية فندق سافوي فهي على الطريق الذي ينتهي بالتحرير الكامل لفلسطين. لسنا نظن أننا في حاجة للاستطراد، إن مثل هذه العملية لا يمكن أن توصف بأنها ممارسة "شوفينية قومية برجوازية صغيرة"، ولا بأنها "أعمال إرهابية". أما في التفاصيل فإن الحقيقة التي يجب أن نبرزها هي أنه حتى في "عملية فندق سافوي" لم يسعَ المناضلون إلى قتل الناس بشكل عشوائي، وإنما سعوا إلى استبدال رهائنهم برفاق لهم أسرى في سجون العدو، ولكن الغطرسة الصهيونية العنصرية، أبت إلا أن تقتل الجميع، تماما كما حدث في ميونيخ، وكلها تكشف أن الكيان الصهيوني يفضل الحفاظ على سطوة قمعه على أن ينقذ حياة حتى "مواطنيه". **إن هذه العمليات تكشف بوضوح أن المؤسسات الصهيونية تتاجر بأرواح أولئك الذين ضللتهم فجندتهم لاغتصاب أراضي شعب آخر. كما تكشف بوضوح أيضا أن إنسانية الثوار[٣٦] كانت على الدوام "ثغرة" يحاول منها العدو قتلهم وقتل من معهم.**

* *
*

أخيرا، لعلّنا، أيها الرفاق، قد استطعنا أن نوضح قدر الإمكان ردنا على ملاحظاتكم.. ونكرر أننا لا نخشى هذه الملاحظات وغيرها، لأننا لا نخشى النقد، ولكن كما لاحظتم، فإن بعض ملاحظاتكم ناشئ من اختلاف حول أفكار أساسية (سنناقشها في الفصول التالية)، والبعض الآخر إما تفصيلي، وإما ناشئ عن سوء فهم سببه عدم وجود ممارسة مشتركة.

---

(٣٦) في عملية فندق سافوي قبل المناضلون وقف النار في الساعة الثانية والنصف صباحا حتى تتاح الفرصة للعدو لتقرير قبول مطالبهم. وفي الخامسة والنصف صباحا اقتحم العدو الفندق بعد أن استقدم خبيرة فرقه المدربة على الاقتحام من خارج تل أبيب، أي أن العدو قد استغل فترة "الهدنة" لتقوية قواته تماما كما يفعل وفعل في كل هدنة معه.

إنـــنا كحركة ثورية، لا نتوقع كما ذكرنا سابقا، أن تنجح أفكارنا وتنتقل بسهولة، ونعلم أن علينا أن نبذل الكثير من الجهود والتضحيات، وأن نتخطى كثـــيرا مـــن الصـــعاب، وألا نكون "مثاليين" لدرجة أن نطلب من الآخرين "الـــتجرد" مـــن ظروفهم الموضوعية، ولا "واقعيين" لدرجة أن نترك أنفسنا لمـــرارة واقـــع جماهيرنا الذي تشهدون أنتم كم تعاني، وكم هي صامدة في الوقت نفسه.

ولكننا نعرف أن القتال، والقتال وحده، وبالذات القتال المشترك ضد العدو الواحد، هو السبيل لتقريب النظرة إلى الواقع والمستقبل، هو السبيل إلى الحوار الأكثر صراحة، والفهم الأكثر عمقا..

كما أننا نعرف، ونرجو أن تشاركونا هذا الرأي، إن **الخلاف على تقييم "ممارســـة" لا ينفـــي الاتفاق على الأهداف العامة، وإنه في حالة توفر هذا الاتفاق فإن واجب الثوريين هو البحث عن كل موقف مشترك ممكن.**

كمـــا أن الأكـــثر وعيا هو المسئول عن أن يكون أكثر جهدا من أجل المواقف المشتركة.

الفصل الثاني

مدخـــل

فلسطين والتجمع الإسرائيلي وحركة التاريخ

السنوات العشر الماضية من النضال المسلح ضد الكيان الصهيوني، أنهت فترة كاملة سادت فيها مفاهيم صهيونية مضللة عن التجمع الإسرائيلي، ارتدت مسوح الماركسية والتحليل المادي العلمي..

فمنذ ١٩٤٨، وعندما أعلن عن قيام الكيان الصهيوني، اعترفت الحركة الشيوعية وقتذاك "بقرار التقسيم ودعمت مشروع خلق دولة إسرائيل على أنها تجسـيد لحقوق الإسرائيليين القومية"(١). وكان لابد تبعا لذلك أن تنشأ وتبنى نظـريات فكـرية عـن مـا يسـمى بالتناقضات "الداخلية"، وعن "القومية الإسـرائيلية، أو اليهودية". وعبرت هذه النظريات عن نفسها في التحليلات السياسية اليومية التي تحدثت عن "الطغمة العسكرية الإسرائيلية" أو "العدوان الإسـرائيلي" أو "الرغـبة التوسـيعة الإسرائيلية" إلخ. وكلها كما هو واضح تنطلق من الإقرار بوجود ما يسمى "بإسرائيل" إلا أنها "دولة عدوانية رجعية مرتـبطة بالاسـتعمار"... مما أخفى لسنوات طويلة طبيعتها الحقيقية ككيان مصطنع محتوم الزوال.

ومـمـا سـاعد علـى استمرار هذه النظريات غياب الدور الفلسطيني المـتمايز فـي النضـال أو الصـدام ضد هذا الكيان ما سمح للصهاينة أن يصـوروا صراعات المنطقة على أنها صدام "عربي – إسرائيلي"، دون ذكر كلمة فلسطين.

---

(١) حديـث مع الماهفاك (النضال) – التنظيم الذي ينتمي إليه الرفيق رامي ليفنه المتهم الأول في قضية الجبهة الحمراء.

ورغم أن الصدام **فعلا هو صدام عربي من جانب واستعماري صهيوني من جانب آخر، إلا أن إغفال ذكر اسم فلسطين، كان يهدف إلى تثبيت الكيان الصـــهيوني كطـــرف أصيل في الصدام**... كأن يكون مثلا صداما "عربيا – أمريكـــيا"، أو صـــداما "جزائريا – فرنسيا"، وهو صدام لا تكون نتيجته في النهاية القضاء على أحد الأطراف، وإن تغيرت موازين العلاقة بين الطرفين.

لقد سمح تبرير قرار التقسيم وغياب النضال الفلسطيني المسلح لمنظري الصهيونية، ومن تسموا باسم "اليسار الإسرائيلي"، بتصوير "إسرائيل" مجتمع وظاهرة تاريخية لها قوانين حركتها ولها ماضٍ ومستقبل.. واستنتجوا من هذا المـــنطق نـــتائج على أنها خاصة عن أمة إسرائيلية في طريق التكوين، أو مجـــتمع قومـــي يهودي في إسرائيل.. إلخ، وهي نتائج لا تؤدي إلا إلى هذا الكيان المصطنع.

ثـــم انطلـــق النضـــال المســـلح الفلسطيني، ونما عبر السنوات العشر الماضـــية، أثمر أول ما أثمر سؤالا ملحا أمام الجميع: من الذي يحتل موقعا اصيلا في التاريخ؟ فلسطين أم الكيان الصهيوني المسمى "إسرائيل"؟ وبرزت علـــى الســـطح أفكـــار جديدة داخل وخارج الأرض المحتلة، داخل وخارج صـــفوف القـــوى الملـــتزمة بالماركسية ورؤيتها وتحليلاتها. أفكار ترى أن القضـــاء على الدولة الصهيونية هو "الحل التاريخي" للتناقض القائم، وتوافق على أن دولة فلسطينية ديمقراطية هي نتاج هذا الحل وهي الهدف الذي يجب النضال في سبيله...

والمتتبع للأفكار المتداولة بين القوى المناصرة للثورة الفلسطينية الآن، بـــل وبين القوى المساهمة معها بالنضال، أو المعارضة لها، يلاحظ بوضوح أثر السنوات العشر الماضية في تطور هذه الأفكار واقترابها أكثر فأكثر من التصور الصحيح للقضية كلها...

إلا أن ذلك لم يَفُت على منظري الصهيونية أيضا، خصوصا بعد حرب تشـــرين – أكـــتوبر، فبدءوا بتغيير بعض الشعارات، وحاولوا ارتداء أثواب المعارضـــين الفكرية، ولكنهم في كل الحالات سعوا وما يزالون، إلى تثبيت بعض المنطلقات الفكرية الجوهرية الخاطئة وإلى ترويجها. وفي ظل ظروف

يخـــيم فـــيها شـــبح "تسوية دولية" للقضية هدفها تثبيت حدود ووجود الكيان الصـــهيوني، يكون لزاما علينا ألا نكتفي باللقاءات السياسية، أو اللقاء حول الهـــدف الاســـتراتيجي الخـــاص بدولة فلسطين الديمقراطية، وإنما يجب أن نوضـــح أكثر من أي وقت مضى الجذور الفكرية لهذه اللقاءات وأن ندعمها بمزيد من الحوار مع الأصدقاء، وتشديد النضال ضد أضاليل الأعداء.

ومن الممكن أن نلخص الأفكار الجديدة... (بعضها قديم لم يصفّ بعد) فيما يلي:

١- إن هـــناك "مجـــتمعا" إســـرائيليا، تمايـــز عبر السنوات الماضية، وأصـــبحت له تناقضاته الداخلية، وقوانين حركته الخاصة به[٢] والتي خلقت أمة إسرائيلية في طريق التكوين.

٢- إن هـــذا المجـــتمع "مجـــتمع قومي وليس ديني"، أي أن هناك أمة إسرائيلية[٣].

٣- إن هذا المجتمع "مجتمع طبقي" مرتبط بالسوق الرأسمالية العالمية، تعاني فيه فئات واسعة من الكادحين الاستغلال الاقتصادي والكبت الاجتماعي كما هو الأمر في أي مجتمع رأسمالي آخر[٤].

٤- إن تناقضات هذا المجتمع الداخلية يحكمها تناقض خارجي حاد بين هـــذا المجتمع والدول العربية المحيطة[٥]، وإن هذا الصراع الخارجي يكبت التناقضات الداخلية.

٥ – إن الصراع في المنطقة هو صراع قائم بشكل أفقي بين قوميتين مختلفتين[٦] هما القومية العربية الفلسطينية والقومية اليهودية.

---

(٢) الطبـــيعة الطبقـــية في المجتمع الإسرائيلي، حاييم هانجبي وآخرون، ص١، وأيضا حديث مع الماهفاك.

(٣) و(٤) رامي ليفنه، المصدر السابق، ص١٠-١١.

(٥) الطبيعة الطبقية فى المجتمع الإسرائيلى ص٢.

(٦) حديث خاص مع مجموعة الماهفاك.

٦- إن هناك طبقة عاملة إسرائيلية، "بروليتاريا إسرائيلية"، وإن هذه الطبقة وإن كانت غير ثورية بسبب سيطرة الأيديولوجية الصهيونية الآن إلا أنها يمكن أن تغير موقفها في المستقبل[٧].

٧- إن انطلاقة ثورة عربية شاملة، ستفقد إسرائيل **حظوتها عند الإمبريالية إذ تصبح بلا فائدة**، وستعرضها لتحديات جماهيرية من الداخل[٨].

٨- إن النضال يكون فقط على أساس تحالف الشغيلة العرب واليهود ضد ما يسمى بالبرجوازية العربية واليهودية (بافتراض أن هناك برجوازية يهودية)[٩].

٩- إن هذا المجتمع الإسرائيلي "مجتمع خاص" والطبقات فيه "طبقات خاصة"، وإنه لا يمكن تطبيق القوانين الأكاديمية عليه، كما تطبق على المجتمعات الرأسمالية الأخرى[١٠].

كل ما سبق من أفكار، وما يتفرع عنها من سياسات وتكتيكات ومواقف، هي في الحقيقة أفكار خاطئة، ومن الممكن تحديد جوهر الخطأ في ثلاث نقاط: **التاريخية، والقومية، والطبقية.** وكما سبق أن ذكرنا، فإن بعض هذه الأفكار يردده مخلصون يؤمنون بالقضاء على الكيان أو الدولة الصهيونية، كما يردده مغرضون يهدفون إلى حرف النضال وتشتيته، وتبرير استمرار الكيان الصهيوني وتثبيته.

وقبل ان نبدأ في الحوار حول هذه الأفكار الثلاث[١١] يجب أن نصفي فكرة خطيرة، تساعد على الدوام في قطع الطريق على تطبيق القوانين العلمية على الظاهرة الصهيونية، ألا وهي فكرة **الخصوصية.**

---

(٧) الطبيعة الطبقية في المجتمع الإسرائيلي، ص٤.

(٨) المصدر نفسه، ص٩.

(٩) خطاب الرفيق رامي ليفنه ص١٢ والبيان المشترك بين الماتسبن الإسرائيلي ومجموعة التجمع الشيوعي الثوري (لبنان).

(١٠) الطبيعة الطبقية في المجتمع الإسرائيلي، ص٢، وأيضا الماركسية والدولة الصهيونية للكاتب أديب ديمتري.

القسم الأول

بين الخصوصية وعنصرية الفكر الصهيوني

١- إن خطـــر حجة الوضع الخاص، أو الطبيعة الخاصة، لظاهرة ما، هو أنها تساق لقطع الطريق على أي محاولة استقراء علمية تاريخية للظاهرة بحيـــث يمكن بعد ذلك رفض النتائج المتوقعة سلفا وتبرير الواقع اللاتاريخي ومحاولة تثبيته.

٢- إن القـــول بخصوصـــية "الكـــيان الصهيوني" و"طبقاته" يلتقي في الجوهـــر مـــع فكرة الصهيونية العنصرية، عن خصوصية العرق اليهودي ويساهم في تبرير إقامة دولة لهم.

٣- إن التحفظ بالخصوصية يرفض كل محاولة لتطبيق القوانين العلمية علـــى ما يدور داخل الكيان الصهيوني أو "التجمع الإسرائيلي"، ويؤدي إلى تفـــريغ المصـــطلحات العلمية من مضمونها المتفق عليه، مثل الحديث عن "الطـــبقة" أو الصـــراع الطبقـــي، ثم هي ليست طبقة بالمعنى المفهوم عامة والصـــراع الطبقـــي أيضـــا لا يـــؤدي إلـــى ما يؤدي إليه في المجتمعات "الكلاسكية"!! هي إذن حجة لإغلاق باب الحوار العلمي عند أي منعطف.

٤ – إن مـــن المســـلم بـــه أن لكل ظاهرة سماتها الخاصة، ولكن هذه السمات ليست خارج إطار وقياس القوانين العامة للحركة التاريخية. وعندما نتـــناول ظاهـــرة ما، فإننا نتناولها ضمن الظواهر المحيطة، والظاهرة الكلية العامة في حركتها التاريخية ونستخلص قوانينها الخاصة لحركتها، حتى وإن برزت خصوصيتها في مرحلة من الزمن. وبغير ذلك نقع في "الذاتية"، وفي منهج "الاختيار" للموضوع الاقتصادي المعين وصياغة المقالات الاقتصادية بمعزل عن المجرى التاريخي "للعملية الاقتصادية".

---

(١١) نظـــرا لأن الحـــوار يدور أساسا مع الجماعات التي تعلن التزامها بالماركسية اللينينية، فإن الحوار في أغلبه سيدور اعتمادا على المفاهيم العامة للماركسية وأحكامها.

٥- إن الـــتذرع "بالخصوصية" يؤدي إلى الوقوع في "المثالية" إذ يخرج الظاهرة المعنية بالدراسة من دائرة البحث عن قوانين حركتها، وتكون بذلك خارج الدائرة المادية للنشاط الإنساني، خارج التاريخ. يقول إنجلز في "انتي دوهرنغ". إن المادية المعاصرة ترى في التاريخ عملية تطور الإنسانية، إذ أن مهمته هي اكتشاف قوانين الحركة لهذه العملية.

٦- إن التمســك بالمعـنى العلمي للمصطلحات المستخدمة في التحليل الفكري (مثل طبقة، وأمة، وقومية، وتاريخ، وصراع طبقي.. إلخ) **ليس من قبـيل التشـنج الشكلي** حول الألفاظ وإنما هو محاولة للوصول بالحوار إلى نتائج عملية وتطهير الأفكار من البصمات الصهيونية العنصرية. وقد أثبتت السـنوات الماضـية أن التهاون في أبسط المفاهيم يؤدي إلى تضليل وحرف نضال الجماهير بل إلى المساهمة في قمعها فكريا وعمليا.

٧- أخيرا يقول لينين متحدثا عن دور الطوائف المنبوذة من السكان في محاربة العداء ضدها بأن تكف عن أن تكون جسدا غريبا في الأمة: "ذلك هو الحل الوحيد الممكن للمسألة اليهودية وعلينا أن نساند كل ما يساهم في وضع حـد **للخصوصـية** اليهودية" (التأكيد من عندنا). (مقالة البوند في الحزب - لينين).

هذه ملاحظات سريعة على حجة "الخصوصية" في الظاهرة الصهيونية. ولننتقل لمناقشة الأفكار الأساسية المختلف عليها.

* *
*

القسم الثاني

العملية التاريخية، بين فلسطين والدولة الصهيونية

يقول ف. كيللي، وم. كوفالزون في كتابهما "المادة التاريخية" :

"إن الماديـــة التاريخـــية تدرس العملية التاريخية ككل واحد والعلاقات المتــبادلة بيـــن جوانب الحياة الاجتماعية المختلفة والقوانين العامة والقوى المحــركة للتطور التاريخي. إن المادية التاريخية هي النظرية العامة للعملية التاريخية".

ويقول إنجلز :

"إن الشيء الذي له أهمية عند ماركس هو اكتشاف قانون الظواهر التي كــان يعــنى ببحــثها ولا تنحصر أهمية هذا القانون الذي يهيمن على هذه الظواهــر عنده في حدود ما لها من شكل معين وعلاقات متبادلة ضمن فترة تاريخية معينة، بل يزيد على ذلك أهمية عنده قانون تغيراتها وتطوراتها أي انــتقالها مــن شكل إلى آخر، أي من سلسلة واحدة من العلاقات إلى سلسلة مختلفة أخرى"(١٢).

ورغــم وضـــوح هــذه المفاهيم، ورغم أنها كانت السمة المميزة للفكر الماركسي عن غيره من الأفكار إلا أن هذا الجانب بالتحديد، **جانـــب اكتشاف قـــانون حـــركة الظاهرة، وموقعها من الحركة التاريخية** غاب عن المسرح طـــوال السنوات الماضية، واعتبر معظم "المنظرين" وجود ظاهرة إسرائيل، كأنـــه تطـــور طبيعـــي للحركة التاريخية، وتناسى هؤلاء أن فلسطين، "أي المجـــتمع الفلسطيني العربي" ظل ظاهرة متماسكة واضحة حتى عام ١٩٤٨ وأنـــه بعـــد ذلك تحول إلى مجتمع "مستعمر" حيث احتلت الأرض، وطردت

---

(١٢) ماركس، انجلز، أعمال مختارة، م ٢، ص٣٥.

الجماهـــير من فوق هذه الأرض وحاولت الصهيونية والاستعمار طمس اسم فلســطين تماما حتى ساد الكثيرين مفهوم خاطئ ومضلل، بأن "إسرائيل" هي الظاهـــرة التاريخية المعنية بالبحث، سواء في قوانين حركتها أو في مستقبل علاقاتها وتناقضاتها.

ورغـــم وضـــوح الرؤية التاريخية من جانبنا، **إذ نرى أن فلسطين هي الظاهـــرة التاريخية الأصلية بينما "إسرائيل" ظاهرة مؤقتة ودخيلة**، إلا أننا مضطرون لتأكيد ما نعتقد أنه بديهية، وسنتعرض للحجج الظاهرة أو الضمنية الواردة سواء في أحاديث بعض الأصدقاء، أو أضاليل النظريين الصهاينة:

١- هناك قول ماركسي مشهور يقول: "لكي نفهم حقيقة ما، لا يكفي أن نعـــرف أســـلوب الإنتاج الجديد، بل من الضروري أيضا أن نعرف **التاريخ الســـابق الـــذي تطـــورت** خلاله" (التأكيد من عندنا). من المؤكد أن التجمع الإسرائيلي الحالي ليس بأي حال تطورا للمجتمع العربي الفلسطيني الذي قام علـــى الأرض المغتصـــبة طـــوال مئات سابقة من السنين وكانت له قوانين حركته الخاصة به، وعلاقاته الإنتاجية المحددة. وإنما قام المجتمع الإسرائيلي على أنقاض المجتمع العربي الفلسطيني وتشريد سكانه وهو بالشكل الذي قام بـــه لا يـــزيد عن كونه ظاهرة مصدرة من العالم الاستعماري إلى المنطقة العربـــية. تمامـــا كما يمكن أن تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بعملية إنزال استعمارية ضخمة قوامها جيش تعداده ميلونان من الجنود والمجندات وتقيم له قاعدة محاطة بالأسلاك الشائكة والمكهربة.

٢- أن هـــذه الظاهـــرة، "التجمع الإسرائيلي"، ليس لها بأي حال تاريخ اجتماعي متمايز لا في فلسطين ولا حتى خارج فلسطين (بحيث يمكن تخيل هجرة جماعية واسعة من مكان إلى آخر كما حدث في العصور البدائية)، ولا هـــي امتداد لحركة مجتمع متميز طورته تناقضاته الداخلية إلى ما هو عليه الآن. وإنمـــا هـــي جماعات بشرية لا يجمعها سوى "الدين" ويفرقها **إلى حد الـــتمايز القومي**: اللغة والتكوين النفسي، والدور الذي تلعبه في الإنتاج، بل كان بعضها يستغل البعض الآخر في مجتمعاته السابقة.

٣- إن الأقــلام الصـــهيونية حاولت الحديث عن تاريخ فلم تجد سوى أســاطير عمرها ألفي عام وعقيدة دينية مختلف على تفسيرها[١٣]. ثم حاولت الحديـــث عن تاريخ إسرائيلي حديث (كأن ٢٥ سنة تصلح لأن تكون تاريخا) وهـــي مـــا تزال تحاول. صحيح أن الصهيونية نجحت إلى حد ما في إحياء اللغـــة التـــي ماتت[١٤] وإعطاء طابع خاص "للقاعدة" التي أقيمت، ولكن هذا النجاح فضلا عن أنه ليس شاملا ولا معجزة، فإنه لم يدُم ولا يمكن أن يدوم لأن تطـــور الظاهـــرة الصــــهيونية الإســــرائيلية نفسها يحتم فشل مثل هذه المحاولات المصطنعة لصنع التاريخ[١٥]. ويكفي أن نذكر أن تركيب المجتمع البشـــري نفسه يتغير مع كل موجة هجرة من الخارج، وهجرة إلى الخارج، وأن السلطات الصهيونية اضطرت عقب ١٩٦٧ إلى التخلي عن برامج إعداد المهاجريـــن الجـــدد وصـــياغتهم باللغة والثقافة المحددين، قبل دمجهم، وأن موجات المهاجرين الشرقيين ما تزال تعيش بمثل الأحياء المغلقة التي كانت تعـــيش فـــيها قبل الهجرة.. إلخ. وكما أن هذا التجمع هو تجمع بشري غير مـــتجانس، فإنـــه مـــن الناحية الاقتصادية يمثل امتدادا لأعلى درجات النمو الرأســـمالي، لأعلـــى مـــراحل الاستعمار (سواء في ذلك مصادر الدخل أو علاقات الاستغلال، أو صراعات الاحتكارات) وهو من الناحية الفكرية يمثل أدنى درجات الانحطاط الفكري في تاريخ الإنسانية (فكر فاشي عنصري هو انعكاس صادق للعلاقات الاقتصادية الاحتكارية العالمية).

٤- إن فكـــرة إمكـــان تطـــور أمـــة إسرائيلية على غرار تطور الأمة الأمريكـــية فـــي أمـــريكا الشمالية، يرفضها الواقع التاريخي، سواء للظاهرة الأمريكية أو للظاهرة الفلسطينية ويمكن تلخيص الفروق فيما يلي:

أ- إن مجـــتمعات الهنود الحمر كانت قد وصلت إلى طريق مسدود في تطور علاقاتها ووسائل إنتاجها، ولم تكن قد شكلت وحدة اجتماعية على رقعة

---

(١٣) لنذكر أن الخلاف ما يزال قائما حول تعريف من هو اليهودي.

(١٤) لا تـــزال المؤتمـــرات الصـــهيونية العالمية نفسها تستخدم اللغة الفرنسية والإنجليزية خلال اجتماعاتها.

(١٥) لا يمكن لمجموعة من الأفراد، أو سلطة ما، أن تصنع التاريخ، وفق إرادتها...!

متمايزة من الأرض هي أمريكا الشمالية مثلا، بل كانت عند بدء الهجرة إلى أمـــريكا الشمالية مجتمعات بدائية مقضيا عليها بالفناء أو العقم. وهو ما ليس واقعـــا فـــي حالة المجتمع العربي الفلسطيني الذي كانت ولا تزال له أطره المتمايزة التي هي جزء أيضا من المجتمع العربي الكبير الذي تحكمه قوانين موضوعية وتحركه تناقضاته الداخلية في الاتجاه التاريخي المحتوم لمثيله من المجتمعات.

ب- إن موجات الهجرة إلى أمريكا الشمالية كانت مجموعات من أولئك الذيـــن ضـــاقت بهـــم سبل الحياة في ظل استبداد المجتمعات الإقطاعية في أوروبـــا، ولم يجمع بينها، لا الدين، ولا المذاهب، ولا العرق، ولا البلد، ولا اللغـــة، ولا أي رابـــط سوى دافع العثور على فرص جديدة للحياة، أو حياة أفضـــل مما كانوا يعيشون بل كانوا في مجموعهم "طلائع" برجوازية هاربة مـــن قهـــر إقطاعي. الأمر بالعكس بالنسبة لموجات الهجرة الصهيونية إلى فلســـطين. فهؤلاء الأخيرون جندتهم خطة استعمارية تهدف إلى استعمار بلد وشعب آخر. والاستعمار في سبيل إنجاح خطته حرص على أن يغلف الخطة بدعوة "عرقية عنصرية" جلبت السمة الواحدة للمهاجرين وهي "الدين" بغض النظر عن اختلاف الوضع والدور الاجتماعي السابق.

ج - إن "التجمع الأمريكي" الحديث بدأ بتراكم أولي للرأسمال، مستثمرا الثروات الطبيعية القائمة بينما "التجمع الإسرائيلي" قام ويعيش على الإمدادات الاســـتعمارية القادمـــة من الخارج. واقتصر استثماره للثروات الطبيعية في فلسطين على ما اغتصبه من أرض "مستثمرة قبلا من سكانها الأصليين".

٥- لقـــد راهـــن مهندسو الصهيونية على عامل حقيقي ومهم، ذلك هو **إمكانـــية أن تـــذوب الجماهـــير الفلسطينية في المجتمعات العربية المحيطة بفلسطين** حيث أنهم عرب، وجزء من الشعب العربي، ولكن الذي حدث، أن قـــيام "الكـــيان الصهيوني" شكل نوعا من الاستعمار المباشر المستمر للأمة العربية كلها، وأنه مع تشرد العرب الفلسطينيين تولدت، وكان لابد أن تتولد، مشـــاعر فلسطينية متمايزة، وأن هذه الجماهير الفلسطينية حملت معها حيثما ذهبـــت تحذيرا ماديا للعرب جميعا بالغزو الصهيوني لأراضيهم وهكذا تحقق

موضـــوعيا توسيع رقعة الصدام مع الاستعمار والصهيونية مع تبلور الوعي العربي الفلسطيني بأهمية الأرض وضرورة استعادتها. صحيح أن الوصول إلـــى هذه النتيجة تطلب ما يقارب من السبعة عشر عاما من التخبط والتشتت والـــتجارب العفوية الخاطئة، ولكن البداية الصحيحة انطلقت في النهاية على أي حال، وذلك بانطلاق الثورة الفلسطينية المسلحة.

٦- إن الســـنوات الماضية من النضال المسلح ضد الغزو والاغتصاب الصهيوني، قد استعادت إلى حد كبير الإطار العام للشعب العربي الفلسطيني، بحيـــث ضعفت إلى حد كبير (ولا نقول قضي عليها) آثار التشتت المفروض علـــى هـــذه الجماهـــير، وغياب الوعاء الاجتماعي اللازم لتفاعل تناقضاته الاجتماعـــية. لقـــد تحقـــق للجماهير العربية الفلسطينية إطار عام هو الثورة المســـلحة (الصـــراع إيجابيا ضد الغزو والاغتصاب)، ومن المؤكد أنه مع اســـتمرار هذا النضال المسلح، فإن علاقات ثورية ستحكم الفئات والجماعات المخـــتلفة للشـــعب العربـــي الفلســـطيني، لتثمر في النهاية المجتمع العربي الفلسطيني التقدمي على الأرض المحررة.

٧- إن المستقبل التاريخي "للتجمع الإسرائيلي" هو الزوال، وذلك بانهيار الكـــيان الصّهيوني وكافة مؤسساته (بفعل الثورة الشعبية المسلحة ضده)، **ولا يعنـــي ذلك إبادة المجموعات البشرية المشكلة له وإنما يعني تحريرهم هم أنفســـهم مـــن الســـيطرة والقمع الاستعماري**، بحيث يحتلون مكانهم ضمن المجتمع العربي الفلسطيني وحسب علاقاته الاجتماعية بحيث يتحول دورهم (وبشـــرط مســـاهمتهم هـــم أيضـــا فـــي عملية التحرير) من أدوات للقمع والاغتصـــاب في يد الإمبريالية العالمية، إلى فئات ومجموعات بشرية ضمن مجتمع موحد يتمايز فيه الناس حسب دورهم في الإنتاج وأوضاعهم الطبقية لا حسب أديانهم وأصولهم العرقية.

* *
*

القسم الثالث

فلئن كان هذا هو الماضي والمستقبل التاريخيان "للتجمع الإسرائيلي" من ناحية، والماضي والمستقبل التاريخيان للمجتمع العربي الفلسطيني من ناحية أخرى، يبقى أن نناقش سؤالين مهمين:

١- ما هي أخطار التغافل عن النظرة التاريخية للواقع القائم حاليا على أرض فلسطين المحتلة؟

٢- ما هو القانون الذي يحكم حركة هذا الواقع بصفته تجمعا مصطنعا غازيا ومغتصبا؟

أولا: خطر التغافل عن النظرة التاريخية

إن التغافل عن النظرة التاريخية لما هو واقع الآن على أرض فلسطين المحتلة يؤدي إلى أخطاء فكرية فاحشة، يترتب عليها مواقف سياسية معادية لحركة التحرر الوطني، وحركة الشعوب التقدمية بشكل عام. ذلك أن اعتبار "التجمع الإسرائيلي" "مجتمعا قوميا" يحتل مكانا أصيلا في الحركة التاريخية لشعوب المنطقة العربية، يؤدي إلى القبول بفكرة أن الحرب ضد هذا "التجمع"، إنما تشكل **"تناقضا خارجيا"**(١٦) يخضع التناقضات الداخلية له. الأمر على العكس، **فالتناقض الرئيسي** الذي يحكم المرحلة التاريخية الحالية للشعب العربي الفلسطيني، بل للشعوب العربية كلها، هو التناقض بينها وبين

---

(١٦) إن النضال من أجل استعادة الأرض، ووجود قسم غير قليل من الجماهير العربية على الأرض المحتلة، يدعم بروز وجه التناقض الرئيسي التاريخي موضوعيا في الصراع ضد الغزو الصهيوني، وإن كان حتى الآن هو الوجه المسود ولكنه الصاعد على أي حال.

الاســتعمار وقاعدتــه الصــهيونية. وهو تناقض لا يمكن أن يكون "خارج" الظاهرة التاريخية، حتى وإن نجحت القوى الغاصبة في طرد قطاعات واسعة مــن الجماهــير خارج الأرض[16]، إلا إذا ادعى المرددون لهذه الفكرة، أن هــناك ظاهرتين تاريخيتين(!!) لنفس المجتمع وفي نفس المرحلة(!!). ليس هــناك إلا ظاهرة تاريخية واحدة والأخرى أو الأخريات تكون ظواهر مؤقتة وغير تاريخية (أي ليس لها سابق تطور ولا مستقبل تاريخي). من هنا خطأ رفاق الاتحاد الشيوعي الثوري "الماهفاك" عندما يقولون "النزاع في فلسطين قائم بشكل أفقي بين قوميتين مختلفتين". **نعم هو نزاع قائم بشكل أفقي، ولكن ليس بين قوميتين**، وإنما بين **قومية واحدة** هي العرب الفلسطينيون وبين قوة غازية استعمارية هي التجمع الإسرائيلي (القائم على تضامن كل المطاردين والمستعمرين.. حسب قول الرفاق أنفسهم). لا توجد قومية أخرى، وسنناقش ذلــك تفصــيلا فــيما بعــد. ولو سلمنا نظريا بقومية أخرى لوجب أن نسلم بضرورة تطورها، وبالتالي بضرورة استمرارها والحفاظ على كيانها، وهو أمــر مــرفوض بالاستقراء العلمي التاريخي، وبالواقع النضالي الجماهيري، والــرفاق يشــاركوننا هذا الرفض عندما يوافقوننا على رفض "الصلح" مع الصهيونية، لأنه ليس من المعقول "أن تطلب من المظلوم ألا يتحرك في حين أن الظالم ما زال قائما وظالما"[17].

إن التغافل عن النظرة التاريخية كما هو واقع الآن في فلسطين المحتلة يــؤدي إلى تمرير أفكار تقول "بالقومية الإسرائيلية"[18]، وتصور الصراعات القائمــة داخــل الــتجمع باعتبارها "تناقضات وصراعات طبقية"[19]، مع ما يترتب على هذه الأفكار من نتائج تتناقض والاستنتاجات السياسية التي وصل إلــيها العديــد مــن الرفاق داخل هذا التجمع بضرورة القضاء على الكيان الصهيوني وضرورة بناء دولة فلسطين الديمقراطية.

---

(١٧) حديث خاص مع الماهفاك.

(١٨-١٩) سنعود للنقاش بالتفصيل في الأجزاء التالية.

ثانيا : القانون الذي يحكم حركة التجمع الإسرائيلي

يقول مفكرو الماركسية[٢٠]: "إن المادية التاريخية تجد لزاما عليها إيجاد كل ما هو عام ومتكرر خلف الخصائص الفردية لتاريخ الشعوب والبلدان المختلفة. وهذا من شأنه أن يمكننا من معرفة قوانين التاريخ، لأنه لا يمكن الحديث عن القوانين مطلقا إلا حينما يوجد التكرار".

وسبق أن ذكرنا قول إنجلز: "إن الشيء الوحيد الذي له أهمية عند ماركس هو اكتشاف قانون الظواهر التي كان يعني يبحثها..."، فما هو إذن القانون الذي يحكم ظاهرة "التجمع الإسرائيلي"؟

نعود إلى النقطة السابقة، فلو أننا اعتبرنا هذا "التجمع" ظاهرة تاريخية مستقلة، كما يتناولها البعض، بحسن نية أو عن سوء قصد، لكان لزاما علينا أن نسلم بأن الحرب ضد هذا التجمع هي نوع من "التناقض الخارجي" وأن ثمة قانونا داخليا "تفرزه التناقضات الداخلية" يتحكم في تطور هذه الظاهرة. ذلك أن التناقض الداخلي هو الرئيسي ولا يمكن أبدا أن يلغيه أو ينفيه تناقض خارجي.. أما وقد بيّنا خطأ هذه الفكرة، وأكدنا على ضرورة اعتبار أن الظاهرة التاريخية هي فلسطين وليست الكيان الصهيوني، فإن البحث عن القانون الذي يحكم "ظاهرة الكيان الصهيوني" لم يعُد صعبا، بل هو واضح كل الوضوح.

إن الصراع بين "ظاهرة" الشعب العربي الفلسطيني، وبين التجمع الإسرائيلي، هو صراع بين قوى ثورية وطنية وبين قوى استعمارية غاصبة. **وهذا الصراع محكوم بالقانون العام الذي يحكم الصدام بين حركة التحرير الوطني العالمية وبين الاستعمار العالمي.**

هذا القانون العام يوضح لنا تطور الظاهرتين، ظاهرة "الاستعمار" من جانب، وظاهرة حركة التحرر الوطني من جانب آخر، وهو يبشر بحتمية

---

(٢٠) المادية التاريخية، ف. كيللي، ترجمة أحمد داود، نشر دار الجماهير، ص٤٤..

انتصـــار حركة التحرر الوطني وزوال كافة أشكال الاستعمار، وهي حتمية تاريخـية تتحقق بالنضال الشاق الواعي الطويل الأمد، وعبر طريق متعرج، ومراكــز صدام متغيرة ومتنقلة على الساحات المختلفة، كما أن هذا الصراع يخضـــع ويؤثر في كافة الصراعات (التناقضات) الأخرى التي تكمن في كل الظواهر المساهمة فيه، سواء كانت في الجانب الاستعماري أو الجماهيري.

فكما ذكرنا سابقا، ليس "التجمع الإسرائيلي"، أو "الكيان الصهيوني" كلا متجانسا، ولا يمكن أن يكون، وإنما يحوي تناقضاته الداخلية، وهي تناقضات نابعـــة مـــن طبيعـــته كقـــاعدة استعمارية، هي على وجه التحديد جزء من الإمبريالـــية العالمـــية، وتحمل كل تناقضاتها ومصيرها، وأيضا من طبيعته العنصـــرية حيـــث حـــرص المســـتعمرون على أن يستقدموا إلى فلسطين مجموعـــات بشـــرية منتقاة على أساس "العقيدة الدينية"، ومعبأة على أساس "الـــتمايز العرقي". **لذا فإن ازدياد حدة التناقض الرئيسي (بين حركة التحرر العربـــي الفلسطيني وبين الاستعمار الصهيوني) ستؤدي بلا شك إلى ازدياد حدة الصراعات الإمبريالية الاحتكارية داخل هذا الكيان، كما ستؤدي بالتأكيد إلـــى تعمـــيق الانقسام العرقي بين سكانه أنفسهم، أي بين اليهود الغربيين "الأشـــكنازيم" وبين اليهود الشرقيين "السفارديم"**. ومن المفترض حتى الآن، (مـــا لم تتدخل عوامل جديدة) أن يقف "السفارديم" إلى جوار الشعب العربي الفلســـطيني فـــي نضاله ضد الصهيونية والكيان الصهيوني، وفي تلك الحالة فـــإنهم سيســـتعيدون حريـــتهم من القهر العنصري الواقع عليهم من جانب الأشكنازيم، **كما سيستعيدون وضعهم "الاجتماعي" كجزء من الطبقات الفقيرة والكادحة العربية التي تعاني من الاستغلال والنهب الإمبريالي[٢١].**

---

[٢١] لا يعنـــي ذلـــك أنــــه لن تنضم جماعات من اليهود الغربيين إلى صفوف الثورة المسلحة ضد الكـــيان الصـــهيوني، ولكننا نتحدث هنا عن تلك القوى التي يفترض أن مصلحتها الموضعية في القضاء على هذا الكيان هي أكثر ثباتا من غيرها.

إن طول أو قصر الوقت الذي سيمضي قبل أن يبرز هذا الانقسام بشكل صحيح وفعال ومسلح[٢٢]، يعتمد إلى حد كبير على استمرار النضال المسلح للجماهير العربية ضد الكيان الصهيوني، باعتبارها مركز التناقض الرئيسي في مواجهة الصهيونية، وبالتالي مركز الاستقطاب التاريخي لكل القوى المقهورة من جانب الصهيونية.

نحن نعرف ذلك، والعدو يعرفه أيضا، لذا، فإنها مسئولية تاريخية على القوى الواعية الملتزمة أن تحرص على استمرار النضال المسلح، وألا تعطي للصهيونية فرصة التقاط أنفاسها، أو تمييع الصراع ضدها، بمختلف المؤامرات، وبالذات بالتعمية الفكرية، والتغطية على الحقائق التاريخية.

*
* *

(٢٢) الانقسام واقع حاليا، إلا أنه لم يتخذ بعد شكله الصحيح تاريخيا، فاليهود الشرقيون يعانون من قهر عنصري من جانب اليهود الغربيين ولكنهم حتى الآن لم يواجهوه بالحل السليم الوحيد وهو حمل السلاح ضد هذا الكيان العنصري كله وضمن صفوف الثورة الفلسطينية المسلحة.

الفصل الثالث

بين البحث عن حل والبحث عن هوية

مدخل

ثلاثة ملايين من البشر تجمعوا على أرض فلسطين..

تقاطروا في السبعين عاما الأخيرة، ومن مئة واثنين من البلاد..

وصـــلوا في موجات مختلفة الزمان والمكان، وأهم من كل ذلك مختلفة الدوافع..

وعلى أرض فلسطين حاولت "الصهيونية" أن تخلق منهم "مجتمعا".. له تاريخ موحد، وحاضر منسق، ومستقبل ثابت..

كـــان أول مـــا حاولته **الصهيونية** وأجهزتها ومؤسساتها هو طمس اسم "فلسطين" وتذويب **شخصية شعبها** والادعاء بأن "إسرائيل" هي الظاهرة التي يجب أن ينطلق منها وحولها كل حوار أو تفكير أو إجراء.

ولقد آن الأوان أن نقرر في شجاعة وجرأة أن الكثيرين منا انساقوا في هـــذه المؤامرة بحيث مرت سنوات طويلة (خصوصا بعد ١٩٤٨) والجميع، ســـواء كـــان معارضا للكيان الصهيوني أو مؤيدا له، يسلم بقيام هذا "الكيان الصـــهيوني" كأنــــه حقيقة تاريخية وليس مجرد ظاهرة مؤقتة عابرة لابد من تفككها وانتهائها..

ثـــم انطلق النضال المسلح، فكشف عن التناقضات المميتة التي يحملها هذا "الكيان" في داخله كما أعاد إلى الأذهان والواقع العملي الظاهرة التاريخية

الأصيلة، ألا وهي فلسطين والشعب الفلسطيني. وبرز السؤال مرة أخرى"من هؤلاء.. من هم الثلاثة ملايين، وما مستقبلهم ؟".

لقد طرح الكفاح المسلح الفلسطيني بقوة السؤال على الملايين الثلاثة، وعلى الجماعات والمؤسسات السياسية المعنية، سواء داخل أو خارج فلسطين.

وضع الكفاح المسلح الفلسطيني حقيقة واقعة تجددت، هي الحقيقة الفلسطينية أمام حقيقة واقعة عاشت بغيابه هي الحقيقة "الصهيونية". إلا أن الحقيقة الأولى تاريخية بينما الحقيقة الثانية مؤقتة.

لذا فعندما تسأل أحد العرب الفلسطينيين من أنتم؟ فالإجابة واضحة سهلة واحدة لا غموض فيها ولا تردد، نحن العرب الفلسطينيون، أصحاب فلسطين الشرعيون، أما عندما يوجه السؤال إلى الملايين الثلاثة، فإن الإجابة تتفرع وتتضارب فيما بينهم بل وحتى بين من ينطقون باسمهم في مجالات الفكر والسياسة.

ولما كان التحديد العلمي "لهوية" أي جماعة بشرية أمرا ضروريا لكي يمكن تحديد مستقبل هذه الجماعة...

ولما كانت بعض الأفكار في هذا المجال، يرفعها ويرددها من نعتبرهم على المدى التاريخي ضمن معسكر الثورة المسلحة التي ستحرر فلسطين من الاغتصاب الصهيوني..

وإذ نقر، أن بعض هذه الأفكار قد وجد مكانا في أذهان البعض في صفوف العرب، خصوصا أولئك الذين لهم علاقة بدرجة أو بأخرى بالنضال ضد الصهيونية..

لكل ذلك، ولأننا أيضا مطالبون بتوضيح أفكارنا لأصدقائنا، فسنحاول جمع ما هو مطروح من أفكار حول هوية هذا "التجمع البشري" ومستقبله، ومناقشتها، مؤكدين ما سبق من أن هذا التجمع وأن يكن حقيقة واقعة الآن إلا أنه لم يكن كذلك في الماضي، ولن يكون في المستقبل. وأن فلسطين كانت

ومـــا زالـــت وســـتظل هـــي الظاهرة التاريخية الأصيلة التي تعطي هويتها لأبنائها، وهي أيضا تحتفظ في باطنها بجذور هذه الهوية العربية القومية.

*
* *

من الممكن تقسيم الأفكار المتداولة حول هوية "التجمع البشري" الموجود تحت سيطرة الكيان الصهيوني إلى ثلاث مجموعات من الأفكار..

المجموعة الأولى وهي القائلة **بالقومية اليهودية**.

والمجموعـــة الثانـــية وهـــي التـــي تقول بالقومية **الإسرائيلية** أو الأمة الإسرائيلية.

المجموعة الثالثة تضم خليطا من الأفكار غير المحددة تخلط بين الاثنين أو تضفي عليها أسماء جديدة..

وأفكـــار المجموعـــة الأولى، ليست جديدة، والقائلون بالقومية اليهودية، **قدامـــى ومحدثون**، من القدامى هرتزل، وقد نجد من سبقه أيضا للحديث عن "الـــيهود" كقومية مستقلة، وكل الأحزاب والمؤسسات الصهيونية القديمة. أما الجدد فإن أبرزهم، **وهو أمر يثير** الدهشة فعلا، هم من الشباب الذين أدركوا وهـــم في داخل الكيان الصهيوني كثيرا من الحقائق الصحيحة وناضلوا في سبيلها ولكنهم كما ذكرنا من قبل ما يزالون يرددون **فكرة القومية اليهودية**.

من القدامى نقتبس فقط آخر ما خرج به "رابين" بعد أن ألقى الأخ ياسر عرفات، "أبو عمار"، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية والناطق الرسمي باسم حركة فتح، خطابه في الأمم المتحدة، موضحا الحل الثوري الإنساني الوحيد للمشـــكلة الـــيهودية، ألا وهو قيام دولة "فلسطين الديمقراطية". عندئذ خرج

رابيـــن في غضب قائلا: "يتكلم زعيم منظمات الإرهابيين في الأمم المتحدة وجوهر كلامه أن **اليهود ليسوا أمة**، ولا تحق لهم دولة خاصة بهم"[1].

إن ما يصرح به رابين هو استمرار لما صرح به وروج له كل مفكري الصـــهيونية، وهـــم بـــالقطع أدرى الـــناس بعـــدم صحة هذه الفكرة وإنما يســـتخدمونها وســـيلة لسوق الملايين من يهود العالم إلى إحياء مغلقة عليهم، تمهيدا لنقل بعضهم إلى أرض فلسطين.

ولكـــن المثير والمؤسف حقا أن تردد بعض الجماعات التي تناضل ضد الصـــهيونية هذه الفكرة. فنجد رفيقا كالرفيق رامي ليفنه يقول خلال محاكمته فـــي قضية الجبهة الحمراء في حيفا: "إن اليهود في إسرائيل هم في الحقيقة مجـــتمع **قومي وليس دينيا**" (التأكيد من عندنا). كما يقول رفاقه في الاتحاد الشـــيوعي الـــثوري "الماهفاك" إنهم يرون الصراع في المنطقة أفقيا أي بين قوميتين هما القومية العربية والقومية اليهودية [2][3]. أما المنظمة الاشتراكية الإســـرائيلية (ماتزبـــن الماركسية) فترفع شعارا يقول "في إسرائيل، تطوير المشاعر النقدية التي ولدتها الحرب الأخيرة وسط الجماهير إلى وعي طبقي معادٍ للصهيونية يسمح بفك "الوحدة القومية المقدسة" ويضم الشغيلة اليهود إلى نضـــال الجماهير العربية في سبيل جمهورية اشتراكية عربية موحدة تضمن لـــيس أمـــان الجماهير اليهوذية فحسب، بل أيضا **حقوقنا القومية** وتحررها الاجتماعي"[4]. (التأكيد من عندنا).

وهـــناك بيـــن مـــا يطرحه الصهاينة الأول (الرواد) وبين ما يصل إليه شـــباب الـــتجمع الإسرائيلي فروق ودرجات بالطبع، إلا أنها كلها تقوم على

---

(1) هآرتس، ١٤-١١، عن م. د. ف. ١٦-١١.

(2) حديث خاص غير منشور.

(3) اصـــدر رفـــاق الماهفاك نقدا ذاتيا، ولكنهم انتقلوا من فكرة القومية اليهودية إلى فكرة القومية الإسرائيلية، أـــو الشخصية الإسرائيلية المتميزة تاريخيا، واستمروا يلومون "فتح" لأنها لم تقدم حلا يضـــمن للشـــعب الإسرائيلي "حقوقه القومية". عن نشرة بعنوان "القضية الفلسطينية وحق تقرير المصير" ص٢٢ – اصدار نضال، سنة ١٩٧٤.

(4) عن بيان موزع باللغة العربية في بيروت بتاريخ أواخر نوفمبر تشرين ثاني ١٩٧٣.

فكرة أن "اليهودية" "قومية" وهم يختلفون في تطبيقهم لهذه الفكرة. **فالصهاينة الأول** يرون أن "إسرائيل" هي **دولة اليهود** التي يجب أن يدين لها بالولاء كل يهود العالم وأنها أيضا مسئولة عن كل يهود العالم، وأن من حق أي يهودي في العالم أن يحصل على الجنسية الإسرائيلية (قانونا) بمجرد أن تطأ قدمه أرض فلسطين المحتلة (من الناحية العملية تصدر إسرائيل جوازات سفر إسرائيلية لأي يهودي يطلب ذلك حتى دون أن يصل إلى فلسطين). بينما يرى الشباب المعارضون للصهيونية، ولكنهم لم يتخلصوا بعد من كل آثارها الفكرية، أن اليهودية "قومية" وأن ذلك حسب رأيهم لا يجوز أن يسمح لشعب أن يبني دولة على حساب آخر[٥]، وأن ذلك يحتم أن يتضمن أي حل للمشكلة أن يعامل اليهود معاملة **الأقلية القومية** ذات الحق في تطوير ثقافتها وآدابها. وأنهم في هذه الحالة لا يعاملون بصفتهم طائفة دينية (عندئذ يكون من حقهم فقط ممارسة الشعائر الدينية بحرية كاملة ويحرم عليهم ممارسة تطوير أي نوع من أنواع الثقافات والآداب التي تقسم الجماهير)[٦].

وهكذا يرى الشباب المعارضون للصهيونية، أنه من الضروري الاعتراف بالشعب العربي الفلسطيني، بل وبعضهم يتعاون فعلا مع ثورته المسلحة. إلا أن معظم هؤلاء ينطلقون من منطلق "أممي" بمعنى أنهم يرون من واجب الكادحين أو الفقراء أو العمال في كل "أمة" أن يتكاتفوا للنضال ضد الاستعمار والرجعية والاستغلال[٧]، أي أنهم ينطلقون **من مرحلة انتهاء "القوميات" لا من مرحلة نموها كما هو حادث فعلا بالنسبة للقومية العربية.**

ولو انتقلنا إلى المجموعة الثانية من الأفكار في هذا المجال، لوجدناها تدور حول فكرة قيام أمة إسرائيلية.

يقول إسحق دويتشر (الذي يقدم نفسه في كتابه "اليهودي غير اليهودي" قائلا: وأنا بالطبع تخليت منذ زمن طويل عن عدائي للصهيونية)، يقول "إن

---

[٥] راجع كتاب الفهود السود في إسرائيل للكاتب كوشن شميش، ماسبيرو، باريس، ١٩٧٢

[٦] ذلك هو معنى حديث الرفيق ليفنه عن أنهم مجتمع قومي لا ديني.

[٧] ماتزين والجبهة الحمراء والجناح اليساري للفهود السود.

تأكـيد الـذات الإسـرائيلي العـبري هذا يعول عليه أن يصهر كل عناصر إسـرائيل المتبايـنة في أمة واحدة وأن يمنح تلك الأمة وحدة روحية ثقافية"، ويقـول "إن الـنزاع العربي الإسرائيلي على السطح هو صدام بين قوميتين متنافستين، كل منهما تتحرك داخل دائرة مغلقة من الصحة الذاتية والمطامح المتضخمة" (٨).

ويقول يوري أفنيري في كتابه "إسرائيل دون الصهيونية": "لقد ولدت أمة جديدة في فلسطين وأصبحت جزءا من الشرق الأوسط"(٩).

ويلتقـي بهذه الأقوال الصريحة عدد كبير من الآراء المعلنة والمواقف الفعلـية. فكل الموافقين على قرار التقسيم، والمعترفين بقيام دولة إسرائيل، يوافقـون ضـمنا على هذا المفهوم. ويتضح ذلك بجلاء عندما يتحدثون عن توسعية إسرائيل "وضرورة انسحاب إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧، والبحث في إمكان إقامة علاقات سلمية بين إسرائيل" وجاراتها، والحديث عن دولة "ثنائية القومية" والحديث حتى الآن عن حق جميع دول المنطقة أو شعوبها في الأمن والسيادة.

ويحـاول كـل هؤلاء وأنصارهم إثبات أن ظاهرة جديدة قد نمت على أرض فلسـطين وأن هذه الظاهرة هي "إسرائيل" وهي ظاهرة "مستقلة" تنمو وتـتطور وبالتالـي يمكن، بل يجب، أن يتضمن الحل، أي حل، مراعاة هذه الظاهرة الجديدة.

إن خطـورة هـذه الفكرة – فكر الأمة أو الظاهرة الإسرائيلية المستقلة تكمـن في أن حملتها ومردديها هم بشكل عام من **معارضي الصهيونية**. فهم

---

(٨) اسحق دويتشر، "اليهودي غير اليهودي"، ص١٣٧.

(٩) لاحظ التشابه في أسلوب "اليهودي غير اليهودي" و"إسرائيل دون صهيونية".

لاحـظ أيضا أن يوري افنيري يضع قدما في فكرة القومية اليهودية، وقدما أخرى في فكرة الأمة الإسرائيلية هو يحاول أن يوفق بين الفكرتين ونراه يقول "كان على حركتنا القومية(!!) أن تقيم لها يـد سـامية لا خـط عريقة التقسيم منسقة مع حركة القومية العربية، نضال مشترك هدفه توحيد النقطة السامية (افنيري – إسرائيل دون صهيونية).

جميعا يطالبون "بوقف الهجرة إلى فلسطين" "وبالاعتراف بحقوق الشعب العربي الفلسطيني"، بل وأحيانا "بالدولة الديمقراطية العلمانية الواحدة في فلسطين" ولكنهم في الحالة الأخيرة يرفضون الفكرة التي قدمتها حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح" من أنها دولة تضم كل الطوائف في مساواة كاملة، ويرون أن "يكون فيها **للعرب والإسرائيليين** حقوق وواجبات متساوية وداخل هذه الدولة يحق للعرب والإسرائيليين تنمية ثقافتهم في إطار تقدمي ديمقراطي" _راجع حديث الرفيق.نايف حواتمه لمراسل يديعوت أحرونوت والمنشور في جريدة النهار اللبنانية ٢٢-٣-١٩٧٣).

من الواضح أن هذه الفكرة – فكرة الأمة أو الظاهرة الإسرائيلية المميزة – برزت من خلال تطور الصراع ضد الصهيونية وكيانها الرسمي "إسرائيل"، فلقد وجدت بعض القوى السياسية نفسها أمام تناقض حاد بين ما كانت تعلنه من أفكار وسياسات وبين ما تجسد في لحظة تآمرية استعمارية انزلق بعضهم لتأييدها، **ومن ثم كان الهروب من "القومية اليهودية" إلى "القومية الإسرائيلية" كمبرر لاستمرار مواقف هذه القوى المؤيدة حتى الآن لبقاء الكيان الصهيوني.** هذا عن القوى القديمة. أما القوى الشابة فإن من الممكن الافتراض بأنها فتحت أعينها على حقيقة هذا الكيان البشعة من كونه كيانا اغتصابيا يقوم على أرض شعب يعامل أمامهم معاملة مواطني الدرجة الثانية، ومن كونه أيضا كيانا لم يلغِ "العنصرية" التي قام بدعوى مواجهتها بل عمقها بين اليهود أنفسهم. كما أن بعض هذه القوى القديمة والجديدة ما يزال ينظر بطريقة ميكانيكية إلى "الظاهرة الإسرائيلية" مغفلا كما ذكرنا في الفصل السابق "أنها ظاهرة بلا تاريخ" ويحاول أن يطبق عليها قوانين التطور باعتبارها "مجتمعا" ستستقطب قواه "الطبقية" وبالتالي يتصف بإطاره العام ألا وهو الإسرائيلية.

إن فكرة الأمة أو الظاهرة الإسرائيلية المميزة هي بالنسبة للقوى القديمة تبرير لمواقفها السابقة، وهي بالنسبة للقوى الجديدة محاولة تفسير مواقفها الحالية. إنها كما سيتضح **"فكرة وسطية" توفيقية في قضية لا مجال للوسطية فيها ولا التوفيق.**

مـــن هـــذه الطبـــيعة "الوسطية" للفكرة نجد أن كلا الطرفين النقيضين يرفضانها: الطرف الصهيوني المغتصب، والطرف العربي الثوري. مع ذلك فهي بالنسبة للطرف الصهيوني الاستعماري شاطئ نجاة، يلجأ إليها ويستغلها محافظـــا علـــى بقائه، (ودون الهدف الجوهري لقيام الكيان الصهيوني). أما بالنســـبة للطـــرف العربي الثوري فإنها ستار وعائق أمام القوى والجماعات الثورية من أن تصل إلى الأفكار الصحيحة[١٠].

بقيت **المجموعة الثالثة للأفكار**: وهذه تبدو متفرقة لا رباط بينها، ولكنها في الحقيقة تقوم على فكرة جوهرية واحدة، هي فكرة صراع الحضارات أو صراع الثقافات.

ومـــن الغريـــب أننا نجد في هذا المجال "أشخاصا" لهم موقف معروف بجوار النضال الفلسطيني، بل أنهم "عرب" في معظم الحالات. وأبرز الأمثلة علـــى هـــؤلاء، وعلـــى هذه الأفكار هي الفكرة التي طرحها السيد صادق المهـــدي[١١] في حديثه المنشور في جريدة "النهار" اللبنانية بتاريخ ٢٠-٩-١٩٧٤ والتي يقترح فيها قيام "وطن عبري" هو نفسه "دولة إسرائيل" الحالية بعد انسحابها من الأراضي التي احتلتها في ١٩٦٧، وتخلي اليهود الموجودين فيها عن "الأهداف الصهيونية".. إلى آخر ما جاء في الحديث المذكور. وفي الوقت نفسه تقريبا طرح اثنان من الكتاب العرب هما الإخوة محمود حسين[١٢] الفكرة نفسها تقريبا، ربما بشكل آخر وفي شكل آخر، ولكنهما افترضا أن الصراع الدائر في المنطقة، حتى بعد أن يتحرر من نفوذ الدول الكبرى فإنه

---

[١٠] يجـــب أن نشـــدد هنا أنه مع هذا الاعتبار الفكري ألا وهو خطر الأفكار الوسطية على الفكر الـــثوري فـــإن الثوار في مجال المواقف اليومية العملية يسعون على الدوام لتوجيه نضالهم ضد النقـــيض الأساسي، محاولين تجميع الجهود بما في ذلك جهود "الوسطيين" ففضلا عن أن هذا هو المـــنهج الـــثوري الصحيح، فإنه أيضا الطريق لكي يتبين المخلصون صحة هذه الأفكار، وحقيقة وأبعاد ما يمكن أن تصل إليه هذه الأفكار الوسطية.

[١١] السيد صادق المهدي رئيس حزب الأمة السوداني (حديث لجريدة النهار اللبنانية بتاريخ ٢٠-٩-١٩٧٤).

[١٢] فضـــلنا أســـتخدام هذا الاسم بالرغم من أن صاحبيه أعلنا عن شخصيتهما ولكنهما ما يزالان معروفين بالاسم السري الأول وهو محمود حسين.

سيصـــير إلى صراع بين محور يهودي إسرائيلي، ومحور إسلامي عربي، وقد شرحا فكرتهما مبرزين دور الدين وعواطف الشعبين "اليهودي والعربي" أي باختصـــار هـــو صراع حضارات يسميها السيد صادق المهدي حضارة عــبرية (يطالب بإنهاء دور الوطن العبري كمركز أوروبي في قلب الشرق الأوســط وانــتمائه تماما إلى منطقة الشرق الأوسط وأن يشارك إيجابيا في مصير المنطقة وفي كل المنظمات الإقليمية) ويسميها الأخوان محمود حسين صراع محاور حضارية في المنطقة أيضا.

وفـــي هذا المجال يلتقي مع أصحاب هذه النظريات أولئك الذين ينادون "بإســـرائيل" "شـــرق أوسطية". (راجع مقال كسييل فيدرمان وهو أكبر رجال القطاع الخاص في إسرائيل يملك مصنعا فيه ٤٠٠٠ عامل صهيوني والمقال مـــترجم ومنشـــور في جريدة "النهار" ١٠-٧-١٩٧٤، وراجع أيضا مقالات مجلـــة "إسرائيل وفلسطين" التي تصدر بالإنجليزية والفرنسية. بالإضافة إلى الاتجـــاه العام للكتابات الاستعمارية التي تعتبر أن المشكلة هي مشكلة شرق أوسطية وليست مشكلة (صراع قومي ضد الاستعمار). وهكذا نجد أن أفكار صـــراع الحضارات تتخذ أشكالا وتعابير مختلفة. ولكنها تتفق جميعا في أنها تغفـــل الحقـــيقة التاريخـــية الخاصة بحتمية انتصار الحركة القومية العربية (بمضـــمونها الاجتماعـــي التاريخـــي) على الحركة الصهيونية الاستعمارية (بمضـــمونها العنصري الاستغلالي). أي أن هذه الأفكار ترفض موضوعيا الرؤية التاريخية لمستقبل الأمة العربية.

هـــذه هـــي المجموعـــات الـــثلاث للأفكار التي تتناول "هوية" التجمع الإســـرائيلي وهـــي جمـــيعا، كمـــا يتضح، تقوم على أساس أن هناك **أسسا وعوامـــل موضـــوعية لقـــيام واستمرار ظاهرة بشرية غير عربية مميزة ومتماســـكة فـــوق أرض فلسطين (كلها أو بعضها)**. ويستوي، بعد ذلك، أن يســـميها البعض قومية يهودية أو قومية إسرائيلية أو أمة شرق أوسطية، أو حضارة يهودية، أو وطنا عبريا، إلى آخر هذه التسميات.

فهل هناك بالفعل **عوامل موضوعية تاريخية** لمثل هذه الظاهرة ؟

بيّــنا فــي الفصل السابق عدم **تاريخية** هذه الظاهرة، وفي هذا الفصل سنتعرض للعوامل الضرورية تاريخيا لكي تتمايز ظاهرة بشرية في وطن أو أمــة أو حتى عشيرة، مع التنبيه بأن كل ما سنذكره أو سنتناوله من عوامل، لابــد أن نقــدره من زاوية الحركة التاريخية، حتى وإن ناقشناه في مرحلة زمنية محددة.

* *
*

القسم الأول

حول القومية اليهودية

الكثــيرون تــناولوا مســألة "القومــية اليهودية" و"أمة اليهود" بالبحث والدراسة. ومن قبل قيام الكيان الصهيوني بأكثر من نصف قرن من الزمان، وحــتى الآن، صدرت عشرات، بل مئات من الدراسات، التي تناقش ما إذا كانت أسس وجذور مثل هذه القومية موجودة أو حتى كانت موجودة.

ويخلــط الكثيرون بين ما حملته سنوات العقد الأخير من القرن الماضي ومــا تلاها من دعوة صهيونية إلى دولة يهودية، سعى دعاتها بعد ذلك إلى دعــم دعوتهــم بإثارة ما يسمى بالقومية اليهودية، يخلطون بين هذه الدعوة الجديدة وبين ما كان واقعا حقيقيا قبلها بقرون، ألا وهو المسألة اليهودية "أو المشكلة اليهودية"[١٣].

لقــد ظهرت الدعوة الجديدة (الدولة اليهودية) في مرحلة كان الرأسمال فيها يتخطى حدوده "القومية" التي نما في داخلها، منتقلا إلى مرحلة الاحتكار والإمبريالية. لم تظهر في بلاد المستعمرات حتى يمكن أن يقال إنها تبلورت

---

[١٣] راجــع كارل ماركس، المسألة اليهودية، ترجمة محمد عيتاني، بيروت، وراجع أيضا كتاب بديعة أمين، المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٤.

كـرد فعـل إيجابـي وتقدمـي للقهـر الاستعماري وإنما ظهرت في البلاد الاستعمارية، بحيث لا يبقى مجال لتفسير ظهورها إلا أنها بالفعل كانت وما تـزال الانعكـاس الفكري الفوقي لتطور الرأسمال إلى المرحلة الاحتكارية الاسـتعمارية، **أي أن الدعـوة الصـهيونية (الدولة الصهيونية أو القومية اليهودية أو أمة اليهود) هي أولى الدعاوى الفاشية في عصرنا الحديث.**

إن الدعـوة القومـية فـي عصـر نشوء الرأسمالية غيرها في عصر الرأسـمالية الاحتكارية، في الأولى هي تقدمية، أما في الأخيرة فهي بالقطع رجعية عنصرية تبرر سيطرة رأس المال الاقتصادي على أراضي واقتصاد وشعوب أخرى.

فالأمـة هي جماعة من الناس تآلفت تاريخيا. وعند تناول مسألة الأمة لابـد مـن تـناولها تاريخـيا لأن أهميتها ومحتواها يختلفان في المراحـل المختلفة[١٤].

ولقـد تعرض كارل ماركس وعدد آخر من قادة الفكر والثورة للمشكلة الـيهودية، ولكـن لينين على وجه الخصوص، وبسبب من الواقع الذي كان يواجهـه فـي روسيا القيصرية، هو الذي تعرض بشكل محدد لمشكلة الأمة الـيهودية أو القومية اليهودية، ذلك أنه واجه انقساما فعليا في صفوف الطبقة العاملـة، قـادة حـزب "الـبوند"[١٥]، كمـا أنه عاصر نشوء ونمو الدعوة الصـهيونية. ولقـد أدان لينيـن على الدوام فكرة الأمة اليهودية أو القومية الـيهودية، وحـذر مـنها باعتبارها فكرة **رجعية كلية "لا عندما يدعو إليها دعاتهـا الصـرحاء (الصهاينة) ولكنها كذلك عندما تنطلق من شفاه هؤلاء الذيـن يحـاولون أن يمزجوها بأفكار الديمقراطية الاجتماعية (البوند)**. إن فكـرة القومـية الـيهودية ضد مصالح البروليتاريا اليهودية لأنها تروج في

---

[١٤] راجع الأمة في قاموس الفلسفة، الطبعة الإنجليزية، موسكو، ١٩٦٧.

[١٥] الـبوند: هـو الاتحـاد العمالي اليهودي لليتوانيا وروسيا وبولونيا وهو أول منظمة اشتراكية ديمقراطية ظهرت في روسيا سنة ١٨٩٧.

صفوفها مباشرة أو بشكل غير مباشر روحا معادية للتمثل: "إنها روح الجيتو"[١٦].

كما يقول: "إن اليهود الألمان والفرنسيين لا يشبهون مطلقا اليهود البولنديين والروس، والسمات المميزة لليهود لا تحمل شيئا مما يكون القومية. وإذا كان لنا أن نعترف باليهود كقومية فإنها ستكون أمة مصطنعة"[١٧].

ولو أضفنا إلى ذلك أنه لا توجد أيضا أي سمات مشتركة بين يهود أوروبا بشكل عام ويهود آسيا وإفريقية، لتأكد حكم لينين.

ومع ذلك فقد اتخذت الصهيونية بعد لينين أردية ماركسية متعددة الألوان والاتجاهات بل أن التآلف الحاكم في الكيان الصهيوني، منذ قيامه، تعلن أحزابه أنها أحزاب ماركسية وتقوم في داخل الكيان الصهيوني مؤسسات سياسية عديدة تحمل وترفع أعلاما ماركسية ولينينية.

هل تغيرت الظروف ؟ هل برزت سمات مشتركة بين يهود العالم بحيث حولتهم إلى أمة يهودية، أو برزت هويتهم القومية كيهود؟

ربما كان من الممكن ادعاء ذلك في أبحاث ودراسات مختلفة قبل قيام الكيان الصهيوني. أما وقد قام الكيان الصهيوني منذ سبعة وعشرين عاما، فإن المنهج العلمي يقضي بأن نختبر صدق الأحكام والتحليلات الفكرية والسياسية في التطبيق..

لقد نجح دعاة القومية اليهودية وهم الصهاينة، نجحوا في إقامة دولة لليهود كما يدعون، أسموها "إسرائيل" وكان منطقيا إذا كانت هذه الدولة تعبيرا مجسدا عن "القومية اليهودية الواحدة" أن يثبت قيامها صحة أفكار دعاتها. فهل حدث ذلك فعلا ؟

إن نتائج سبعة وعشرين عاما تدلنا على عكس ذلك، بل تؤكد صحة الإدانات السابقة لفكرة القومية اليهودية. ومن الممكن أن نوجز هذه النتائج ونقسمها إلى ثلاث مجموعات فيما يلي :

---

(١٦) لينين، الأعمال الكاملة، المجلد٦.

(١٧) المصدر نفسه.

١- بروز التقسيم العرقي في صفوف اليهود أنفسهم

لا ينكر أحد الآن، ولا حتى غلاة الصهاينة، أن التجمع الإسرائيلي منقسم على نفسه إلى قسمين كبيرين هم اليهود الغربيين (الإشكنازيم) واليهود الشرقيين (السفارديم). وتتسع يوما بعد يوم الهوة بينهما، ولقد بلغ هذا الانقسام حدا عبر عن نفسه في المؤسسات السياسية "الجديدة" التي تمثل فقط اليهود الشرقيين كالفهود السود، وفي المظاهرات والاضطرابات التي تنفجر بين الحين والآخر مظهرة التفرقة العنصرية بين القسمين. لقد فشل الصهاينة في "صهر" اليهود القادمين إلى فلسطين المحتلة، رغم كل الجهود المبذولة والمخططة، والتي اعتمدت على أجهزة الدولة وخاصة المؤسسة العسكرية[١٨].

لو أن قيام الحركة الصهيونية كان تعبيرا عن حركة قومية صاعدة هي القومية اليهودية كما يدعون لاختلفت النتائج، فمن المفروض أن تجسيد القومية في مؤسسة نظامية من شأنه الإسراع ببلورة هذه الشخصية القومية وإذابة كل ما علق بها من انقسامات سابقة وخلق قاعدة مادية لتطورها. ولكن النتائج عكس ذلك.

٢- اتساع الهوة بين اليهود داخل الكيان الصهيوني واليهود خارجه

وكما أبرز قيام الكيان الصهيوني رجعية فكرة القومية اليهودية وجوهرها العنصري العرقي بانقسام سكانه إلى قسمين، فإن قيام هذا الكيان أيضا ميز على الفور بين اليهود المقيمين خارجه، وأولئك المقيمين تحت سيطرته في الأرض المحتلة..

من قبل قيام "الكيان الصهيوني" كانت الصهيونية مجرد حركة سياسية، وأفكار تتداول، ولكنها بعد قيامه أصبحت كيانا ماديا وأصبح الموقف من الصهيونية أيضا موقفا عمليا، فاليهودي الذي لا يهاجر إلى إسرائيل هو

---

(١٨) يؤدي جميع سكان الكيان الصهيوني الخدمة العسكرية، وفيها يتعلم الجميع اللغة العبرية ويتعاملون بها فيما بينهم، كما يتلقون تثقيفا موجها بهدف توحيد الشخصية الإسرائيلية. ومع ذلك فإن النتائج تدفع بالقادة الصهاينة إلى مناقشة مشكلة الانقسام علنا (راجع قدري حفني، تجسيد الوهم).

يهـــودي "غير صـهيوني" حتى لو أعلن التزامه واقتناعه بالصهيونية. كما أن الــيهودي الــذي يهاجر إلى "فلسطين المحتلة" هو صهيوني حتى وإن كانت دوافعـــه للهجرة غير ذلك (كما حدث مع أغلبية المهاجرين من اليهود العرب بعد ١٩٥٧). لقد أدى قيام الكيان الصهيوني إلى إعادة تقسيم اليهود في العالم وبشـــكل عملـــي. وهكـــذا نفهـــم لماذا كان بن جوريون يتحدث عن اليهود اللاصـــهيونيين بمـــرارة قـــائلا "إنهم لا جذور لهم" و"إنهم كوزموبوليتيون مقطوعـــو الجـــذور ولا يمكـــن أن يكون هناك أسوأ من ذلك"[١٩]، كما نفهم خطاب بنحاس سابير في المؤتمر العالمي للمدرسين اليهود الذي قال فيه: "مع الوقـــت ستكون الهجرة مرتبطة بتعميق الثقافة اليهودية في بلدان الشتات لأن الـــثقافة القائمة على القيم اليهودية ستحمل الشباب على أن يعلم أن مكانه في إسرائيل"[٢٠].

كما يؤكد هذه الحقيقة الاقتراح الذي تبناه المؤتمر الصهيوني المنعقد في القدس في ١٨-٢٨-١- ١٩٧٢ الذي تقدم به يجيئك ليكيط زعيم شباب حزب العمـــل الإسرائيلي الذي قال "إننا نريد أن نفرض على كل صهيوني واجب الهجـــرة إلى إسرائيل. ليتوقفوا عن الحديث عن الهجرة وليهاجروا فعلا وفي طليعـــتهم الـــزعماء ليكونوا قدوة حية للشباب اليهودي. إننا نقترح عقوبات أيضا: الزعيم الصهيوني الذي لا يهاجر إلى إسرائيل خلال أربع سنوات من انـــتخابه لا ينتخـــب مرة أخرى لأي منصب صهيوني". وقد تبنى الاقتراح حزبا حيروت ومفدال وصوت عليه المؤتمر بأغلبية ١٠٤ ضد ٦٢ صوتا.. وقـــد أشـــار آريـــيه بيـــنكوس رئيس المنظمة إلى أن قول بن جوريون في الخمســـينات "إن كل من لا يهاجر لا يعتبر صهيونيا" لم يؤدِ إلى زيادة عدد المهاجرين "ولو مهاجرا واحدا"[٢١].

---

[١٩] اسحق دويتشر، "اليهودي غير اليهودي".

[٢٠] ر. أ. أ ١٨-٧-١٩٧٤.

[٢١] قدري حفني، دراسة في الشخصية الإسرائيلية – الاشكنازيم، تحت النشر، عن ن. م. د. ف. ملحـــق العدد٤، ١٦-٢-٧٢، راجع أيضا مقال هاني عبد الله عن المؤتمر الصهيوني٢٨، شؤون فلسطينية، ع٢٨، آب ١٩٧٢.

كما يعلن رئيس وفد يمثل المؤتمر اليهودي العالمي قام بجولة في أمريكا اللاتينية: "أن هناك خطرا يهدد جيل الشباب اليهود في هذه البلدان الذين أخذوا يبتعدون عن التعاليم اليهودية. وأن هناك **أزمة أجيال خطيرة** بين اليهود في أمريكا الجنوبية، وأن ٢٥ بالمئة من الشباب يتزوجون زواجا مختلطا ويبتعدون عن دينهم، ودعا أعضاء الوفد لبذل مجهود كبير لتقريب الشباب من التعاليم اليهودية "قبل أن يفوت الأوان"[٢٢] (التأكيد من عندنا). أن يعلنوا ذلك أمرا له دلالة. فالصهاينة لا يعلنون مثل هذه القضايا إلا عندما تبلغ درجة من الحدة لا يمكن إخفاؤها. وأن يحاولوا تفسير ذلك بأنها أزمة أجيال، محاولة للتعمية على المسار التاريخي الصحيح للمشكلة اليهودية! ألا وهو التمثل.

إن الأجهزة الصهيونية تتحدث بمرارة، وحقد، وخوف، عن انخفاض نسبة نزوح اليهود من بلاد أوروبا إلى فلسطين[٢٣] وعن اتجاه النزوح إلى الولايات المتحدة[٢٤] وازدياد نسبة النزوح من إسرائيل إلى خارجها[٢٥]، بل

---

[٢٢] راجع ر. أ. أ. ، ٢٥-٨-١٩٧٤.

[٢٣] راجع حول انخفاض نسبة نزوح الفرنسيين اليهود، أ. أ. ، ٢٥-٨-١٩٧٤.

[٢٤] في تقرير لمؤسسة الدراسات الفلسطينية نشر بجريدة "النهار" البيروتية في ١٤-١٢-١٩٧٤ ذكر وزير الاستيعاب (دافار، ٢١-١١-١٩٧٤) ان ١٧ بالمئة من اليهود السوفيات، الذين تسلموا أذونات بالخروج، تساقطوا في فيينا في الأونة الأخيرة وأن هذه النسبة قد زادت في الشهر الحالي وشدد ابرهام تيروش (معاريف ١-١١-١٩٧٤) على الارتفاع المستمر في اعداد المتساقطين مفترضا أن هذا الارتفاع سيستمر وقال: "زاد عدد الخارجين من الاتحاد السوفياتي من اليهود الذين لم يهاجروا إلى إسرائيل دائما، ففي العام الماضي كانت النسبة ٤ بالمئة من مجموع الخارجين. وفي بداية هذه السنة ارتفعت إلى ٧-٨ بالمئة وفي شهري ايلول وتشرين اول وصلت إلى نحو ٢٥ بالمئة. واضاف تيروش: "ومن الصعب الافتراض أنه من الممكن تقليص هذه النسبة في شكل ملحوظ في وقت قصير، ومن المحتمل أن تستمر عملية ارتفاع نسبة المتساقطين"... أما "يديعوت أحرونوت" (١٨-١١-١٩٧٤) فقالت "أن نسبة التساقط بين مهاجري الاتحاد السوفياتي في تشرين الأول ١٩٧٤، قد وصلت إلى ٣٨ بالمئة وأنها أخذت في الارتفاع منذ بداية تشرين الثاني إلى أن بلغت ٥٠ بالمئة". ولاحظ ناحوم بارينغ ،دافار، ١٠-١١-١٩٧٤) ازديادا في وتيرة الهجرة من الاتحاد السوفياتي إلى الولايات المتحدة. في العام ١٩٧٣ وصل إلى هناك ١٤٤٩ يهوديا، و ٣٥٠٠ مهاجر، وهناك تقدير أن عدد المهاجرين إلى الولايات المتحدة سيصل في ١٩٧٥ إلى عشرة آلاف من اليهود السوفيات وبحسب دان مرغليت (هآرتس، ١-١٢-١٩٧٤) وصل في

الشـهور العشرة الأخيرة ٣٠ بالمئة من المهاجرين اليهود السوفيات إلى الولايات المتحدة، وليس إلـى إسـرائيل. وحـذر من انعكاسات هذا الوضع على الهجرة من الاتحاد السوفياتي، ودعا إلى التنسـيق في هذا الموضوع مع يهود الولايات المتحدة. وقال "يتطور الآن وضع يحتمل أن يتخذه الـروس ذريعـة لعـدم الوفـاء بالتزاماتهم. فحتى الآن كانت قواعد اللعبة واضحة: كان اليهود السـوفيات يـتلقون "طلـبات" لجمع شمل العائلات من اقربائهم في إسرائيل. ومع أنه لم يكن في استطاعة موسكو الموافقة على فكرة السماح لمواطنيها بالهجرة إلى أية دولة في العالم الغربي، فقد بـرر شـعار جمع شمل العائلات، ظاهرياً.. اعتبار إسرائيل "حالة خاصة" ولكن كيف يمكن أن نـبرر للسـوفيات المعطـيات التي تثبت توجه نحو ٣٠ بالمئة من المهاجرين اليهود في الشهور العشرة الأخيرة، نحو الولايات المتحدة وليس نحو إسرائيل؟".

(٢٥) ويعتقد المعلقون الإسرائيليون الرسميون، وغير الرسميين، أن ظاهرة النزوح أشد خطرا من ظاهرة التساقط في الطريق، لما تعكسه من سلبيات حولالوضع العام في إسرائيل، وبسبب الدعاية السـيئة التـي يبثها النازحون في الخارج، في تعليل اسباب نزوحهم. وقد أثار التقرير الذي قدمه بوريس كرسني، مبعوث وزارة الاستيعاب وقسم الهجرة في الوكالة اليهودية إلى أوروبا، عاصفة شـديدة داخـل إسرائيل فقد ذكر كرسني في تقريره أن ٣٠ بالمئة من مهاجري الاتحاد السوفياتي صرحوا بأنهم نزحوا عن البلد بسبب خوفهم من الخدمة في الجيش (معاريف، ٢١-١١-١٩٧٤).

وطالـب عضـو الكنيسـت حبيب شموعني، في جلسة العمل التابعة للكنيست التي كانت مجـتمعة فـي مواضيع الهجرة والاستيعاب، بإجراء مناقشة مستعجلة حول هذا الموضوع (عل همشـمار، ١-١٢-١٩٧٤). وتضمن التقرير معطيات عن اعداد النازحين الموجودين في مختلف الدول الأوروبية: ففي بروكسل ٨٥٠ نازحا من مهاجري الاتحاد السوفياتي متوسط أعمارهم ٢٩ سنة ونحو ١٨ بالمئة منهم اكاديميون وفي إيطاليا ٤٥٠ نازحا و٣٠٠ في ألمانيا و٢٥٠ في فرنسا و٢٠٠ فـي النمسا، وبعض النازحين في هولندا وبريطانيا أي يتجاوز مجموعهم الألفين من أصل مجموع مهاجري الاتحاد السوفياتي. وقدرت (معاريف، ٣-١٠-١٩٧٤) بناء على دراسات وزارة الاستيعاب حول نزوح مهاجري الاتحاد السوفياتي، أنه نزح في السنوات الثلاث الماضية ٥٠٠٠ من مهاجري الاتحاد السوفياتي على الأقل.

وفـي ٢٩-١٠-١٩٧٤ نشـرت "معـاريف" معطـيات من دراسة أخرى أجرتها وزارة الاسـتيعاب حول ظاهرة النزوح بالنسبة إلى المجموع الكلي للمهاجرين، جاء فيها: "لقد نزح في السنة ٧٣-٧٤، ٤ بالمئة، من مهاجري ٧٠-٧١ (٠٠٠) وبينما وصل معدل النزوح بعد سنة، إلى ٣ بالمـئة بين أولئك الذين وصلوا في ٧٢-٧٣ بصفة مهجرين (خصوصا من الاتحاد السوفياتي وصل إلى ٩ بالمئة بين المهاجرين المحتملين من الغرب) بعد سنة من هجرتهم".

أمـا بالنسـبة إلـى الـنزوح بشكل عام فليست هناك أرقام دقيقة يمكن الاستناد إليها لكن الـتقديرات تشـير إلـى نزوح بمعدل ١٠,٠٠٠ شخص سنويا. فحسب معطيات كتاب الإحصاء السـنوي ١٩٧٤ غـادر إسرائيل منذ اقامتها حتى نهاية العام ١٩٧٣ ولم يعد إلى البلد ٢٦٣,٤٠٠ شخص. "هآرتس"، ٨-١١-١٩٧٤).

أن الأجهزة الصهيونية تشن في السنوات الأخيرة حملات التخويف والإرهاب ضد اليهود المقيمين في بلادهم، محاولة تصوير "إسرائيل" بأنها حصن الأمن لهم، ولكن النضال الثوري العربي المسلح، وتفاقم التناقضات العرقية الداخلية لا يتركان لها فرصة النجاح كما فعلت في الثلاثينات والأربعينات قبل قيام الكيان الصهيوني نفسه.

فلئن كان الاتجاه الطبيعي لليهود خارج فلسطين هو إلى "التمثل" في مجتمعاتهم الأصيلة فإن الاتجاه داخل الكيان الصهيوني هو إلى العكس.

"فالسابرا" "الذين ولدوا وتربوا في البلاد ليس لديهم إحساس بالانتماء إلى اليهودية العالمية" وبالتالي لا يرون "اليهودية العالمية" منتمية إلى إسرائيل"[٢٦].

و"السابرا" هم المولودون في فلسطين المحتلة من آباء مهاجرين، وهم "إشكنازيون" سعى "الرواد" الأول للمهاجرين إلى أن يخلقوا منهم نموذجا للإنسان اليهودي الجديد في فلسطين المحتلة، أي أنهم النموذج القومي الاجتماعي "للمستوطن اليهودي"[٢٧].

٣- تعميق الخلافات الدينية وتنوع التفسيرات المذهبية[٢٨]

أدى قيام الكيان الصهيوني أيضا إلى أن توضع العقيدة اليهودية نفسها موضع التدقيق فطالما أن قانون هذا الكيان يعطي الجنسية لأي يهودي تطأ أقدامه أرض فلسطين فقد ترتب على ذلك تحديد من هو اليهودي بالضرورة؟ وقد أدى هذا الخلاف الذي اتخذ "طابعا دينيا" إلى أزمات سياسية. فقد اعتمد الصهيونيون الأول "الدين" مقياسا للجنسية، وهم لا يستطيعون الآن التخلي عن هذه الفكرة العنصرية بعد أن جسدوها في كيان نظامي. وانتقل الخلاف من رجال الدين (وهم ليسوا معزولين عن التنظيمات السياسية) إلى الأحزاب السياسية إلى المحاكم الدينية والمدنية إلى البرلمان وإلى الصحافة بالطبع.

---

[٢٦] اليهودي غير اليهودي، اسحق دويتشر، ص٨٧.

[٢٧] د. قدري حفني، شباب عجوز، دراسة غير منشورة.

[٢٨] للاستزادة: راجع كتاب الدولة والدين في إرائيل، دراسات فلسطينية ٣٧ للدكتور أسعد رزوق.

وحتى شهر تموز – يوليو ١٩٧٤، كانت المناقشات والأزمات حول هذا الموضوع ما تزال حادة وتؤثر تأثيرا مباشرا على اشتراك حزب المفدال في حكومة رابين مثلا[٢٩]. ومن المؤكد أن هذه المشكلة ستزداد حدة مع الأيام. فوجهة النظر الدينية اليهودية تعتبر أن من لم يولد من أم يهودية ليس يهوديا، وفي الوقت نفسه تعارض الجهات الدينية الزواج المختلط، إلى جانب عشرات من التفاصيل التي تذوب، أو التي لا تضع لها جماهير اليهود اعتبارا كبيرا في حياتها اليومية في مجتمعاتها الأصيلة، والتي تبرز بحدة عندما يطأ أحدهم أرض فلسطين المحتلة. فهنا جواز المرور مرهون بصيغة محددة قانونية!! أليس من الغريب بعد ذلك وقد افتقد "اليهود" تصورا موحدا حول "اليهودية" أن يقال إنها قومية..

الخلاصـــة، أن الصهيونية في "التطبيق"، أي في شكلها المجسد بالكيان الصـــهيوني قـــد أثبتت أنه لا توجد قومية يهودية ولا أمة يهودية. كما أثبتت أيضا استحالة قيام مؤسسة نظامية حكومية (دولة) على أساس "الدين" وحده. ذلـــك لا ينفي وجود "مشكلة يهودية" وهي مشكلة أوجدتها أشكال الاستغلال المخـــتلفة عبر تاريخ المجتمعات البشرية. وهي لا حل لها إلا بالقضاء على كل أشكال الاستغلال نفسها مما يسمح بإلغاء كافة أشكال التقسيم والتمييز بين البشـــر. إن "التمـــثل" هو حل المشكلة اليهودية، بينما قيام الكيان الصهيوني واستمراره هو تعقيد لها وعرقلة في طريق حلها كما سنبين في فصل لاحق.

* *
*

---

[٢٩] راجع ر. أ. أ. ، ١٠-٧-١٩٧٤، حول صيغة الحاخام الأكبر جورين عن من هو اليهودي.

القسم الثاني

حول مستقبل ظاهرة التجمع الإسرائيلي

في ١٩٤٨، وقبلها بسنوات قليلة، نجحت مؤامرات الاستعمار والصهيونية في أن تتجسد على أرض فلسطين مؤسسات ذات طابع خاص[٣٠]، أعلنت عن نفسها في "دولة" هي "إسرائيل".

ولا شك أن تلك الخطوة شكلت تغييرا جوهريا على الساحة الفلسطينية، وأضافت عاملاً جديدا إلى العوامل المتفاعلة على هذه الساحة.

في مواجهة هذا العامل، اختلفت المواقف، وتغيرت، بعضها إلى مزيد من العنصرية (القوى الصهيونية)، وبعضها إلى عنصرية معاكسة (إلقاء اليهود في البحر)، وبعضها في ذلك الوقت واجه اختيارا صعبا. إن المعارضة لقيام كيان صهيوني لم تنجح، ولذا فعندما قام "الكيان" وحظي بالتأييد الفعلي حتى من معارضيه[٣١] حاول البعض منهم الوصول إلى مخرج بأن طرح فكرة "تطور المجتمع الإسرائيلي" نفسه إلى ظاهرة متمايزة ليس فقط عن السكان العرب الأصليين، وإنما أيضا عن سكان البلاد التي قدموا منها: أي تطور هذا المجتمع البشري إلى أمة مستقلة، والبعض يكتفي، لعلمه بعدم إمكان فكرة الأمة هذه للصمود، بالقول بأنه تطور إلى "جماعة بشرية متمايزة" أي أقلية قومية، أو قومية ناقصة.. إلى آخر تلك المحاولات التي

---

[٣٠] مستوطنات وشركات ومبانٍ وتنظيمات عسكرية وسياسية اقتصرت العضوية فيها والمساهمة في نشاطاتها على "اليهود" وحدهم، وتقودهم جميعا الوكالة اليهودية التي تتحدث باسم الحركة الصهيونية.

[٣١] الموافقة على قرار التقسيم من جانب الذين ظلوا يعارضونه حتى عشية تنفيذه.

بـررت وتـبرر استمرار هذا الكيان واقتصار المواقف منه على معارضة "سياسـته التوسعية" أو "قوانين التمييز فيه" أو "سياسته العدوانية" أو "ارتباطه بالإمبريالية الأمريكية" دون معارضة استمراره.

ولكـن الأيام حملت لهؤلاء ما يناقض أفكارهم، فقادة الكيان الصهيوني الآن **يعـترفون** صراحة بأن هناك مشكلة في داخل التجمع الإسرائيلي اسمها مشـكلة "الاستيعاب" ويحاول بعضهم تصوير هذه المشكلة بأنها بسبب "نقص المسـاكن" أو "أخطـاء لدى أجهزة الهجرة" أو "تقاعس العاملين في الوكالة اليهودية"[٣٢]. وكلها أسباب نعتقد أنها ثانوية، بل نعتقد أن الأسباب الجوهرية لما يواجهه هذا التجمع البشري تكمن في افتقاره إلى شروط تمايزه التاريخية، بحيث يمكن أن يشكل أمة، أو حتى يشكل ظاهرة متمايزة.

إن الأمـة، أو أي جماعـة بشـرية متمايزة، لابد أن تتوفر لها شروط معينة، يمكن أن نعددها بإيجاز فيما يلي:

١- أن يتوفر للمجموعة البشرية المعنية **تآلف تاريخي**.

٢- أن يتوفر لهذه المجموعة، وبالضرورة في حالة التآلف، **لغة واحدة**.

٣- أن تستقر هذه المجموعة البشرية على **أرض** محددة، حدودها اللغة والتبادل والسوق والإنتاج واستخلاص الثروة على مدى تاريخي.

٤- أن يكون لهؤلاء ثقافة مشتركة تعبر عن تكوين نفسي مشترك.

٥- أن يكـون لهـم اقتصـاد مشـترك بحيث يمكن تمييزه في الواقع الاقتصادي المتشابك، حتى وإن كان خاضعا أو تابعا.

هذه هي الشروط اللازم توفرها لكي تتمايز مجموعة بشرية عن أخرى. ومـن الطبيعي أنه ليس شرطا أن تكون كلها مكتملة، بل يكفي أن تكتمل لها الشـروط الـثلاثة الأولـى "التآلف – اللغة – الأرض" حتى تكتمل لها بقية الشروط بعد ذلك، وإنما ذكرناها جميعا لنبين أنها جميعا غير قائمة.

---

[٣٢] هناك إشارات كثيرة إلى ذلك في الصحف الإسرائيلية، ولكن حديث بنحاس سابير مع صحيفة "معيريب" المنشور في العدد (١١) من نشرة الأرض يحملها جميعا ويعترف بأن المشكلة هي مسئولية "الثلاثة ملايين يهودي الذين يرفضون التفاعل مع القادمين الجدد".

أولا – هل تآلف سكان التجمع الإسرائيلي تاريخي؟

ونضيف أيضا، وهل هناك فرصة تاريخية مقبلة لتآلفهم؟

الإجابـة لا قطعا، الأمر على العكس، فإن هذا التجمع يعاني **"تمايزا" لا "تآلفا"** كما كان يتوقع له.

في نيسان – إبريل ١٩٧٤ اجتمع ستون مندوبا يمثلون "الاتحاد العالمي للـيهود الشرقيين" "وكان هدف هذه الاجتماعات تقريب اليهود الشرقيين من الحـركة الصـهيونية وزيادة تمثيلهم في المؤتمر اليهودي العالمي والوكالة الـيهودية والعمل من أجل القضاء على الفوارق الاجتماعية والطائفية" وكان مـن ضـمن القرارات "العمل بالتعاون مع رئيس الدولة للقضاء على **الهوة الطائفية** والاجتماعية في إسرائيل"[٣٣].

و"الـنزوح" مـن فلسطين "ليس ظاهرة جديدة بل هي قائمة منذ تأسيس الدولـة"[٣٤] ولكنها طبعا في ازدياد، لدرجة أنهم الآن يناقشون علنا ما يسمى "بمشكلة الاستيعاب الاجتماعي"، فيقول أبراهام تيروس في "معاريف" في ٥-١١-١٩٧٤ "يـبدو أكثر فأكثر أن الاستيعاب الاجتماعي هو عامل حاسم في ارتـباط المهاجر وتجذره في البلد في شكل لا يقل عن الاستيعاب في العمل وعن إيجاد سكن ملائم له. فالمهاجر يسكن شقة جيدة ويعمل في مهنته، لكنه يجد نفسه بعد انتهاء يوم العمل في "**سجن اجتماعي**"[٣٥] (التأكيد من عندنا).

سجن اجتماعي.. هذا هو ما ينتظر "المهاجر" إلى فلسطين المحتلة.. أي أن "التمايز" وصل حدا يجعل الإنسان يعيش منفردا..

ولنضـف إلـى هـذا "التصـريح" عشرات، بل مئات من التصريحات والدراسات والأبحاث التي تتناول ما يعد " أخطر ما يواجه" الكيان الصهيوني ألا وهو التمايز بين الأشكنازيم والسفارديم، أي بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين، وما بينهم من "فجوة" **تتزايد** على الدوام..

---

(٣٣) ر. أ. أ.، ٣٠-٤-١٩٧٤.

(٣٤) ر. أ. أ.، معلق إسرائيلي، ٣٠-٣-١٩٧٤.

(٣٥) ن. م. د. ف. ١٤، ١٢-١٩٧٤.

هـــذا هـــو واقـــع التجمع البشري في الكيان الصهيوني، وهو "واقع" له أســـبابه الموضوعية أي التي تفرض "وجوده" على هذا الشكل، وحركته في **اتجاه اللاتآلف أي في اتجاه التمايز والانقسام.**

ورغم أنه من البديهي أن التآلف يحتاج لعامل أو أكثر من عوامل تشكيل الأمـــة أو الجماعة البشرية المتمايزة مثل اللغة كوسيلة للتخاطب، أو علاقات اقتصـــادية متـــبادلة، أو مهام ودور إنتاجي واحد (وهو ما ليس متوفرا كما سنبين فيما بعد) إلا أننا سنمضي في مناقشة المنادين بوجود هذا التآلف بحجة مرور ربع قرن على قيام هذا الكيان، أو مرور أكثر من ٧٥ عاما على بدء الهجرة، ويفترضون أن ذلك يمكن أن يخلق "تآلفا" تاريخيا، بين سكانه.

لم يكن التآلف ممكنا، **وهو غير ممكن** في المستقبل للأسباب التالية:

١- الجماعـــات التي قدمت إلى فلسطين، لم تأتِ من بلد واحد، ولم يكن يجمعها قبل أن تأتي إلا "الدين" وحتى بالنسبة للدين كانت تختلف عن بعضها البعض وما تزال مختلفة حتى الآن.

٢- أن هـــذه الجماعات لم تصل إلى فلسطين في وقت واحد، ولا حتى في أوقات **متقاربة**، ولا حتى في أوقات **متشابهة**، فقد بدأت الهجرة مع مطلع القـــرن، واســـتمرت بتدرجات متفاوتة. ومنذ مطلع القرن حتى الآن تغيرت ظـــروف العالم، وظروف فلسطين، وحتى ظروف المستوطنات الصهيونية، بحيـــث أن "٨/١ ســـكان إسرائيل جاءوا قبل عام ١٩٤٨، ومن هؤلاء ٦/٥ جـــاءوا مـــن الغـــرب"[٣٦]. ولكن هذه النسبة انقلبت بعد ذلك وهبطت نسبة القادميـــن من أوروبا وأمريكا بحيث لم تتعدّ ٣٠ بالمئة في ١٩٦٥[٣٧]. بينما زادت نسبة السكان القادمين من آسيا وإفريقية من ٨,٤ بالمئة عام ١٩٤٨ إلى ٤٨,٧٥٠ بالمئة في ١٩٦٢[٣٨].

---

(٣٦) THE CHALLENGE OF ISRAEL, MISHA LOWISH, ISRAEL UNIVERSITY PRESS ١٩٦٨, P.١٨٩

(٣٧) سكان إسرائيل، تحليل تنبؤات، دراسات فلسطينية، أحمد حجاج.

(٣٨) إســـرائيل أمة مفتعلة، د. فرانتس شايدل، دمشق. كما يمكن الحصول على مزيد من الأرقام حـــول نســـبة السكان القادمين إلى فلسطين المحتلة حسب بلادهم الأصلية بالرجوع إلى المصادر الثلاثة السابقة وغيرها مما يتناول الإحصاءات السكانية في إسرائيل.

٣- بالإضـــافة إلى أن هذه الجماعات لم تصل في وقت واحد، ولا من مكـــان واحـــد، فإنها أيضا لم تصل في ظروف متشابهة: لا من حيث **دوافع "المجيء"** ولا **"ظروف المجيء"** المحلية والعالمية ولا ظروف "الاستيعاب" في فلسطين المحتلة. هذا بالإضافة إلى الذين ولدوا في فلسطين المحتلة من أبناء مهاجريـــن قدامى. هذا ما يفسر تفاوت معدلات الهجرة إلى فلسطين المحتلة، وتذبذبهـــا. بل أن الإحصاءات تشير إلى أن الهجرة من فلسطين المحتلة إلى خارجها (الهجرة المعاكسة) زادت عن الهجرة إليها في عام ١٩٢٧، أما في عـــام ١٩٢٨ فـــإن صافي عدد المهاجرين كان عشرة أشخاص[٣٩]. كما أن ظروف الهجرة في مطلع القرن تختلف قطعا عن ظروفها في منتصف القرن – وهـــذا ما يفسر لماذا غلب عنصر الأشكنازيم على موجات الهجرة الأولى بســـبب أزمـــة النظام الرأسمالي وبروز الفاشية والنازية، بينما غلب عنصر الســـفارديم بعـــد قيام الكيان الصهيوني[٤٠]. كما يفسر أيضا ازدياد موجات الهجـــرة بعد حرب يونيو – حزيران ١٩٦٧، وعودتها إلى الهبوط بعد ذلك، وازدياد نسبة النزوح والتساقط بعد حرب تشرين – أكتوبر ١٩٧٣.

٤- إن وســـائل "الاســـتيعاب" الصهيونية التي كان من المأمول أن تعيد صـــياغة الموجات القادمة من المهاجرين صياغة واحدة قد فشلت وستفشل. فإلى جانب ما يواجه الكيان الصهيوني من أزمات اقتصادية، نجد "التناقض" الذي يعيش فيه سكان هذا الكيان حيث هم على صلة "يومية" بأهلهم في البلاد التـــي قدمـــوا مـــنها – ســـواء عن طريق تطور أجهزة الاتصال كالإذاعة والوســـائط المشـــابهة الأخـــرى على المستوى العالمي، أو حتى بالزيارات والتراســـل المباشر بينهم وبين أقاربهم – وحيث هم في الوقت نفسه يعيشون "ظـــروفا خاصـــة بهـــم"، كل ذلك يجعلهم لا يستقرون على صيغة ثابتة لهم

---

(٣٩) راجع الصهيونية وإسرائيل وآسيا، ج. هـــ. جانس.

(٤٠) أسباب هجرة السفارديم متعددة ولكن أهمها قيام الكيان الصهيوني، وحرب ١٩٥٦ وما سببته مـــن ردود فعـــل داخل البلاد العربية، ومؤامرات الصهاينة أنفسهم لتهجير اليهود من هذه البلاد، والدعايات التي ضللت السفارديم حول الجنة الإسرائيلية.. إلخ، راجع في هذا الشأن :

THE CHALLENGE OF ISRAEL, MISHA LOWISH, I.U.P., ١٩٦٨.

جميعا. إن المراسلين يسجلون أن "الأسرة" القادمة من رومانيا مثلا وتقيم في ضواحي حيفا، لا تزور "الأسرة" القادمة من "الاتحاد السوفييتي" والقاطنة في جوارهـا، وإنما تسافر حتى بئر السبع لتزور "أسرة رومانية" أخرى تعرفها. كما تكشف التقارير عن التمييز العرقي داخل هذا الكيان أن "يهود" بولندا في ضواحي تل أبيب رفضوا بشدة السكن مع "يهود" ألمانيا في الحي نفسه. حتى "المؤسسة العسكرية" (جيش إسرائيل) التي كانوا يأملون وما يزالون، أن تقوم بصـهر القادمين وتوحيدهم، والتي يتعلم فيها المجند العبرية كما يتعلم كيف يقـتل العرب، حتى هذه المؤسسة فشلت باعتراف شلومو هليل، وهو يهودي شـرقي، وأحد اثنين من بينهم وصل إلى مرتبة "الوزير". يقول: "لقد اعتقدنا طـوال السـنوات الماضية أن مؤسسة الجيش الإسرائيلي ستتمكن من صهر الفوارق الاجتماعية القائمة بيننا في بوتقة واحدة. أما اليوم فقد أصبحنا نعرف بأن هذه المؤسسة لم تستطع حل هذه المشكلة بعد أن خرج الناس من الجيش بنفس الشعور الذي دخلوا به"[٤١][٤٢].

لم يكونوا متآلفين، ولم يتآلفوا، ولن يحدث ذلك أيضا في المستقبل، إذ لا يتوفر "لهم" عامل واحد في سبيل التآلف.

ثانيا – هل لسكان التجمع الصهيوني لغة واحدة؟

الـتآلف بيـن المجموعات البشرية يؤدي إلى ظهور اللغة: تقول إيلينا مودرجنسكايا "إن لتكون الأمم جذوره في النشاط التاريخي للجماهير الكادحة فتوسيع نشاطات الناس المنتجة وصلاتهم أدى إلى ظهور اللغة"[٤٣].

---

[٤١] معيريب، ١٣-١٠-١٩٧٤، عن نشرة الأرض العدد الرابع للسنة الثانية.

[٤٢] لـنقارن هذه النتيجة المعترف بها بما يقدره واحد من علماء الاجتماع عندما يقول "إن الطابع القومـي هو ذلك الجزء من الطابع الذي يكون مشتركا بين مجموعات اجتماعية بارزة والذي وفقا لـتعريف علماء الاجتماع المعاصرين يكون نتاجا لخبرة تلك الجماعات. وفي المجتمع الصهيوني ليس أكثر شمولا من الخدمة العسكرية، ومع ذلك فإنها فشلت في توحيدهم".

THE PSYCHOLOGY OF PERSONALITY, REISMAN, DAVID N.Y., ٦٢.

[٤٣] الأمم والمسألة القومية، مودرجنسكايا إيلينا، دار التقدم، موسكو.

واللغة أيضا تؤدي إلى التآلف، فاللغة وعاء التاريخ.

وتتضافر الدعايات الصهيونية بأنها أحيت اللغة العبرية. فهل صحيح أن للتجمع الإسرائيلي لغة واحدة؟ وهل هذه اللغة هي "وعاء تاريخ" هذا التجمع، وهل ظهرت هذه اللغة نتيجة للنشاط التاريخي للجماهير الكادحة؟ الإجابة واضحة: لا قطعا...

فاللغة الموجودة الآن والمستعملة "رسميا" (هي لغة الإدارات والصحافة الصهيونية) ليست هي بأي حال لغة التوراة "العبرية" ذلك أنه "نشأت كلمات جديدة على يد المعلمين والمؤلفين والصحفيين والعلماء ورجال الإدارات والتقنيين. كما أن مصدرا مهما "لا غناء" اللغة كان نشاط المترجمين من اللغات الأجنبية الذين وجدوا المصادر العبرية **غير كافية** لأغراضهم. كما أنتج الأطفال والشباب الآلاف من التعابير العامية والسائغة دخل أغلبها في لغة الحديث العادي برغم أن بعضها ما يزال **يستثير عبوس المتزمتين**"(٤٤).

ولا يتكلم كل سكان التجمع الإسرائيلي العبرية. في ١٩٤٨ "كان ٣/٤ السكان يتكلمون العبرية وهبطت النسبة هذه إلى ٦٠ بالمئة في عام ١٩٥٠"(٤٥).

وهناك إلى جانب الصحافة التي تصدر بالعبرية الجرائد الآتية: جيروساليم بوست الإنجليزية، واليوم بالعربية، وصحف أخرى باللغات الألمانية والهنغارية والفرنسية والبولندية واليديشية والبلغارية والرومانية بالإضافة إلى دوريات بهذه اللغات وباللغات الإسبانية والالادينوا والفارسية(٤٦).

"كما تقدم الإذاعة الإسرائيلية برامج باليديشية وأغاني فلولكلورية في برامجها العامة وكثيرا ما تقدم عروضا مسرحية باليديشية وأحيانا باللغات الأخرى"(٤٧).

---

(٤٤) THE CHALLENGE OF ISRAEL, p. ٢١٣

(٤٥) و(٤٦) و(٤٧) المصدر نفسه، ص٢١٤.

وتقـول الدراسـات المنشورة عن المجتمع الإسرائيلي "إن ثلثي اليهود الذيـن يـزيد عمـرهم عـن العاميـن يتحدثون لغة أخـرى بالإضافة إلى العـبـرية"[٤٨]. ولو عرفنا أن ٩٧٦,٠٠٠ من السكان[٤٩] ولدوا في فلسطين المحـتلة، أي حوالي ثلث المستوطنين، وأن الإحصاء السابق يشمل من يزيد عمـرهم عن "عامين" وأن كل المولودين يلقنون العبرية من خلال مؤسسات التنشئة الموجهة، لتأكد لنا أن الطفل يلقن لغة أخرى في البيت هي لغة آبائه. ذلـك "أن الـدور يـبدأ بأن يتعلم الطفل أولا لغة المحيطين به، أي أسرته، فالأسرة هي معلم اللغة الأول"[٥٠].

والأسر اليهودية التي انتقلت أو نقلت إلى فلسطين لم تكن تتكلم العبرية في بلادها الأصلية ذلك "أنه بين اندثار اللغة العبرية ومحاولة إحيائها مضى مـا يقـرب من عشرين قرنا من الزمان حافلات بأحداث جسام. لقد تشتت الـيهود واندمـج منهم من اندمج من شعوب جديدة واختلط منهم من اختلط بأبـناء الأمم والقوميات والأديان المختلفة ولم يعد ثمة "جنس" يهودي له لغته المتمـيزة الواحـدة المشتركة"[٥١]. هذه هي الحقيقة الواقعية، والدليل القاطع عليها، أن الداعية الأول "لدولة اليهودية" تيودور هرتزل في مخططاته للدولة الـيهودية تصـور أن يـتكلم المهاجـرون لغاتهم المختلفة وتوقع أن تصبح "**الألمانـية اللغة الأم**"[٥٢] (التأكيد من عندنا). كان ذلك هو التصور في مطلع القـرن، ولكن القائمين على شؤون التجمع الصهيوني أدركوا أهمية إحياء أو اصـطناع هذه اللغة "العبرية" كمقوم أساسي لقوميتهم المصطنعة[٥٣]. وليس

---

(٤٨) المصدر نفسه، ص٢٢٣.

(٤٩) STATISTICAL ABSTRACT OF ISRAEL, ١٩٦٧

(٥٠) قـدري حفنـي، تجسيد الوهم، ص١٤٩، مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية، الأهرام، مصر.

(٥١) المصدر نفسه، ص١٤٦.

(٥٢) المذكرات ص١٧١، هرتزل، عن كتاب الصهيونية وإسرائيل وآسيا، ج. هـ. جانسن.

(٥٣) قدري حفني، دراسة في الشخصية الإسرائيلية الأشكنازيم، ص١٣١.

الغريـــب هو محاولة إحياء لغة ميتة فحسب[٥٤] وإنما الغريب حقا هو أنها لم تكـــن اللغـــة الأم لأحد على الإطلاق وأنه لم يكن ثمة متكلمون بأي لهجات وثيقة الصلة بها[٥٥].

اللغة العبرية "غير السائدة" وإنما الرسمية، والمستخدمة الآن في التجمع الإسرائيلي، هي لغة قديمة، ماتت، وأعادوا لها الحياة قصدا، وهو عمل ضد الـــتاريخ[٥٦] ولـــذا لن ينجح، "ليس فقط لأن المنجزات الإسرائيلية في مجال التعلـــيم القومي رغم ما تحظى به مشكلاتها حاليا من اهتمام بالغ واعتمادات مالـــية تعد أقل بكثير من المنجزات الإسرائيلية في الزراعة أو الصناعة أو الأمـــن القومـــي" على حد قول جورج فريدمان في كتابه "أهي نهاية الشعب الـــيهودي"[٥٧]، وإنما أيضا لأن الخبرة التاريخية تقول إنه لا يمكن صك لغة حســـب الطلـــب، وإنما هي كما ذكرنا نتاج النشاط التاريخي للجماهير. هذا النشاط الذي أدى إلى تمايز الجماعات البشرية فتمايزت بذلك لغاتهم ومن ثم عرفـــت تمايـــزهم هم. بينما الرؤية التاريخية تدلنا على أن اتجاه الجماعات البشـــرية الآن ليس هو بأي حال إلى مزيد من التمايز، بل هو على العكس على طريق الاندماج.

إن اللغة أساس القومية. هذا قول حق، ولكن "اللغة" هنا هي كما ذكرنا نتاج النشاط التاريخي للجماعات البشرية، وليست نتاجا "لقرار" ، ومشروع، تـــنفذه مؤسســـات لا يســـتطيع حتى قادتها أن يؤمنوا به فعلا. يشهد إسحق دويتشر (ذلك الذي تخلى عن عدائه للصهيونية منذ زمن) في كتابه "اليهودي غـــير اليهودي" يشهد بأنه "في تل أبيب، في مبنى الهستدروت الجديد المهيب

---

(٥٤) حديـــث للمستشرق الإيطالي إميرتو روزيتانو مع مجلة المجاهد الجزائرية، ديسمبر – كانون أول ١٩٦٨.

(٥٥) حايـــيم بلانك في LANGUAGE PROBLEMS OF DEVELOPING NATIONS عن رسالة الدكتور قدري حفني السابق ذكرها.

(٥٦) حديث المستشرق الإيطالي إميرتو روزيتانو السابق ذكره.

(٥٧) مطبعة نيويورك، ص١٦٨.

يكــون بعــض القادة على رسلهم عندما يتحدثون بالروسية أكثر منهم عندما يــتحدثون أي لغة أخرى، رغم أنهم هاجروا من روسيا منذ أكثر من ثلاثين عامــا"[٥٨]. هــذا عن القادة، وفي تل أبيب، وبعد أن هاجروا بثلاثين عاما، فكيف يكون الحال مع الذين هجروا منذ أعوام قليلة ولم يستطيعوا حتى الآن استيعابهم؟!

ثالثا: هل لهذا التجمع الإسرائيلي أرض؟

إنهم طبعا موجودون الآن على أرض.. فكل إنسان موجود على أرض مــا. ولكن المقصود "بالأرض" عند الحديث عن القومية، أو الأمة، أو حتى الــتمايز التاريخــي لجماعة بشرية، هي "الأرض" التي لها حدود. ولا نقصد الحــدود السياســية، فهذه قد تختلف من عصر إلى عصر، ومن مرحلة إلى مــرحلة، وإنما الحدود التي تتكاتف عوامل طبيعية وجغرافية وتاريخية على تحديدهــا، فتستقر عليها هذه الجماعة البشرية وتنشط لتعميق استقرارها على هذه الأرض وانتمائها لها.

ومنذ زمن بعيد بعيد، استقرت الجماعات البشرية التي تشكلت لكل منها لغــة مميزة وعلاقات إنتاج متبادلة ومحددة، استقرت على بقع من الأرض. ومــع تطــور المجــتمع سرعان ما تبلور عن استقرارها هذا حدود سياسية وأصبحت وطنا لكل منها واكتسبت هذه البقاع من الأرض أسماء تعرف بها على الخارطة المرسومة والمكتوبة.

ولا شــك أن الحــدود السياسية تغيرت وتتغير من عصر إلى عصر، ومرحلة إلى مرحلة، ولكن "الأرض" بشكل عام تظل محافظة على وجودها، ويــدور القتال حول حدودها، **فإن ذابت هذه الحدود فإلى مزيد من "الوحدة القومية" وبروز دول (أي حدود سياسية) أوسع وأقوى وأكبر.**

---

(٥٨) ص٩٥.

وتبيـــن الدراسات التاريخية أن اللغة لعبت دورا أساسيا في تحديد حدود "الأرض" أي أرض الوطـــن. ذلـــك أن اللغة هي وسيلة "التبادل" الاقتصادي اليومــــي، كمــــا أنهــــا وسيلة التبادل والتفاعل الثقافي والفكري بل والتصاهر والتزاوج والعلاقات بين الناس. إذ "لا يمكن أن تقوم أية صلات جماعية بين قوم يتكلمون لغات مختلفة دون أن يفهم أحدهم الآخر"[٥٩].

ولكـــن اللغـــة وحدهـــا، وإن حددت حدود أرض الوطن، لم تلعب، من الناحية التاريخية، الدور المباشر في الاستقرار على أرض. وإنما الذي لعب هذا الدور هو النشاط الإنتاجي الجماعي للجماعة البشرية، الذي اعتمد أساسا علـــى اســـتخلاص ثروات الأمة بواسطة زراعتها. وهكذا فإنه عندما كانت إحدى الجماعات البشرية المتجولة تعثر على بقعة أرض تتوفر فيها ظروف مناسبة طبيعية وجغرافية واقتصادية، فإنها كانت **تتحول عن تجوالها** (الصيد والرعـــي) **إلـــى الاستقرار (الزراعة) الذي عبر** عن وجوده تاريخيا بانتقال المجـــتمع البشري من مرحلة المشاعية البدائية إلى مرحلة المجتمع العبودي فالإقطاعـــي. لذلـــك تحولت الأرض، إلى إحدى قوى الإنتاج، إذ نشأت بينها وبيـــن الإنســـان "علاقة" هي أحد نوعين متحدين من العلاقات تحدد أسلوب الإنـــتاج، وكـــان النوع الثاني هو العلاقة بين الإنسان والإنسان. ومع تطور وتـــراكم العمـــل الإنســـاني عبر القرون مستخدما الأرض، كمصدر للثروة وكوســـيلة للإنـــتاج[٦٠]، أصـــبحت الأرض "وطنا" يلعب دورا ليس فقط في الإنتاج، وإنما أيضا فيما ينعكس عن العلاقة به في البناء الفوقي من مشاعر قومية، هي في جانب أساسي منها مشاعر الانتماء لهذه الأرض[٦١].

هـــناك إذن شروط لابد من توافرها لكي يمكن القول إن هذه "الأرض" هي وطن هذا "الشعب". هذه الشروط بإيجاز هي :

---

[٥٩] الماديـــة التاريخـــية، ف. كيللي – م. كوفالزن، ترجمة أحمد داوود، دار الجماهير، دمشق، ص٨٨.

[٦٠] أي كموضوع للعمل ووسيلة في الوقت نفسه.

[٦١] ليس غريبا أن تكون كلمة الوطن هي كلمة البيت في معظم لغات العالم.

١- أن تكـــون هذه الجماعة البشرية (الشعب) قد تواجدت عبر مراحل تاريخـــية علـــى هـــذه الأرض، وعملـــت فوقها (أي نشطت إنتاجيا وبشكل جماعي).

٢- إن كانـــت الأرض، من خلال النشاط الإنتاجي البشري الجماعي، هـــي مصدر "التراكم الأولي" لهذه الجماعة البشرية، بحيث تجمع لها ثروات ماديـــة يـــدور الصــــراع حول طريقة توزيعها (صراع طبقي)، أي أن هذه الجماعة أصبحت "مجتمعا" من خلال تطور نشاطها الإنتاجي وعلاقاتها فيما بينها، وأن العلاقة هي بين الأرض وبين هذا المجتمع.

يقول ف. كيللي وم. كوفالزون في كتابهما "المادية التاريخية": "إن العمل يوجـــد فـــي المجتمع فقط وإن الإنتاج هو دائما اجتماعي، ولهذا فإن علاقة الإنســـان بالطبيعة في عملية النشاط العملي ينبغي ألا ينظر لها كعلاقة إنسان معين وإنما كعلاقة المجتمع بالطبيعة. إن علاقة الإنسان بالطبيعة توجد دائما فـــي إطار من العلاقات الاجتماعية المعينة وعندما يدخل الناس في **علاقات الإنتاج الضرورية** فإنهم يدركون تلك العلاقات بصورة أو بأخرى. وهكذا فإن وعـــي الطبيعة ووعي الحياة الاجتماعية هو بكليته **نتاج للتطور الاجتماعي وينشـــأ عن متطلبات الإنتاج الاجتماعي** ويوجد في المجتمع فقط وللمجتمع، ولهذا كان وعيا اجتماعيا"[٦٢].

٣- أن الشعور بالانتماء إلى **أرض** بعينها.. وطن، هو جزء من "الوعي الاجتماعي" الذي يجمع بين الوعي الاعتيادي وبين الوعي العلمي بالواقع[٦٣] وأن هذا الوعي الاعتيادي يشمل:

أ- الـــتجربة المتراكمة خلال قرون كثيرة والناتجة عن النشاط العملي وكذلك المعارف الضرورية للعمل.

---

(٦٢) المصدر السابق، ص٦٦.

(٦٣) أنتـــي دوهـــرنج، ص٦٦. اســـتخدم إنجلز تعبير الوعي الاعتيادي للتمييز بينه وبين الوعي النظري العلمي.

ب- المقاييس الأخلاقية التي تكونت في الحياة اليومية وفي العمل وكذلك الحق العادي ومجموعة التصورات عن العالم المحيط.

ج - الإنتاج الفني الشعبي الذي يعكس تجربة الجماهير الحياتية ومطامحها في شكل اجمالي[٦٤].

٤ - أن هذا "الوعي الاجتماعي" بالانتماء لأرض بعينها - لوطن - يخضع، شأنه شأن كافة ظواهر الوعي الاجتماعي الأخرى، لعملية التبادل الجدلية في التأثر والتأثير بالواقع الفعلي، لذا فإن نشاطا إنسانيا كالدفاع عن الأرض في وجه غزو مثلا من شأنه تعميق الإحساس بالانتماء لهذه الأرض والعكس صحيح بالنسبة للرأسمالية الاحتكارية مثلا، وهي التي لا تعترف بحدود وطن أو حتى بانتمائها لوطن.

مما سبق يتأكد أولا خطأ الفكرة القائلة "بالقومية اليهودية" **فلم يحدث أن كان "لليهود" نشاط اجتماعي منفصل عن بقية الشعوب التي عاشوا بينها ومعها فوق الأرض نفسها**[٦٥].

ويبقى أن نناقش هل يمكن أن تقوم الأرض التي اغتصبها الصهاينة بدور الوطن لهم.

وسنطرح فيما يلي كل الأسئلة، ونحاول الإجابة عنها:

١- هل بقيت أرض فلسطين طوال ٢٠٠٠ عام في الوعي الاجتماعي للذين قدموا إلى أرضها بعد ذلك؟ وهل كانت بذلك دافعا لهم للمجيء؟

---

(٦٤) المادية التاريخية، ص٦٨.

(٦٥) سبق مناقشة فكرة القومية اليهودية وعدم صحتها بل رجعيتها كلية. لا توجد أرض واحدة محددة، بالمقاييس التي ذكرناها لليهود في العالم لذا سنقتصر النقاش على ظاهرة "التجمع الإسرائيلي" الذي احتل واغتصب أرضا، وادعى أنه بذلك قد توفر له أحد عوامل تطور الأمم فضلا عن نشوئها.

هـذا مـا يدعـيه الصهاينة: أن "أرض الميعاد" هي التي تذوب تجذب المستوطنين إليها. لو أن هذه المقولة صحيحة، لأمكن تصور تحول فلسطين المحـتلة إلـى وطن لهؤلاء المستوطنين ولكنها غير صحيحة.. والأدلة على كذب هذا الادعاء هي:-

أ- أن هرتـزل وهـو الداعـية الأول للدولة الصهاينة، لم يكن يتخيل فلسـطين وحدها مكانا لهذه الدولة، بل تخيل معها الأرجنتين، وطرحت بعد ذلـك أوغـندا كوطن ممكن. ولو أن فلسطين كانت فعلا موجودة في الوعي الاجتماعـي لـيهود العـالم، لكان من الطبيعي عندئذ أن لا يصير عليها أي خـلاف، ولا أن تطـرح بدائل غيرها خصوصا ممن تصدى للدعوة للدولة الصهيونية، أي هرتزل[٦٦].

ب- أن أغلبـية "اليهود" في العالم حتى الآن موجودن في بلاد متعددة، ومستقرون في هذه الأوطان، ولم تفلح كل دعايات الصهاينة ومؤامراتهم في جلب أكثر من ١٥ بالمئة من مجموع يهود العالم إلى فلسطين[٦٧].

ج- أن دوافع أغلبية الذين جاءوا إلى فلسطين المحتلة لم تكن بأية حال ديـنـية أو قومـية، وإنمـا كانـت غير ذلك ومتعددة، باستثناء الجيل الأول "الحالوتـزيم" (الـرواد) وهؤلاء لا يشكلون إلا ١/٨ اليهود الموجودين حاليا (وصـلوا قبل ١٩٤٨)[٦٨] والباقون جاءوا (وذهب بعضهم) بحثا عن فرص أفضل للحياة[٦٩].

---

[٦٦] الدكتور إميل توما، جذور القضية الفلسطينية، مركز الأبحاث، ص٥٢.

[٦٧] و[٦٨] توزيع تعداد اليهود في بلاد العالم، راجع تقرير مركز التخطيط حول الهجرة والهجرة المعاكسة.

[٦٩] يقـول مئير تلمي في مؤتمر حزب مابام الإسرائيلي الأخير: "إن جدلية تفردنا وخصوصيتنا القومـية قـد انبنـت على خلفية ضائقة المهجر، والمقدرة على اندفاعنا في البلد سواء في المادة الإنسانية أو في تدفق رأس المال" (المجلس الـ٢٤ للحزب، ٢-١١-١٩٧٤).

د – أن هـــناك هيئات دينية عديدة يهودية ما تزال ترفض بشدة الفكرة القائلة باعتبار فلسطين هي "إسرائيل الموعودة" لليهود. وهذه المعارضة بدأت مع بداية الدعوة الصهيونية وما تزال مستمرة [٧٠].

٢– هل هناك "وطن" محدد لهذا التجمع البشري بحيث يمكن أن يعكس وجوده في وعيهم الاجتماعي؟

الحقـــائق تنفي ذلك.. من ناحية لم يحدد قادة الصهاينة حتى الآن حدودا لدولتهم. وبياناتهم الأولى وتعبئتهم العنصرية تتحدث عن دولة من النيل إلى الفـــرات. كمـــا أن اســـتيلاءهم على الأرض الفلسطينية بدأ منذ مطلع القرن وبوســـائل ليس من بينها أبدا ما يشجع على الانتماء في كل الظروف وإنما اســـتولوا علـــيها بالمؤامـــرة والمذبحة وشراء أراضٍ من إقطاعيين وطرد الفلاحيـــن الأصـــليين. ثم أن الصهاينة لم يكونوا مسيطرين عند إعلان قيام دولـــتهم إلا علـــى ٦ بالمئة من أراضي فلسطين فقط. وعند قيام هذا الكيان تغـــيرت حـــدوده "السياســـية" عدة مرات وما تزال خاضعة للتغيير، أي أن المستوطن المجند في الجيش لا يعرف له حدودا يدافع عنها حتى الآن (وإنما يعرف كيانا يسمى الدولة). إن الأرض التي يعرفها المستوطن الصهيوني هي "موطئ قدميه" ولا شيء آخر، لذا يحتج سكان مستعمرات الجولان إذا ما لاح في أفق التسوية أنهم قد يجلون عنها، بينما تطالب قوى كثيرة بالانسحاب من الجولان وسيناء مقابل تسوية ولو مؤقتة.

إن المؤسســـات الصهيونية لم تنجح، حتى مع الجيل الجديد والشاب،في أن تـــزرع في وعيه الاجتماعي أي **انتماء للأرض أو للوطن** الذي ولد فوق تـــرابه، وذلك برغم سيطرتها الكاملة تقريبا على عملية التنشئة الاجتماعية. وأخـــذ قـــادة الكيان "يشكون من اهتزاز العقيدة الصهيونية" لدى الشباب في "إســـرائيل"، وأخذوا يواجهون بأسئلة من طراز "أن حقنا على أرض إسرائيل يتـــناقض مع التطلعات القومية للكيان الفلسطيني كيف يمكن حل هذه القضية في نظركم"؟ (سؤال من يورام طوهار تلميذ في الصف الحادي عشر).. "ما هـــو حـــق إســـرائيل التاريخي في منطقة الساحل التي لم يسكنها اليهود في

[٧٠] راجع كتاب الدولة والدين في إسرائيل، سلسلة دراسات فلسطينية للدكتور أسعد رزوق.

التاريخ القديم؟" (سؤال من التلميذ عوفر فلسوف، الصف الثاني عشر). و"هل الـبقاء لمدة ٢٥ سنة في مكان ما كايلات مثلا يعطينا الحق التاريخي لملكية هذا المكان؟ وإلا فما هي المقاييس التي بموجبها يتقرر "الحق التاريخي" على مستوطنة ما؟" (سؤال من رينا شوارتز، الصف الحادي عشر)[٧١].

أن أحـدا لا يمكن أن يدعي أن هناك تصورا واحدا لحدود هذا "الوطن" لدى القاطنين على أرض فلسطين المحتلة الآن. وفي هذا الكفاية.

٣- هـل يمكـن أن تنشأ بين هذا التجمع البشري وبين الأرض القاطن عليها علاقة تاريخية من خلال النشاط الإنتاجي لهم؟

نسـتعيد هـنا سؤال التلميذة رينا شوارتز حول البقاء لمدة ٢٥ سنة في مكـان ما، وعلاقة ذلك بالحق التاريخي لملكيته.. لها كل الحق في التساؤل والاستنكار..

والحقيقة أنه أمر سخيف ومضحك، أن يتخيل إنسان عاقل في العالم أن مجـرد تواجـد مجموعة من الناس في مكان ما لمدة ٢٥ سنة تعطيهم **حقـا تاريخيا فيه.**

فـلا التاريخ البعيد، ولا القريب، ولا العقل، ولا المنطق يمكن أن يقبل هـذا الادعاء. ولقد بقي المستعمرون الفرنسيون في الجزائر ١٣٢ سنة ولم يكتسـبوا حقـا تاريخـيا فـيها، وبقي المستعمرون البرتغاليون في أنجولا وموزمبيق أكثر من ٢٥٠ سنة ولم يكتسبوا حقا تاريخيا فيها. وهم لم يكونوا مجـرد جـيش احتلال، وإنما زرعوا وأقاموا علاقات اقتصادية ومؤسسات إدارية وتعليمية.. إلخ، ومع ذلك لم يكتسبوا حقا تاريخيا ولم تتعمق جذورهم في هذه الأرض.

ومع ذلك ولأننا نسمع بين الحين والآخر حججا تتحدث عن إمكان تمايز هـذه الجماعـة البشـرية قومـيا أو حضـاريا، لنا أن نستعرض العوامل

[٧١] نشرة "الأرض"، العدد (١٥) السنة الأولى.

الموضوعية التي يجب توفرها لقيام "**علاقة تاريخية**" بين التجمع الإسرائيلي والأرض المحتلة. لقد أدرك قادة الصهاينة أهمية قيام علاقة بين المستوطنين والأرض لذا: "لقد أعطيت الزراعة الأولوية القصوى في السياسة الاقتصادية للحكومة وللأجهزة العامة الأخرى، وبالتالي فإنها تلقت من الاهتمام ما لا يتفق مع حجم دورها الاقتصادي. وما تزال المواقف السياسية والاقتصادية تؤثر على عملية اتخاذ القرارات بشأنها، بحيث تتغلب على الاعتبارات الاقتصادية البحتة"(٧٢). كما اعتبروا "أن تطور الزراعة له الأهمية السياسية الأولى في عملية التوطن اليهودي في هذا البلد"(٧٣).

وهم يقولون صراحة في مقدمة إحدى نشراتهم الإعلامية: "عندما تصبح الأمة مرتبطة ارتباطا بالأرض وتشكل الزراعة فيها دعامة أساسية في اقتصادها القومي، عندئذ يتحقق الأمل النهائي القديم، قدم العصور، لانبعاث الشعب اليهودي، لأن جذور الشعب ستكون وقتئذ عميقة في وطنه القديم الجديد معا"(٧٤).

وكل ما قالوه في هذا الصدد.. صحيح.. ولكن القول شيء، والواقع شيء آخر. فلا يكفي أن نقول إنه عندما يثمر القمح نستطيع أن نحصل على الطحين، وإنما يجب أن تكون الظروف ملائمة مثلا لزراعة القمح، وأن تكون التجربة قد دلت على ذلك أيضا. فهل تدل تجربة ثلاثين عاما على نجاح محاولات ربط "الأمة" بالأرض وهل نجحت محاولة جعل الزراعة دعامة أساسية في الاقتصاد؟.. الإجابة بالنفي، والأدلة من أرقامهم هم:(٧٥):

١- بلغت قيمة الزراعة بالنسبة للناتج "القومي" الإجمالي في ١٩٦٨، ٧,٨ بالمئة، وكانت في ١٩٥٢، ١١,٦ بالمئة. ولا يرجع ذلك إلى خطط

---

(٧٢) و(٧٣) ISRAEL ECONOMIC DEVELOPMENT, ECONOMIC PLANNING CENTER, ISRAEL

(٧٤) راجع: خليل أبورجيلي، الزراعة اليهودية في فلسطين المحتلة، دراسات فلسطينية، ص١.

(٧٥) الأرقام مأخوذة من نشرات إحصائية إسرائيلية مباشرة أو نقلا عن كتب قيمة في هذا المجال أهمها: الزراعة اليهودية في فلسطين المحتلة، وإحصاءات فلسطينية، والبطالة في إسرائيل، وكلها من سلسلة دراسات فلسطينية للأساتذة خليل أبو رجيلي وإلياس خوري وإلياس سعد.

تصـــنيع جديدة مثلا كما يحدث في البلاد الزراعية الآخذة في النمو، فالكيان الصهيوني امتداد صناعي أصلا ومشكلته هي تطوير الزراعة لا الصناعة.

٢- بلغــت نســبة العاملين في الزراعة (في ١٩٦٨) بالنسبة لمجموع العاملين ١١,٢ بالمئة وكانت ١٧,٦ بالمئة في ١٩٥٢.

٣- تـــتراوح نســبة الذين يهجرون الزراعة نهائيا، وينتقلون للعمل في المدن، بين ١٥ و٢٠ بالمئة من بين المهاجرين الجدد الذين يوجهون للزراعة سنويا[٧٦].

٤- إن الأرض لم تعُد مصدرا للريع أو للتراكم الأولي، وإنما هي جزء مـــن وســـائل الإنـــتاج المسيطر عليها برءوس أموال عالمية احتكارية. لقد اســـتولوا على الأرض، وطردوا أصحابها، وكانت الأرض مستثمرة من قبل أصـــحابها الأصليين قبل مجيئهم، وجاءوا بالآلات لرفع إنتاجية الأرض كما اســـتقدموا من يعمل عليها بعد أن حرموا استخدام الأيدي العربية التي ألفتها. وانـــتهى الأمر بأن تتوزع ملكية الأراضي المحتلة في الكيان الصهيوني كما يلي:

الدولـــة والهيئة الوطنية للإنماء: ١٥,٢٠٥,٠٠٠ دونم أي ٧٦,٥ بالمئة. الصـــندوق القومـــي اليهودي: ٣,٥٧٠,٠٠٠ دونم أي ١٨,٠ بالمئة. ملكيات خاصة! عرب ويهود ١,٤٨٠,٠٠٠ دونم أي ٥,٥ بالمئة.

---

[٧٦] "ويلخـــص مأســـاة هؤلاء المهاجرين الذين يتركون الزراعة، جواب بعض المزارعين الذين ســـئلوا عـــن شـــعورهم في الموشاف فأجابوا بصرخة ألم قائلين: "نعمل كالحمير من الفجر حتى المســـاء.. ولا نـــزال نئن تحت عبء الضرائب والرسوم لاسيما رسوم الماء. نحن مزارعو هذا الجيل، ضحايا قيام دولة إسرائيل". وقالت مزارعة كانت تعيش سابقا في الدار البيضاء: "لا أشعر بالسعادة أبدا، لقد خدعتنا الوكالة ليهودية ونتأسف كثيرا على تركنا مدينتنا. لا يستطيع أبي وأمي، رغـــم كل الجهود، أن يتعودوا على هذه الحياة الشاقة، حياة الفلاحين في النقب.. فحياة الموشاف ليســـت شـــاقة فحسب بل معدومة من كل تعزية: فالحياة الاجتماعية مفقودة والتعاون أيضا، وكل إنســـان يعـــيش لنفســـه فقط ولا يفكر بغيره. آه لو نستطيع العودة إلى موطننا الأصلي في الدار البيضاء. لقد كنا سعداء فيها، لكن لن نستطيع ذلك قبل أن ندفع كل التكاليف إلى الوكالة اليهودية". الزراعة اليهودية في فلسطين المحتلة، دراسات فلسطينية.

والآن تــبلغ حصة العرب ٢,٥ بالمئة من الأراضي التي تسيطر عليها الدولة الصهيونية، بعد أن كانوا في السابق يمتلكون أغلبيتها الساحقة.

وهكـــذا نرى أن ملكية ٩٤,٥ بالمئة من الأراضي هي لهيئات صهيونية وليســت لأفراد أو جماعات مستقلة، والجميع يعرف أن مصادر تمويل هذه الهيئات هي مؤسسات احتكارية عالمية أو حكومات استعمارية، تشبه إلى حد بعـــيد ملكـــية شـــركة الفواكه المتحدة لمعظم أراضي كوبا أو غواتيمالا فيما مضـــى مـــع فارق مهم هو أن شركة الفواكه المتحدة السيئة السمعة، لم تكن تســتورد عمـــالا لزراعة الأراضي ولم تطرد السكان الموجودين فوقها كما فعلت الصهيونية. يقول أبراهام ديفوسكي في دراسته (القوى الاجتماعية في فلســطين): "مـــع أن المؤتمرات الصهيونية الأولى سيطرت عليها الطبقات المتوسطة اليهودية والمثقفون فقد صادقت على مبدأ تأميم الأرض باعتبارها أهـــم أســـاس للدولـــة اليهودية في المستقبل". **وفي ذلك لم "تتأثر المؤتمرات الصهيونية بالنظريات الاشتراكية بل بالضرورة القومية.. أن هذا الشكل كان ضـــروريا لأن الملكية الفردية في الأرض أصبحت عقبة أمام اتساع الهجرة ولأن اســـتخدام الأيدي العاملة العربية الرخيصة في المزارع اليهودية كان يهـــدد المشـــروع الصـــهيـــوني بأســـره باعتباره مشروعا قوميا انعزاليا متعصبا"**[٧٧].

٥- أنـــه لا **يوجـــد ثـــبات ولـــو نسبي للعاملين** على الأرض وفي الـــــزراعة[٧٨]. لذا نجد أن عدد العاملين في الزراعة عشية إعلان "الدولة" ٣٢ ألفا، ارتفع إلى ٩٦ ألفا في ١٩٥٨، ثم أخذ ينخفض حتى أصبح ٧٧ ألفا في ١٩٦٨. والأهم من ذلك هو أن ٤٨ ألفا من الزيادة في ١٩٥٨ كانوا من المهاجرين الجدد الآسيويين والإفريقيين (سفارديم). كما اقتصرت الكيبوتزات على المهاجرين وأبناء المهاجرين من الأشكنازيم [٧٩].

---

(٧٧) إميل توما، جذور القضية الفلسطينية، ص١٣٩.

(٧٨) عندما تحدث الهجرة من الريف إلى المدينة في المجتمعات العادية، فإن المهاجر يظل مرتبطا بالـــريف، ويحـــن إلـــى قريـــته ويعود إليها، كما يظل أقاربه ينتجون فيها غالبا. ويقدر جوزيف كلاتزمان نسبة ثبات العائلات التي توضع في الريف بـــ٥٠ بالمئة.

(٧٩) راجع تجسيد الوهم، د. قدري حفني.

٦- إن "الـزراعة" - وتوزيـع العامليـن فـيها - تخضع للاعتبارات العسـكرية، وهكـذا يـتم إنشاء المستعمرات الحدودية، بهدف تثبيت التوسع عسـكريا وبشـريا. إنهم يصرحون بأن "هدف خطة الزراعة هو الاحتفاظ بالتوازن في توزيع السكان على المناطق"(٨٠).

٧- إن تجـربة "الكيـبوتز" التـي كثيرا ما تباهى بها دعاة الصهيونية الأوائل قد انكشفت تماما ولم تعُد حلم "الاشتراكيين الديمقراطيين المجسد" كما كـانوا يطلقون عليها. ووضح أنها كانت وما تزال المراكز التي تحاول بها الحركة الصهيونية فرض نموذج صهيوني غربي حتى على اليهود الشرقيين. أمـا مـن ناحية دورها الزراعي فقط ظهر بوضوح كيف أن الكيبوتز يعمل لمصلحة المؤسسات التي تموله، وأصبح ملكا للمؤسسات الرأسمالية التي تمده بالقـروض. ففـي دراسـة مقارنة (تمت في ١٩٥٦ - ١٩٥٧) بين مختلف الكيـبوتزات بالنسـبة لسـنوات التأسيس كانت الديون في الكيبوتزات التي تأسسـت قـبل سـنة ١٩٣٦ تمـثل ٨٩ بالمئة من إنتاج الكيبوتز الزراعي والصـناعي، والتـي تأسست بين سنة ١٩٣٦ و١٩٤٧، ١٩٠ بالمئة، والتي تأسسـت بعد هذا التاريخ كانت الديون فيها ٢٢٢ بالمئة. وفي دراسة أجريت بعد هذا التاريخ بثلاث سنوات كان الوضع لا يزال على حاله (٨١).

ليس للتجمع الإسرائيلي إذن، أرض، بالمعنى العلمي والتاريخي للكلمة، بمعنى "العامل" الأساسي في تشكيل الأمة..

رابعا : هل لهذا التجمع ثقافة مشتركة؟

تجمع لم يتآلف تاريخيا وليست أمامه فرصة للتآلف...

تجمع ليست له لغة واحدة يتفاهم بواسطتها أعضاؤه فيما بينهم ويتناقلون المعرفة ويقيمون العلاقات..

---

(٨٠) ISRAEL ECONOMIC DEVELOPMENT, J.P.C. ISRAEL, P.٢١٣

(٨١) خليل أبو رجيلي، الزراعة اليهودية في فلسطين المحتلة، ص١٨٩.

تجمــع ليست له أرض محددة كوطن، وليست أمامه فرصة لكي ينتمي إلى هذه الأرض...

هذا التجمع لا يمكن أن تكون له بأي حال ثقافة مشتركة.

ففضـــلا عن أن الثقافة هي التعبير عن التشكيل النفسي الموحد لجماعة من الناس، وهو تشكيل مفتقد فيما بين المستوطنين الصهاينة، فإن خطة قيادة هــذا الــتجمع الصهيونية، كانت وما تزال فرض "نموذج" غربي على بقية المســتوطنين[٨٢]. فالصـــهاينة الأول المستوطنون، جاءوا من الغرب، وهم "يهــود غربيون" (أشكنازيم)، وهم الذين أقاموا "الكيبوتزات" التي حاولوا بها فــرض نموذج اجتماعي جديد، و"السابرا" أغلبهم من أبناء الأشكنازيم أيضا. وقــد كــان من الممكن أن يحتوي "الأشكنازيم" المهاجرين الآخرين من آسيا وإفريقية (السفارديم) لو أنهم أغلبية عددية. أما وأنهم غير ذلك (٨/١ اليهود في فلسطين المحتلة جاءوا قبل ٤٨ ومن هؤلاء ٦/٥ جاءوا من الغرب)[٨٣]، فليست هناك أي فرصة تاريخية أمامهم إلا أن يفرضوا بالقوة أساليب حياتهم وثقافــتهم. ولكــنهم هم أيضا غير موحدي الثقافة فقد جاءوا من أكثر من بلد غربــي، وثقافــاتهم بالتالي مختلفة: لغة، ومضمونا. هذا ما خلق ويخلق في الكــيان الصـــهيوني تفاوتا وتضاربا بين الثقافات الأصلية المختلفة لموجات المهاجرين القادمين (في أوقات مختلفة ومن بلاد مختلفة).

ولقــد حاولوا، وما يزالون، إيهام الرأي العام أنه توجد "ثقافة إسرائيلية" وعولــوا على "أن تأكيد الذات العبرية سيصهر كل عناصر إسرائيل المتباينة فــي أمة واحدة وأن يمنح تلك العناصر وحدة روحية وثقافية" على حد قول أســحق دويتشر في كتابه "اليهودي وغير اليهودي"، ولكنه يقر صراحة "أن وراء تأكــيد الــذات يوجد أيضا الحنين اليهودي الطبيعي إلى بلدان وثقافات

(٨٢) فــي كــتابه THE CHALLENGE OF ISRAEL يقول لوفيتش: "إن سيادة الأوروبيين على الكنيست وإدارات محلية كثيرة ليس مثيرا للدهشة"، ص١٨٩.

(٨٣) المصدر نفسه، ص١٨٨.

طفولتهم وشبابهم" (التأكيد من عندنا).. وأن المكتبات تحوي "الكتب العظيمة والجادة للشعراء والمفكرين والرومانسيين الاجتماعيين **لكل الأمم**" (التأكيد من عـندنا). وفـي السـنين الأخيرة، اعترف حتى غلاة الصهاينة بهذه المشكلة (خصوصـا بعـد ازديـاد موجات الهجرة من آسيا وإفريقية). يقول ميشال لوفيـتش في كتابه "التحدي أمام إسرائيل" وهو من نشر الجامعة الإسرائيلية، يقول:

"هـناك مشـكلة لـيس لها حل مرض حتى الآن، وهي مشكلة تدريس الآداب العبرية الحديثة. إن كلاسيكيات هذه الآداب وجدت في مهاجر أوروبا وهي حياة غريبة لشباب السابرا أكثر منها بالنسبة لحياة يهود أوروبا وأمريكا الذين قد يكونون يحملون ذكريات صحيحة من آبائهم وأجدادهم. إن جو هذه الأعمال الأدبية **تضاعف غربته** بالنسبة للأطفال الذين جاء آباؤهم من البلاد الإسـلامية حيـث المظهـر والعادات تختلف اختلافا شديدا"[٨٤] (التأكيد من عـندنا). ويقول أيضا "من السهل تصور التوترات التي لا يمكن تحاشيها في ظل هذا الوضع عندما يكون أكثر من نصف القادمين الجدد غرباء في نواحٍ عديـدة، على السلوك والعادات والأفكار السائدة"[٨٥] (التأكيد من عندنا). وقد ذكر صراحة أنه بشكل عام يمكن القول إن أغلب المهاجرين الغربيين مهرة ومتعلمون بينما معظم الشرقيين لهم موقف مختلف من طريقة الحياة ومطالب المدنية الصناعية الحديثة[٨٦].

فإن أضفنا إلى كل ما سبق حقيقة أن "اللغة" التي يحاولون فرضها الآن، وهي اللغة العبرية، توقف استخدامها (ماتت) منذ أكثر من ٢٠٠٠ عام، فذلك معـناه أنـه لم يكن لهذا التجمع البشري "لغة" يمكن أن تحفظ تراثه المتراكم عـبر هـذه الظـروف، فاللغة وعاء التاريخ، والتاريخ هو نشاط الجماهير المتراكم، لذا فإن غياب اللغة طوال هذه الفترة معناه غياب ثقافة واحدة لهذه الجماعـات. كما أن محاولة فرضها منذ ٣٠ عاما يشبه إلى حد كبير محاولة زرع الـزهور الصـناعية في أرض صخرية ثم ادعاء أن لها رائحة وتنمو وتزدهر.

---

(٨٤) THE CHALLENGE OF ISRAEL, M. LOWISH, P. ٢٣.

(٨٥) المصدر نفسه، ص١٨٩.

(٨٦) المصدر نفسه، ص١٨٨.

خامسا : هل لهذا التجمع اقتصاد مشترك؟

والإجابة هنا أيضا بالنفي.. فالاقتصاد المشترك لجماعة من الناس يوجد كظاهـــرة تاريخية أي كتراكم لعلاقات مشتركة، وإنتاج جماعي مشترك لهذه الجماعـــة عـــبر القـــرون. وهـــذا ما لم يحدث، ولا يمكن أن يحدث للكيان الصهيوني.

لقـــد قـــام اقتصــــاد هذا الكيان على تبرعات، وديون، ورعوس أموال مصـــــدرة، وأراضٍ مغتصبة. وبرغم سيل التبرعات والتعويضات الذي انهال على هذا الكيان فإنّ ديونه قد بلغت ٦ مليارات دولار، ويتحتم عليه أن يسدد ديونـــا هـــذه الســـنة تبلغ ٨,٥ مليار ليرة إسرائيلية[٨٧]. ويقول وزير المالية الإســـرائيلي، رابينوفـــتش، إنه "ليس في مقدور دول إسرائيل أن تتحمل هذا العجـــز، كمـــا أن حكومة الولايات المتحدة والشعب اليهودي في العالم أجمع ليس بمقدورهم تحمل مثل هذا العجز"[٨٨].

ويصبـــرح دافـــيد هوروفيـــتش، محافظ بنك إسرائيل السابق، قائلا "إن إســـرائيل بلـــد فقير وخاصة بالثروات الطبيعية وتنقصها معظم المواد الخام المطلوبـــة **للإنتاج الصناعي الذي هو مصدر معيشتها الأساسي** (التأكيد من عـــندنا). إنهـــا تعتاش من تصنيع المواد المستوردة وبدون استيراد مركبات الإنتاج هذه لا يمكن أن تتوفر فيها العمالة والانتعاش الاقتصادي ولا مستوى معيشة ملائم"[٨٩]. وهو اعتراف صريح بعدم وجود قاعدة اقتصادية ثابتة لهذا الكيان الذي قام على أساس مخالف تماما لمستوى تطور الأرض والاقتصاد الفلســـطيني قـــبل الاغتصـــاب، ومحاولا فرض نموذج "اقتصادي" أوروبي صناعي على الحركة التاريخية لفلسطين.

يقـــول ج. هـــــ. جانس: "إن الصليبيين مع ذلك كانوا آخر من حاول محاولـــة الإسرائيليين وهي نقل مجتمع أوروبي إلى الشواطئ الشرقية للبحر

---

[٨٧] هآرتس، ٤-١١-١٩٧٤.

[٨٨] يجـــب النظر إلى هذا العجز، كخسارة لأقوى الشركات الاستعمارية وليس كما نتناول العجز في نظام مدفوعات أي بلد يملك أساسا اقتصاديا داخليا.

[٨٩] أ. أ. ، ١٢-١١-١٩٧٤.

الأبيض المتوسط. وينبغي ألا نخطئ في فهم حقيقة أن الإسرائيليين يودون أن يــبقوا أوروبييــن. ولذلك نرى أن أهدافهم السياسية والاجتماعية هي أهداف دولة أوروبية"[٩٠].

ومــا يــزال هــذا الموقف لم يتغير. تشير صحيفة "الموند" إلى الكيان الصهيوني قائلة: "إن أحد علماء الاقتصاد يقول إن مستوى معيشة الإسرائيلي هــو مستوى الرجل المتوسط في أوروبا الغربية بينما البلاد هي مجرد بلاد نامية"[٩١]. كما كتبت صحيفة التايمز البريطانية عن الموضوع قائلة: "ويتطلع شــعبها.. إلــى بلوغ المستوى الذي تعيش فيه الدول الصناعية الحديثة وهو يرغــب فــي دفــع الكثير مقابل الحصول على البضائع الاستهلاكية وعلى الســيارات.. وبإمكان هذا النمط من الحياة الاستمرار فيما لو بقيت الأسعار العالمــية ثابتة وفيما لو استطاعت "إسرائيل" الحصول من اليهود الأمريكيين على أموال إضافية، ولكن لشارع وول ستريت مشاكله أيضا"[٩٢].

ويقول ثلاثة من الكتاب "الإسرائيليين"[٩٣] في كتيب عن "الطبيعة الطبقية في المجتمع الإسرائيلي": "إن إسرائيل حالة خاصة في الشرق الأوسط في أن الإمبريالية تمولها دون أن تستغلها اقتصاديا"... في كلمات أخرى أوضح لابد أن نقــول إن "إسرائيل" هي مجرد فرع بنك أو قاعدة عسكرية أو منشأة من المنشــآت التي تقيمها الإمبريالية في مكان ما وتصرف عليها لتحقيق هدف آخر..

وهــم يقتبسون في كتيبهم قول الاقتصادي الأمريكي أوسكار جاس الذي كان إلى وقت قريب مستشار حكومة العدو، إذ يقول:

"إن الشيء الفريد في عملية النمو هذه... هو عامل تدفق رأس المال... فخــلال الفترة من ١٩٤٨ – ١٩٦٨ كان فائض الواردات أكثر من ٧ بليون ونصــف دولار أي بمعــدل ٢٦٥٠ دولار لكل فرد عاش في إسرائيل خلال

---

(٩٠) دافار، ٩-٨-١٩٧٤.

(٩١) ج. هــ. جانسن، الصهيونية وإسرائيل وآسيا،ص١٨.

(٩٢) نشرة الأرض العدد السادس، ٧-١٢-١٩٧٤.

(٩٣) نشــر ISBN ، لــندن، ١٩٧١. والكتاب الثلاثة هم حاييم هانجبين وموشي ماشوفر واكيفا أور، كما سبق أن ذكرنا.

٢١ سـنة... مـن هـذا التمويل الخارجي نجد أن ٣٠ بالمئة فقط مشروط باستعادة أرباح أو فوائد أو رءوس أموال. **إن هذا الظرف لا مثيل له في أي مكان آخر**"(٩٤). (التأكيد من عندنا).

والجميع يقر بأن "الاقتصاد" الإسرائيلي كله بما في ذلك القطاع الخاص يعتمد على المساهمات الخارجية وهذه تتدفق أساسا عبر مسالك تسيطر عليها الدولة(٩٥).

ولقد أوردنا من قبل كيف تملك المؤسسة الصهيونية (حكومة – وكالة – هستدروت) معظم الأرض، وكيف تتغير مجموعات العاملين فوقها بعد طرد أصحابها العرب الأصليين، وكيف أن كل نصيب الزراعة في الدخل القومي لم يتعدّ ٨ بالمئة، أي أنه لا يوجد "أساس" يمكن أن تتطور عليه علاقات إنتاج متبادلة تخلق اقتصادا مشتركا بين هذه المجموعة البشرية من المستوطنين.

لـيس لهم اقتصاد مشترك، ولن يكون، بل أن ما هو قائم الآن ليس إلا فـروعا للاحـتكارات العالمـية، ولـذا يـتأثر بلا شك بالصراع بين هذه الاحتكارات وبعضها البعض. ذلك يفسر لنا ازدياد نفوذ الاستعمار الأمريكي وانفـراده بـتقرير مصـير الكـيان ضمن خططه الدولية، مع ازدياد نفوذ الاحـتكارات الأمريكية، ومحاولتها الانفراد بالتحكم في الاقتصاد الرأسمالي دوليا.

مـن كـل ما سبق يتبين أن المجتمع الإسرائيلي الحالي ليس إلا ظاهرة عابـرة فـي تاريخ المنطقة. بل أنه لن يعيش قدر ما عاش الغزو الصليبي، فالعصر غير العصر، وعجلة التطور تمضي بسرعة أكبر فأكبر، ولا مجال إطلاقـا لأن يتمايز سكانه أو يأتلفون لا فـي أمة، ولا في أقلية قومية، ولا فـي جماعة بشرية ذات طـابع خاص أو حضارة مستقلة، وليس أمامهم **إلا التمـثل**، وهـو الحل نفسه الذي يطرحه التطور التاريخي للمشكلة اليهودية، سـواء فـي أوروبـا الصـناعية أو آسيا أو إفريقية أو لأمريكا اللاتينية الزراعية، وبالطبع في فلسطين العربية الديمقراطية.

---

(٩٤) المصدر نفسه، ص٥.

(٩٥) المصدر نفسه، ص٢.

الفصل الرابع

الصراع داخل التجمع الإسرائيلي

منذ سنوات قليلة أمكن طرح تقدير "جديد"[1] لطبيعة الصراع الذي يحكم الكيان الصهيوني من داخله، أي طبيعة التناقض الداخلي فيه، وذلك باعتباره صراعا "عرقيا" لا "صراعا طبقيا"، وأن هذا التجمع البشري ليس مقسما إلى طبقات (بالمعنى العلمي للكلمة) وإنما هو مقسم وسينقسم إلى مجموعات بشرية تتمايز في البداية على أساس التقسيم "العرقي" (أشكنازيم وسفارديم) لتتطور من خلال هذا الصدام إلى مجموعتين واضحتين "أوروبية" و"شرقية"[2]، تنضم الأخيرة منها إلى المعسكر العربي انتماء وتعرضا للقهر، ومن ثم نضالا وثورة.

لم يكن سهلا لهذه الفكرة أن تنتشر، خصوصا وأن أقساما كبيرة من القوى "المعادية للصهيونية" و"اليسارية" **التي هي بلا شك حليفة في النضال**

---

(1) في معسكر دولي للعمل أقيم في صيف ١٩٧٠، في معسكرات حركة "فتح" في الأردن، قدم الكاتب هذه الفكرة لعدد من ممثلي الجمعيات والقوى اليسارية الأوروبية والأمريكية. واستمر نقاشها ثلاث جلسات متوالية. وفي كانون أول (ديسمبر) ١٩٧٢ نشرت مجلة "صوت عمال الأردن" مقالا للكاتب بعنوان "رد على مقال الصراع الطبقي في إسرائيل" حدد الأفكار العامة لهذا الطرح، ومنذ ذلك التاريخ تناول الكاتب هذه الفكرة في عدة مقالات أخرى.

(2) تشير السيدة هيلدا صايغ في كتابها "التمييز ضد اليهود الشرقيين في إسرائيل" أنها تفضل استخدام تعبير غربيين وشرقيين بدلا من أشكنازيم وسفارديم وذلك لأن التعبير الأخير فقد مدلوله العرقي منذ زمن بانقسام اليهود أنفسهم إلى سكان أوربيين وأمريكيين، وسكان البلاد الإسلامية.

ضد الاستعمار الصهيوني، كانت، وما تزال تبني تحليلاتها على أساس فكرة الصراع الطبقي في "إسرائيل وترفض بشدة أي إنكار له[٣].

ولكــن تطور النضال المسلح الثوري الفلسطيني، مكن ويمكّن اليوم من الــرؤية الواضحة والعلمية لظاهرة "الكيان الصهيوني" كما أن أحد ثمار هذا النضــال العظــيم هــو اهــتزاز كثير من المقولات القديمة التي كانت تقدم "كمســلمات" و"بديهــيات" لا يمكن مناقشاتها. ومن بين هذه "المسلمات" التي استمرت طويلا دون مناقشة، **كانت فكرة الصراع الطبقي المزعوم في داخل هذا التجمع الاستيطاني.**

وبســنحاول في هذا المجال أن نناقش حجج الذين يقيمون تحليلاتهم ومن ثــم مواقفهــم علــى أساس فكرة "الصراع الطبقي الإسرائيلي" هذه منبهين ومؤكدين على حقائق ثلاث:

أ – أن هذا الحوار هو حوار بين "**معادين للصهيونية**"، أي بين حلفاء، ولابد أن يكون بهدف توثيق هذا التحالف وليس الإضرار به.

ب – إنــه بــدون "**ممارسة مشتركة**" مهما كانت درجتها لا يمكن لهذا الحوار أن يتقدم نحو فهم موحد للظاهرة الحالية وللخطوات العملية التي يجب أن نخطط لها سويا.

ج – أن **استمرار النضال المسلح** ضد العدو الصهيوني الاستيطاني، هو وحده الكفيل بإثبات صحة أو عدم صحة الأفكار التي تتداول بيننا، فهو وحده الــذي يــزيل كل "قناع مؤقت" يمكن أن ترتديه الصهيونية، وأن يكشف كل الأفكــار الوسطية التي قد تنسحب لها هذه القوى الصهيونية الماهرة والذكية والمدربة[٤].

---

[٣] بالطبع، فإن القوى غير الملتزمة بالماركسية لم تناقش المسألة أبدا، ولذا فإن كثيرا من الكتابات السياسية تتعرض المسألة "الصراع الطبقي" عند تناولها قضية فلسطين، وما نناقشه هنا هو الطرح "الماركسي" لهذه القضية.

[٤] إن تــاريخ الحــركة الصــهيونية ملــيء بالمحاولات التي نجحت في ارتداء ثياب الماركسية واستخدامها لتبرير أهدافها الرجعية الاستعمارية.

إنـــنا، ونحـــن نؤكد هذه الحقائق، نذكر أن من بين الذين يتبنون "نظرية الصـــراع الطبقي في إسرائيل" مناضلين إيجابيين ضد هذا الكيان المصطنع: ليس فقط بالكلمة، وإنما أيضا بالفعل، بل وبالسلاح، وليس فقط من بين الذين يحملـــون العقديـــة اليهودية، وإنما من غيرهم من بين العرب وغير العرب أيضا(٥).

لماذا إذن نلح على الحوار حول هذه المسألة ؟

ليس من قبيل المحاجة اللفظية على أي حال.. وإنما في سبيل مزيد من توحيد الفكر وبالتالي توحيد الممارسة.

فقد أظهرت السنوات الأخيرة، مع تقدم النضال المسلح وتنوعه، أنه في بعـــض الأحـــيان تتخذ بعض القوى الصديقة مواقف مختلفة عما تتخذه قوى الـــثورة الفلسطينية. وإننا في محاولة اكتشاف سبب ذلك، نجد أمامنا "نظرية الصـــراع الطبقـــي فـــي إسرائيل". فبالرغم من الاتفاق العام على أن قضية فلسطين ليست مجرد قضية تحرر وطني عادية (أي مواجهة جيش احتلال،أو تدخـــل استعماري، أو نفوذ اقتصادي أجنبي) وإنما هي قضية متعددة الأبعاد بســـبب طبيعة الاستعمار الصهيوني "**الاستيطانية**"، بالرغم من الاتفاق على ذلـــك، فـــإن حقيقـــته "الاستيطانية" هذه تطمسها على الفور "نظرية الصراع الطبقي في إسرائيل".

إن الإقـــرار بطبيعة العدو الاستيطانية تتناقض حتما مع فكرة تقسيم هذه القـــوات الاســـتيطانية إلى مستغِل ومستغَل، وما يترتب على هذه الفكرة من خطة للتحالفات، وبالتالي خطة للقتال.

---

(٥) كثـــيرون مـــن مختلف المواقع يرددون هذه الفكرة: نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، الأخ الأستاذ أديب ديمتري في كتابه الماركسية والدولة الصهيونية، والأخ الأستاذ حبيب قهوجي مدير مؤسسة الأرض في نشرته "الأرض" والرفاق رامي ليفنه وآخرين من الجبهة الحمراء بالإضافة إلى رفاق الجبهة الشعبية الديمقراطية، فضلاً عن كافة الأحزاب الشـــيوعية العربـــية وغـــير العربية. ومن البديهي أنهم جميعا معنا في جبهة واحدة ضد الصهيونية.

لقــد أدت هــذه الأفكار مؤخرا إلى أن يتبنى بعض هؤلاء الرفاق "**فكرة حق تقرير المصير ليهود إسرائيل**"، ومطالبة الثورة الفلسطينية بها، متناسين حقيقة مهمة هي أن الشعب العربي الفلسطيني لم يحرر الأرض بعد ولم يحقق سيادته عليها: وأن العكس هو الصحيح، وأن مجرد المطالبة بمثل ما يطالبون بــه، يعني التسليم لهؤلاء المستوطنين بما يفعلونه كأنه دفاع عن "حقهم" في الوجود السياسي على أرض (هي ليست أرضهم).

فــي مقــابل هذا "الشعار" (الخاطئ) طرحت الثورة الفلسطينية وتطرح شعارا آخر هو القبول بوجود كل من يعيش الآن على أرض فلسطين بشرط تخليه عن مطامعه الاستيطانية الاستعمارية، أي بشرط "التنازل" عن امتيازاته العنصرية والقبول بالمساواة مع بقية السكان العرب في الحقوق والواجبات.

إن المســتغِل فــي حالتــنا هذه هو كل **مستوطن**، أما **المتسغَل** فهو كل عربــي فلسطيني طرد من أرضه وحرم من حقوقه. وما يزال الباقون منهم تحــت حكم الصهاينة يعاملون، وبمقتضى "القوانين"، معاملة **مواطني الدرجة الثانية**، علنا، ودون خجل..

وليس من المعقول أن يطالب المستغلون بأن يسلموا بحق تقرير المصير للذيــن يســتغلونهم ويحكمونهــم بأبشع أشكال الحكم العنصري التي عرفها التاريخ.

* *
*

هل ينقسم التجمع الصهيوني إلى طبقات ؟

في فصول سابقة تناولنا جانب التاريخية والخصوصية فيما يخص الحكم على الظواهر وتقدير مكانها في الحركة التاريخية.

ونبدو مضطرين، حتى يمكن الوصول إلى "لغة واحدة" في الحوار، إلى تكرار ما قد يظنه بعض الرفاق أوليات، إلا أنها أساسيات أيضا...

يقــول لينيــن معرفا الطبقات: "إن الطبقات هي تسمية لفئات كبيرة من الــناس تختلف بالمكان الذي تحتله **تاريخيا** في نظام معين **للإنتاج الاجتماعي** وبعلاقــتها (التــي تــتعزز في أغلب الأحيان وتتشكل في القوانين) بوسائل الإنــتاج، وبدورهــا في التنظيم الاجتماعي للعمل، وبالتالي لطرق الحصول على حصصها من الثروة الاجتماعية وبمقدار هذه الحصص. والطبقات هي فــئات مــن الناس يستولى بعضها على عمل البعض الآخر وذلك لاختلاف المكان الذي تحتله في قطاع معين من **الاقتصاد الاجتماعي**"[٦].

ولــنلاحظ تشديد لينين على "**التاريخية**"، وعلى العلاقة بوسائل الإنتاج، وعلى اختلاف مكان البعض عن البعض الآخر في **الاقتصاد الاجتماعي**..

ولقد حدد ماركس في البيان الشيوعي: "أن الطبقة الاجتماعية لا تتشكل بصــورة نهائية إلا بظهور التضامن الطبقي، بالإضافة إلى وحدة الدور في الإنــتاج، والمصــالح الاقتصــادية المشتركة ويفترض هذا التضامن الطبقي وجود الوعي الطبقي الذي لا يمكن بالتالي إيجاده إلا عن طريق الأيديولوجية الطبقية"[٧].

ماركس يشترط ظهور التضامن الطبقي، والوعي الطبقي، ووحدة الدور فــي الإنــتاج.. لذلك فإن صفة "البروليتاريا" لا تنطبق على أي جماعة من "العمــال"، ولا أي مجموعــة مــن الكادحين[٨] بل أن البروليتاريا محددة – بالمفهوم العلمي – بأنها: "طبقة العمال الصناعيين الذين يعملون على وسائل إنــتاج حديــثة، وتتمتع بعنصر الثبات والوحدة الطبقية في تكوينها، والوعي

---

[٦] لينين، أعمال مختارة، المجلد الثالث، ص٢٤٨.

[٧] دراسات في الطبقات الاجتماعية، جورج جورتش، ترجمة أحمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٢٤.

[٨] كما يخطئ البعض أحيانا في تطبيقها.

برسالتها التاريخية ضد مستغليها، نتيجة استشراء السيطرة الرأسمالية الاحتكارية، وظهور وحدات إنتاج صناعية كبيرة".

وبالمقياس العلمي نفسه، يكون تحديد الطبقات الأخرى في المجتمع، ويكون أيضا الكشف عن طبيعة العلاقة فيما بينها، وفيما بينها ككل وبين وسائل الإنتاج وطريقة توزيع الثروة أيضا.

هل تنطبق هذه المقاييس "العلمية" على التجمع الصهيوني؟

قطعا الإجابة بالنفي..

ونحن نعلم أن ما أوردناه من مقاييس علمية ماركسية معروفة جيدا لكل الرفاق الذين تصدوا لهذا الجانب من القضية، ولكنهم مع ذلك، يصرون على تطبيق السياسة، بعد أن يكونوا قد جمدوها خلال عملية التحليل، وذلك بالقول بأن التجمع الصهيوني، إنما هو حالة خاصة لا تنطبق عليها هذه القوانين "الأكاديمية" أو "أن الطبقات في هذا المجتمع – ناهيك عن الوعي الطبقي – لا تزال في طور التشكيل"[٩]، وأن تحليل هذا التجمع يجب أن يقوم على "أساس صفات خاصة أو تاريخ خاص بالمجتمع الصهيوني"[١٠]. والأخ الأستاذ أديب ديمتري، يوافقنا تماما على رأينا في صفحات كتابه ١٢٨ –١٢٩ "الماركسية والدولة الصهيونية"[١١]، ولكنه يعود ليقول في ص ١٣١ "ومع ذلك فليس في هذا إنكار للوجه الآخر لهذه الطبقات فهي طبقات مستغلة داخل المجتمع الصهيوني نفسه"[١٢] (!!)

ولا شك أن قيام واستمرار الكيان الصهيوني، من شأنه طمس التناقضات الطبقية وطمس الدور الطبقي المتمايز، بصفته الوجه الرئيسي للعدو

---

(٩) "إسرائيل الأخرى" ص٨٧–٨٨. THE OTHER ISRAEL, ARIE BOBER V.J, ١٩٧٢

(١٠) المصدر نفسه.

(١١) دار الطليعة، بيروت.

(١٢) الأستاذ أديب ديمتري يختلف مع بقية الآراء التي تعتمد "التقسيم الطبقي في إسرائيل"، في أنه يشترط بوضوح "أن تحرير هذه الطبقات والفئات.. يرتبط في الأساس بتصفية وجودها الاستيطاني ووضعيتها في إطاره".

الرئيســـي، ولكـــن بيـــن من؟.. هنا الخطأ الذي يقع فيه الرفاق.. أنهم حين يــتحدثون عن هذا التجمع البشري، يغفلون كلية وجود حوالي نصف مليون عربي بينهم، هم أصلا أصحاب الأرض، كما يغفلون وجود حوالي المليونين مـــن العرب الفلسطينيين المطرودين منها.. **هؤلاء هم الذين تأثرت العلاقات فيما بينهم. (بما في ذلك العلاقات بوسائل الإنتاج وطرق توزيع الثروة، أي أشــكال الصــراع الطبقــي) بقيام الكيان الصهيوني.** أما "الآخرون" أما كل "المســـتوطنين" فإنهم لم **يكونوا** ذات يوم **طبقة**، ولا كانوا في مرحلة تاريخية ســابقة مجــتمعا طبقــيا، وإنما هم جميعا **منقولون** من "الخارج" لم تتطور العلاقـــات فـــيما بينهم تاريخيا وإنما حملوا معهم كل "تمايزاتهم" السابقة من مجتمعاتهم الأصلية.

هـــل يـــنكر أحد أن علاقة كل **المستوطنين** بأرض فلسطين هي **علاقة واحـــدة** ألا وهـــي **"الاغتصاب"**، بغض النظر عن كمية وقدر ما يغتصبه كل منهم، فردا أو جماعة؟

إن مجرد الإقرار بأنهم ذوو علاقة واحدة بالأرض ينفي وجود الطبقات فيما بينهم، وإن لم ينفِ أنهم أيضا يختلفون على اقتسام الغنائم.

يقـــول كل علماء المادية التاريخية: "**إنه ليس ثمة طبقات في المجتمع الذي يكون الناس فيه ذوي علاقة واحدة بوسائل الإنتاج**"[١٣].

هـــناك علاقـــتان متناقضـــتان علـــى أرض فلســـطين.. علاقة العرب الفلســـطينيين بالأرض من جانب وعلاقة المستوطنين الصهاينة بهذه الأرض مـــن جانب آخر، وكل محاولة لإغفال هذه الحقيقة والحديث **عن جانب واحد منها فقط**، هو جانب التجمع الصهيوني، من شأنه بلا شك، وحتى دون قصد، إخفاء حقيقة الاغتصاب الصهيوني.

---

(١٣) المادية التاريخية، ف. كيللـــي – م. كوفالزون، وأيضا أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية لسبيركن وديماخوت.

مـــن هـــنا خطأ القول بأن "صفتهم (أي العمال في التجمع الصهيوني) الرجعـــية الحالـــية هـــي مجرد نتاج حكم الصهيونية السياسية"[١٤]. ذلك أن صـــفتهم الرجعية هي بسبب **موقفهم الاستيطاني**، وبالتالي فإنها تسقط عنهم عـــندما يـــتخذون موقفا إيجابيا ضد الاستيطان، أي موقفا إيجابيا في جانب الثورة الفلسطينية.

وحـــتى عـــند الحديـــث عن جانب واحد من الأسلاك الشائكة، أي عن التجمع الصهيوني، فإننا لا نجد تمايزا طبقيا بالمعنى العلمي، كما أنه لا يوجد احتمال لأن تتشكل طبقات في هذا التجمع.

وســـنحاول أن نعدد الأسباب في إيجاز ودون تكرار لما سبق ذكره في فصول سابقة :

١- لـــيس هذا التجمع البشري ظاهرة إيجابية تاريخية (راجع الفصول السابقة).

٢- لا توجـــد ضـــمن هذا التجمع أي مجموعة بشرية يمكن القول إنها تتمـــتع "بثبات" نسبي **فالهجرة والهجرة** المضادة عملية مستمرة منذ قيام هذا الكـــيان. ولا يتصور المرء "طبقة" تكون اليوم ذات تقاليد وعادات "روسية" (كما كان الحال قبل ١٩٤٨)، ثم تصبح ذات تقاليد وعادات مغربية (كما هو الحـــال بعد ١٩٥٨). كما لا يمكن تصور طبقة عاملة يتغير تعدادها بوصول بواخر وطائرات تحمل "عمالا جدد". لقد قام الأمريكيون بنقل أسلحة وذخائر للكـــيان الصـــهيوني خلال حرب أكتوبر – تشرين ١٩٧٣ عبر جسر جوي. وقـــدر الخبراء أن هذا الجسر نقل ملايين الأطنان خلال ثلاثة أسابيع، وذلك معـــناه أنـــه في الإمكان (تكنيكيا على الأقل) نقل جيش يساوي في العدد كل سكان التجمع الصهيوني خلال ثلاثة أسابيع ومعهم كل ما يملكونه ويحتاجونه مـــن منقولات. والسؤال الآن، لو افترضنا أن ما نقل خلال حرب ١٩٧٣ لم

---

[١٤] الطبيعة الطبقية في المجتمع الإسرائيلي، ص٥.

يكـن سلاحا، وإنما كان بالفعل جيشا غازيا، هل يمكن تقسيم هذا الجيش إلى طـبقات؟ واضعين في الاعتبار أنه حتى في حالة الجيش الصهيوني المسمى "بإسرائيل" فإن فرقه جاءت من بلاد مختلفة، أي من مصادر طبقية وطبقات اجتماعـية مخـتلفة بينما الجسر الجوي نقل سلاحا أمريكيا موحدا ولو نقل أسلحة من بلاد مختلفة لتعذر استخدامه قطعا.

٣- لا توجـد أي فرصة يمكن أن تتشكل فيها طبقات داخل هذا التجمع ويكفـي أن نذكـر أن عملية الهجرة من جانب، والهجرة المضادة من جانب آخـر يغـيران على الدوام من تشكيل هذا التجمع. إن الهجرة في المدة من ١٩٦١ - ١٩٦٤ سـاهمت فـي زيـادة ٦٠ بالمـئة من عدد سكان الكيان الصهيوني. وهي زيادة اتصفت كما سبق ان ذكرنا بأنها كانت "شرقية" بحيث رجحـت، من الناحية العددية على الأقل، جانب اليهود الشرقيين على اليهود الغربيين.. وما تزال العملية مستمرة.

٤- لا تفتقر هذه الطبقة العاملة "المزعومة" إلى ثبات في التكوين النفسي فحسـب وإنما هي تفتقر حتى إلى الثبات في علاقاتها بأدوات الإنتاج. كتب معلق جريدة جيروساليم بوست الاقتصادي يقول(١٥):

"في الظروف السائدة حاليا التي تتميز بنضوب احتياطات الدولار، فإن علاج الهبوط الاقتصادي يتطلب تخفيضا كبيرا في مستوياتنا المعيشية، بغض الـنظر عـن الالـتزامات السابقة، **وتحويلا جماعيا للناس من واقع البناء والمكاتـب والخدمـات إلـى المزارع والصناعات التصديرية**". (التأكيد من عندنا).

لقـد كـان ادعاء الحركة الصهيونية منذ بداية القرن العشرين أنها تقوم بـتحويل الـيهود مـن "المكاتـب والخدمات" إلى الحقل والمصنع. وأدعت الصـهيونية أنها قد أنجزت هذه المهمة منذ زمن بعيد، فإذا بنا بعد أكثر من نصف قرن، على صدور وعد بلفور، وأكثر من ربع قرن على قيام الدولة، نرى أن "اليهود" ما يزالون في المكاتب والخدمات.

---

(١٥) جيروساليم بوست، ١٨-١١-١٩٧٤.

ولـــيس معلـــق جيروسالم بوست الاقتصادي وحده هو الذي اكتشف أن "الـــيهود" مـــا يـــزالون فـــي المكاتب والخدمات. فمعلق جريدة هآرتس[١٦] الاقتصــــادي اكتشــــف، قبل اتخاذ الإجراءات الأخيرة بما يقارب شهرين، أن اليهود، بالإضافة إلى أنهم موجودون في المكاتب فقط، لا يقومون بأي عمل ذي معـــنى. وتشـــمل هذه البطالة غير المنظورة والعالية التكاليف مئة ألف شـــخص علـــى أقل تقدير – موظفين وعمالا، رجالا ونساء، جلهم في ربيع حـــياتهم، لـــو وضـــعوا في فورع ومهن أخرى لاستطاعوا أن ينتجوا سنويا بضـــائع وخدمـــات للتصدير بمليار دولار تقريبا. ولقد أصبحت البطالة غير المنظورة متفشية في كل مؤسسة ومصنع ودائرة حكومية.

٥- لا يمكـــن القـــول بوجود طبقة "برجوازية" في التجمع الصهيوني، فالحقائق تقول إن كل ما هو موجود في هذا الكيان مستورد من الخارج سواء كان أموالا سائلة أو مؤسسات إنتاجية أقيمت بهذه الأموال. إن نسبة ما يقدمه الادخـــار المحلي (وهو منظم بقوانين الضمان الاجتماعي ومسيطر عليه من البـــنوك الأجنبية) لا يكاد يذكر. يقول دافيد هوروفيتش محافظ بنك "إسرائيل" الســـابق: "إن إســـرائيل بلد فقير وخاصة بالثروات الطبيعية وتنقصها معظم المـــواد الخام المطلوبة للإنتاج الصناعي الذي هو مصدر معيشتها الأساسي. إنها تعتاش من تصنيع المواد المستوردة، وبدون استيراد مركبات الإنتاج هذه لا يمكـــن أن تـــتوفر فيها العمالة والانتعاش الاقتصادي ولا مستوى معيشة ملائـــم"[١٧]. ولنضف إلى ذلك أن نسبة رءوس الأموال والمنقولات الخاصة بالمهاجريـــن القادميـــن من الخارج لم تزِد عن ٠,٠٢ بالمئة[١٨] من مجموع رءوس الأموال التي تدفقت وتتدفق على الكيان الصهيوني على شكل قروض ومعونات.

بـــل أن أحـــداث العـــام الماضي كشفت عن لعبة خطيرة يقوم بها قادة الصـــهاينة – ولا شـــك أنهم يقومون بها منذ زمن – تلك هي نهب الأموال

---

[١٦] هآرتس، ١٦-٩-١٩٧٤.

[١٧] دافار ٩-٨-١٩٧٤.

[١٨] الماركسية والدولة الصهيونية، أديب ديمتري، عن كتاب "دولة إسرائيل" ص١٨٤.

ونقلهــا إلى الخارج، وفي بعض الأحيان عدم إيصالها أصلا إلى الداخل بعد جمعهــا مــن المتبرعين اليهود. فقد حدثت خلال الأشهر الماضية فضيحتان ماليــتان كبــيرتان أديــتا إلى حدوث ردود فعل عنيفة لدى الأوساط المالية الــيهودية فــي الخارج والداخل على السواء، وهما فضيحتا بنك إسرائيل – بريطانــيا والشركة الإسرائيلية. فقد أفلست هاتان المؤسستان نتيجة لتهريب العملــة مــن إســرائيل إلى الخارج لأغراض المضاربة. وقد كان لفضيحة الشــركة الإسرائيلية صدى أكبر من فضيحة بنك إسرائيل لأنها أنشئت عام ١٩٦٨ وســط جــو احتفالي لغرض جلب الاستثمارات من المتمولين اليهود وغير اليهود في الخارج إلى إسرائيل للقيام بمشروعات ضخمة[١٩].

٦– حــتى لــو اقتصر نقشانا – من الناحية المجردة والنظرية – على الجانــب الآخر من الأسلاك الشائكة، أي على جانب التجمع الصهيوني فقط، فــإن الانقســام العرقــي بين سكان هذا الكيان، أي انقسامهم إلى أشكنازيم وسفارديم، **الذي هو في حقيقته امتداد للانقسام الحضري بين شعوب البلاد الصــناعية الغنــية وشــعوب البلاد الزراعية الفقيرة، هذا الانقسام يصبغ الصــراع القــائم داخل الكيان بصبغة عنصرية**، حيث يستأثر الذين هم من أصــل غربي بكل الامتيازات، ويعاني الشرقيون من الفقر والقمع والتمييز، وهــو علــى أي حــال امتداد للتناقض القائم الآن في العالم كله، ولس وليدا لحركة الصراع داخل التجمع الصهيوني. تماما كما أن "الاقتصاد" الصهيوني هــو امتداد للاقتصاد الاستعماري، وليس نتاجا للنشاط البشري الخاص على أرض فلسطين.

٧– إن الحديــث عن الأغنياء والفقراء في التجمع الصهيوني[٢٠] وعن الصراع بينهم ليس دليلا على وجود "صراع طبقي"، فهو صراع على اقتسام معونــات وأمــوال مســتقدمة من الخارج وليس على اقتسام ثروات البلاد. وينطبق هذا حتى على القسم الضئيل الخاص بالثروات المحلية، فهو مصدره الأرض المسروقة من أصحابها العرب الفلسطينيين.

---

[١٩] نشرة الأرض عدد ٧-١٢-١٩٧٤.

[٢٠] إسحق دويتشر – "اليهودي غير اليهودي"، ص٩٥.

٨- إن الصـــراع الطبقـــي فـــي المجتمعات التاريخية ينتهي، ولابد أن ينتهي، إلى أن تحل طبقة محل أخرى. وهو في المجتمعات الرأسمالية يؤدي إلـــى قـــيام ديكـــتاتورية البروليـــتاريا. ولا شـــك أن الصراع داخل التجمع الصـــهيوني لا يمكـــن أن يؤدي إلى هذه النتيجة بأي حال (كما يردد بعض الـــرفاق أفكـــارا عن دولة إسرائيلية!!)[٢١]. وإنما يؤدي الصراع داخل هذا الـــتجمع ويجب أن يساهم في تقويض الكيان كله، وبالتالي يصحح العلاقات القائمـــة سواء في الإنتاج أو بين القوى المنتجة نفسها إذ ستنضم أقسام كبيرة مـــن الفقراء إلى الجماهير العربية، وعندئذ تكتسب وضعية صحيحة تؤهلها للنضال الصحيح من أجل التقدم.

٩- مـــن هـــنا أيضـــا الفرق بين دولة فاشية كألمانيا النازية، والدولة الصهيونية. ففي الأولى ناضلت البروليتاريا الألمانية لإسقاط حكم "الرأسمال المالي المسلح" وإحلال حكم الجبهة المتحدة أي من أجل ألمانيا الديمقراطية، أمـــا في الثانية فإن الجماهير العربية، وكل القوى الثورية والمقهورة "قوميا وعنصـــريا"، تناضل من أجل إسقاط "كيان استعماري" هو الكيان الصهيوني كلـــه، وتحريـــر الأرض والجماهـــير مـــن ســـيطرته العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية، أي من أجل فلسطين ديمقراطية..

إن الخطـــأ الأساســـي للـــرفاق الذيـــن يحاولون تفسير ظواهر التجمع الصـــهيوني علـــى أســـاس فكرة الصراع الطبقي، ينبع من نسيانهم للحقيقة التاريخـــية الأشمل والأسبق، حقيقة أنه كيان استيطاني قائم على طرد وقهر شعب عربي يناضل من أجل استعادة أرضه، وأنه ليس من العلمي بأي حال عـــزل ظاهـــرة هذا الكيان ومعالجتها وحدها، كأنها ظاهرة بشرية اجتماعية تاريخية.

* *
*

[٢١] بيانات مجموعة الاتحاد القومي الثوري ومجموعة الماتسبن.

وإن أفضـــل مــــا نختم به هذا الفصل هو ما ورد في كتاب "العرب في فلســطين"، والمنشـــور بالعبرية للكاتب جوزيف واشتنر، وقد نقل عنه كتاب "الطبيعة الطبقية في المجتمع الإسرائيلي"... سؤال سأله سائل، عامل عربي، ذات يــوم في احتفالات أعياد أول أيار – مايو منذ أكثر من ثلاثين عاما إذ قال: "هل يتفق التضامن البروليتاري مع الدعوة لإخضاع العرب وإقامة دولة يهودية؟ ولم يستطع أي صهيوني أن يجيب وقتئذ، وهم لا يستطيعون الإجابة الآن بأكثر مما استطاعوا أمس"[٢٢].

ومـــا يـــزال العامل العربي يسأل.. ولكنه اليوم يعرف الإجابة، إذ حمل السلاح من أجل تحرير أرضه، ومن ثم تحرير عمله وطبقته.

---

[٢٢] الطبيعة الطبقية في المجتمع الإسرائيلي، ص١٦.

الملاحق

ملحق رقم (١)

ردّ على مقال الصراع الطبقي في إسرائيل[١]

نشرت مجلة "**صوت عمال الأردن**" في السابع من تشرين الثاني ١٩٧٢، ترجمة لمقال نشرته صحيفة "رودي براسو" الناطقة بلسان الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي بعنوان "الصراع الطبقي في إسرائيل". ولا شك أن صحيفة "رودي براسو" قصدت بنشرها هذا المقال توعية وتعبئة الشعب التشيكوسلوفاكي ضد "السياسة العسكرية وسياسة الحرب واحتلال أراضي الآخرين التي تتبعها إسرائيل" وذلك كما ورد في الفقرة الأخيرة من المقال.

ولا شك أيضا أن ترجمة المقال ونشره في مجلتكم، هو جزء من مهمة هذه المجلة العمالية في إقامة جسر نضالي بين الشعوب، وبين القوى الثورية والتقدمية، تأكيدا لموقف كاتب المقال وناشره ودعوة لغيرة لمثل هذا المقال في غير هذا البلد..

ولكن المقال بما طرح، يجدد جدالا مهما يدور في صفوف القوى التقدمية واليسارية في العالم ليس بما ذكر من ظواهر الفقر الذي يشكو منه

---

(١) نشرت مجلة "صوت عمال الأردن" في عددها السابق مقالا بعنوان "الصراع الطبقي في إسرائيل" للكاتب التشيكي ميلان مادر، وكان قد ترجمه وأرسل به للمجلة الدكتور عزة عجمان.

وقد بعث إلينا الدكتور محجوب عمر برد على المقال المذكور، نقوم بنشره إيمانا بدور هذه المجلة كمنبر ملتزم لكافة الآراء السياسية والجادة، والتي تساهم في بلورة كافة المسائل المتعلقة بالخصم والصديق على حد سواء، مع ترحيب المجلة واستعدادها لنشر ردود المفكرين العرب على هذا المقال ومناقشته.

نصف سكان المجتمع الصهيوني على الأقل، ولا بما ذكر من أشكال النضال التـــي يمارســـها الفقراء ضد الأغنياء في إسرائيل ولكن بنسبة كل ذلك إلى ظاهرة الصراع الطبقي.

هنا يثور الخلاف، فالاتفاق تام على حقيقة وواقع الظواهر المذكورة في المقال، من ارتفاع للأسعار وانخفاض لمستوى المعيشة، وتردٍ لظروف العمل واشتداد وتوسع الاضرابات التي يقوم بها المستخدمون وغيرهم.

هـــذه حقائق نشكر الكاتب على جمعها ونشرها. فهي تفضح على الأقل الأكاذيب الصهيونية عن واحة التقدم والرخاء في الشرق الأوسط وتخيف أو تبعـــث التردد في نفس اليهودي التشيكي الذي يفكر في اللحاق بمن سبقه إلى فلسطين المحتلة..

ولكـــن نســـبة هذه الظواهر إلى ظاهرة الصراع الطبقي من شأنها على المدى الطويل وفي نهاية التفكير أن تجعلنا نقع في حبائل الخدعة الصهيونية الفكرية الجديدة المطروحة على كل قوى التقدم واليسار العالمي...

ولنبدأ في إيجاز وترتيب..

حـــدث أن انفضحت الأفكار الصهيونية عن "القومية اليهودية" برغم ما حققته من نجاح في إنشاء منظمات "يسارية" يهودية ساهمت وتساهم في بناء وإدارة "دولة إسرائيل"..

لم تفضح بالممارسة السياسة فقط – التبعية المطلقة للاستعمار العالمي – ولكـــن أيضا باشتداد عود اليسار العربي، وانفتاحه مسلحا وعالميا على قوى اليسار العالمي مستعينا في جداله بكلاسيكيات أدبية ماركسية ولينينية تدحض فكـــرة الصهيونية عن القومية اليهودية. وانهارت فكرة "القومية اليهودية" في أذهـــان اليســـار العالمي وإن ظلت هي التي تحرك العمل في صفوف اليمين الـــيهودي، وكالعـــادة، غـــير الصهاينة التكتيك: "لا توجد قومية يهودية"... "القومية اليهودية فكرة رجعية"، "القومية اليهودية فكرة عنصرية"، "نحن ضد الصهيونية"، "لا يمكن أن تتطور أمة يهودية تاريخيا"... إلى آخر كل أشكال

الكلام والأفكار التي انصبت على ساحة الفكر العالمي خصوصا بعد ١٩٦٧. وبعد كل هذه الإدانات تأتي... ولكن..

ولكن ماذا؟.. ولكن هناك "أمة إسرائيلية في طريق التكوين"، وهي بهذا الشكل لابد أن تتعايش مع الأمة العربية. عندئذ يقول السامعون، وما أدلتكم على هذه الأمة الجديدة أو المقترحة إن شئت الدقة؟ تكون الإجابة متنوعة، من اللغة إلى الدين، إلى التكوين النفسي المشترك إلى الأرض الجديدة، ثم يسقط عن عمد عاملان مهمان – التاريخية والاقتصاد – ولسنا في مجال مناقشة عامل الحركة التاريخية في تكوين الأمم الآن، بل ينصب جدالنا على الاقتصاد.

مروجو النظرية الجديدة.. يعرفون أكثر من غيرهم أن الاقتصاد داخل التجمع الصهيوني لم يتشكل تاريخيا، أي أن مصادر تكوين الثروات لم يكن إلا التراكم الأول، ولا هو حتى الآن التراكم الثانوي – عذرا للقارئ على هذا الإيجاز، وليرجع إلى المصادر الاقتصادية بخصوص هذين التعريفين – وإنما هو حتى الآن "الحقن" الرأسمالي العالمي بملايين الدولارات لجيش صغير يحتل ويغتصب أرضا يقيم عليها قاعدة عسكرية متطورة وحديثة وتسمى بإسرائيل[٢].

هذه القاعدة العسكرية المتطورة الحديثة التي تحمل أيضا سمة خاصة بها، تنفرد بها عن كل القواعد العسكرية في العالم وهي العنصرية – ممنوع انتماء غير اليهود لها – لابد أن يكون لها تناقضاتها، وبعض هذه التناقضات يشبه في ظاهره التناقضات الموجودة في المجتمعات الإنسانية الأخرى "تمايز في مستويات المعيشة، غني وفقير، مؤسسات، إضرابات، لافتات برلمانية، ديمقراطية ليبرالية، احتجاجات.. إلخ".

---

[٢] عندما يتصارع الجنود مع الضباط في جيش، فليس هذا صراعا طبقيا، وفي حالة جيش الغزو الصهيوني المسمى "بإسرائيل" لا يمكن رد الصراع إلى طبقات خارجة، فإن كل مجموعة من الجنود تنتهي تاريخيا إلى طبقة عاملة بعيدة، قد تكون روسية أو إنجليزية أو عربية.. إلى آخر مصادر الهجرة اليهودية.

هنا وجد المتياسرون – وليس اليساريون – الصهاينة فرصتهم إلى الفكر اليساري العالمي.. هاكم صراعا طبقيا. ولما كان الصراع الطبقي هو محرك التاريخ فإن النتيجة أن يؤدي هذا الصراع إلى تكوين أمة إسرائيلية تصبح مهمة البروليتاريا فيها الاستيلاء على السلطة وتغيير الطابع العسكري العدواني التوسعي ومن ثم التآلف مع الأمة العربية. مثالية منطقية فكرية بسيطة أو هي في الحقيقة منزلق فكري سهل يمكن سحب اليسار العالمي إليه.

وقد كان للأسف،

بل أن بعض قوى اليسار العربي قد انساقت في نفس الطريق أيضا...

أين الخطأ؟ وأين المغالطة؟

سنحاول الرد في إيجاز:

أولا : إن افتراض وجود صراع طبقي في مجتمع ما، يعني التسليم بتشكيل طبقات اجتماعية في هذا المجتمع، وحسب كل التعريفات التي أعطيت للطبقة الاجتماعية فإن تعريفا واحدا منها لا ينطبق على واقع المجتمع الصهيوني إلا إذا قبلنا التعريفات السطحية (غير اليسارية) التي تقسم الناس إلى طبقات ومراتب وأقسام بطريقة ميكانيكية مغفلة دورها التاريخ في المجتمع، ودورها في الإنتاج، وعلاقتها بما فوقها وما تحتها من فئات وطبقات ويقتصر التقسيم على مدى ما تملك من نقود أو على مستوى المعيشة.

بل أن التعريف الماركسي يضع سمتين للطبقة بالإضافة إلى دورها في الإنتاج وهما: بروزها من خلال عملية تاريخية، واكتسابها وعيا طبقيا.

هل يستطيع أحد أن يزعم أن هذا ينطبق على "الطبقات" في المجتمع الصهيوني؟.. رأس المال والرأسماليون مستوردون، ويستوردون. العمال وأدوات الإنتاج تستورد وما تزال، وستظل.

إننا إزاء طبقة يتغير تركيبها وتكوينها النفسي وارتباطاتها بالمجتمع وأدوات الإنتاج مع كل موجة هجرة من الخارج. إن آلاف اليهود الشرقيين

الذين وصلوا إلى فلسطين المحتلة عام ١٩٥٧ كانوا (أو هذا هو المفروض) قبل وصولهم بيوم واحد جزءا من طبقاتهم الاجتماعية في بلادهم الأصلية، ثم وصلوا فأضافتهم أرقام الإحصاء جزءا من طبقات مزعومة في المجتمع المستورد الصهيوني.. هل يستقيم ذلك مع التحليل الطبقي المعقول، ناهيك عن الماركسي؟

ثانيا : إن الذين يقدمون أشكال الصدام والصراع داخل المجتمع الصهيوني باعتبارها أشكالا للصراع الطبقي يتعمدون إغفال الوجه العنصري لطرفي الصراع. كلا الطرفين عنصري ومغتصب. لا فرق عندي من يغتصب بيتي؟ فإذا تعارك المغتصبون فإن عراكهم لا يمكن أن يكون صراعا طبقيا يتحتم حسب التحليلات اليسارية والماركسية بالذات أن يكون جزءا من الصراع الطبقي العالمي من أجل قلب الرأسمالية والقضاء عليها، أي لابد أن يحمل صفة أممية في جوهره. ونحن نسأل هل يمكن أن يكون الصراع أمميا وهو يبدأ بالقضاء على أمة؟.. إن المجتمع الصهيوني مليء باللافتات المستوردة، أحزاب وهيئات وروابط واتحادات وأغلبها فيما نعلم يرفع أعلاما يسارية وماركسية، وتحت هذا الإعلام وفي ظل هذه المؤسسات ثم اغتصاب فلسطين وتشريد أهلها..

إن الصراع في داخل المجتمع الصهيوني طبقي، بقدر ما يكون حزب المابام حزبا ماركسيا حقا، والهستدروت اتحادا عماليا بالفعل... فهل هما كذلك؟ (سيقول البعض ولكن هناك حركات وأحزاب أخرى ونحن نطالبهم بأن يسألوا أيا من هذه الحركات والأحزاب، مهما بلغت "تقدميتها"، هل يؤدي نضالكم أو يستهدف تغيير الطبيعة الدينية للدولة؟ هل سيتنازلون أو هل هم تنازلوا الآن عن فكرة إسرائيل؟ لم يفعل ذلك أحد حتى الآن وعندما يفعل فسيصبح جزءا من حركة التحرر الوطني الفلسطيني بلا شك)[٣].

ثالثا : إن تقديم أشكال الصراع الدائر داخل المجتمع الصهيوني باعتبارها صراعا طبقيا يؤدي طبعا إلى إخفاء الجوهر الحقيقي لهذا الصراع

---

[٣] راجع محاضر الكنيست والسؤال الموجه إلى يوري أفنيري حول هذا الموضوع من نواب حزب جاحال.

ألا وهو الصراع العنصري بين اليهود الغربيين "الأشكنازيم" واليهود الشرقيين "السفارديم" وهو ما يحدث فعلا وكشفت عنه أشكال الصدام العنيف أحيانا، والسلمي أحيانا أخرى، التي برزت في الأعوام الأخيرة[٤].

إن المفكرين الصهاينة يهمهم بالطبع إخفاء هذا الوجه. ولن يعدموا أن يقدموا لنا نماذج من صراع الأشكنازيم. ولكنها على أي حال لن تخفي ما يقر به الجميع الآن عن انقسام المجتمع الصهيوني إلى جماعتين عرقيتين متصارعتين صراعا في رأينا هو الصراع الداخلي الرئيسي الذي ينبئ تاريخيا بإلغاء (نفي) الدولة الصهيونية المسماة بإسرائيل.

أخيرا :

لتكن هذه الكلمات بداية للحوار وإننا لنرجوه حوارا مثمرا مع كل القوى التقدمية واليسارية.

ستثور أسئلة كثيرة، وسيدور معظمها حول التسميات التي يمكن أن تصنف بها أشكال الصراع داخل المجتمع الصهيوني، ونحن لا نريد أن ندير حوارا حول التسميات ولكن عندما يتعلق الأمر بكلمة الصراع الطبقي فإن لهذه التسمية مدلولها الفكري لدى قطاعات واسعة من القوى المناضلة ضد الاستعمار والاستغلال لذا نحرص على ألا ننزلق إلى استخدامها في غير مكانها..

كما أن الحوار حول هذه القضية الفكرية لا يحول ولا يمنع ولا يجب أن يحول أو أن يمنع التعاون الوثيق بين كل القوى المناضلة ضد الاستعمار والصهيونية من أجل الحرية والتحرير.

(محجوب عمر)

١٩٧٢-١١-٢٤

---

[٤] إن الصراع بين الأشكنازيم والسفارديم يعكس وجها عنصريا عرقيا كما يعكس في الوقت نفسه ولأسباب تاريخية وجها للصراع بين المجتمعات المتقدمة صناعيا وتكنولوجيا (حضريا) التي قدم منها الأشكنازيم والمجتمعات الزراعية المتخلفة التي قدم منها السفارديم.

ملحق رقم (٢)

فلسطين الديمقراطية : هدف وخطة وحتمية تاريخية [١]

تحـل الذكرى العاشرة للانطلاقة المسلحة للثورة العربية الفلسطينية وقد برزت شعاراتها أكثر فأكثر، ليس فقط على الساحة العربية وإنما أيضا على الساحة العالمية. ولم يكن من قبيل الحلم، أو الصدفة، أو المزايدة، أو التلويح للمساومة أو الخداع والمراوغة، إلى آخر تلك الدوافع غير الموضوعية، لم يكن من قبيل كل ذلك أن تقدم الثورة الفلسطينية من فوق منبر الأمم المتحدة[٢]، حلها المقترح لمشكلة تواجد اليهود في فلسطين بعد تحريرها: ألا وهو فلسطين ديمقراطية يعيش فيها الفلسطينيون بكل طوائفهم مسلمين ومسيحيين ويهود في مجتمع ديمقراطي واحد.

إن المكان الذي احتله شعار **فلسطين الديمقراطية** في الأشهر الأخيرة، كان ثمرة نضال مسلح طويل، ومواجهة شجاعة رائدة، لمشكلة هي من أعقد المشاكل على الجانبين معا. فلولا الثورة المسلحة، وتفاصيل نضالاتها اليومية، لما كان من الممكن فهم، فضلا عن تقبل، شعار "فلسطين الديمقراطية" من جانب معظم القطاعات الجماهيرية العربية التي عانت وتعاني من العنصرية الصهيونية، والتي كان من المنطقي إزاء هذه المعاناة، أن تندفع هي الأخرى إلى عنصرية مشابهة مناقضة. ولولا هذه الثورة أيضا،

---

[١] نشر هذا المقال في العدد الخاص ٤١-٤٢ من "شؤون فلسطينية" كانون ثاني – شباط ١٩٧٥ بمناسبة الذكرى العاشرة للانطلاقة المسلحة.

[٢] راجع خطاب الأخ أبو عمار في الأمم المتحدة الدورة ٢٩.

وممارســـاتها، لما أمكن، كما لا يمكن في المستقبل، طرح الحل الديمقراطي الفلســطيني لجانــب من "المشكلة اليهودية" موجود في بلادنا، وبالشكل الذي جعــل قطاعــات مــتزايدة من يهود الكيان الفلسطيني نفسه، يتقبلون مبدئيا، الدخول في حوار حول هذا "الحل المنشود".

ومــن قــبل عام واحد، بدا للكثيرين في أعقاب حرب أكتوبر – تشرين ١٩٧٣، أن مكان "فلسطين الديمقراطية" قد أخلي، لتحل محله الحلول الجزئية أو المرحلــية. ولكــن أحداث الشهور الأخيرة، أثبتت أنه لا يمكن العزل بين "الموصــوف" ومصــدر "الصــفة"، بين الفلسطينيين وفلسطين، وأنه عندما اضــطرت نظم العالم إلى التعامل مع "الفلسطينيين" بعد أن فرضوا وجودهم وشخصيتهم بقوة السلاح، كان على هذه النظم باختلافها أن تحدد موقفها أيضا من "فلسطين".

ومــن حيــث أراد "التسوويون" محاصرة النضال الفلسطيني في أعقاب حرب تشرين – أكتوبر ١٩٧٣، برزت "قضية فلسطين" كما لم تبرز من قبل طــوال السنوات الماضية. وثبت أن سنوات النضال لم تذهب، ولا يمكن أن تذهــب هــدرا. وبات واضحا للجميع "محورية" قضية فلسطين في النضال القومــي العربي كله، بل وبالنسبة لنضال قوى التحرر الوطني العالمية كلها. فمــنذ عــام قــال كينسجر: إن الصراع نتقل من صراع محلي بين إسرائيل والفلســطينيين، إلى صراع منطقة، إلى صراع دولي، وأن مهمته هي إعادة هذا الصراع إلى حجمه المحلي ثانية.

ولقــد ســعى كيسنجر طوال هذا العام إلى تحقيق اتفاقيات فك الارتباط علــى الجــبهات غــير الفلســطينية، آملا أن يؤدي ذلك إلى حصار الثورة الفلسطينية، أو على حد تعبيره إلى إعادة الصراع إلى حجمه "المحلي" ثانية.

ولكــن النــتائج كانت على عكس ما يتوهم الكثيرون، وأولهم كيسنجر نفسه. فعلى أثر هدوء الجبهات، برزت الجبهة الفلسطينية مرة أخرى، وهي جبهة منتشرة انتشار الأرض والشعب الفلسطيني، برزت باعتبارها أكثر نقاط

الصـــدام مع الاستعمار حدة وتأثيرا سواء على المستوى المحلي أو المستوى الدولـــي. يقول ناحوم يارينج معلق جريدة دافار في ٢٠-١٠-٧٤ : "انقلبت مـــنظمة التحرير الفلسطينية من عامل عربي داخلي إلى عامل دولي معترف بـــه" (ن. م. د. ف، ١-١١-١٩٧٤). كمـــا تحطمت زيارة كيسنجر الأخيرة للمـــنطقة على صخرة الموقف من منظمة التحرير الفلسطينية الذي تقرر في مؤتمـــر الـــرباط. ثـــم جاء خطاب الأخ أبو عمار أمام الأمم المتحدة، لينهي مـــرحلة ثالـــث، سمي الصدام فيها بالصراع العربي الإسرائيلي، أو مشكلة الشـــرق الأوســـط، لتبدأ مرحلة طال انتظارها تكون فيها قضية فلسطين هي محور كافة النشاطات العسكرية منها وغير العسكرية.

ومـــن الآن فصاعدا، ستكون عبارة "فلسطين الديمقراطية"، الهدف الذي يسعى الثوار لتجسيده، ويسعى أعداء الثورة لتقويضه. ستكون محور الصراع بالأفكار والبرامج والأقلام والبنادق.

فلسطين الديمقراطية : هدف وخطة وحتمية تاريخية

أعلنت حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح" في العام ١٩٦٨، وللمرة الأولـــى بصفة رسمية، برنامجا سياسيا يحدد بوضوح الهدف النهائي لكفاحها الـــتحريري. وجاء في الإعلان المذكور ما يلي: "نحن نقاتل اليوم في سبيل دولـــة فلســـطينية ديمقراطـــية يعيش فيها الفلسطينيون بكل طوائفهم مسلمين ومسيحيين ويهود في مجتمع ديمقراطي تقدمي ويمارسون عباداتهم وأعمالهم مثلما يتمتعون بحقوق متساوية"[٣].

ومـــنذ ذلـــك الـــتاريخ تناول الكثيرون، من مواقع مختلفة، هذا الشعار بالبحـــث والتفســـير، وبالمعارضـــة والتخطئة، وشارك في النقاش أيضا مع

---

[٣] راجـــع كتاب نحو "فلسطين ديمقراطية" للدكتور محمد رشيد، سلسلة أبحاث فلسطينية، رقم ٣٤، إصدار مركز الأبحاث في م. ت. ف.

تصاعد النضال المسلح، قوى سياسية داخل الكيان الصهيوني تراوح موقفها من الرفض إلى القبول الشكلي، إلى التبني الكامل.

والحل المطروح، وإن يكن جديدا في صياغته، إلا أنه ليس جديدا في جوهره. فلم يحدث منذ بداية المشكلة الفلسطينية أن وافق العرب على أي حل يقضي بالتسليم بأي بقعة أرض عربية للمستوطنين الصهاينة. لقد رفض العرب التقسيم وما يزالون. بل لقد سبق للفلسطينيين أن تقدموا من لجنة بيل عام ١٩٣٧، باقتراح يقضي بإنشاء دولة تعيش فيها الطوائف جميعا على قدم المساواة. كما أن التاريخ القديم والمعاصر يخبرنا أنه على أرض فلسطين عاشت وتعايشت طوائف مختلفة في سلام وتفاعل.

كل الذين قاوموا، وعارضوا قيام الكيان الصهيوني، لم يسلموا ولا للحظة واحدة في **فلسطين**، أرضا، واسما، وصفة، وهدفا للتحرير.

الجديد الذي طرحته "فتح" هو في كلمة "الديمقراطية". وهي تطرح ليس فقط "صفة" للدولة المستهدف إقامتها بعد التحرير الكامل لفلسطين، ولا حتى منهجا للعلاقات القانونية الدستورية فيها، وإنما أيضا، قاعدة للعلاقات الاجتماعية بكل جوانبها السياسية والاقتصادية والثقافية بين سكان هذه الدولة، فإن شئنا الدقة فإنها قانون ذلك المجتمع التقدمي الذي يتمتع فيه الجميع "بحقوق متساوية".

كان معنى تحديد "فتح" لهذا **الهدف** أنها كحركة ثورية، تحترم الواقع ولا تتغافل عن عوامله. إن وجود ثلاثة ملايين يهودي على أرض فلسطين هو بلا شك أبشع أنواع الاحتلال الاغتصابي في التاريخ، ولكن الزعم بإمكان إلقاء **ثلاثة ملايين** من البشر في البحر، هو أيضا من قبيل التسليم بوجودهم كما هم في نهاية الأمر عندما يعجز المنادون بذلك عن تنفيذه. إن الثوار لا يلقون أحدا في البحر، ولكنهم يقاتلون من أجل تحرير أوطانهم، وعندما يكون المحتلون "قوما" "هجروا" أوطانهم الأصلية، ولم يعُد لهم من الناحية الرسمية أوطان "يعودون" إليها كما كان الحال مع مستوطني الجزائر مثلا، فإن وجود

هؤلاء يفرض على الثوار ضرورة طرح حلول تتفق ليس فقط مع إنسانيتهم وإنما أيضا مع منطق الحركة التاريخية.

هناك "مشكلة يهودية" في المجتمعات الرأسمالية الصناعية المتقدمة، وهي مشكلة لها جذور تاريخية، قديمة، والحل الوحيد لهذه المشكلة في تلك المجتمعات هو بلا شك "التمثل" أي "الذوبان" داخل كل مجتمع **(واكتمال ذلك مرهون بالقضاء على الاستغلال داخل هذه المجتمعات)**. وقد بدا من الممكن أن يؤدي التطور الرأسمالي العفوي إلى هذه النتيجة، وذلك يحدث جزئيا حتى الآن، إلا أن الاحتكارات العالمية، "استخدمت" هذه "المسألة اليهودية" لتحقيق أهدافها الاستعمارية في الوطن العربي، ولذلك نقلوا هذه الملايين إلى فلسطين، وخلقوا بذلك مشكلة يهودية في "فلسطين"، وعطلوا حل "المشكلة اليهودية" في بلادهم في الوقت نفسه إذ خلقوا مشكلة الولاء المزدوج ليهود تلك البلاد.

ويمكننا القول بتبسيط جائز، إننا أمام مشكلة ذات وجهين.. الأول هو فلسطين المحتلة التي يجب تحريرها، والثاني هو "جيش الاحتلال"، المقدر عدده بثلاثة ملايين يهودي تقريبا، والذي ليس أمام أفراده شاطئ ينسحبون إليه كجماعة موحدة.. كما حدث في الجزائر مثلا.

ولا شك أننا سنستعيد كل فلسطين، سنحرر كل فلسطين. أما بالنسبة للمحتلين الغاصبين، فقد يرحل بعضهم إلى حيث يمكن أن يستثمر كفاءته وقدراته كما يشاء، كجزء من هجرة الأدمغة التي تجري الآن في عالمنا. وقد بدأ ذلك فعلا في الكيان الصهيوني. وتشير الصحف الإسرائيلية إلى ظاهرتي التساقط أي عدم الوصول إلى "إسرائيل" بعد الهجرة من البلد الأصلي، والنزوح أي الهجرة من "إسرائيل" بعد الوصول إليها، باعتبارهما في ازدياد مستمر. وطبقا لدراسات الصهاينة أنفسهم فإن أكثر من ألفي "متساقط" موجودون الآن في بلاد متعددة في أوروبا، وبعضهم نجح في الوصول إلى

الولايات المتحدة[٤]. كما تشير الدراسات نفسها إلى أن اتجاهات النزوح بين الشباب هي: إلى الولايات المتحدة ٢٢,١ بالمئة، كندا ١٨,٢ بالمئة، أستراليا وجنوب إفريقية ٩,١ بالمئة، فرنسا ٩,١ بالمئة، وسط أوروبا (الرأسمالي) ١١,٧ بالمئة، الدول الإسكندنافية ٣,٩ بالمئة، ألمانيا ٢,٦ بالمئة، وإلى أمريكا اللاتينية ٣,٩ بالمئة[٥].

وقد يرحل البعض، إذا لا تتحمل عنصريته الصهيونية البقاء مع عرب أمثالنا. ولا شك أن كثيرين سيفضلون العودة إلى بلادهم العربية، بعد أن خدعتهم الدعايات والمؤامرات الصهيونية فأخرجتهم منها. وقد بدأ ذلك أيضا، كما تزايد الاتجاه نحوه، وتشير الدراسة السابقة إلى أن ٢,٦ بالمئة من "العينة" التي جرى عليها الفحص يريدون النزوح إلى بلاد إسلامية كالمغرب وتركيا. ولا شك أنه مع تزايد القمع العنصري في الكيان الصهيوني، والتقدم الاجتماعي في البلاد العربية ستزداد هذه النسبة.

ولكن كل تلك الاحتمالات لا تجعل الثوار يغيرون من مناهجهم، إنهم عندما يتناولون قضية فإن "الحل" المفترض اقتراحه يجب أن يكون حلا يتفق وجوهر المشكلة (حلا ديمقراطيا في مواجهة عدوان عنصري) **وألا يتوقف على "الأعداد" كبرت أو صغرت** (إن قاعدة الديمقراطية في العلاقات الاجتماعية لن تسري فقط على المسلمين والمسيحيين واليهود، وإنما على كل الطوائف الأخرى التي تعيش في فلسطين وبعضها لا يزيد عدده عن عدة آلاف). إن الحل الذي يقدمه الثوار وهو على الدوام حل شامل من رؤية شاملة، ليس حلا جزئيا من اعتبارات عددية. ذلك ما جعل "فتح" تؤكد أنها لا

---

[٤] راجع كتاب يوري أفنيري، للأستاذ كميل منصور الصادر عن مركز الأبحاث في م. ت. ف. وراجع دفاع الرفيق رامي ليفنه عضو الجبهة الحمراء خلال محاكمته في حيفا ١٩٧٣، وراجع مقال فلسطين الغد للدكتور نبيل شعث، مجلة شؤون فلسطينية، عدد٢.

[٥] راجع ن. م. د. ف. عدد ١-١١-١٩٧٤. وراجع التقرير الخاص من مركز التخطيط حول الهجرة والهجرة المضادة من فلسطين المحتلة، ٢٧-٦-١٩٧٤. وراجع نشرات رصد إذاعة إسرائيل الصادرة عن مركز الأبحاث في م. ت. ف.

تميز بين يهودي ويهودي على الأرض المحتلة، لا الآن ولا عند النصر والتحرير، لا بتاريخ الميلاد، ولا بالبد الأصلي، إلا بقدر وعلى أساس ما يتخذ هذا أو ذاك من الأفراد أو الجماعات داخل الأرض المحتلة، من مواقف ضد الصهيونية ومع الثورة الفلسطينية.

وإذ تقرر "فتح" أن الأرض (أي أرض فلسطين) هي للسواعد المخلصة التي تحررها بالسلاح، فإنها بذلك لا تقسم غنيمة بعد حرب، وإنما تضع قانونا لعلاقات البشر بعد التحرير[٦]، ومن ثم للتمييز بينهم بمقياس لا عنصري ولا طائفي. ولا يمكن أن يكون هناك مقياس أكثر ديمقراطية وعدلا من هذا المقياس. من كل حسب قدرته، ولكل حسب عمله، أي من كل حسب قدرته، ولكل حسب موقفه الفعلي ضد الصهيونية ومؤسساتها. ولا تفريق ولا تمييز إلا على هذا الأساس بغض النظر عن الجنس أو اللون أو الدين أو العرق.

إن الثوريين اليهود في الوطن المحتل، يدركون حقيقة وأهمية هذا المقياس، فلنقرأ ما قاله الرفيق إيهود اديف – أحد زعماء الجبهة الحمراء أثناء المحاكمة في حيفا منذ عامين تقريبا[٧]: "وهذا يمكن عمله (أي تحويل النضال من عرب ضد اليهود إلى مضطهدين ضد مضطهدين أي للنضال ضد دولة إسرائيل) بأن يقوم يهود ويثبتوا للعرب الذين يحاربون الصهيونية منذ عشرات السنين بأنهم (أي اليهود) يقفون إلى جانبهم ومستعدون أن يضحوا بكل ما لديهم وأن يتعرضوا للمعاملة ذاتها وأن يقتسموا وإياهم الأمور دون أي تمييز أو أفضلية لكونهم يهودا. **وبدون ذلك لن يثق أي عربي بصدق ثورية أكثر ثوري يهودي استقامة**" (التوكيد بالحرف الأسود من عندنا).

لهذا أيضا ترفض "فتح" الأفكار التي تقول بأن مثل هذه الدولة الديمقراطية يمكن أن تكون إطارا يجمع "الإسرائيليين" و"العرب الفلسطينيين".

---

[٦] مبادئ وأهداف وأساليب حركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح.

[٧] راجع نشرة الأرض عدد ٧-٨ بتاريخ ٢١-١٢-١٩٧٣.

فليس الأمر في النهاية أمر تسوية بين ما يسمى "بحقيقتين"!! تاريخيتين، ولا هي صفقة بين "الإسرائيليين" و"العرب الفلسطينيين"، وإنما هو تناقض تاريخي أساسي لا حل له إلا **بتلاشي أحد طرفيه**. ولما كان من المستحيل تاريخيا أن يتلاشى الشعب العربي الفلسطيني أو أرض فلسطين نفسها، فإن الذي سيعود ليحتل المكان عبر الحركة التاريخية ستكون هي "فلسطين" وشعبها، ومن عليها سيكونون هم "الفلسطينيون" سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهودا أو من أي ملة أو طائفة.. لابد أن يتلاشى ذلك الكيان الصهيوني، وهو عندما ينهار، سيترك خلفه "المستوطنين" الذين سيكونون عندئذ إسرائيليين سابقين!! ليس أمامهم إلا أن "يتمثلوا" ليصبحوا مواطنين في فلسطين الجديدة لا يتدخل أحد في عقيدتهم كيهود ولا يميزهم على هذا الأساس، وإنما على الأساس الذي ذكرناه ألا وهو قدر موقف كل منهم من معارضة الصهيونية أي من "الإسرائيلية"، وتأييد الثورة التحررية العربية أي "الفلسطينية".

فلسطين ستعود، تلك حتمية تاريخية، ولكي تكون "ديمقراطية"، وهي لا يمكن أن تكون إلا كذلك على المدى التاريخي، لابد من الثورة الشعبية المسلحة التي لابد أن يشارك فيها المناضلون من اليهود أنفسهم، الذين هم على أرضها مغتصبون. من هنا فإن "الديمقراطية" **هدف، وخطة في الوقت نفسه.**

لقد اختار الثوار الفلسطينيون "الديمقراطية" لفلسطين حلا وهدفا يناضلون لتحقيقه، ومن المؤكد أن هذا الاختيار هو رد الفعل الثوري الإنساني على "العنصرية" التي اتصفت بها الهجمة الاستعمارية التي احتلت فلسطين واغتصبتها. كان منطقيا (عفويا)، أن تؤدي الهجمة العنصرية إلى نقيض عنصري، ولكن ذلك لم يكن ليؤدي إلى **تحرير فلسطين**. بل الأغلب أنه كان سيعمق من مشكلة الوجود العنصري الاستعماري نفسه (ولقد أدرك الصهاينة هذه الحقيقة فسعوا على الدوام إلى تصوير المقاومة العربية على أنها موقف عنصري لا سامي، وذلك بهدف المحافظة على عنصريتهم هم). لذا فإن هذا الاختيار الثوري الإنساني يفرض على الثوار **طريقا محددا للتحرير**، أي خطة محددة للقتال من أجل استعادة الأرض المغتصبة وعودة الشعب

المشـــرد، وفي الوقت نفسه مواجهة "مشكلة يهودية" من نوع خاص، مصدرة إلى بلادنا من البلاد الاستعمارية، ومحاصرة تاريخيا.

إن اســـتعادة الأرض وعـــودة الشعب لا يتطلبان أكثر من تحقيق تفوق عســـكري يمكـــن العرب من تحطيم القوة الرئيسية للعدو، بحيث يجبر على التسليم. ولكن استيعاب وحل "المشكلة اليهودية" التي ستتخلف عن هذه الحقبة مـــن القتال، يحتمان أن يدور هذا القتال بخطة وأسلوب حرب الشعب طويلة الأمد، أي أن يكون قتالا جماهيريا، بحيث تتخلص الجماهير المقاتلة من كل ردود الفعـــل العنصـــرية، والمـــرارة والشـــك والثأرية، وذلك عندما تدرك بتجربـــتها الذاتية، عقم طريق التعصب، وخصب الطريق الثورية الإنسانية، وعندما تسقط خلال طريقها الطويل كل القوى الرجعية والمتعصبة التي سبق أن أضاعت فلسطين، بل وتآمرت عليها مع المستعمرين والصهاينة.

ستدرك الجماهير العربية المفعمة القلوب بالمرارة، ستدرك خلال القتال، إذ يـــرافقها – سلاحها وقتالها وتضحياتها – جماعات من اليهود أنفسهم، أن عدوهـــا هـــو الاســـتعمار والصـــهيونية ولـــيس جماهـــير اليهود المضللين والمضـــطهدين فـــي بلادهم الأصلية. كما ستدرك أعداد متزايدة من اليهود المستوطنين أنفسهم أن الهروب من اضطهاد عنصري لا يكون باللجوء إلى عنصـــرية أشـــد وأفظـــع هي عنصرية الصهاينة أنفسهم ضد **فقراء اليهود وشرقييهم** بعد طرد العرب الفلسطينيين.

إن خلق الإنسان الفلسطيني الجديد، يتطلب قتالا جماهيريا طويل الأمد، تتراكم فيه الصفات الثورية المكتسبة من خلال هذا النضال ومعاناة الأجيال. وسواء كان هذا الإنسان الفلسطيني الجديد مسلما أو مسيحيا أو يهوديا، أو من أي طائفة كانت، فإنه سيكون بلا شك "عربيا" سواء **بالأصل** أو "بالتمثل". أي أن هذا القتال الجماهيري الطويل لابد سيؤدي إلى ما كان يجب أن يؤدي إليه تطور المجتمعات التي هرب منها اليهود وهجروها إلى فلسطين.

إن حـــل المشـــكلة الـــيهودية لا يكون بالهرب من مجتمعات تحمل في باطنها "عنصرية" هي انعكاس لعلاقاتها الاجتماعية وتسير حتما نحو التحرر

منها كما تسير نحو التحرر الاجتماعي، إلى **تجمع** صهيوني هو بؤرة العنصرية وليس له من مستقبل إلا مزيد من التفرقة والتمايز العنصري.

إن "التمثل" هو حل "المسألة اليهودية"، والتمثل يعني التوحد القومي مع بقية الجماعة البشرية التي تعيش على الأرض نفسها وتساهم في عملية الإنتاج الإنساني فوقها.

لذا فإن الجماعات اليهودية التي هربت من "التمثل" في مجتمعاتها الأصلية، ليس أمامها إلا الطريق نفسها على أرض فلسطين. ولا شك أن القتال الجماهيري الطويل الأمد، أي حرب الشعب، سيكون مساعدا للكثيرين منهم على أن يتبينوا الوجه البشع للصهيونية التي ضللتهم ثم جعلتهم وقودا لحرب استعمارية تشنها على الشعوب العربية. كما أنه سيكون مساندا لجماهيرنا في الوقت نفسه على أن تتآخى معهم في ظل البنادق. **إن "التمثل" في فلسطين يمكن فقط في ظل وحدة البنادق والنضال ضد الصهيونية** التي هي بلا شك قمة القمع الاستعماري الاحتكاري في العالم، ومن ثم قاع التمييز العنصري الفاشي فيه.

من هنا كانت "ديمقراطية فلسطين" خطة قتال وتحرير، وليست حلا وهدفا فقط. فلئن كانت الرؤية التاريخية تبين أن تحرير الأرض واستعادتها، لا يمكن أن يتحققا لأسباب عسكرية وسياسية، إلا بحرب شعبية طويلة الأمد، تتفوق فيها الجماهير على عدوها الاستعماري المدجج بأحدث الأسلحة والمتفوق تكنولوجيا وحضاريا، فإنه من المؤكد أنه **لا سبيل** على الإطلاق لفلسطين ديمقراطية إلا بهذه الحرب الشعبية الطويلة التي تخلق وتبني الإنسان الجديد على أرض فلسطين.

وحتى لو تدخلت ظروف طارئة، كاجتماع عدة تناقضات في لحظة زمنية واحدة، بحيث انهار الكيان الصهيوني، ولم يكن قد اكتمل بعد طريق حرب الشعب (وهو احتمال بعيد ولكنه قائم نظريا)، فإن الذي لا احتمال غيره، هو أنه لا يمكن الوصول إلى صيغة فلسطين الديمقراطية إلا بحرب الشعب الطويلة وحدها.

فــي مواجهــة هذه الخطة، خطة القتال الجماهيري الطويل الأمد سبيلا لفلسطين الديمقراطية، يعود البعض فيقدم من جديد، فكرة إمكان الوصول إلى هــذا الهدف عن طريق التعاون السلمي بين إسرائيل غير عدوانية "أو غير توسعية" وبين دولة فلسطينية تقوم على جزء من الأرض الفلسطينية: تعاون رسمي تقوم في ظله علاقات متبادلة تجارية وثقافية وسياسية... إلخ[٨].

هذه الفكرة ليست جديدة، فقد تضمنها خطاب جاكوب ماليك عند إعلان موافقة بلاده على التقسيم في ١٩٤٧، آملا أن يؤدي التفاعل في المستقبل إلى قيام دولة واحدة. وبقدر ما أثبتت السنوات السبع والعشرون الماضية استحالة ذلــك، بقدر ما أكدت سنوات القتال الأخيرة إمكانية قيام هذه الدولة (لا نقول الموحــدة) بشــرط تصفية مؤسسة الكيان الصهيوني القائمة حاليا. ففي ظل وقــف القــتال (من ١٩٤٨ حتى انطلاق الثورة الفلسطينية) أمكن للصهاينة والاســتعمار أن يستمروا في صناعة كيانهم، وفي محاولة احتواء تناقضاته الداخلــية وفــي الوقت نفسه السيطرة على المنطقة العربية بالتهديد المستمر والحــروب والاعــتداءات المتكررة. أما سنوات القتال العشر فقد عمقت من التناقضــات الداخلــية لهذا الكيان بدرجة كشفت عن وجهه العنصري البشع للعــالم كلــه، وبالتالي أصبح من الممكن الحديث عن يهود مضطهدين داخل الكــيان الصــهيوني، هم مثل العرب الفلسطينيين المضطهدين بسبب الكيان الصــهيوني، وهم اليهود الشرقيون. أي أصبح من الممكن رؤية حل صحيح للمشكلة، حل يقوم على "فكفكة" هذا الكيان الصهيوني والقضاء على مؤسساته بحيث يتحرر قسم كبير من الخاضعين لسيطرته سواء الفكرية أو السياسية أو العســكرية، لينضــموا إلى الشعب العربي الفلسطيني في صراعه ضد هذا الكيان.

والســؤال الــذي نطرحه على أصحاب "فكرة التعايش السلمي" هذه أو التطور السلمي نحو فلسطين الديمقراطية على حسب قولهم: هل يمكن تحرير جماهــير الــيهود التي تعيش اليوم في ظل الكيان الصهيوني "إسرائيل" من

---

[٨] ردد هــذه الفكرة مؤخرا الأخوان محمود حسين في كتاب عرب وإسرائيليون: أول حوار نشر في باريس بالفرنسية في ١٠-١٩٧٤.

سيطرة الصهيونية، دون القضاء على المؤسسة الصهيونية كمؤسسة عنصرية استعمارية عسكرية فاشية، مهما كانت مساحة الأرض التي تغتصبها من فلسطين؟ وهل يمكن تحقيق ذلك دون قتال؟

إن إقامة علاقات سلمية بين "الكيان الصهيوني" والبلاد العربية ليس له سوى معنى واحد، هو إخضاع هذه المنطقة العربية للسيطرة الصهيونية. ذلك هو حكم القوانين الموضوعية التي تحكم التطور التاريخي للتجمعات البشرية، حتى داخل القومية الواحدة، فما بالنا والأمر متعلق بكيان غريب هو فرع من فروع الاحتكارات الاستعمارية مزروع **في قلب المنطقة العربية.** إن تجربة تسلل النفوذ الصهيوني الاقتصادي (فضلا عن السياسي والعسكري) عبر "الجسور المفتوحة" على نهر الأردن، وتجربة اجتذاب القوة العاملة العربية للعمل في مشاريع صهيونية في ظل الاحتلال دليل بسيط وواضح على ما أسلفنا.

ولقد أورد مقال فلسطين الغد المنشور في شؤون فلسطينية عدد (٢) للدكتور نبيل شعث أرقاما وإحصاءات متعددة تبين كيف أدت سياسة الجسور المفتوحة والاندماج الاقتصادي إلى إخضاع اقتصاديات الضفة الغربية وغزة إلى الاقتصاد الصهيوني بعد ثلاث سنوات فقط من احتلالها.

إن "الترويج" لإمكانية التفاعل السلمي بين كيان إسرائيلي "مسالم" وبين "كيان فلسطيني" ناقص، هو تماما كالترويج لإمكانية تفاهم سلمي بين أشكال الاستعمار الجديد (رؤوس الأموال الأجنبية المسيطرة والمستغلة) وبين الشعوب الفقيرة، وهو تماما كالترويج لإمكانية التفاهم بين الاحتكاريين والعمال. وفي الحقيقة فإن الكيان الصهيوني هو في جوهره أعتى أشكال الاستعمار الجديد، وأكثر مراكز الاحتكارات تقدما في بلادنا وهي محاولة محتومة الفشل.

ذلك بأن "فلسطين الديمقراطية" ليست فقط هدفا، وليست فقط خطة للقتال، **وإنما هي أيضا حتمية تاريخية. والحتمية التاريخية هي حالة محددة كيفية يمر بها طريق تطور مجتمع من المجتمعات أو ظاهرة من الظواهر، ولا يمكن أن يتخطاها إلى ما بعدها من أشكال إلا بعد أن تتحقق ومن بعد**

تفقــد وجودهــا وتنتفي إلى حالة أرقى، وذلك مهما تعددت طرق الوصول إلــيها، ومراحل الانتقال على طريقها بل والتعرجات العفوية أو المقصودة التــي قــد تعطــل تحقيقها. فما دامت هي ضرورة تاريخية، فإنها ستتحقق حتما.

وعــندما يحــدد الثوار وضعا ما، هو حتمية تاريخية، فإن ذلك سيكون ملــزما لهــم بأن يخضعوا كافة خططهم وتكتيكاتهم لهذه الرؤية. وإزاء هذه المســئولية فــإن الحكــم، بتاريخية "وضع ما"، يستلزم الإثبات العلمي قبل إطلاقه.

فهل ينقص "فلسطين الديمقراطية" الدليل على إنهم حتمية تاريخية؟ ربما كــان ذلك منذ سنوات، أما الآن، فكثير من الحقائق الموضوعية تشير وتنبئ وتكشــف عن العوامل والتغيرات التي تتفاعل على أرض فلسطين المحتلة، وتكاد تكون جنينا لرؤيا المستقبل لفلسطين الديمقراطية.

إن "فلســطين الديمقراطــية" مصــغرة قائمة الآن بالفعل داخل سجون ومعتقلات العدو. ففيها مناضلون عرب فلسطينيون من كل دين وطائفة.

ويمكننا في إيجاز أن نعدد أهم العوامل والحقائق الموضوعية التي تؤكد "حتمية" قيام فلسطين الديمقراطية في المستقبل كحل وحيد لمشكلة الاغتصاب العنصري لأرضها:

١- كما ذكرنا، فإن التمثل "هو الحل الوحيد للمشكلة اليهودية" سواء كان ذلك في فلسطين، أو في غير فلسطين. والتمثل لا يمكن أن يتحقق إلا بتحقيق "ديمقراطــية حقيقية" بين أعضاء المجتمع الواحد. إن من بين ما يعرقل تمثل اليهود في بلادهم الأصلية هو بلا شك عدم ديمقراطية التنظيم الاجتماعي في هذه البلاد.

٢- إنــه من غير الممكن أن تتطور ظاهرة التجمع الصهيوني الحالية، إلى ما يسميه البعض "قومية إسرائيلية في طريق التكوين"، أو أمة إسرائيلية،

أو حتى ظاهرة إسرائيلية تستمر بدون إسرائيل* بحيث يتوجب عندئذ أن تعطى هذه الظاهرة فرصة تطوير نفسها ثقافيا وفكريا كمجتمع له كيانه الذاتي. إن خطأ واستحالة حدوث ذلك مبني على ما يلي:

أ- إن هذا التجمع "هو تجمع منقول" ومصطنع ومفروض **بالقوة** في موقعه الحالي سواء من الناحية **البشرية** أو **الجغرافية** أو **الاقتصادية**، بمعنى أن هذا التجمع لم يتطور تاريخيا بشكل طبيعي، أي لم يكن نتاجا طبيعيا لتطور وتفاعل عوامل سابقة عليه تاريخيا. وما تزال "القوة" هي التي تفرض استمراره، بل وتغير من تركيبه. فالعدو الصهيوني مثلا يسعى لتغيير التركيب البشري لتجمعه بالإلحاح على استيراد اليهود السوفيات (أشكنازيم) لمواجهة تزايد عدد وفعل وأثر اليهود الشرقيين (السفارديم). فلقد تغير تركيب التجمع الإسرائيلي خلال موجات الهجرة، بحيث يغلب عليه الآن "عنصر" السفارديم (٦٠ بالمئة) بعد أن كان في البداية يقتصر تقريبا على الأشكنازيم (الموجات الأولى من الهجرة الصهيونية).

أما عن موقع هذا التجمع الجغرافي فهو في تغير مستمر منذ إعلان كيانه الرسمي وهو ما يزال يعلن عن نيته **ضم أرض جديدة**. كما لا يزال يعلن عن استعداده **للانسحاب** من بعض الأراضي.

أما موقع هذا التجمع الاقتصادي فهو مجرد "فرع" للاحتكارات العالمية، تنقل له رءوس الأموال من الخارج باستمرار، سواء على شكل معونات حكومية أو من المشاريع الخاصة أو تبرعات من الاحتكاريين اليهود الصهاينة. وهو ليس اقتصادا تابعا، فالاقتصاد التابع اقتصاد متخلف خاضع. وهو يختلف اختلافا كليا عن الاقتصاد الرأسمالي العالي النمو سواء في شكل علاقات الإنتاج أو في الإنتاج نفسه (زراعي أو مواد أولية أساسا)، أو في نصيب التراكم الأولي من تشكيل الدخل القومي العام (لا يكاد يذكر في التجمع الإسرائيلي) أو طريقة توزيع فائض القيمة (لا توجد طبقات متميزة

---

* يحاول أصحاب هذه النظريات تصوير الكيان الصهيوني باعتباره مجتمعا تمايز عبر السنوات الخمس والعشرين وأن هناك، تبعا لذلك، "إسرائيليين" وبعضهم يقول بالقومية الإسرائيلية وما يزال البعض يتحدث عن الحقوق القومية (!!) للجماهير اليهودية!!

داخل التجمع الإسرائيلي، وإنما التمايز يتم على أساس "عرقي" بين الأشكنازيم والسفارديم، ووظيفي متطابق مع الأساس السابق: قيادات أشكنازية، وقواعد سفاردية). في الأساس يختلف اقتصاد التجمع الإسرائيلي عن الاقتصاد التابع في أنه لم ينشأ نتيجة تراكم وتطور تاريخي بحيث يكون له مستقبل تاريخي. إن الاقتصاد المتخلف لابد أن يسير في طريقه إلى التحرر من السيطرة والاستغلال الرأسمالي، وأن يستقل ذاتيا. أما اقتصاد التجمع الإسرائيلي فإن "مجرد الافتراض النظري بإمكانية اتجاهه للاستقلال عن الرأسمال العالمي، يعني انتهاءه تماما كما لو قام أحد البنوك العالمية بإغلاق أحد فروعه في بلد ما".

ب- ليس أمام هذا التجمع أي فرصة لكي يتشكل له ما يمكن أن يسمى "مشاعر قومية"، فضلا عن قومية صحيحة. فهو **تجمع متعدد اللغات**: وبرغم تركيز الصهاينة على نشر لغة واحدة بين المستوطنين، فإن جهودهم لن تنجح كما يصورون، خصوصا بعد ١٩٦٧ عندما لم تعد المؤسسات الصهيونية قادرة على "استيعاب" المهاجرين الجدد وتعليمهم العبرية قبل "دمجهم" في الحياة اليومية. ومن قبل ذلك أيضا كانت اللغة مشكلة بالنسبة لهم. ففي ١٩٤٨ كان ٣/٤ السكان فقط يتكلمون "العبرية" الحديثة، وفي ١٩٦٠ هبطت النسبة إلى ٦٠ بالمئة. كما أن اللغة التي يستعملونها في حياتهم اليومية، لم تعُد هي لغة التوراة العبرية التي يحرص "المتزمتون" من اليهود على التحدث بها في بلادهم الأصلية، بل أن العلاقة بين هذه "اللغة الحديثة" وبين لغة "التوراة" هي كما يقولون هم أنفسهم كالعلاقة بين اللغة الإنجليزية الحديثة واللغة الإنجليزية القديمة.

وهو تجمع متعدد **الأصول القومية** متناقض التكوينات النفسية. فقد قدم المستوطنون من أكثر من مئة بلد، وهم إن كانوا يقسمون اليوم على كونهم غربيين (أشكنازيم) وشرقيين (سفارديم)، إلا أنه حتى بين كل طائفة منهم هناك تكوينات وأصول قومية مختلفة ومتناقضة نفسيا وثقافيا. إن يهود روسيا، مثلا، لا يتعاملون مع يهود رومانيا مع أنهما معا من الأشكنازيم. كما أن يهود المغرب يختلفون في سلوكهم عن يهود اليمن، وهكذا يقول جان بول

سـارتر (وهو مناصر صريح لبقاء إسرائيل) "ليس ثمة وجود لتراث يهودي واحـد ولا لتاريخ يهودي واحد" (كتاب اليهودي المعادي للسامية، نيويورك ١٩٦٨). ولقـد روج الصهاينة كثيرا لإمكان إذابة المستوطنين في شخصية "إسرائيلية" واحدة، إلا أن ذلك، فضلا عن أنه مستحيل موضوعيا، قد فشل في الواقع العملي.

وهـو تجمع يفتقر إلى قاعدة اقتصادية ذاتية كم أسلفنا، ثم هو قبل كل شيء تجمع على أرض ليست له، مغتصبة، لها أصحابها الذين يقاتلون في سبيل استعادتها، ولن يتركوه مستقرا أبدا.

وبالمثل فليس هناك أي فرصة تاريخية لكي يصبح هذا التجمع "محورا يهوديا إسرائيليا"، يكون طرفا في صراع مع "محور إسلامي عربي"[٩] حتى ولو كان هذا الصراع سلميا. ذلك أن أي صراع يدور بين اليهود الإسرائيليين وبيـن العـرب (مسـلمين ومسيحيين وغيرهم) ليس له إلا أن يفرز إحدى نتيجتيـن: إمـا مـزيدا مـن عنصرية هذا الكيان ومؤسساته مع ردود فعل عنصـرية على الطرف الآخر من التناقض وذلك في حال أن يدار الصراع انطلاقا من هذا التصور الفكري الخاطئ. وإما أن يقضي على هذا "المحور" "الكيان" وذلك في حال أن يدور الصراع على أساس علمي وثوري وإنساني كما هو حادث الآن. ولا يوجد طريق ثالث.

ج – إن هـذا الـتجمع يحكمـه تناقض داخلي مدمر، هو التناقض بين الأشكنازيم والسفارديم أي بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين، وبرغم أن جوهر هذا التناقض هو الصراع العرقي بين هاتين الجماعتين، إلا أنه أيضا يعكـس ويحمـل كل ثقل التناقض بين المجتمعات الصناعية الغنية المتقدمة، التـي قـدم منها الأشكنازيم، وبين التجمعات الزراعية الفقيرة التي قدم منها السـفارديم، كمـا أنـه يعبر عن نفسه كل يوم داخل التجمع الصهيوني في

---

[٩] المصدر السابق.

الصــــراع بيـــن الـــيهود الغربيين (الأشكنازيم) الأغنياء، واليهود الشرقيين (السفارديم) الفقراء، الفجوة بينهما تزداد حدة على كل المستويات.

د – إن من يتبقى عن هذا التجمع بعد انهيار كياناته السياسية والعسكرية والثقافية سيكونون بلا شك أصحاب "ظروف" متخلفة من الفترة التي قام فيها هــذا الكــيان. ولكن هذه "الظروف الخاصة" هي بالطبع رجعية (مكتسبة من تشــكيل رجعـــي هو الكيان الصهيوني). ولابد معها من اتباع أوسع أشكال الديمقراطــية وأعمقها ولكن في اتجاه الإذابة، لا في اتجاه التطور كما ينادي البعض بأن يكون لهم حق تطوير ثقافة خاصة.. إلخ.

إن الموافقة على مثل هذا المطلب المنافي للضرورة التاريخية من شأنه أن يخلــق "جيتو" جديد في فلسطين المحررة بدلا من الجيتو الكبير المسمى "بإسرائيل". وليس هذا هو المطلوب ولا المرجو من حرب التحررية الشعبية العربية.

هـــ – إن هناك فرقا بين الصهيونية واليهودية، بين الصهاينة واليهود. والصـــهيونية تعني بالنسبة لنا، وبشكل مباشر، "إسرائيل" و"الإسرائيلية" هو التعبير المجسد لها. وبالتالي فإن مستقبل الظاهرة الإسرائيلية الحالية هو نفس مستقبل الصهيونية، أي الاندثار، والتلاشي، شأنها في ذلك شأن كل الحركات والدعــاوى الفاشــية التــي لابــد ستنتهي وتندثر بالقضاء على الاستعمار والاســتغلال، ولكن انتهاء الصهيونية لا يعني انتهاء اليهودية "كدين"، وإنما يعنـــي تحريـــره من كل استغلال سياسي له، وذلك في حد ذاته يعني إطلاق حرية العقيدة، ليس فقط لليهود وإنما لكل البشر.

٣– إن تحريـــر فلسطين واستعادة أرضها وعودة شعبها إليها، لا يمكن إتمامـــه، فضـــلا عن ضمان استمراره، ما لم تصبح فلسطين، شأنها في ذلك شـــأن كل البلاد العربية الأخرى جزءا من دولة عربية موحدة تقدمية كبرى، أي أن الـــتحرير يؤدي إلى الوحدة القومية. والوحدة القومية كما هو معروف تنفـــي التميـــيز على أساس عرقي أو لوني أو ديني، أي أن شرط قيامها هو

الديمقراطية. إن الديمقراطية ليست فقط هي الحل الوحيد بالنسبة لتمثل الجماعات اليهودية "القادمة من الخارج" وإنما هي أيضا الشرط الأساسي لكي تقوم أي وحدة عربية وتنجح في القضاء على مخلفات "الإقليمية".

فلسطين الديمقراطية إذن، حتمية تاريخية، كما أنها هدف، وخطة قتال. ذلك يعني أنه بغض النظر عن الطرق والمراحل التي تفصل بيننا وبين فلسطين الديمقراطية فإننا لابد أن نصل إليها. لا يمكن أن يتوقف الصراع قبلها. كما ستفشل كل محاولات القفز من عليها إلى ما بعدها، أو الانحراف بمسار التاريخ عنها، أو الاكتفاء منها باسمها، أو بجزء من أرضها. وستظل كهدف وحتمية تاريخية، تفرض أسلوبا وحيدا للقتال في سبيلها ألا وهو حرب الشعب طويلة الأمد. فالديمقراطية تعني في جوهرها، سلطة الجماهير المسلحة المقاتلة. بهذه الرؤية تمضي قوافل الثوار، وتتحدد خطواتهم، وتقيم إنجازاتهم، وتتجه بنادقهم، وتتميز وسائلهم، فتقصر أيام الشقاء. وتقل مخلفات التعصب والاستغلال، ويتحقق الهدف الإنساني الثوري العظيم: فلسطين الديمقراطية.

فهرس

عزّ الدين القلق*

الكلمة والبندقية

[فـــي أن الكلمـــة الحـــرّة هـــي الكلمة المسؤولة وإلاّ أصابت في مقتل وحصدت خيرة الشباب.]

* الكاتب : محجوب عمر
نشر في مجلة شؤون فلسطينية
عدد ٨٣ – تشرين أول/ أكتوبر ١٩٧٨

* *
*

باريس – ١٩٧٨/٨/٣ – وكالات الأنباء :

"لقـــي عز الدين القلق رئيس بعثة منظمة التحرير الفلسطينية في باريس مصرعه في الساعة الحادية عشرة والنصف صباح اليوم بتوقيت باريس في مكتبه بالطابق الثالث من مبنى الجامعة العربية في باريس".

هكذا ورد النبأ من باريس، وأذيع من الإذاعات على الفور. ومضت ساعات طويلة قبل أن تصدر صحف الصباح تحمل النبأ وما يلزم من البيانات والتعليقات والصور والتفاصيل. خلال هذه الساعات كان بسطاء الناس، الذين يعرفون عز الدين والذين لا يعرفونه، يترحمون عليه ثم يتساءلون عن مصير "القتلة" الذين نالوه.. أخيرا..

وكـــأن الأمـــر لم يكن مفاجأة لأحد. وكأن كل الألم كان لأن الوقع غير الـــتوقّع. فالجمـــيع ممن يتتبع ما يجري على أرض العرب وساحة قضيتهم فلسطين، الجميع كانوا يتوقعون لعز الدين ما وقع، حتى عز الدين نفسه كتب مـــا سيحدث من صورتين على ورق، بعث بالأولى واحتفظ بالثانية ليمهرها بدمـــه ســـاعة اغتالوه، الجميع كان يعرف، الجميع سمع وقرأ، وربما شارك بالحضـــور والكـــلام أو بالنشـــر والـــتوزيع والتأكيد، أو بالصمت استهانة واستخفافا أو خوفا وارتجافا، أو استحياء أن ينطق بما لا يرضي الدافعين أو اكتفاء بموقف المتفرجين.

لـــم يكن الأمر مفاجأة، والجميع كان يعرف. فقد قرأ الناس قوائم الاتهام الموجهـــة إلـــى عز الدين والتي طالبت صراحة بقتله، بل أعلنت الحكم بأنه ســـيقتل "ســـيفقد رأســـه" كما ورد في نص الكلام لأنه كما جاء في مقدمات الادعاء أو ملحقات الحكم "أتصل بالصهاينة" و "اتصف بالملاينة" و "دافع عن

اليميـــن" و "احتل مكانا ليس له" وردد "كالببغاء" رأي "السلطة" في أنها على اســتعداد للاعــتراف "بإســرائيل" والسلطة المقصودة هي "اليمين الرجعي" المسيطر على قيادة م.ت.ف. كما يدعون.

كــان الجمــيع يتوقعون، الأصدقاء الموقنون بكذب هذه الادعاءات كان يــتوقعون، ولكــن وقع القتل كان مريعا، كأنهم كانوا يتوقعون أن يفلت عز الدين هذه المرة أيضا بعد أن أفلت لسبع سنوات من كل استخبارات الصهاينة ومحاولاتهــا. ولكن "عز" لم يفلت هذه المرة. استطاعت "الموساد" أن تصل إليه دون أن تتقدم نحو. حاسة شمه التي لا تخطئ نحو الصهاينة لم ولم يكن من الممكن أن تنقذه هذه المرة.

وكعادة المتفرجين، وقد أفسد التليفزيون الأذواق وقصر الأنفاس، سارع الذين سمعوا بالسؤال: ومن المجرمون؟؟. ثم خابت آمالهم مرة أخرى عندما تبين أن الذين أطلقوا الرصاص صغار ومعبأون (لكي لا نقول مأجورون). وفي الصباح، ومع صدور الصحائف المطبوعة التي تباع والتي تستباح، خابت اللهفة وباخت الحبكة عندما فوجئ القراء والمستمعون والمتفرجون بل والمعنيون بأن "الجميع" أصدقاء وغير أصدقاء، يستنكرون ويدينون وينفون ويتعهدون ويعزون، البعض يبكي والبعض يصيح، والبعض يهز الرأس حكمة ويقول "ألم أقل لكم؟!" حتى قادة نظام العراق أنكروا واقسموا، بل قالوا صراحة "أننا لو كنا نريد لفعلنا ذلك بمناضلينا.. أما الذين قتلوه فهم .. فلسطينيون".

وتفكــر بســطاء الــناس في جلساتهم وتساءلوا: من المستفيد؟. وكانت الإجابــة بسيطة وواضحة. العدو الصهيوني. إذن، فالقتلة هم الصهاينة. قتلة عــز الدين القلق هم الصهاينة، ومهما تكن الوسيلة التي جاؤوا بها واليد التي استعملوها، والكلمات التي مهدوا بها، فإن القتلة هم الصهاينة.

وعندما يقول بسطاء الناس أن القتلة هم الصهاينة فلا بد أن هذا صحيح. ولكن عز الدين القلق " قُتِلَ" وهو في مقر منظمة التحرير الفلسطينية الذي هو فــي قلب مبنى الجامعة العربية. والتطابق كامل بين المكان والسياسة. معنى ذلــك أن القــتلة الصهاينة قد استطاعوا التسلل داخل الغرفة المغلقة التي هي

داخـــل المبـــنى الكبير. كيف حدث ذلك؟ هل كان الحراس نياما؟ هل انشغل الحراس باللعب أو بالشجار أو بحراسة غير المبنى وغير المكان؟ هل كانت بـــنادقهم بعيدة عنهم وقت جاءوا؟ أم هل خدعهم مظهر القتلة فظنوهم عربا وأخوة ولم يكشفوا فيهم الصهيوني المختفي المتعطش لدماء عز؟..

لقـــد تســـلل الصـــهاينة، ونجحوا هذه المرة، وعلينا تقع مسئولية الغفلة و"تسهيل مهمة العدو" وكشف ظهر المناضلين من أمثال عز الدين.

إن إلقـــاء مسئولية لقتل الجنائية والسياسية على الصهاينة وعملائهم لا تعفـــي الجميع منا من مسئولية "الغفلة" و "التهاون" و "تسهيل المهمة القذرة". وسواء كان ذلك عن حسن نية أو عن سوء قصد، فإن الدم الذي سال هو دم أحمر.

واقعة قصيرة جدّا

في خريف ١٩٧١ التقى، وكان قد وصل لتوه من جبال الأردن، ببعض أهـــل الثقافة. قالت "سمعنا عنك" قال: "عفوا". واستمرت تحكي. فأدار رأسه قبل أن تدار بمعسول الكلام ثم سمعها تقول: "هناك عناصر واعية في "فتح" تعرف أن في القيادة عملاء". التفت مدهوشا وقال: "مستحيل". ابتسمت واثقة عـــارفة وقالت: "لماذا، أنها حقيقة مشجعة". قال: "ولكن فتح تعطي كل مقاتل فيها بندقية و١٢٠ طلقة. فأن عرف أحدهم مكان العميل فسيطلق عليه النار".. خالط وجهها مزيج من الفزع والاستنكار: "أتقتل لخلاف في الرأي؟" قال: — "لا، ولكـــن الخلاف في الرأي شيء، والعمالة شيء آخر. واستمرت تمضغ علكـــتها (لبانتها) والكلام، تفسر له لماذا هو حاد لهذه الدرجة، وأن ذلك لابد انعكاس للجبل. لم يجب. فقد كان يعرف أن الجبل لا شأن له وأن الفضل هو للبندقية، وأن الحديث عنها، هو كالحديث بها يتطلب تمييز الهدف والتصويب الدقيق.

فـــي ١٩٦٥ – ١٩٦٦ اتهمت حركة "فتح" بأنها "عميلة" لحلف "السنتو" وأنهـــا بحربها ضد العدو الصهيوني تستفزه وتعرض أمن "الأنظمة التقدمية" للخطـــر. ولابـــد أن أبـــناء "فـــتح" قد تعجبوا في ذلك الوقت من هذا الاتهام

وتعجبوا أكثر من أصحابه. فأصحاب هذا الاتهام هم الذين ملأوا الدنيا "كتابة" و"كلامـا" عـن ضـرورة محاربة الإمبرالية والاستعمار الجديد والعنصرية والصهيونية وكافة أشكال التفرقة والتمييز، وعن فلسطين وضرورة تحريرها وقدسـية معركتها.. ألخ. ومع ذلك، فعندما تقدم نفر من العرب الفلسطينيين فـنفذوا بعـض هـذا الكلام وحولوه إلى فعل، انتفضت نفس الأقلام وتدفقت بالاتهـام تلـو الاتهـام مـن حلف السنتو إلى عملاء الصين. وكانت أخف الاتهامات أنهم من لمغامرين. وتلقفت الأنظمة هذه "التنظيرات" أو ربما هي شجعتها وروجتها، وترجمتها إلى أفعال السجن والاعتقال بل والقتل.

أما "فتح" فقد كانت قد اختارت لنفسها خطة لتصل إلى فلسطين لخصتها فـي شـعار بسـيط واضـح وعمـيق هـو "البنادق كل البنادق ضد العدو الصـهيوني". لـذا كان ردها على هذه الحملة "الكلامية" كما كان ردها على ترجمـتها الفعلية، المزيد من "البنادق الموجهة ضد العدو الصهيوني". كانت "فـتح" تـثق ولا تـزال، أن ممارسة هذا الشعار/ الخطة هو السبيل لتعبئة الجهود، ورص الصفوف، وتوحيد القوى، وتصحيح المسار، ومواجهة التآمر وكشف العملاء والمزايدين، وخلق الإنسان العربي الجديد، وتحرير فلسطين ووحدة لعرب أجمعين.

وكـل هذا صحيح، ولا بديل لهذا الشعار/الخطة ولا غنى عنه وستظل فـتح تقـاتل داخل فلسطين هجوما على الدوام، وخارج فلسطين دفاعا على الدوام. ولقد انتصرت هذا الشعار/الخطة في الممارسة، وسقطت أوهام كثيرة وانطوت صفحة أفكار وتنظيمات ونظم كانت تتبارى يوما بالكلمات والبرامج والانقلابـات. ولكـن المعركة لا تزال مستمرة. فلسطين لم تزل بعد محتلة، والواقع العربي ما يزال مجزأ يحمل كل أوزار الماضي وأمراض الحاضر، والتقدم نحو فلسطين لا يعني بحال أن تقل العقبات، بل يعني في كل الأحوال أن يـتكاتف الذيـن سيخسـرون ويهـزمون وأن يشـتد سـعار الصهاينة والمستعمرين ضد الثوار المنتصرين.

فلئـن كـان الشـعار/الخطـة قـد استطاع انتزاع المبادرة من العدو الصـهيوني، ولئن كان لشعار/الخطة قد استطاع أن يصون استقلال البندقية فـي وجـه الاحتواء وفرض الوصاية، فإن العدو لن يستسلم بل سيحاول أن

يتسلل ويضرب من الداخل مستغلا ما تبقى من القديم وما لم ينجز من الجديد. والقديم موروث ومصدر، وما لم ينجز من الجديد مسئولية الأحياء منا.

وأهم ما لم ينجز من الجديد هو "لأفكار". ولم تكن "فتح" تتوهم أبدا أنها إذا بدأت القتال ضد العدو الصهيوني فإن الأفكار الأخرى القديمة ستنهار. ولكنها اختارت أن تصب جهودها في حقل "الفعل" على أمل أن يثمر هذا الحقل "أفكاره" وتتعمق جذورها بدماء الشهداء.

المشكلة مع "الأفكار" هي أنها تعيش حتى بعد زوال أسبابها ومصادرها، وهناك أفكار تعشعش في العقول منذ آلاف السنين رغم زوال الظروف التي أوجدتها. والمشكلة الأكبر في حالتنا هذه هي أن الأفكار الخاطئة القديمة ما تزال تجد لها جذورا فعلية على الساحة الفلسطينية والساحة العربية بشكل عام. وفي عالم الاتصالات الفورية الحديث والقوى الأجنبية الطامعة والعدو الماكر الخبيث، تجد الأفكار الخاطئة لقديمة مجالا ومصدرا وملاذا ومروجا ومشجعا ومستغلا ومستفيدا.

ولا يعفينا هذا كله من أن نقر بمسئوليتنا جميعا. أننا لم نناضل بالدرجة الكافية ضد الأفكار القديمة، بل ربما سمح بعضنا لنفسه دون أن يعي باللعب بها ومعها نزوعا مرضيا "للقديم" واستجابة للزوميات الأوضاع الاجتماعية التي يتمتع بها "المتعلمون" المتعاملون مع الأفكار والكلمات في بلادنا الفقيرة الأمية.

بسطاء الناس في بلادنا يعرفون قيمة البندقية ويعرفون أن من يملك بندقية يجب أن يملك لسانه معها وإلا صار أضحوكة الآخرين. يعرفون أن للبندقية تقاليدها وحقوقها وواجباتها ومسلكيتها. يعرفون أن البندقية في يد "الأطفال" تقتل وفي يد "العقلاء" تصون. يعرفون أن البندقية في يد الشعب حرية وفي يد السلطة قمع. يعرفون أن البندقية في يد الثوار ثورة وفي يد غيرهم إرهاب في أحسن الأحوال والنيات. أين أصحاب الكلام وأدعياء لمعرفة والنظريات من كل هذا؟!

لقد تعود البعض قبل "البندقية" أن يجمع الأعداء في سلة واحدة ويرجمها بالكلمات. وما أسهل أن تصف الأعداء جميعا في سطر واحد أو فقرة واحدة فــي مقــال أو كــتاب ثــم تنهال عليهم بالنعوت واللعنات، ولكن البندقية لا تستطيع، فحاملها لا يغفل من هم الأعداء ولكنه مضطر، لأن يختار الأول من بيــنهم لكي يركز عليه النيران. هل كان عز الدين القلق هو "الأول" من بين أعــداء الذيــن أمــروا بالقتل وحرضوا عليه. بل الذين نفذوه؟!! أن اعتماد البندقية أسلوبا للنضال يحتم تضييق "جبهة الأعداء" بلا جدال، فهل كان "قتل" عز الدين سبيلا إلى ذلك؟ وهل كان عز الدين حقا من الأعداء؟!!

إن الــبعض فــي قديم الزمان وحديثه تعود "حرفة الكلام"، والكلام كما يقــول بسطاء الناس يزداد كلما مضغته ويكبر كلما ابتل بريق الفم فما بالكم ببريق الدنانير؟ والكلمة تجريد، والانتقال من التجريد إلى التجريد سهل، فإن كنــت مخالفا في الرأي فأنت "مضلل" وإن كنت مضللا فأنت "منحرف" وأن كنــت مــنحرفا فأنــت "انتهزي" وأن كنت "انتهازيا" فأنت "تصب الحب في طاحونة الأعداء"، فأنت "جاسوس" أو "عميل". وللتبسيط، أن كنت مخالفا في الــرأي فأنــت "عميل" وهكذا إن كنت عميلا فأنت عدو وأخطر من الأعداء أنفســهم. والمقياس في كل ذلك هي "ذات" الذي سيصدر عليك الحكم، فيدينك أو يضمك إلى أتباعه.

ولكــن اعــتماد "البندقية" شعارا وخطة لا يتحمل هذه الرفاهية الفكرية والاستمتاع اللفظي. فالرجل الذي يحمل البندقية يعرف أن عليه "إن قال فعل" وإن أدان نفــذ. وأن الطلقة إن خرجت من بندقيتها هي كالكلمة الصادقة، لا تعــود ثانية، وأن الموتى لا يقومون في هذا العصر وأن قرأنا على قبورهم آلاف صــفحات النقد الذاتي. لذا لا يتسلى الذين يحملون البنادق بالكلام، ولا يســرعون بالأحكام، ولا يخلطون بين العدو وبين الصديق، ويحترمون القلم والكلمــة كمــا يحــترمون البندقية فيحافظون عليها نظيفة لا تشوبها شائبة، ويعرفون أن هناك فرقا كبيرا بين البندقية وبين عصا الراعي.

والعجيب أن الذين يرمون مخالفيهم في الرأي بتهم العمالة والجاسوسية والاستسلام واليمينية والرجعية فيفتحون بذلك باب رمياتهم بالرصاص، يطالبون بأن تسود الساحة علاقات "الحوار الديمقراطي". بل وصل الأمر ببعضهم إلى حد القول بأن عز الدين القلق وعدنان حماد، وشهداء الباكستان، ومن قبلهم علي ياسين ومن قبله سعيد حمامي، إنما هم "ضحايا" الخروج على قواعد الحوار الديمقراطي كأن الأخوة قتلوا لأنهم اعترضوا على مناقشة أو انسحبوا من جلسة أو علا صوتهم في النقاش أو هم أقلية لم تخضع لقرار الأغلبية كما هو مفهوم الديمقراطية. أن "**الديمقراطية**" **سلطة**. ولعل ذلك ما ينساه بعض المطالبين بها، وترجمتها كما يعرفون قطعا "سلطة الشعب" وهي في الممارسة تعني "خضوع الأقلية الليبرالية وخضوع المستوى الأدنى للمستوى الأعلى"، أي **هي التزام**.. والأمر الذي لا شك فيه أن الأخوة الذين قتلوا في باريس ولندن وباكستان والكويت إنما قتلوا لأنهم **ملتزمون**، أي لأنهم يمارسون بالفعل قواعد الديمقراطية وهو ما أغضب قطعا الذين يهمهم أن تسود الساحة الفلسطينية **الفوضى الليبرالية** رغبة في اغتنام الفرص التي تتولد عنها لفرض وصاية أو لحرف اتجاه البنادق، ومن جانب العدو الصهيوني: **لإثارة الاقتتال**.

إن الالتزام بالبندقية خطة وشعارا لتحرير فلسطين قد هدى "فتح" منذ الأيام الأولى إلى قاعدة الحوار الديمقراطي قانونا للعلاقات داخلها، وفيما بينها وبين الفصائل الأخرى، ذلك أن الذين هم جادون في حمل البندقية هم بالضرورة جادون في البحث عن سبل توحيد اتجاها. ويكفي أن يراجع نفسه من يعرف الأخوة الذين قتلوا، ليتأكد أنهم – وهم جميعا أبناء فتح – لم يكونوا نسخا طبق الأصل من أحد ولا من بعضهم البعض، إلا أنهم جميعا التزموا بأن يوجهوا بنادقهم ضد العدو الصهيوني، وأن يقدموا فلسطين على كل شيء آخر. هذه هي مبادئ "فتح" التي فرضت نفسها على أسلوب الحوار والتعامل. لذا ففتح تعلن دائما "أن البندقية التي تضاف إلى الألف بندقية هي قوة". وكثيرا ما تلام "فتح" بالذات من جانب الذين يتكلمون هذه الأيام عن الحوار الديمقراطي بسبب ديمقراطيتها "الزائدة عن الحد" حسب قولهم.

المشكلة هنا أن بعض الذين حملوا البنادق بعد "فتح" وربما من "فتح" لم يدركوا بعد أن "البندقية" شأنها شأن أي أداة تخلق علاقاتها، وأنها بالضرورة تفرض الديمقراطية بالمعنى المشار إليه آنفا، وترفض الليبرالية بالشكل الذي يمارسون.

"**البندقية**" تحتم **وحدة الوقف، أي وحدة التصرف العملي**، وهذه لا تتحقق إلا بالالتزام والانضباط العالي. أن أحدا على الساحة الفلسطينية لم يحاسب أو يمس بسبب رأيه. ولكن التصرف العملي شيء، وإبداء الآراء شيء آخر. قد تتحمل الأوراق خلافات الرأي، وقد يطول الحوار حولها، ولكن أن تختلف البنادق لتطلق كل منها في اتجاه، وفي أي وقت يشاء حاملها، فهو أمر غير معقول على الساحة الواحدة، حتى ولو كانت ساحة للصيد لا للقتال.

وعـــندما يســـلم الجميع بأن "البندقية" هي بندقية واعية، أي هي ليست للصـــيد أو التســـلية وإنما لتنفيذ خطة سياسية، تكون وحدة التصـرف العملي أولـــى من أي حالة أخرى، وتكون السبل لضمان وحدة الموقف هذه هي من قواعـد الانضباط التي ينشأ عليها المقاتلون، والتي هي بالمناسبة من تراث بسطاء الناس أيضا.

ثـم كـيف يمكـن تصور إجراء حوار ديمقراطي، "أي حوار سينتهي بالـــتزام" بيـــن من يسوق الاتهامات بالاستسلام والرجعية واليمينية والخيانة والعمالـــة إلى آخر هذا القاموس وبين الذين يتهمهم. إن "**الحوار الديمقراطي**" **هو شكل الصراع الذي ينطلق من وحدة ليؤدي إلى مزيد من الوحدة**، (أليس القانون كما يكررون هو: وحدة – صراع – وحدة) فأي وحدة هذه التي بين الرجعيين والثوار؟ وأي حوار يمكن أن يستمر والمقاتلون يصنفون إلى يمين ويسار؟ أن الرجل البسيط لا يرمي زوجته بالزنا ثم لا يطلقها، وهو أن حمل البندقـــية فهـــو بالتأكيد **لا يفكر** في اتهامها بالزنا قبل أن يضع أصبعه على الـــزناد. فمـــا بالكم والاتهامات هنا بالخيانة والرجعية واليمينية والاستسلام والانبطاح والتآمر.. الخ!! على الذي يعلن أنه ملتزم بالحوار الديمقراطي أن يعلـــن أولا عن الحد الأدنى من الأهداف والسياسات التي يتفق فيها مع الذين يـــريد التحاور معهم. فإن لم يفعل، وأسقطهم من حساباته كقوى حليفة على

الأقــل، فقــد أضافهم إلى "أعدائه" ولا حوار بين المتعادين ولا لالتزام. ولا مكــان هــنا للتسلي بمتعة توجيه الاتهامات اللفظية فالساحة ملأى بالبنادق، وبســطاء الــناس لا يفــرقون بين كلمتهم وبين بندقيتهم، **والعدو الصهيوني مــتربص يتلهف لسماع "تهمة" ليقوم هو وعملاؤه "بالتنفيذ"**، وليس للناس على ظهر الأرض حق الحكم على النيات.

ثم أن الأمر في النهاية كما هو في البداية لا يرجع إلى القاعدة التنظيمية لهــذه العلاقــة أو تلــك، وإنمــا يرجع إلى "السياسة": فالتنظيم أداة السياسة وانعكاسها، لذا فإن "فتح" التي اختارت أن توجه البنادق كل البنادق نحو العدو الصــهيوني، قدمــت هــذا الشعار/ الخطة، إطارا وحدا أدنى لكل حوار في داخلها، وفيما بينها وبين الفصائل الأخرى، ولمن يرى لنفسه عدوا الآن غير العــدو الصــهيوني، فلــه الحــق، ولكن عليه إلا يحاول سوق "فتح" بالقوة والاغتــيالات إلــى طريقه لأن ذلك على الأقل لن يجعله يحارب عدوه الذي اختاره، إلا إذا اعتبر "فتح" عدوه الأول، عندئذ سيتحالف مع العدو الصهيوني الذي اتخذ قرارات علينا بتصفية "فتح" ورجالها ومقاتليها.

أمــا الذين يجمعهم حد أدنى من الاتفاق، فإن حوارهم سيكون من أجل العــثور على مزيد من نقاط الاتفاق، ومن أجل تطوير أشكال الوحدة القائمة، ســيكون تنافسا في التضحية من أجل القضية، في تصعيد النضال ضد العدو الصــهيوني، ســيكون صراعا بين الاجتهادات اليومية في النضال من أجل فلسطين، وعلى الذي يقدم نفسه باعتباره الأكثر وعيا والأكثر ثورية أن يثبت ذلك بالفعل لا بالألفاظ، بالالتزام لا بالليبرالية.

ولــيس أحب على قلب العدو الصهيوني، وعلى قلب القوى الطامعة في الوصــاية علــى الصــورة الفلســطينية، مــن أن تشيع الليبرالية بدلا من الديمقراطية، فهي فرصة لهم لممارسة القتل والاغتيال وإثارة الاقتتال، ومن ثــم التصــفية أو السيطرة، ثم يجدون في فوضى الأقوال وفي كل الأحوال الفرصة لاتهام المتصارعين بما يفعلون هم وعملاؤهم.

علـــى من لم تقنعه هذه الكلمات والوقائع أن يفكر قليلا: من الذي استفاد من اتهام سعيد حمامي وعلي ناصر ياسين وعز الدين القلق، واستباحة دمهم وتخوينهم علنا وبكافة وسائط النشر قبل أن يقتلوا؟.

آن الآوان وربما قد تأخر، أن نقر جميعا بالفجوة بين البندقية وبين واقع الأفكار حولها.

هــذه البندقــية المنتصـــرة، ما تزال أفكارها تعاني من حصار الأفكار القديمـــة، ومن هجمات الأفكار المصدرة إلينا، ومن أمراض "الليبرالية" التي تريد لها أن تندثر بالفعل طالما هي تريد لها أن تتفرق.

وتلـــك هي مسئوليتنا، أن ندافع عن فكر "البندقية"، أن نربط بين الكلمة وبينها، ألا نستهين بالكلمات فنستهين بذلك بحياة المناضلين، ولا ينفع الندم.

أفلـــيس غريـــبا أن بعض أهل "الكلمة" و "الفكر" (هكذا يقدمون أنفسهم) يقيمون الدنيا ويقعدونها احتجاجا على مظاهر إطلاق النار في الهواء، ثم هم لا يـــرون غـــرابة فـــي إطـــلاق الاتهامـــات القاتلة التي يرمي بها الثوار المخلصـــون؟! لـــو أن عشـــر الأصوات التي ترتفع محتجة على المسلكيات اليومـــية الخاطئة قد ارتفعت احتجاجا وإدانة يوم مقتل سعيد حمامي، لما قتل علـــي ناصر ياسين. ولو كانت ربع مساحات الورق التي خصصت للهجوم علـــى "فـــتح" واتهامهـــا باليمينية والرجعية والاستسلام قد خصصت لفضح جريمة اغتيال علي ناصر ياسين لما قتل عز الدين القلق.

إن المواقـــف الواضـــحة والآراء الصحيحة، والأفكار المحددة هي التي تحمـــي البندقية من أن يستغلها الأعداء. وفي عالم اليوم المعقد والمتشابك لن يكون سهلا ولا صحيحا على أي حال، أتباع الأساليب البوليسية للوصول إلى حقـــائق الأحداث. أن أحدا لا يعرف حتى الآن من الذي قتل كينيدي؟ ولكن الجمـــيع يعـــرفون من استفاد من قتله. كما أن أحدا لا يمكن أن يجزم بعدم وجود اختراق معاد عند هذا المستوى من العمل أو ذاك في أي مكان وتنظيم، ولكـــن الجميع يمكنهم أن يحاسبوا الناس بأقوالهم هم وبأفعالهم هم وليس بما خفى ولا بالنيات.

وليتذكر كل الذين يقدمون أنفسهم باعتبارهم "الأوعى" و "الأكثر ثورية" أنهم إذا لم يثبتوا ذلك بالفعل فإنهم لن يكونوا إلا "مزاودين". فإن أطلقوا الاتهامات أو النار على الآخرين الذين يتهمونهم بالعجز أو بالتخلف أو باليمينية أو بالرجعية أو بالاستسلام إلى العدو، أو إلى آخر ما في قاموسهم، فإنهم سيفقدون مبرر وجودهم إذا فقدوا تمييز أعدائهم بعد أن يكونوا قد فقدوا اتجاههم. وليتعلموا من "فتح" التي لم تهاجم أحدا عندما انطلقت، وبدأت، برغم أن انطلاقتها كانت فعليا إدانة لمن سبقها ولكنها حرصت على توجيه بنادقها نحو العدو الذي حددته ألا وهو العدو الصهيوني.

إن مقياس الثورية عند العرب ليس هو قدر ما يتردد من ألفاظ، وإنما هو قدر ما يتوجه من بنادق ضد العدو الصهيوني، كذلك مقياس التقدمية، كذلك مقياس الصواب والخطأ.

وتبقى مسئولية المشتغلين بالكلام والأفكار أن لا يهادنوا أو يتهاونوا مع الأفكار الخاطئة، وأن يكونوا على حذر من الخلط بين الليبرالية (أي الانفلات وعدم الانضباط) وبين الديمقراطية (أي الالتزام والوحدة).

واقعة قصيرة جدا.. أخرى

في ١٩٦٦ أو ١٩٦٧، حضر إلى القاهرة المرحوم علي صالح السعدي. انقسم موقف "التقدميين" وقتذاك. البعض استقبله والبعض رفض استقباله لأنه شارك، بل دعا إلى قتل عشرة آلاف شيوعي في بغداد في ١٩٦٣. وقال هو في مقال منشور أنه نقد نفسه نقدا ذاتيا، وأنه أسس حزبا أسماه "حزب البروليتاريا الثوري"، ويومها نشرت روز اليوسف مقالا للدكتور ثروت عكاشة قال فيه "ولكن النقد الذاتي لا يمحو الدماء عن الأيدي".

والنقد الذاتي لا يقيم الموتى أيضا، ولكنه على أية حالة قد يمنع مزيدا من القتل.

١٥/ ٩/ ١٩٧٨

وجهة نظر في استراتيجية المفاوض المصري*

[كان إعلان الرئيس المصري، أنور السادات، موافقته على زيارة القدس المحتلّة، عام ١٩٧٧، تلبية لدعوة رئيس وزراء إسرائيل، مناحم بيغن (الذي لم يكن يتوقّع أو ربما لم يكن يريد أن تؤخذ دعوته مأخذ الجدّ)، كان حدثا يفوق طاقة استيعاب المخيّلة العربية. وتمّت الزيارة في ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٧، وفي ١٧ أيلول/سبتمبر ١٩٧٨، وبعد اثني عشر يوما من مفاوضات سرية رعتها الولايات المتحدة في كامب ديفيد، وقّع الرؤساء الثلاثة (أنور السادات، ومناحم بيغن، وجيمي كارتر) على اتفاقي-إطار. نصّ أوّلهما على عقد اتفاقية سلام بين مصر وإسرائيل، تمّ توقيعها في واشنطن بتاريخ ٢٦ آذار/مارس ١٩٧٩، واستردّت مصر بموجبها شبه جزيرة سيناء سنة ١٩٨٢، في حين حدّد الاتفاق الثاني –الذي لم يطبّق– إطاراً للسلام في الشرق الأوسط، ورهن مصير الضفة الغربية وقطاع غزّة بمسار تفاوضي رباعي بين الأطراف المصرية، والاسرائيلية، والأردنية، والفلسطينية، كان من المفروض أن ينتهي إلى مرحلة انتقالية من الحكم الذاتي.

وانقسمت الصفوف مع هذا التغيير التاريخي الاستراتيجي الهام.

والنصّ التالي يذكّر بأن زيارة الرئيس السادات إلى القدس المحتلّة لم تكن هي "بداية" المسار التفاوضي بين العرب وإسرائيل كما أنها لا تعني "نهاية" الصراع بينهم، ويقترح قراءة منهجية للحدث ويبيّن أن مثل هذا التحوّل الكبير لا يمكن حسابه بنظريّة المؤامرة، لاسيما و"أن الخطأ في تفسير الأحداث والوقائع .. يؤدّي إلى الخطأ في خطط التأثير فيها"..]

---

* الكاتب : محجوب عمر
١٩٨٠/٧/١
نصّ غير منشور

تنبيه ..

هذا المقال، أو التقييم، يتناول قضية حساسة عند القارئ العربى عموما، والقارئ العربى النشط سياسيا بوجه خاص.

فمـــن المعتاد ألا يرى عامة الناس، أو حتى عامة المناضلين والنشيطين السياسيين إلا "الأعمال" وقد تم تنظيرها وإلباسها أردية سياسية وفكرية معينة، تتفق أو تتعارض، مع ما يتبناه القارئ من سياسات وأفكار.

لكن هذا المقال يسقط كل التبريرات اللفظية التى تتعلق بموضوعه سواء مـــنها المؤيدة للصلح المصرى – الإسرائيلى أو المعارضة له. لذا فإن جميع الكلمات "الوصفية" مستبعدة من صياغة المقال.

كذلك فإن موضوع المقال، وهو عن استراتيجية المفاوض المصرى فى المفاوضـــات المصـــرية – الإســـرائيلية، يفـــتقر إلى أى مرجع كامل قدمه "المفـــاوض" المصـــرى، والمـــتوفر هـــو مجموعـــة من الخطب والبيانات والتصـــريحات والأحاديـــث الصحافية التى أدلى بها مسئولون مصريون من مستويات مختلفة دفاعا أو تبريرا أو ترويجا لما يفعلون.

لـــذا فـــإن التصـــور "أى السيناريو" المتجمع فى هذا المقال عن أفكار المفـــاوض المصرى هو تصور اجتهادى مبنى على أساس تلك التصريحات والخطب والبيانات والأحاديث بعد استبعاد الادعاءات المتكبرة. "لا يجلس أحد إلى طاولة المفاوضات بدون أن يشمخ بأنفه بكبرياء مصطنعة".

ثـــم إن دوافع تناول الموضوع على هذه الصورة نابعة من رفض منهج تفســـير الأحـــداث الكبرى (كالصلح بين مصر وإسرائيل) على أساس غيبى فردى (مؤامرة سرية نفذها عميل مدرب وتقاضى ثمنها) فمثل هذا الحدث ما كـــان ليتم، وإن تم ما كان ليستمر لأكثر من ثلاثة أعوام حتى الآن لولا أن

الظروف الموضوعية فى مصر والوطن العربى وفى العالم تسمح له بالتحقق والاستمرار.

إن الخطأ فى تفسير الاحداث والوقائع الراهنة يؤدى إلى الخطأ فى خطط التأثير فيها أو مواجهتها وتغييرها أو حتى نفيها.

إن الاكتفاء بتوجيه تهمة العمالة تعنى التوقف عن تقييم ما يحدث إلى أن يختفى العميل عن المسرح السياسى. والأخطر أنها تعفى الأطراف الأخرى المعنية التى يلعب موقفها ووزنها دورا فى تحديد موقف الطرف المصرى، تعفيهم من أى مسئولية.

كما أن "التصور" الذى يطرحه المقال عن خطة المفاوض المصرى يرفض الافتراض القائل بأن كل ما يحدث هو "مخطط أمريكى" يقوم السادات وبيغن بتنفيذ أدوارهما فيه، ويستطرد بعض القائلين بهذا المفهوم فيقولون إن **الجميع**.. **والجميع** تشمل كل القوى المؤسسية السياسية فى الوطن العربى، يسهم فى هذا المخطط حسب نص مرسوم من "الإمبريالية الأمريكية". وليس هنا مجال تفصيل أسباب رفض الكاتب لهذه الفكرة، ولكن المقال قائم على فكرة أخرى وهى أن لكل طرف مخططه النابع من تقديره لمصالحه وأهدافه. وقد يكون، بل من المؤكد، أن لبعض الأطراف والكبرى منها بوجه خاص، أكثر من مخطط. "فالكبار لديهم أكثر من خيار" هذه الفكرة تسمح بتقييم مدى دقة الخطة التى نحن بصدد مناقشتها، ومن ثم درجة مسئولية واضعيها والقائمين على تنفيذها.

والدافع لتناول هذه القضية على هذه الصورة هو أن الكاتب لا يعتبر أن زيارة الرئيس المصرى إلى القدس المحتلة كانت "بداية" التفاوض مع العدو الصهيونى ولا هى نهاية الصراع ضد كيانه القائم على أرض فلسطين المحتلة. فليست هذه هى المرة الأولى التى يفاوض فيها رئيس عربى العدو الصهيونى، ولا هى المرة الاولى التى يلتقى فيها حاكم عربى بمندوبى العدو الصهيونى، ولا هى المفاوضات الأولى فى تاريخ الصراع وإن تكن الأولى من ناحية (العلنية) (والمباشرة) كما أن "التفاوض" هو الأسلوب الغالب على

سلوك الأنظمة العربية فى مواجهة العدو الصهيونى ولا يتغلب أسلوب الصراع المسلح إلا تحت ضغط الجماهير أو بأيديها هى (أى الجماهير) كما هو حادث بالنسبة إلى الكفاح المسلح الفلسطينى.

وليس من الممكن الفصل بين الأنظمة والجماهير، فالنظام أى نظام هو فـــى اللحظـــة الزمانية المعينة، محصلة صراع القوى فى المجتمع المعين، **وجزء منها**. لذا فإن تفاوض الحكام تأثرت بذلك حرب الجماهير، وكذلك إذا حـــاربوا. ولا يكفى أن ندير ظهورنا لما يفعله الحكام إدانة، ونختبئ وراء ما نـــرفع من شعارات ونريح أنفسنا من مواجهة قد تكون مفروضة علينا، وقد يمكنـــنا أن ننتصر فيها، أو قد لا نكون بقادرين **الآن** على خوضها ولابد من أن نعد العدة لها.

إن ما حدث فى مجرى الصراع العربى – الإسرائيلى يستحق الدراسة العملية ولكن الجميع لابد أن يوافقوا على أن معاهدة الصلح المصرية – الإسرائيلية هى حدث يؤرخ التاريخ به قبل وبعد. فما قبله كان، وما بعده يحتاج إلى استعداد وإعداد وتجديد.

أليس من الواجب أن نسأل أنفسنا عن احتمالات المستقبل، ومن ثم نحدد لأنفسنا خيارات المستقبل ؟ أو ليس من الجمود أن نتوقف عن حد حتمية مثال واحد، ومن ثم حتمية خيار واحد، فنضيق بذلك على أنفسنا الخناق وقد لا نتنبه إلى الاحتمالات والخيارات الأخرى إلا بعد فوات الأوان ؟

إن حتمية الهدف لا تعنى حتمية الطريق. فالوصول إلى هدف معين يتم بطرق عدة بعضها يفشل فى الوصول، وبعضها يتعرج ويتوه فى غياهب العفوية التى تقوم على فقدان المبادرة والإرادة وبعضها يتعارض وبعضها يتقاطع وبعضها يصل ناقصا أو مبتورا أو على غير ما حلم به السائرون. ولكل أن يختار طريقه، وبالطبع فإن من يختار طريقا يؤكد أنه "الحتمى الوحيد" ويدعو له ويمضى فيه، ولكن ذلك لا يجب أن يخفى عن عينيه الطرق الأخرى وأن يعيد تفحص مواقف أصحابها ليقيمها.

وأخيرا، غنى عن القول إن منطلق المقال هو **حتمية** استمرار الصراع بيـــن الكيان الصهيونى ومجموع الأمة العربية حتى **يزول**. وذلك مع تفاوت

فـــى درجـــة حدة الصراع ومدى اشتراك قطاعات الأمة على اختلافها فيه، وتعدد طرق ممارسته من الصمود السلبى إلى الهجوم الإيجابى، ومن تجميد الجبهات بحجة "الاستعداد" إلى تسخينها بهدف التحريك والضغط. إنه صراع طويل ترتبط به كل قضايا الصراع الأخرى فى الوطن العربى. **وهو صراع من أجل الاستقلال العربى الذى ينقضه مجرد وجود الكيان الصهيونى على أرض فلسطين.**

الخطة المصرية ..

الإعـــلان عـــن الاســـتراتيجية القومية الشاملة لبلد من البلاد ليس أمرا مألوفـــا. والاســـتراتيجية الخاصـــة بمعـــركة مـــن المعارك أو بصراع من الصراعات التى يخوضها هذا البلد تعتبر عادة سرا من الأسرار التى تحافظ عليها القيادة ضمانا لمبدأ المفاجأة والمناورة.

كذلك الأمر فيما يتعلق باستراتيجية النظام المصرى بالنسبة إلى الصراع العـــربى الإسرائيلى. صحيح أن هناك آلافا من الكلمات المكتوبة والمنطوقة الـــتى تعلن عن نيات النظام فى هذا الشأن، ولكن جمعها والمقارنة بينها مع أخـــذ شخصـــية قائلـــيها أو كاتبيها فى الاعتبار، من شأنه أن يورث الباحث الحـــيرة والضياع. ولعله أمر مقصود **للتمويه**، ولعله أيضا يعكس حالة من حالات **الاستجابة البراغماتية** لتطور أحداث الصراع، وربما كان دليلا على عـــدم **تمرس** القيادات المسئولة **بأسلوب** التفكير العلمى المخطط المحدد وهو علـــى أى حال يعبر ويدل على **عدم احترام** عقول السامعين والقراء وعقول الناس عامة.

بـــل أن الباحـــث عـــن الاســـتراتيجية المصـــرية فى الصراع العربى الإسرائيلى سيكتشف من استقراء وقائع تغير الاشخاص الذين يعدون من بين صـــانعى القرار، أن هناك أكثر من هيئة أو دائرة أو حلقة أو مستوى لصنع القرار بالذات، يحسب الرئيس حساب المؤسسات القائمة ولو عملا بقاعدة "إن الاستراتيجى وأن الكثيرين ممن يتصور الناس، بل يتصورون هم أنفسهم أنهم مشاركون فى صنع القرار، هم فى الحقيقة مجرد منفذين له بعد أن يتم اتخاذ

القـــرار فى هيئة أخرى قد تكون حلقة أضيق من نفس المستوى أو مجموعة مستشارين إلى جوار هيئات القيادة، أو حتى هيئة سرية غير معلن عنها لها من النفوذ والتأثير ما يجعلها ترسم الاستراتيجيات وتفرض تنفيذها.

وفـــى مصـــر "**أردت أن تطاع فمر بما يستطاع**". وأهم هذه المؤسسات وأكـــثرها تنظـــيما ونفوذا وتأثيرا هى المؤسسة العسكرية التى دخلت مجال التأثير السياسى فى يوليو / تموز١٩٥٢ ولم تخرج منه حتى الآن، ولا يبدو قريبا وقت خروجها من التأثير المباشر والفعال.

لـــذا فإن التصور التالى للخطة المصرية يعانى من كل ما سبق، ويأتى كمـــا ســـيتبين معـــتمدا علـــى الاستقراء والاستنتاج أكثر منه اعتمادا على المعلومات والبيانات المباشرة المحددة.

وبالرغم من أن هذه الطريقة مقبولة عموما فى الدراسة والبحث إلا أنها تحمل فى طياتها ثغرة التأثر بالرؤية والقناعات الذاتية للباحث مما يؤدى إلى هامش كبير من الاختلاف حول الدوافع والأفكار يقل كثيرا عن الحديث عن الأعمال والوقائع.

مـــثال علـــى ذلك، أن أربعة من وزراء الخارجية المصريين استقالوا وجمـــيعهم مشارك بدرجة أو بأخرى على "طريق التفاوض"، ومع ذلك فمن الصـــعب معرفة أفكار أى منهم فى "عملية التفاوض" ولا درجة تناقضهم مع غيرهم من العاملين فى إطار هذه العملية. لذا فإن استقراء أو استنتاج أسباب استقالاتهم قد يختلف عما هو بالفعل، أما واقع استقالاتهم فلا خلاف عليه.

* *
*

مـــن الممكـــن تلخيص **الاستراتيجية المصرية العامة**، وبالذات فى عهد الرئيس السادات بأنها:

"استعادة الأراضى العربية المحتلة فى يونيو/ حزيران١٩٦٧ وفى مقدمتها أرض سيناء المصرية، وتجميد الصراع العربى – الإسرائيلى إلى ما بعد هذا الجيل (أى ما بعد هذا العهد".)

وليلاحظ القارئ استخدام كلمة **استعادة** بدلا من كلمة **تحرير** التى يختلف قائلوها على معناها وحدودها. كما يلاحظ عدم استعمال عبارات الاستراتيجية المعلنة منذ يونيو/ حزيران١٩٦٧ والتى تكرر إعلانها مئات بل آلاف المرات منذ ذلك التاريخ ألا وهى "**إزالة آثار العدوان**". ذلك أن **آثار العدوان تبدأ بعد إزالته** (وهو ما نعيشه هذه الأيام)، ولغموض هذه العبارة غموضا شديدا يسمح بعشرات التفسيرات.

باختصار تكون القيادة المصرية قد حددت لنفسها هدفا هو "إسترجاع الأرض وممارسة شكل من أشكال السيادة القانونية عليها" ولم تحدد ثمن استرجاع الأرض ولا أسلوب ذلك.

ونلاحظ أن هذه الاستراتيجية واضحة فيما يتعلق بالهدف، **غامضة** فيما يتعلق بالوسيلة والثمن، وذلك بالمقارنة مع الاستراتيجية التى أقرها مؤتمر الخرطوم فى أغسطس/ آب ١٩٦٧ والتى كانت **غامضة** فيما يتعلق بالهدف(إزالة آثار العدوان) **واضحة** إلى حد ما فيما يتعلق بالوسيلة والثمن (لا مفاوضات، لا صلح، لا تنازل، لا اعتراف) ولقد بدأت القيادة المصرية تتراجع عن حدود ذلك منذ القبول بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ فى تشرين ثانى/نوفمبر١٩٦٧، ثم بقبول مشروع روجرز فى تموز/ يوليو١٩٧٠، واستمر هذا التراجع لفظيا (Verbal) حتى حرب تشرين/أكتوبر١٩٧٣.

ولقد لعبت هذه الاستراتيجية المعلنة بعد هزيمة ١٩٦٧ دورا أساسيا فى توجيه السياسة المصرية الخارجية والداخلية والعسكرية طوال سنوات ١٩٦٧ -١٩٧٣. وليس هنا مجال ذكر تأثيرها فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية ومجال العلاقات الدولية، وإنما نسجل بإيجاز أن الجهود كلها انصبت على إعادة بناء القوات المسلحة المصرية كقوة دفاعية تمنع تقدم العدو فى السنوات الثلاث الأولى ثم كقوة هجومية يمكنها عبور قناة السويس والتمركز على ضفتها الشرقية فى السنوات الثلاث التالية.

ولقد انبنت استراتيجية حرب١٩٧٣ على هذه الاستراتيجية العامة أى "**استرجاع الأراضى بأى ثمن وبأى وسيلة**"، ويمكن أن نجد تلخيصا محددا لاستراتيجية هذه الحرب فيما كتبه عنها الجنرال يسرائيل طال إذ قال*:

---

* يسرائيل طال: نظرية الأمن الإسرائيلية، ن. د. ف، ١٩٧٧/٢/١٥.

"لقد تعلموا (أى العرب) كيف يفكرون ويستخلصون العبر العقلانية من التجربة، لقد تعلموا كيف يقومون العناصر الأساسية بصورة صحيحة والاعتراف بالظروف القاهرة، والتخطيط طبقا لحدود القوة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية".

ثم يقول بعد ذلك:

" لقد نصت الاستراتيجية العربية الجديدة على وجوب تفضيل إحراز فورى لإهداف عسكرية محددة على السعى إلى إحراز أهداف شاملة فى وقت لاحق، لقد اعتبر العرب أن مجرد وقوع الحرب هو هدف وضمانة لإحراز الأهداف الشاملة أى: "أن للحرب دينامية سياسية، وتضطر الدول العظمى إلى التدخل، ويمارس ضغط دولى على إسرائيل، وهكذا تسترجع الكرامة والثقة بالنفس..".

وسواء أكانت هذه الأفكار هى فعلا ما دار فى عقل القيادات العربية لحرب ١٩٧٣ أم لم تكن، فإن النتائج والوقائع (وهى التى استخدمها الجنرال الإسرائيلى فى تحليله) توضح أنها فعلا استراتيجية حرب ١٩٧٣. ولعل ذلك ما يفسر إسراع الرئيس السادات إلى التعلق بالعملية السياسية التى حركتها هذه الحرب فأعلن فى ١٩٧٣/١٠/١٦ أى قبل توقف القتال بأسبوع كامل شروطه للتفاوض مع العدو ولقد أعلنت أطراف عدة بعد ذلك أن تلك كانت أفكاره فعلا قبل بدء القتال فقد أبلغ بعض من قابلوه أنه سيحارب وسيذهب إلى جنيف إثر الحرب.

*

الفترة التى أعقبت الحرب يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل:

الأولى، ما تلا الحرب حتى اتفاقية فك الاشتباك الثانية وفيها كانت القيادة المصرية تتصرف وفق نفس الاستراتيجية القائلة "**باسترجاع الأراضى بأى ثمن وأى وسيلة**" ولكنها كانت تستفيد من قوة الدفع التى ولدتها الحرب.

والمرحلة **الثانية** من زيارة الرئيس السادات للقدس فى ١٩٧٧ حتى توقيع معاهدة الصلح المصرية فى ١٩٧٩/٣ وفيها أيضا استمرت نفس الاستراتيجية مع ازدياد ضعف عوامل القوة الذاتية ومحاولة تعويضها بالأثر المعنوى العالمى للزيارة نفسها ومع الاستفادة من اتجاه الولايات المتحدة

الأمريكية لإعادة ترتيب أوضاع منطقة الشرق الأوسط والتواجد فيها بشكل مباشر. ثم المرحلة **الثالثة** التى تلت توقيع اتفاقية الصلح حتى الآن وهى استمرار لنفس الاستراتيجية مع مزيد من ضعف القوى الذاتية، وتراجع وزن الدور الأمريكى (المتوقع من جانب القيادة المصرية) فى عملية المفاوضات مما ترك القيادة المصرية وكأنها تروواح مكانها، وقد ضاقت إلى حد كبير فرص المناورة وضعفت إلى أدنى حد قدرتها على الاستفادة من العوامل المؤاتية المؤثرة فى مجرى الصراع كله.

من الواضح أن القيادة المصرية اعتبرت حرب ١٩٧٣ نقطة تحول، فبعد أن كانت قبلها تركز على جانب الحرب فى الصراع مع إبقاء باب المفاوضات مفتوحا، أصبحت بعد حرب ١٩٧٣تركز على جانب التفاوض فى الصراع وتحاشى الصدام المسلح بكل الوسائل. وكان طبيعيا أن ينعكس ذلك على علاقات مصر الدولية والعربية، فبعد أن كانت القيادة المصرية مهتمة قبل حرب ١٩٧٣، واستعدادا لها، بتطوير علاقات مصر العربية، ومعتمدة على الاتحاد السوفييتى فى مجالى التسليح والتدريب بل والدفاع عن العمق مقابل تسهيلات عسكرية بحرية وبرية والتنسيق فى المجال الدولى مع إبقاء باب العلاقات مفتوحا مع الولايات المتحدة الأمريكية، تدهورت بعد حرب ١٩٧٣ العلاقات المصرية العربية بل ولم تهتم القيادة بالحفاظ على حدها الأدنى وهاجم الرئيس السادات فكرة التضامن العربى التى كانت ركنا من أركان هجوم تشرين/أكتوبر ١٩٧٣، كذلك اهتمت القيادة المصرية بتطوير العلاقات المصرية الأمريكية والاعتماد على الولايات المتحدة الأمريكية فى مجالات التسليح والتدريب والضغط على "إسرائيل" والمعونة الاقتصادية والفنية مقابل تسهيلات عسكرية بحرية وجوية وتنسيق فى المجالات الدولية مع إبقاء باب العلاقات مفتوحا مع الاتحاد السوفييتى.

ويمكن فهم بواعث هذا التغيير، وفهم الكثير من سلوك القيادة المصرية إذا أمكننا أن نجمع استقراء واستنتاجا واقتباسا – مجموعة المفاهيم التى تشكل تقدير الموقف "العملى" عند القيادة المصرية.

وفيما يلى ما أمكن جمعه من هذه المفاهيم، على أن نناقش مدى صحة تقديرها فيما بعد :

١- أنه لا يمكن القضاء على "إسرائيل"لأن المجتمع الدولى لن يسمح بذلك.

٢- أنه لا يمكن تحقيق نصر عسكرى شامل على (إسرائيل) لأن الولايات المتحدة الأمريكية لن تسمح بذلك، فى حال التفوق العسكرى العربى.

٣- أنه من الضرورى إنقاذ مصر من الخراب المترتب على حرب طويلة الأمد مع العدو كما حدث فى فيتنام وكوريا.

٤- أن الوفاق الدولى سواء كان فى حالة متقدمة أو فى حالة تراجعه هو سقف أى نزاع شرق أوسطى بين العرب وإسرائيل.

٥- أن الولايات المتحدة الأمريكية تملك ٩٩% من أوراق التسوية.

٦- أن الولايات المتحدة الأمريكية تملك ٩٩% من عوامل الضغط على إسرائيل نفسها.

٧- أن العرب (أى الأنظمة العربية) لا يريدون ولا يستطيعون أن يحاربوا حربا طويلة نسبيا، وأنهم فى حال المشاركة فى المجهود الحربى يتدخلون فى الشئون الداخلية المصرية.

٨- أن الخيارات المطروحة أمام القيادة المصرية هى ثلاثة: سلم أو حرب أو لا سلم ولا حرب، وأن مصر غير قادرة على تحمل حالة اللا سلم واللا حرب وغير قادرة على خوض حرب شاملة ولا خيار غير السلم ولومؤقتا.

٩- أن عامل الزمن ليس فى صالح الطرف العربى من الصراع.

من الواضح أن القيادة المصرية تعتبر ما سبق من "الثوابت" أى العوامل التى لا تتغير والتى تحكم الصراع فى كل الأحوال. أما المتغيرات التى طرأت وتطرأ على مسار الصراع فقد حرصت القيادة المصرية على عدم ذكرها صراحة بل ونفى بعض ما أذيع عنها مثل ضعف تسليح الجيش

المصرى إثر الأزمة السوفييتية، ورفض الدول العربية الغنية تلبية مطالب القيادة المصرية ماليا وعسكريا. إلى جانب الضعف الشديد للبنى الاقتصادية المصرية، وهو ضعف ترتب على وقف خطط التنمية طويلة الأجل منذ هزيمة يونيو/حزيران ١٩٦٧، بالإضافة إلى أخطاء وانحرافات سابقة فى خطط التنمية ذاتها، وكذلك على الانفتاح الاستهلاكى التجارى وما صاحبه من شيوع أنماط حياتية استهلاكية فى المجتمع المصرى كله.

وبدلا من ذكر هذه المتغيرات تركز القيادة المصرية على ذكر متغيرات أخرى صحيحة ولكنها ليست المتغيرات الوحيدة. والمتغيرات التى تذكرها القيادة المصرية هى **التغير فى الميزان الدولى وحاجة الولايات المتحدة إلى أصدقاء جدد فى منطقة الشرق الأوسط وكذلك حاجة الولايات المتحدة إلى تهدئة نقاط التوتر فى هذه المنطقة الغنية بالنفط، وازدياد قدرة ودور أوروبا فى المجال الدولى وإمكانية الاستفادة من العلاقة مع الصين دبلوماسيا وعسكريا واقتصاديا، ثم "الهزة" التى أصابت الكيان الصهيونى إثر حرب ١٩٧٣.**

هذه المفاهيم والتقديرات قائمة فى تفكير القيادة المصرية منذ ١٩٦٧ مع فارق فى ردود الفعل حسب الظروف والمصالح. حتى أن فكرة أن الولايات المتحدة الأمريكية تملك ٩٩% من الأوراق هى فكرة سابقة على حرب ١٩٦٧ باعتبار اتفاق "الجميع" على أن الكيان الصهيونى هو "امتداد للمعسكر الإمبريالى وزعيمته الولايات المتحدة الأمريكية" وعلى أن "إسرائيل هى الولاية الأمريكية الـ٥١". أما فكرة سقف الوفاق فهى مترسخة فى قناعات القيادات المصرية لدرجة تدفعها إلى الانحياز، إما للاتحاد السوفييتى وإما للولايات المتحدة الأمريكية طلبا للأمان، وفى الوقت نفسه إبقاء الباب مفتوحا أمام القوة الأخرى فى كل حالة. وعندما كانت العلاقات مع الاتحاد السوفييتى فى أوجها كانت حالة الضعف العسكرية تدفع القيادة المصرية إلى القبول ولو لفظيا بالمقترحات الأمريكية. حدث هذا فى ١٩٦٧ و ١٩٧٠.

فى إطار هذه المفاهيم وعلى أساس هذه التقديرات كان لابد لاستراتيجية "استعادة الأراضى المحتلة فى ١٩٦٧ بأى ثمن" أن تؤدى إلى حرب ١٩٧٣

باعتبارها عملا عسكريا يبدأ عملية سياسية ديناميكية تستقطب مختلف العوامل الدولية والعربية والمحلية لتحقيق هدف استرجاع الأراضى.

وليس هذا مجال تقييم حرب ١٩٧٣، وإنما هو مجرد تسجيل لأفكار مخططيها. **ذلك أن حرب ١٩٧٣ اكتسبت بمجرد بدايتها قوة متزايدة التأثير فى الأوضاع السياسية لأطرافها المختلفين باعتبارها الأولى فى تاريخ العرب الحديث التى تحقق نصرا على العدو الصهيونى والتى صحبها أول حظر اقتصادى(حظر النفط) ناجح فى التاريخ، والتى أوضحت للجماهير العربية بالفعل مدى قوتها وقدراتها. كما أنها الأولى فى تاريخ الكيان الصهيونى التى يهزم فيها هزيمة هزت أركانه وتركت آثارها فيه حتى الآن.** وهى التى قلبت نظرة الرأى العام العالمى للعرب فأصبح ينظر إليهم كقوة مؤثرة فى الأحداث العالمية، وكذلك دفعت قوى دولية عديدة، فى مقدمتها أوروبا، لتحديد أساس جديد للتعامل مع العرب مخالف لأسلوبها السابق، وهى التى كانت، ولا تزال، تتصرف كدول سبق لها استعمار بلادهم. إن وقوف المخططين عند حدود خطتهم وعدم تمكنهم من رؤية الطاقة التى فجرتها الحرب جعلهم يترددون في أثناء الحرب نفسها(كان الطريق مفتوحا فى الساعات الـــ٤٨ الأولى إلى حيفا من الجولان، وإلى تل أبيب من شمال سيناء)، كما جعلهم بعد توقفها **يبددون ما حققته من نتائج كان من الممكن الاستفادة منها حتى فى العملية السياسية التى بدءوها. كأني بهم لم يصدقوا ما تحقق وفاق تصورهم ففاق بذلك استراتيجيتهم. وليس هذا هو الخطأ الأول على أى حال.**

الدور المصرى فى عملية التسوية

اختارت القيادة المصرية أسلوب "**العملية السياسية**" لتحقيق استراتيجيتها.

ويتطلب هذا الأسلوب لكي ينجح أن يكون الطرف "المبادر" مسيطرا على معظم عوامل هذه "العملية" أو قادرا على التأثير فيها أو تغيير بعضها. وعندما تضم هذه العملية أكثر من طرفين يقيم كل طرف حساباته وتقديراته على أساس قدرته على التأثير فى مواقف الأطراف الأخرى.

وأهم ما فى "**العملية السياسية**" هو أنها تحتاج إلى أقل قدر ممكن من "**الثوابت**" وإلى أكبر قدر ممكن من المتغيرات. بل أن الطرف المسيطر فى أى "عملية سياسية" يسعى عن طريق "مباشر" أى من خلال نفس "العملية" أو من طريق غير مباشر أى من خلال عمليات سياسية جانبية، يسعى إلى تغيير "الثابت" أى جعله متغيرا وتعديله لصالحه.

ولا شك أن القيادات العربية عندما اختارت أسلوب "العملية السياسية" فى ١٩٧٣، وشنت حرب تشرين/ أكتوبر ١٩٧٣ لتكون الخطوة الأولى(المبادرة) لتحريك هذه العملية، كان فى تقديرها أن أطراف هذه العملية السياسية الجديدة المباشرين هم الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى إلى جانب مصر وسورية والعدو الصهيونى مع احتمال انضمام الأردن لهذه العملية فى أثناء الحرب أو بعدها، ومع احتمال أقل فى أن ينجحوا فى دعوة منظمة التحرير الفلسطينية إلى مؤتمرات ما بعد الحرب.

ويمكن القول إن (العملية السياسية) سارت كما كان متوقعا بشكل عام حتى وقف القتال. عندئذ اتضح وجود خلاف فى التقدير بين القيادتين المصرية والسورية واختارت القيادة المصرية أن تمضى منفردة حتى عن الاتحاد السوفييتى. وأصبح أطراف "العملية" بعد الحرب هم مصر وأمريكا و"إسرائيل" مع بقاء سورية والاتحاد السوفييتى على الطاولة دون مشاركة فعالة فى هذه العملية، مع انشغالهما فى عملية موازية انتجت فك الاشتباك على الجولان ثم توقفت ليحل محلها "عملية سياسية" أخرى تماما بسبب الحرب اللبنانية. ويلاحظ أن القيادة المصرية حرصت فى البداية على ألا تنعزل عن "العملية السياسية" الجارية فى لبنان، ولكن دون تورط كبير يحول بينها وبين حرية حركتها فى العملية السياسية الأولى.

حتى هذه المرحلة كان التصور المصرى يقوم على أساس عملية سياسية دولية (متعددة الأطراف)، ويشارك فيها بالضرورة الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة أى أن التصور المصرى كان يقدر "الوفاق الدولى" كعامل مؤثر فى "العملية السياسية" التى بدأتها حرب ١٩٧٣، وإن كان يراهن على الطرف الأمريكى فى هذا الوفاق تاركا للقيادة السورية، عن قصد أو عن دون قصد الرهان على الطرف السوفييتى فى الوفاق.

ثم صدر البيان الأمريكى – السوفييتى عن مشكلة الشرق الأوسط فى مطلع خريف ١٩٧٧، وأبدت القيادة المصرية انزعاجها من هذا البيان واعتبرته أقل مما سبق الاتفاق عليه ثنائيا بين الأطراف العربية من جانب وكل من القوتين العظميين من جانب آخر.

بالنسبة إلى القيادة المصرية كان صدور هذا البيان يعنى العودة من جديد إلى إخضاع عملية الصراع العربى – الإسرائيلى لعملية الوفاق الدولى بشكل كامل، وهو ما كانت تخشاه القيادة المصرية بعد تجربة ١٩٧٢ فى العلاقات المصرية السوفييتية وما كانت تظن أن حرب ١٩٧٣ قد وفرت لها قدرا أكبر من حرية الحركة. كما خشيت أن يكون صدور البيان هو إشارة إلى نية الولايات المتحدة الأمريكية تجميد السير بعملية التسوية مؤقتا.

فى ذلك الوقت كانت القوة الذاتية المصرية أضعف من أن تحرك العملية السياسية التى بدأت فى ١٩٧٣ دون مغامرة عسكرية غير مأمونة العواقب. ويقول القادة المصريون إنهم سعوا إلى تعبئة الجهود العربية والدولية ولكنهم فشلوا حتى فى الحصول على ما يضمن الدفاع عن أجواء مصر فى وجه أى هجوم إسرائيلى محتمل. ومن المحتمل أن القيادة المصرية قد تخوفت من ضربة عسكرية إسرائيلية ثأرية يعد لها العدو وذلك رغم النفى العلنى لهذا التخوف مرارا. وكان ذلك "مبررا" لأن يفاجئ الرئيس السادات العالم كله، والعالم العربى بشكل خاص بإعلان زيارته للقدس المحتلة.

يومها استقال السيد إسماعيل فهمى وزير خارجية مصر الأسبق وقال: "أنا مع أمريكا مش مع إسرائيل". وتوضح لنا هذه العبارة أن القيادة المصرية اختارت أن تتوجه مباشرة إلى العدو المباشر فى محاولة "لتحريك العملية السياسية بأى ثمن" ولكن حتى فى تلك الخطة لم تستبعد القيادة المصرية دور القوى الدولية والعربية، فقد دعت إلى مؤتمر القاهرة الذى أعقب زيارة القدس، دعت الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتى، وسورية، ومنظمة التحرير الفلسطينية إلى جانب "إسرائيل".

ولا يمكن القطع بما إذا كانت القيادة المصرية قد قدرت فعلا أن هذه الأطراف ستحضر مسلمة لها "بقيادة" العملية السياسية، أو أن بعضها سيرفض الحضور كما فعل الاتحاد السوفييتى وسورية ومنظمة التحرير الفلسطينية والآخران سيحضران ولكن بهدف استعادة "العملية السياسية" إلى طريقها السابق واحتوائها فى "عملية السلام" الأمريكية. هناك احتمال ثالث وإن لم يُقم أى دليل عليه، وهو أن القيادة المصرية قصدت بدعوة الاطراف جميعا أن ترفض سورية ومنظمة التحرير الفلسطينية والاتحاد السوفييتى الخضور فيكون ذلك مبررا لها فى الاستمرار بدونهم مع الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، وهناك أيضا احتمال أن الدعوة قصد منها فرض منظمة التحرير الفلسطينية على إسرئيل وأمريكا وهو ما يعلنه بعض القادة المصريين، أما احتمال أن الدعوة قصد منها أن ترفض إسرائيل الحضور فهو أقلها حظا لأن السلطات المصرية سرعان ما استجابت لطلب وفد العدو إنزال علم فلسطين، فأنزلت الأعلام كلها حتى لا ينسحب الوفد المذكور.

المهم أنه بعد ذلك مباشرة استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية أن تحتوى عملية الزيارة وما تلاها، وأعلن ألفرد أثرتون أمام لجنة الشئون الخارجية فى مجلس الشيوخ الأمريكى، أنه كان علينا (أمريكا) أن ندخل مبادرة السادات ... ضمن عملية السلام الإمريكية*.

وبذلك دخلت "العملية السياسية" مرحلة جديدة فلم تعُد عملية دولية متعددة الأطراف بل أصبحت عملية أمريكية فى الشرق الأوسط حيث تقوم الولايات المتحدة بالمشاركة فى عملية التفاوض المصرية – الإسرائيلية وفى الوقت نفسه بإشراك غير مباشر للأطراف العربية المعنية الأخرى بدرجات متفاوتة وبالذات الأردن والمملكة العربية السعودية وسورية.

بعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد قل كثيرا هذا الدور الأمريكى فى المشاركة غير المباشرة نتيجة موقف هذه الدول الثلاث، وتوقف تقريبا بعد توقيع معاهدة الصلح، وها هو يعود بعد انتهاء مهلة الوصول إلى اتفاق حول

---

* ألفريد أثرتون، عملية السلم فى الشرق الأوسط: تقرير مقدم إلى لجنة العلاقات الخارجية – مجلس الشيوخ الأمريكى ١٩٧٨/٦/٢٨.

الحكم الذاتى فقد نشطت الاتصالات الأمريكية السعودية والأمريكية الأردنية من جديد.

ولابد من أن نذكر أن القيادة المصرية حاولت بعد توقيع معاهدة الصلح أن تخرج "عمليتها السياسية" من هذا المصير، وبذل الرئيس السادات جهدا عقيما فى الوصول إلى اتفاق مباشر مع مناحيم بيغن بعيدا عن وساطة ومشاركة الولايات المتحدة "زيارة حيفا" ولكنه لابد اكتشف أن مناحيم بيغن ليس على استعداد حتى للاستماع إلى شكواه ومطالبه، وليس على استعداد إلى إبداء تنازل لفظى عن أى قضية ولا حتى بالسماح للجانب المصرى بأن يعلن مثل هذا التنازل.

ووصلت "العملية السياسية" إلى مرحلة ما قبل الإنتخابات الأمريكية وهى "مجمدة" رسميا ولا أمل فى تحريكها قبل نتائج هذه الإنتخابات، وربما قبل الانتخابات الإسرائيلية، **بل أنها لن تتحرك من مكانها قبل اجتماعات القمة السوفييتية الأمريكية المقبلة بعد أن وضع الاتحاد السوفييتى قضية الشرق الأوسط وانفراد أمريكا بالتصرّف فيها ضمن النقاط المختلف عليها مع الولايات المتحدة.**

وبدلا من أن توفر هذه العملية السياسية مزيدا من حرية التحرك للطرف المصرى، إذا هذا الطرف يصبح أسيرها لا مسيرها، لدرجة عدم استطاعته الاستفادة من المواقف المستجدة دوليا وعربيا وفلسطينيا لتدعيم موقفه كما حدث بالنسبة إلى المبادرة الأوروبية، وبالنسبة إلى الاستنكار العربي العام لدعم الموقف المصرى فى حالة الشدة، أو بالنسبة إلى انتفاضة جماهير الأرض المحتلة التى تضغط بشدة على العدو الصهيونى، ناهيك عن موقف القيادة المصرية من الثورة الإيرانية ورفض الاستفادة من تغير موازين القوى بعدها وتفضيله المزيد من الارتباط بالولايات المتحدة الأمريكية مما يؤدى قطعا إلى تقليل فرص الحركة أمامها.

أخطاء فى الاختيار والتقدير والإدارة

إن الخطأ الأساسى يكمن فى "استراتيجية" استرجاع الارض المحتلة فى ١٩٦٧ بأى ثمن وأى وسيلة وهى استراتيجية تتضمن الإقرار بأن الكيان الصهيونى باقٍ ولن يزول. وقد اعتبرت القيادة المصرية وجوده من الثوابت التى لا تتغير بحجة أن المجتمع الدولى لن يسمح بذلك. ومن ثم أسقطت من حساباتها وتقديراتها وخططها كل ما من شأنه أن يغير هذه الفكرة، وكل احتمال لتغير موقف المجتمع الدولى وموازين القوى. وليس هذا مجال مناقشة خطأ الفكرة استراتيجيا ولكن من الضرورى التأكيد على أن معظم الأخطاء الوارد ذكرها فيما بعد تنبع من هذا الخطأ الأساسى أو مترتبة عليه.

ويمكن تصنيف الأخطاء التى وقعت فيها القيادة المصرية إلى ثلاث مجموعات: مجموعة تتعلق بالخيارات الأساسية، وأخرى تتعلق بتقدير العوامل ثوابتها ومتغيراتها، وثالثة خاصة بإدارة العملية السياسية.

*

فبالنسبة إلى الخيارات الأساسية كان أمام القيادة المصرية أكثر من الخيارات التى تطرحها عادة "سلم أو حرب أو لا سلم ولا حرب". ولقد اختارت السلم.

ومن قبل كانت قد رفضت على الدوام خيار الحرب طويلة الأمد مفضلة التفاوض مع الحرب القصيرة أو الصغيرة أو المحدودة أو المتقطعة.

ولكن القيادة المصرية أغفلت خيارات أخرى – حتى ضمن استراتيجيتها المحدودة – منها وأهمها إمكان تحمل اللا سلم واللا حرب فترة أطول شرط دعم الكفاح الفلسطينى المسلح. إن تطور الأحداث يبين نضج ظروف هذا العامل المؤثر والفعال. ولو أن القيادة المصرية لم تتعجل بتوقيع اتفاقية الصلح مع إسرائيل لكانت أمامها فرصة فى الاستفادة من "الثورة الشعبية المسلحة" التى تعم اليوم فلسطين المحتلة.

كما أن القيادة المصرية لم تبذل – فيما هو معلن على الأقل – الجهد اللازم للاستفادة من ثقل الكتلة الإسلامية، وكتلة عدم الانحياز ومن دور النفط العربى فى الضغط على الولايات المتحدة الأمريكية، وبعدها فقدت فرصة الاستفادة من نتائج الأحداث فى إيران.

ولقد أظهرت حرب ١٩٧٣ أنه ليس فى إمكان أى الطرفين أن يكسب الحرب كسبا شاملا، ولكنها أظهرت فى الوقت نفسه أن الجانب العربى قادر على تحمل الحرب وأعباء الاستعداد لها أكثر بكثير من قدرة الجانب الإسرائيلى. ولقد كان من الممكن فى ظل الظروف الدولية الراهنة تطوير استراتيجية عسكرية تجمع بين الاستنزاف والردع المتقطع بحيث تصبح جولاتها كعمليات محدودة متتالية على فترات زمنية متقاربة، إن احتمالات رد العدو على هذا النوع من الحرب بحرب شاملة قائمة، تقل يوما بعد يوم. ويمكن دراستها على أى حال دون إسقاط هذا الخيار.

إن أخطر ما فى خيار السلم الذى اتبعته القيادة المصرية أنه يضيق فرص الحركة أمامها ويسقط عاملا من أهم عوامل الضغط من خلال التفاوض. لعل الرئيس السادات قد أدرك ذلك عندما حاول تعديل تصريحه المشهور بأن الحرب الرابعة هى آخر الحروب بأن أضاف إليها "إننى آمل أن تكون". وأكبر الخسائر المترتبة على خيار "السلم" هذا هو تمييع الروح الوطنية القومية لدى الجماهير وتغييب الحافز القومى على التضحية والانضباط الاجتماعى والتنمية. وهى عوامل لا غنى عنها فى بناء القوة الذاتية. وبدون القوة الذاتية لا يمكن نجاح أى عملية سياسية.

يستطيع طرف واحد أن يشن الحرب، ولكن السلم يحتاج إلى اتفاق الطرفين ما لم يفرض فرضا بالقوة.

إن خيار "السلم" يتطلب قوة تسمح بفرضه على العدو الذى لا حياة له إلا فى ظل حالة اللا سلم واللا حرب، مع القيام بجولات عسكرية بين الحين والآخر. فإن لم تتوفر هذه القوة فإن العدو سينعم بسلم جزئى يسمح له بتعبئة قواته ضد الجبهات الأخرى وعلى الأخص الداخلية من بينها ثم هو مستمر

فى حالة اللا سلم واللا حرب التى يحتاج إليها. وهذا ما عملت له القيادة الإسرائيلية فى مواجهة "العملية السياسية المصرية" ولابد أن نقر بنجاحها للأسف.

إننا أمام معادلة صعبة فلكى ينجح خيار السلم لابد له من قوة ولكن بناء القوة يحتاج إلى حافز وطنى قومى وهو حافز لا يعيش أو ينمو فى ظل الدعوة إلى السلم مع العدو، وإنما هو ينمو ويزدهر ويبلغ مداه فى حالة الحرب. وهكذا فالقوة مطلوبة فى الحالتين: فى السلم وفى الحرب. ولكن الحرب تبنى القوة بينما السلم يضعفها. إذن فالخيار الممكن فعلاً هو الحرب لا السلم. وللحرب أشكال عديدة سبق الإشارة إليها، والعدو لا يتحمل استمرارها. هذا مع أن خيار الحرب استراتيجيا لا يعني طبعاً خوض الحرب مباشرة أو بدون استعداد، وإنما يعني توجيه كل الجهود وتعبئة كل القوى واتخاذ كل الخطوات التي تخدم "إمكانية شن الحرب بأقل الخسائر ولتحقيق الإنتصار".

تقدير العوامل المؤثرة

فإذا سلمنا جدلا بأن الخيار الذى إختارته القيادة المصرية لم يكن له بديل زمن إختياره لإسباب قد نجهلها، فإن تقدير العوامل الثابتة والمتغيرة التي تؤثر فى "العملية السياسية" له أهمية كبيرة فى تقرير سيرها ومدى نجاحها.

وقد سبق تناول فكرة أن "العملية السياسية" تعنى أن معظم العوامل تصبح متغيرات حتى بعض الثوابت منها، وأن على من بيدين العملية السياسية أن يقدر مسبقا قدرة الاطراف الأخرى، وخصومه منهم بوجه خاص، على التأثير فيها وعلى العوامل المؤثرة فيها.

ولقد ضربنا مثلا سابقا على عدم صحة تقدير القيادة المصرية لموقف الاتحاد السوفييتي وسورية ومنظمة التحرير الفلسطينية من مؤتمر القاهرة

الذى دعت إليه بعد زيارة القدس. وذكرنا مثلا ثانيا حول خطأ تقدير الوضع فى الشرق الأوسط وما أدى إليه ذلك من عدم إمكان الاستفادة من نتائج سقوط حكم شاه إيران وإلغاء القاعدة الأمريكية بها.

ويمكن أن نضيف إلى ما سبق أن القيادة المصرية أخطأت وما تزال تخطئ فى تقديرها للموقف الأمريكى. فليس صحيحا أن الولايات الأمريكية تملك ٩٩% من أوراق التسوية. فالتسوية فى الشرق الأوسط عملية دولية بالضرورة وللاتحاد السوفييتى قطعا دور فيها وكذلك للدول الأوروبية ناهيك عن دول المنطقة نفسها.

فإن قيل إن المقصود هو أنها تملك ٩٩% من أوراق "إسرائيل" وإنها بذلك تملك الضغط عليها عندما تقرر هى، يقول الواقع إنه مع عدم الخوض فى درجة وكمية النفوذ الأمريكى فى الكيان الصهيونى، فإن موقف أمريكا يحدده عاملان أساسيان: الاستراتيجية الأمريكية بل والدولية بشكل عام التى ما تزال وستظل لفترة غير قصيرة "تعتبر" وجود إسرائيل أمرا ضروريا للحفاظ على المصالح الحيوية للقوى الكبرى، والعامل الثانى هو أن الكيان الصهيونى له من العمر الآن ثلاثون عاما تشكلت له خلالها "بنية ذاتية" يبرزها عدم وجود وطن انسحاب يمكن أن ينسحب إليه المستوطنون فى حالة انهياره، وهى بنية مصطنعة(أى غير طبيعية) هشة لا تتحمل المناورة الكبيرة فى حالة لجوء الولايات المتحدة إلى مثل هذه المناورة.

والمجموعة الحاكمة فى "إسرائيل" تعرف هذه الحقائق، تعرف أنها لا يمكن أن تعيش بدون رضاء الولايات المتحدة، ولكنها تعرف أيضا أن الولايات المتحدة حرّيصة على حياة إسرائيل، ومن ثم تلجأ هذه المجموعة الحاكمة (بما فى ذلك المعارضة طبعا) إلى الابتزاز، إلى أسلوب تهديد الابن لأبيه بأنه سينتحر، لا يعنى ذلك أن الولايات المتحدة عاجزة عن تسيير "إسرائيل" ولكن يعنى أن كل إجراء ترغب الولايات المتخذة فى فرضه على الكيان الصهيونى سيقابل بمقاومة عنيدة، ويحتاج إلى إجراءات طويلة تتطلب وقتا طويلا.

إن التشبيه بما حدث فى ١٩٥٧ عندما أرغم إيزنهاور الإسرائيليين على الانسحاب من سيناء تشبيه غير دقيق. ففى ذلك الوقت كانت "إسرائيل" حديثة العهد ولم يكن لديها أى بنية ذاتية كما كانت تتبع إمبراطوريتين منهارتين (بريطانيا وفرنسا) وكانت الولايات المتحدة فى أوج قوتها تتقدم لتحتل مواقع هاتين الإمبراطوريتين فى الشرق الأوسط. ومع ذلك فلم يكن الأمر سهلا واحتاج إلى ضغوط شديدة من جانب الإدارة الأمريكية. وحصل الإسرائيليون فى ذلك الوقت على تنازلات كبيرة، منها تجريد سيناء من السلاح، والمرور من مضايق تيران، وتثبيت خطوط الهدنة فى ١٩٤٩ باعتبارها حدودا سياسية مضمونة دوليا.

هذه المرة الأمر أخطر، فالمطروح ليس مجرد انسحاب، وإنما التسليم بقيام "كيان فلسطينى"، والأهم: **التسليم بأن إسرائيل ليست هى الوكيل أو الزبون الوحيد لأمريكا فى المنطقة، وتلك مسألة تعرض كيان إسرائيل نفسه إلى الخطر.**

وقد جرب الرئيس السادات نظرية الـ٩٩% من الأوراق هذه وحاول وما يزال يحاول إقناع الولايات المتحدة الأمريكية بأن تضغط على "إسرائيل"، وهو يصر على أن تلعب دور "الشريك الكامل" لهذا السبب، ولكنه حتى الآن لم يحصل من الولايات المتحدة الأمريكية على الضغط المأمول لكيلا تتجمد عملية التسوية.

كما أن القول بأن ٩٩% من أوراق التسوية هو بيد الولايات المتحدة يقيد التفكير العربى فيما يتعلق بالعلاقة مع دول السوق الأوروبية المشتركة أو بموقف هذه المجموعة الآخذ فى التطور لصالح الطرف العربى وعلى حساب الطرف الإسرائيلى، فضلا عن أنه قد أدى إلى أزمة شديدة فى العلاقات المصرية السوفييتية ترتب عيلها "انفراد" الولايات المتحدة بإدارة العملية السياسية كلها.

ويحق للدارس أن يتساءل كيف يتفق التفكير بأن ٩٩% من أوراق اللعبة هى بيد الولايات المتحدة الأمريكية، مع تلبية كل ما تطلبه الولايات المتحدة

سواء فى داخل "العملية السياسية" الخاصة بالتسوية أم فى داخل مصر وفى منطقة الشرق الأوسط. إن المبرر الذى تقوله القيادة المصرية هو **أنه من الضرورى إقناع الولايات المتحدة الأمريكية بأن لها فى المنطقة أصدقاء يعتمد عليهم غير إسرائيل** وذلك لكى تضغط عليها ولكى يكون لها مصالح فى مصر تسعى إلى مراعاتها فى العلاقات بين الطرفين العربى والإسرائيلى.

ولقد بينا من قبل أن العلاقة بين الولايات المتحدة والكيان الصهيونى هى علاقة "خاصة" بحكم طبيعة الكيان ودوره فى المنطقة، وهى علاقة لا تنبع من مصالح أمريكية داخل الكيان الصهيونى، وإنما من مصلحة أمريكية ودولية داخل منطقة الشرق الأوسط كلها. ومهما فعلت القيادة المصرية فإن من المؤكد أن الولايات المتحدة الأمريكية لن تسوى أبدا بين مصر وإسرائيل ولن تضع خططها الاستراتيجية فى المنطقة على أساس هذا الوهم.

كذلك فإن الولايات المتحدة الأمريكية التى تعلن فى كل لحظة التزامها بالحفاظ على التفوق العسكرى الإسرائيلى لن تقدم لمصر لا السلاح ولا الفرصة لكى تقوى، ذلك قرار دولى قديم منذ ١٨٤٠ وما يزال ينفذ حتى الآن، ممنوع أن تقوى مصر لأنها إن تقوت وحدت من حولها، وإن توحد من حولها معها خسرت القوى الأجنبية المصالح والنفوذ معا.

لقد أخطأت القيادة المصرية حين قدرت أنها بتقديمها كل ما قدمته ستضطر الولايات المتحدة للضغط على إسرائيل بما يصل إلى حد تحقيق هدفها ولم تقدر تقديرا صحيحا المصلحة الأمريكية فى الضغط أو عدم الضغط على إسرائيل، كما لم تقدر تقديرا صحيحا مدى استعداد إسرائيل نفسها للتنازل برغم ادعاءاتها المتكررة بأنها على استعداد للتنازل عن الكثير فى سبيل السلم.

كما أخطأت وتخطئ القيادة المصرية فى تقدير موقف العرب، وهى تعنى تقدير موقف الحكومات العربية. كان تقدير القيادة المصرية الذى بنته على معلوماتها طبعا هو أن الدول العربية لا يمكن أن تجمع على رفض

المشروع المصرى. ولكن الذى حدث هو أنها أجمعت على رفض الخطوات التى اتخذتها القيادة المصرية بل أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تنجح برغم كل ما بذلته فى جعل بعض الدول العربية تغير موقفها من المعارضة إلى التأييد بل إلى الحياد.

إن الموقف الرسمى العربى كان من المبررات المعلنة التى ترددها القيادة المصرية دائما لتبرير الاندفاع فى عملية الصلح مع العدو الصهيونى، وقد أثبتت الأحداث أن هذا الموقف الرسمي لم يستطع تجدى المشاعر العامة للأمة وبوجه خاص وزن وتأثير القضية الفلسطينية وثورتها. ويشير ذلك إلى خطأ أسبق فى التقدير، فإن الإجماع الحادث الآن معناه أنه كان فى إمكان القيادة المصرية بدلا من أن تضطر إلى المزيد من التنازلات فى عملية التفاوض بحجة عدم وجود موقف عربى موحد معها ومساعد لها، أن تتوجه إلى جماهير الأمة العربية قبل الإقدام على زيارة القدس المحتلة معلنة حقيقة موقف الحكومات العربية وحقيقة ما تحتاج إليه القيادة المصرية. وكان من المؤكد أنها ستكسب هذه الجولة، أما وقد أقدمت على خطوتها دون اعتبار لمشاعر الجماهير أو تقدير لقوتها، فقد عزلت نفسها عن القوة المؤثرة الأولى فى موقف الحكومات العربية بل أعطت هذه الحكومات الحجة لتبرير الإستمرار فى عدم القيام بالمسئوليات الفعلية - لا اللفظية - فى الصراع العربى الإسرائيلى.

أما بالنسبة إلى الوفاق الدولى، وما تعلنه القيادة المصرية من أن خطتها كانت ولا تزال هى تحرير "عملية التسوية" من تأثير صراع القوتين أو اتفاقهما فمن الواضح أن الأمر انتهى بانحياز شبه كامل للولايات المتحدة الأمريكية. **إن تحقيق الاستقلالية لا يمكن أن يكون بالانحياز لطرف من الطرفين، وإنما يكون بعدم الانحياز إلى أى الطرفين.** ولقد حاولت القيادة المصرية فى مرحلة من المراحل تنشيط علاقاتها بالصين ومجموعة الدول الأوروبية ومجموعة حركة عدم الانحياز والمؤتمر الإسلامى، ولكن موقفها ومسلكها بعد ذلك، خصوصا بالاتفاق الذى عقدته مع إسرائيل والولايات المتحدة وهو اتفاق لقى معارضة إجماعية من كل هذه القوى أدى بها إلى المزيد من الاعتماد على دور الولايات المتحدة وهذا بدوره أدى ويؤدى إلى

مزيد من العزلة عن القوى التى كان من الممكن أن تساعد فى المواقف المستقلة.

نلاحظ إذن المبالغة فى تقدير بعض العوامل، والوقوع فى شرك تغير العوامل المفترض ثباتها، والتقليل من قيمة بعض العوامل وأثرها.

ولعل أهم ما قللت القيادة المصرية من قيمته كان هو موقف جماهير الأرض المحتلة التى فاجأت كل أطراف المعاهدة بالموقف الإجماعى ضد صيغة الحكم الذاتى المبهمة التى وصلت إلى درجة الانتفاضة الجماهيرية العامة الآن.

إدارة العملية السياسية

يكون الفوز فى العملية السياسية للقيادة التى تملك استراتيجية صحيحة وتقديرا صحيحا للعوامل المؤثرة فيها، وأيضا للقيادة التى تستطيع أن تستثمر عوامل القوة وأن تعيد النظر فى وزن كل عامل من عوامل العملية بين الحين والآخر لكى تعيد تحديد موقعه وثقله.

ومقياس نجاح أى عملية ليس هو تحقيق الهدف النهائى فحسب. وإنما هو مدى ما تحققه هذه العملية فى أثناء دوراتها من زيادة فى قوة الطرف المعنى بحيث يمكن أن يدفعها أكثر بقوة أكبر نحو الهدف.

وبهذا المقياس نكتشف أن هناك أخطاء خطيرة فى إدارة القيادة المصرية للعملية السياسية.

صحيح أنها حققت الإمساك بزمام المبادرة في ١٩٧٣، وصحيح أيضا أن أحد أهداف زيارة القدس كان هو استعادة وتجديد الإمساك بالمبادرة فى هذه العملية ولكن من الواضح الآن أن العدو الصهيونى والولايات المتحدة الأمريكية استطاعا تكبيل القيادة المصرية وتضييق فرص الحركة أمامها إلى أضيق نطاق إلا إذا قررت تغيير مسار العملية السياسية كلية وهو أمر بالغ الصعوبة بعد كل ما حدث.

فبالإضافة إلى فقدان المبادرة، تعانى القيادة المصرية الآن حالة ضعف فى القوى المصرية الذاتية تجعلها غير قادرة على اتخاذ أى مبادرة جديدة من شأنها دفع عجلة العملية السياسية إلى الأمام.

ولا شك أن هناك عوامل عديدة داخلية وخارجية أدت إلى ضعف القوى الذاتية المصرية، ولكن المفروض أن "العملية السياسية" التى بدأتها القيادة المصرية بحرب أكتوبر ١٩٧٣ كان من أهدافها تقوية القوة الذاتية، فلماذا لم تنجح؟

هناك ما ذكرناه سابقا من أخطاء فى التقدير إلى جانب ما تؤدى إليه استراتيجية استرجاع الأراضى بأى ثمن، ويمكن إضافة عدة أسباب أخرى تساعد فى تفسير السلوك المرتبك للمفاوض المصرى الذى يبدو متشددا مرة ومتهاونا مرة أخرى، ينسحب ليعود مسلما بما انسحب بسببه ويقبل ما لم يقبل به من قبل، فى البداية كان يحاول الإسراع "بالعملية" وفى الآونة الأخيرة يحاول إبقاء العملية بأطرافها ولو بدون تقدم :

أولا : أنه لا توجد لدى المفاوض المصرى خطة واضحة، ويبدو أن القيادة لم تصارح المفاوضين بتصوراتها النهائية. ذلك ما يفسر الاستقالة تلو الاستقالة من المفاوضين. وهؤلاء وافقوا على عملية التفاوض ولكنهم اختلفوا بعد ذلك على طريقة إدارتها فاستقالوا. لقد طلب منهم أن يقبلوا بما أعلنوا أنهم لن يقبلوه. ووقعوا جميعا فى مأزق الازدواجية بين التشدد اللفظى ثم التهاون الفعلى بعد ذلك. ولو أن القيادة أوضحت منذ البداية لهم أن أسلوبها هو البقاء داخل العملية السياسية بأى ثمن لربما اعتذر بعضهم عن قبول المهمة دون أن يعرض نفسه لمثل ما تعرض لـــه السيد إبراهيم كامل وزير الخارجية الأسبق، والسيد مصطفى خليل رئيس الوزراء السابق.

ثانيا : أن القيادة المصرية صورت الوضع فى بياناتها بصورة تناقض الواقع، وكأني بها تتخيل أن العدو الصهيونى سيصدق ما تعلنه من نيات سلمية وقوة فعلية وتماسك داخلى، والحقيقة أن العدو لا ينخدع بما يسمع بل هو ليس على استعداد لأن يتصرف طبقا لما يسمعه من بيانات وإنما لما

يقدره من موازين قوى. وقد يقول قائل إن هذه البيانات موجهة إلى المستوطنين الإسرائيليين وقد يكون ذلك صحيحا، ولكن من الضرورى تقدير مدى الخسارة التى تلحق بالذات عندما لا تعرف الجماهير المصرية حقيقة الوقائع، لذا ففى كل مرة يحدث تراجع جديد تصاب الجماهير بصدمة على الجانب المصرى، ويزهو الانتصار على الجانب الإسرائيلى.

ثالثا : إن القيادة المصرية قد تخلت علنا على الأقل عن منظمة التحرير الفلسطينية، وهى بذلك ترتكب خطأ جسيما، فمنظمة التحرير الفلسطينية ليست مجرد مؤسسة كالمؤسسات الأخرى. فهى ليست حكومة وليست تنظيما سياسيا، وليست حزبا، وليست جبهة إنها كل ذلك وأكثر، إنها إطار الانتماء للشعب العربى الفلسطينى فهى رمز وحدة الأرض والشعب هكذا يعاملها الشعب الفلسطينى والعرب والعالم أجمع. ووزن قضية فلسطين وما يمثلها وزن أساسى فى أى عملية سياسية فى الشرق الأوسط، لذا فإن التخلى – علنا على الأقل – عن منظمة التحرير الفلسطينية معناه التخلى ليس فقط عن عامل قوة ذى وزن فى موقف المفاوض المصرى، وإنما هو أيضا وقوع فى متاهة من يمثل الفلسطينيين؟ مما يعطى العدو الصهيونى فرصا أكبر للتملص. وللضغط على المفاوض المصرى.

رابعا : من الضرورى المناورة على العدو، ومن الخطر المناورة على الصديق. وإنه لخطر شديد المناورة على الذات، ولكن القيادة المصرية سارت فى طريق المناورة على العدو إلى درجة المناورة على الذات دون أن يصدقها العدو أو يثق بما تقول بينما قواها الذاتية – أى القوة المصرية البشرية المنظمة وغير المنظمة – تعانى الارتباك والبلبلة بل أن بعضها وقع فى الشرك فعلا. إن أبرز مثال على ذلك واقعة نقل مياه النيل إلى النقب والقدس المحتلة. ومن المؤكد أن القيادة المصرية تعرف عن يقين استحالة ذلك ماديا. وتعرف عن يقين أن خصمها – أى إسرائيل – لا يمكن أن يسمح بزراعة سيناء والنقب وإسكانهما بالبشر – الذين هم عرب – وأن هذا الخصم يحتاج إلى حاجز الصحراء بينه وبين جيش مصر، القيادة المصرية تعرف

ذلك من التاريخ والجغرافيا السياسية، ومن الاتفاقات الدولية حول مياه النيل ومن الإمكانيات الفنية المتاحة أيضا، ومع ذلك صدرت البيانات عن الاستعداد لإيصال مياه النيل إلى القدس، وكأنى بالقيادة المصرية تصورت أن العدو سيصدق، إن الذى صدق هو بعض المصريين فقط، وصحيح أن هؤلاء المصدقين ليسوا هم الذين يقررون مسألة الماء هذه، ولكنهم يقررون فى غيرها. فلئن كانت القيادة المصرية على استعداد لإعطاء إسرائيل مياه النيل فما الذى يمنع البعض من أن يزود "إسرائيل" بغير مياه النيل؟

لا اعتراض على إسقاط الحاجز النفسى بين سكان "إسرائيل" وبين الشعب المصرى فهو أمر ضرورى فى مرحلة متقدمة ويتفق مع هدف إقامة فلسطين الديمقراطية واذابة وتمثل اليهود من سكانه فى المحيط العربى ولكن ذلك لا يعنى أبدا إسقاط الحافز الوطنى ضد المعتدى، ولا الحافز القومى ضد المغتصب، ولا التعامل مع الصهاينة المتشددين من أمثال بيغن كأنهم يهود عاديون يبحثون عن الأمان فى أى مكان.

ولو أرادت القيادة المصرية أن تخاطب المستوطنين فإن أمامها أسلوبا أكثر تأثيرا وقوة ألا وهو دعوة اليهود المصريين إلى العودة إلى مصر، واليهود العرب الذين هاجروا إلى فلسطين للإقامة فى مصر كمواطنين عرب.

القيادة الصهيونية أدركت بعد زيارة الرئيس السادات إلى القدس المحتلة، أن عليها تجديد تعبئة سكان الكيان الصهيونى ضد مصر وشعبها، ولقد قامت غولده مئير فى ذلك الوقت هى وعدد من زعماء الأحزاب الصهيونية بجولات فى المستوطنات لتعبئة المستوطنين ولتحذيرهم من عدم اليقظة. بل أن جنرالات إسرائيل لا ينكرون أبدا أنهم لا يأمنون جانب مصر إلا إذا استمر إضعافها من ناحية واستمرت عمليات تقوية الجيش الإسرائيلى من ناحية أخرى، وليس هذا الأمر سرا بل هم يحرصون على إعلانه بين الحين والآخر ويصل الأمر بهم إلى الاحتجاج علنا على أى صفقة سلاح تعقدها مصر. إنهم حريصون على عدم المناورة على أنفسهم، وعدم السماح

للمناورة لأن يستفيد منها الخصم. بينما القيادة المصرية تتبع عكس هذا الأسلوب تماما.

خامسا : نفس الأسلوب ينسحب على موقف القيادة المصرية ومسلكها فيما يتعلق بالقوة العربية. إن القيادة المصرية تعرف جيدا أن قوتها الذاتية ليست من داخل مصر وحدها بل معها القوة العربية عموما. والقوة العربية ليست مجرد إضافة حسابية إلى القوة المصرية بل هى إضافة تتفاعل مع القوة المصرية فتتضاعف بها وتضاعفها. القيادة المصرية تعرف ذلك فعلا، ومع ذلك فقد سلكت فى التعامل مع هذه القوة العربية أسلوبا خطيرا تمثل فى الهجوم الشديد على العرب عموما لا على القيادات العربية وحدها، والأخطر أنه اتجاه إلى تعبئة المصريين ضد العرب ".. عاوزين يجوعوكوا" "عاوزين يشتروا إرادة مصر" ومن الممكن طبعا أن يجلس الحكام مع بعضهم فى دقائق على حد تعبيرهم، ولكن الآثار التى تترتب على تقاتلهم بين الجماهير لا تزول فى شهور وسنوات، وقد تحتاج القيادة المصرية، وهى لابد محتاجة، إلى القوة العربية فى وقت قريب فماذا ستقول عندئذ؟ بالطبع هذا المسلك ليس قاصرا على القيادة المصرية الحالية وحدها ولا على القيادات العربية الحالية عموما وإنما هو أسلوب اتبعته القيادات المصرية على الدوام وتتبعه كل القيادات العربية الرسمية للأسف وهو يكشف عن موقفها جميعا من دور الجماهير ووزنه فى الصراع برغم أن معظمهم يتحدث كثيرا عن هذا الدور وأثره وضرورته.

إن "القدرة على التعبئة والحشد" شرط من شروط نجاح أى استراتيجية. وعالم اليوم يخوض حربا دعائية لكسب عقول الجماهير وحشدها فى اتجاه هدفه، وفى خدمة استراتيجيته، ولكن "العملية السياسية" التى نحن بصددها تفتقر إلى أى خطة مدروسة فى هذا المجال. لا مصريا ولا عربيا.

* *
*

لعل الملاحظات السابقة تفسر سبب غموض المسلك المصرى فى عملية المفاوضات فالخطأ فى "الخيار الاستراتيجى" والأخطاء فى تقدير العوامل

الثابتة والمتغيرة والارتباك فى إدارة العملية، أدت كلها بالقيادة المصرية لأن تقف الآن أمام خيارات أقل وبقوة أضعف أمام الخصم بحيث لم يعُد أمامها لشهور مقبلة، ما لم يحدث تغيير كبير فى العوامل المؤثرة الخارجية أو تغيير كبير فى الواقع الداخلى، ليس أمامها سوى المراوحة داخل القيد الذى كبلت به شعبها يوم وقعت على اتفاقيتى كامب ديفيد واتفاقيات الصلح بعدها.

لقد ابتدع هنرى كيسنجر أسلوب "**الغموض البناء**" وهو أسلوب من أنجح الأساليب فى "العمليات السياسية" فهو يسمح دائما بالعثور على صيغة "اتفاق ما" بين الأطراف، أو باصدار بيان ما يرضى جميع الأطراف، ولكن المشكلة تبدأ دائما فى التطبيق العملى، عندئذ تكون الغلبة للطرف الأقوى لأنه الطرف القادر على فرض تفسيره وعلى تغيير العوامل المؤثرة فى مجرى العملية السياسية. وأفضل نموذج متاح الآن أمامنا لهذا "الغموض البناء" – من وجهة النظر الأمريكية طبعا – اتفاقيتا كامب ديفيد ومعاهدة الصلح المصرية – الإسرائيلية والرسائل المتبادلة بشأنها حيث الغموض لا يقتصر على ما اتفق عليه أو ما اختلف عليه وإنما بلغ حد استعمال المعانى المختلفة للغات الثلاث المستعملة العربية والإنجليزية والعبرية. فعندما يستمر العدو فى إقامة المستوطنات لا تملك القيادة المصرية نصا يمنعه من ذلك، وعندما يفرج فقط عن ٣٤ معتقلا إداريا مفسرا بذلك نص ابداء "حسن النية" الوارد فى الاتفاقية لا تملك القيادة المصرية أن تطالبه بالإفراج عن الآلاف... وكل طرف من الأطراف الثلاثة يتحدث عن حكم ذاتى كامل بمفهوم خاص به لم تحدده الاتفاقية.. وذلك يفسر أيضا الخلاف الدائم حول كل اتفاق يعقد بين الأطراف الثلاثة سواء أكان اجرائيا أم جوهريا، ولكن القيادة المصرية لا تملك فى كل مرة سوى أن تعلن عن معارضتها ثم **تستمر فى التفاوض**.

إن الخيار العملى الوحيد المتبقى الآن أمام القيادة المصرية، فى إطار "العملية السياسية" التى بدأتها هى أن تستمر بها ولو كانت بلا نتيجة وذلك حتى يمكن أن تغير بعض العوامل المؤثرة فيها إن أمكنها ذلك، أو تتغير بفعل قوى أخرى.

معنى ذلك أن مستقبل هذه "العملية السياسية" هو البقاء فى حالة اللا سلم واللا حرب. فلا السلام اكتمل أو يمكن أن يكتمل ولا الحرب ممكنة. ويتوجب على القيادة المصرية أن تحسب الآن حسابات الأرباح والخسائر أو أن تعيد تقدير العوامل المؤثرة فى عمليتها السياسية، وأن تقيم من جديد قوة الأطراف الأخرى وبوجه خاص أوضاع الخصم وقوته، وأوضاع حركة الشعب الفلسطينى داخل فلسطين المحتلة وتأثيرها.

إن عوامل القوة العربية تتزايد، والعوامل الخارجية تتجه أكثر فأكثر لصالح الطرف العربى فى الصراع. وفى البيانات البلاغية فرصة لسلوك خيارات أخرى أكثر جدوى دون أن تبدو القيادة المصرية متراجعة مخطئة.

أما الزمن، الذى تقدر الاستراتيجية المصرية أنه ليس لصالح الطرف العربى فى الصراع، فقد يكون كذلك فعلا بالنسبة إلى الحكومات فقط والحكومات لا تعيش أكثر من جيل واحد، أما الأجيال فستستمر، والزمن لصالحها، بل أن التسارع الحادث فى عالم اليوم يجعله فى صالح الجيل الحاكم نفسه.. إن أجاد استخدام عوامل القوة ولم يبددها..

الناس والحصار

بيروت ٨٢*

[شـكّل صيف ١٩٨٢ نقطة تحوّل في مسار الحرب الأهلية اللبنانية المستمرّة منذ عام ١٩٧٥، حيث تدخّلت إسرائيل بشكل مباشر بذريعة تأمين "السلام للجليل"، واجتاحت جنوب لبنان للمرّة الثانية، بعد عملية الليطاني في عام ١٩٧٨، مستهدفة مخيّمات اللاجئين الفلسـطينيين فـيه، والمـدن والقرى اللبنانية، ودخلت مناطق الشوف والمتن في الجبل، وصـولا إلى بيروت التي حاصرت جزءها الغربي وأمطرتها بالقذائف من الجو والبحر والـبرّ طيلة ثلاثة أشهر حتى أخرجت منها منظمة التحرير الفلسطينية بقياداتها ومقاتليها وأجبرتهم على مغادرة لبنان.

فـي الواقـع، لم تكن إسرائيل غائبة عن مجرى الحرب اللبنانية التي اجتمعت فيها مسـببات محلية بحتة، ناجمة عن التركيبة الطائفية المؤسساتية لذلك البلد، وعن استغلال كل طائفة للوجود الفلسطيني سواء للاحتماء به أو للتذرّع بأنه سبب الحرب، وفي الحالتين لترجيح كفّة الميزان لصالحها؛ ومسببات إقليمية لا تختلف كثيرا في جوهرها عن سابقتها، ومسـببات دولـية. وكلها تقاطعت، بدرجة أو بأخرى مع المصلحة الاسرائيلية في توجيه ضـربة للفلسـطينيين، أما لتحجيم دورهم الإقليمي أو للقضاء عليه وتصفيته نهائيا، عملا بمقولة قديمة استحدثها بشير الجميّل، قائد مليشيات "الجبهة اللبنانية" – الذي انتُخِبَ رئيسا للجمهورية في ظلّ الحراب الإسرائيلية ثم اغتيل قبل أن يتسلّم منصبه – مفادها أن "هناك

---

* الكاتب : محجوب عمر
الطبعة الأولى ١٩٨٣
العربي للنشر والتوزيع، القاهرة

شعب زائد عن الحاجة"، لا مكان له في المنطقة. وهي مقولة كان تجسيدها المريع في ما يدفعه الفلسطينيون ثمناً لتقسيم المشرق، في أعقاب الحرب العالمية الأولى، إلى "دول-أمم" تنقض شرعيتها العوامل الجيو-استراتيجية والتاريخية الحضارية للمنطقة، ولا تبرّرها في الأساس، سوى مصالح غربية استعمارية وصهيونية. فهذا الوضع يحكم على الفلسطينيين أن يبقوا لاجئين "غرباء" ومطاردين أينما حطّوا، في الدول "الشقيقة" أو في وطنهم المحتلّ، إلى أن تعود الأمور إلى نصابها.

ولم يتمكّن اللبنانيون الرافضون للعبة الطوائف، الحريصون على قضية فلسطين حرصهم على أنفسهم ووطنهم، من وقف الصراع الذي حوّل لبنان إلى جحيم تعدّدت فيه الجبهات بعدد المصالح الفئوية، ولا من ردّ العدوان على فلسطين في لبنان. وحملت أيام، وساعات، ودقائق ذلك الصيف الدامي في طيّاتها آلاما تجمّعت فوق ما سبقها من آلام، وكان لكل لحظة إسم، وسبب، وخيوط تنسجها تترامى أطرافها إلى أبعد ما تطيقه الذاكرة المحدودة بزمن حياة الفرد.

يبدأ الكاتب شهادته عن حصار بيروت بفقرة من موّال مصري مشهور لإضفاء صفة الشعبية على الموقف. فالأمر يتعلّق هنا بالناس وهم في حالة حراك، الناس بشأنهم، في مواجهة العدوان، دون أن يكون لهم تعبير سياسي خاص.]

الإهداء ..

إلى من أحبّ ...

وإلى من أحبّوني فأعطوني طاقة الاحتمال

م. ع.، القاهرة، ١٩٨٢/١٢/٣١

*

أول الموال ..

أنا لو شكيت ربع ما بي للحديد.. ليدوب
الأولة للنبي.. والثانية لأيوب
والثالثة غربتي والرابعة المكتوب
والخامسة من فعل الزمان شقّيت القميص والتوب
والسادسة قولولي أتنّي في العشق والا أتوب
والسابعة يا حاضرين اسمعم مني الكلام مطلوب.
(موال من مصر)

*

ذات مساء، كان القصف قد توقف باتفاق جديد، أخرج مسئول لبناني تقدمي كبير ورقة من جيبه وطلب من الجالسين أن يسمعوا. قرأ منها آيات وردت في التوراة سفر "حبقوق" تقول ما معناه أن بني إسرائيل سيغرقون في الدم كما أغرقوا لبنان فيه. ضحك السامعون ولكنهم جميعا ارتاحوا لما سمعوه. كنا وحدنا أو هكذا كان شعورنا العميق. وتشبثت نفوسنا بنبوءة لها من العمر آلاف السنين.

وتشجع جليس آخر فقال، وردت أيضا في كتاب "الجفر" وهو مقدس عند الشيعة من المسلمين، سيصل اليهود إلى الأوزاعي على مدخل بيروت وسيقتلون ويدمرون، ثم يرتدون وتنهار دولتهم. عدّل آخرون كلمات في النص مؤكدين أنهم قرءوه بأنفسهم. سكت البعض وأيد البعض وضحك الجميع وتمسكوا كلهم بحبل النبوءات. وتغير مسار النقاش.. فذكر أحدهم ما سمعه عن ضابط إسرائيلي كبير أنه قال: كانت معركة القدس في عام ١٩٤٨ بداية لدولة إسرائيل وستكون معركة بيروت عام ١٩٨٢ بداية للدولة الفلسطينية.. وانحسر الحديث تاركا التنبؤ بالمستقبل رجما إلى الاختلاف حوله تفصيلا. وفي اليوم التالي نشرت جريدة السفير نبوءة "التوراة" ونشرت ألسنة الناس نبوءة "الجفر".

لن يجد القارئ هذه الواقعة فيما كتبت وأقدم، كما لن يجد آلافا بل مئات الألوف من الوقائع الصغيرة التي اضطررت لإجمالها في عبارات مجردة "باردة"، لعجز عن تصويرها كما وقعت، وضيق في الوقت والمجال، وخوف من ضعف الذاكرة.

والحقيقة أنه لم يكن في نيتي الكتابة عن تلك الأيام التي عاشها مئات الألوف من الناس داخل مدينة بيروت لثلاثة أشهر تقريبا. في البداية انتابني تساؤل مُـرّ عن جدوى الكتابة!! إن كانت أخبار القتل والتدمير والانتهاك والعجرفة والإبادة التي نشرتها وسائل الإعلام المنظورة والمسموعة لم تفلح في تحريك الوجدان، كما كنت وكنا، نتوقع ونحلم ونحسب، فأي جدوى من كلمات أكتبها أو يكتبها غيري عما جرى ؟

ثم هالني بعد أن عبرت حاجز "صوفر"، وهو آخر حواجز الإسرائيليين والكتائبيين على طريق بيروت – دمشق الدولي، أن أجد الحياة تمضي كما كانت من قبل تمضي، والناس بسطاؤهم ونخبهم مشغولون بأمور علمتنا حكمة الموت المفاجئ والجماعي كم هي صغيرة وتافهة. سكت، فضلت عدم الكلام. كان العبور على ما تبقى من الطريق في لبنان، ثم من الحدود السورية إلى مطار دمشق مغامرة أخرى يجب أن يحسب حسابها اللسان.

وصلت مطار القاهرة الدولي. هذه المرة لا يعرف أحد من الأصدقاء أنني سأصل. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أحضر فيها إلى القاهرة منذ أن تعلقت بأهداب الحلم الفلسطيني قبل أربعة عشر عاما. ولكن هذه المرة تختلف. من قبل كنت أزور القاهرة والأهل لأعود إلى حيث نذرت النفس والعمر. هذه المرة عودة ومستقبل قد يكون البدء من جديد بسنوات من العمر لم أدخرها ولكنها طالت فتراكمت وأمرها ليس بيدي. احتضنني الأصدقاء. كنت جزءا من همومهم وخوفهم، بوصولي حيا، ذهب الخوف وزادت الهموم.

هل كتبت؟ هل ستكتب ؟ لابد أن تكتب ؟ النوايا طيبة والرغبات مشروعة، ولكن الفجوة تتسع من السؤال. هل يمكن أن تعبر الكلمات عما جرى؟ أي كلمات يمكن أن تنقل نبض القلب وسمات الأسى على الوجوه، وابتسامات التشجيع والمواساة وصرخات الألم وطنين الآذان وأصوات الصواريخ والقنابل وانهيار البنايات وألفة الموت ومرارة الإحباط وعمق الشعور بالوحدة؟

تردد في الخاطر موال يقول "أنا لو شكيت ربع ما بي للحديد ليدوب".. ربع!! الربع كثير.. كثير.. من يستطيع أن يحيط بالربع.. ولا حتى بلحظة.. الكلمات عاجزة ككل شيء حولنا، إلا أن نولد من جديد. المولودون من جديد لابد أن يكونوا جددا. تتجدد الروح والأفكار والأجيال أما الأفراد فيحملون آثار أفعالهم. الإنسان جسر، وللجسر بداية ونهاية والأجيال جسور متتالية. لا تقطعوا جسوركم، لتكن الخطوات الباقية نهاية طريق يصل إلى أول آخر.

كيف يمكن الوصل بين الجسور؟ كيف يمكن الوصل بين الأجيال؟ ليس بغير الذكريات يحملها الأحياء على أكتافهم حتى تنوء فيحملها المولودون الجدد.

حملة الذكريات يخوضون سباق التتابع، يسابقون القتلة والسفاحين، نحو روابي القدس. ماذا لو كتبت؟ سأوزع بعض أحمالي على أكتاف القراء. ربما حملها من يملك القدرة على خوض السباق. الخارجون من بيروت كالخارجين من سدوم وعامورة يتحول منهم إلى عمود ملح من ينظر خلفه. لا يجب أن ننظر خلفنا، ولكن لا يجب أن ننسى، ليس من الوفاء أن ننسى ولا من الحكمة أيضا.

اشتقت لزيارة مقابر الشهداء، ومن بقي من الأحياء.. فكتبت.

قليلون كتبوا عن "الناس"، كثيرون كتبوا عن السياسيين والسياسة، والعسكريين والحرب، وحصيلة كل ما كتب حتى الآن لم يصل بعد إلى الربع.. هل ذاب الحديد؟ ليس بعد. فكرت في بسطاء الناس الذين تحملوا وصمدوا وصبروا، وما يزالون. عنهم سأكتب، عذرا لكل الإخوة والأخوات الذين لم أكتب عنهم، عشرات، بل مئات من الذين عرفتهم وعايشتهم هم أصحاب هذا الكتاب وإن لم أذكرهم بالاسم. الذين ذكرت أسماءهم همزات وصل في نسيج الموال الكبير. الأسماء جميعا مستعارة. العدو يطارد حتى الذكريات.

* *
*

– للنشر أصول وقيود، ولابد من عنوان واسم..

– العنوان هو الحكاية ذاتها.. "الناس والحصار".

– واسم الراوي ؟

– لو قلنا إنه مجهول لاقتربنا من الصدق والوجدان، ما الفرد في بحر الملايين؟

- لابد من اسم.. أليس لك إسم ؟

- لدي الكثير.. اسم لكل جسر وما بين الجسور..

- اسم الجسر الأخير ؟

- محجوب عمر.

* *
*

صباح الجمعة ٤ يونيو/ حزيران ١٩٨٢

صحت بيروت الغربية مع الشروق كعادتها منذ سنين بعد أن اضطرتها ظروف الحرب والأمن إلى النوم مبكرا والصحو مبكرا.

حـــركة السير أخف قليلا من المعتاد. خوف معلق في الجو وزيادة في توزيع الصحف اليومية، ومؤشرات أجهزة الراديو تبحث عن صوت إسرائيل وصوت الكتائب. اليوم سيشهد غارة جوية إسرائيلية بالتأكيد. لم يَعد الإنسان فـــي حاجـــة إلى من يقول له ذلك في بيروت. أمس أطلقت النار على سفير إســـرائيل فـــي لـــندن. هل مات؟ ليس بعد. ومع ذلك سيضربون. أين؟ من يعرف؟ ربما قيادة صيدا. لا، من المؤكد أنهم سيضربون أهدافا في بيروت. محـــتمل يضربون في الدامور؟ لا.. لا.. بيروت.. الرأس للرأس.. والسفير الإسرائيلي صديق بيجن الشخصي. ربنا يستر.. ولا يهمك.

كانـــت بـــيروت الغربية خلال السنوات الأخيرة قد تمايزت إلى ثلاث مناطق: "الجنوبية" وتشمل مخيم برج البراجنة وحي الشياح والأحياء المحيطة بهما. ثم "المربع" ويمتد من دوار (ميدان) المطار حتى دوار الكولا وينحصر بيـــن شـــارع السفارة الكويتية وشارع كورنيش المزرعة، وفيه معظم مقار القـــيادات وغـــرف العملـــيات العســـكرية والمخـــازن والمســـتودعات بل والمستشفيات التابعة لجمعية الهلال الأحمر الفلسطيني، وبه أيضا تقع مباني جامعـــة بـــيروت العربية وأبرزها مبنى كلية الهندسة وهو مبنى حديث عالٍ يشـــمخ كـــنموذج للقدرة المعمارية المصرية وله طوابق تحت الأرض. وفي قلب كل ذلك مكتب "أبو عمار" وثكنة الـــ١٧ وهي اسم القوة الخاصة الملحقة بالقـــائد العام لقوات الثورة الفلسطينية. المنطقة الثالثة هي ما يقع خارج هذا المـــربع فـــي اتجاه شاطئ البحر ومنطقة الحمرا حتى "خطوط التماس" بين بيروت الغربية وبيروت الشرقية.

كـــان فـــي الإمكان ملاحظة أن السير والتواجد خفيفان في المربع منذ الصـــباح. بكر معظم من تبقى من السكان المدنيين داخل المربع في الرحيل. أصـــبحت عـــادة. الأولاد والماء والطعام وفرشة خفيفة والرحيل إلى منطقة

آمـــنة، قد لا تكون بعيدة ولكنها خارج المناطق المرشحة للقصف، والأرجح أن تكـــون شـــاطئ "المـــنارة" أمام السفارتين الأمريكية والبريطانية "معقول يضربوا هناك" ؟!

كـــان قسـم كبـير مـن السكان المدنيين قد رحل من قبل. ولئن كانت الحـيوانات والطـيور لها قدرة التنبؤ بالزلزال فإن البشر لديهم بالتأكيد قدرة توقـع مصائب من صنع إخوانهم. شهد الشهر السابق كله اشتباكات في كل مكـان. لم تكن تمضي ليلة دون اشتباكات بالأسلحة المختلفة داخل بيروت. فـإن مضـي الليـل هادئـا تنفجر سيارة ملغومة أثناء النهار لتذهب بحياة العشرات، وعندما تهدأ بيروت تبدأ الاشتباكات المحلية في الجنوب لتنتقل إلى بـيروت ثانـية. وروع الناس بما وصلت إليه الحال.. اشتباكات بين "حركة أمل" وفصائل فلسطينية.. قصف قرى جنوبية، خطف. تصفيات.. إنزال على الهوية من جديد، إغلاق طريق الأوزاعي الحيوي بحواجز طيارة، ثم كارثة صـبرا. اغتـيال عضو في فتح، اشتباكات داخل المدينة. إحراق الأسواق. اجـتماعات بيـن القيادة الفلسطينية والقيادات الحزبية اللبنانية، اتصالات مع المجلـس الشيعي الأعلى وقيادة "حركة أمل"، تتوقف الاشتباكات لتبدأ ثانية. إقامـة حواجز داخل أحياء المنطقة الجنوبية في بيروت. شائعات عن تخزين المواد التموينية في المنطقة الشرقية. شائعات عن احتمال هجوم كتائبي على بيروت.

أصبحت الحياة تبدأ عند الشروق لتنتهي تماما في الثالثة عصرا باستثناء شارع الحمرا الذي ظل يواصل نشاطه مع تغيير نوعية الزبائن. كان تحرك أي سيارة في الليل معناه أن ركابها ممن يحملون سلاحا وهويات تسمح لهم بالـتحرك الآمـن، وأصـبح في الإمكان التنبؤ بهوية ركاب السيارات من طرازها وسرعتها وعددها إذا سارت في موكب معا.

لذا، بدأ السكان الصيف مبكرا هذا العام. اللبناني عامة والبيروتي خاصة صاحب مزاج ومحب للحياة. أماكن كثيرة قريبة من بيروت آمنة فإن توفرت بعـض الاتصـالات فإن في الإمكان توقع أماكن المشاكل واختيار الأماكن الآمنة، والرحيل المؤقت.

جـــاء يـــوم الجمعة و"المربع" أكثر هدوءا مما تعود. أبو عمار مسافر خـــارج بـــيروت. فرصة لكثيرين أن يتركوا المربع ومكاتبه ومواقعه. ومع زحف ساعات النهار ازداد المربع هدوءا. صدرت الأوامر بالانتشار وتغيير ســاعات "الدوام" (العمل) إلى الليل والتحسب للغارات الجوية. وشعر السكان بتطبيق هذه الأوامر وازدادت موجة النزوح إلى خارج المربع.

عـــند الظهـــر كـــان من الصعب الحصول على "الطعام" للغداء بعد أن أغلقت معظم المحال أبوابها (ليس بسبب الخوف ولكن لقلة الزبائن) ومع ذلك ظلت بعض مظاهر الحياة العادية. الغسيل، والطبخ والاستعدادات لعصريات الصـــيف ومواصلة ترميم ما سبق أن تهدم بسبب القصف الجوي قبل عام أو انفجار سيارات ملغومة قبل أشهر.

ذكـــرت إذاعة مونت كارلو في نشرة الثانية بعد الظهر أن هناك توترا شـــديدا فـــي الجنوب وطلعات استكشافية للطيران المعادي. في الثالثة تماما اتجهـــت مؤشرات أجهزة الراديو إلى إذاعة لندن. تحدثت عن واقعة إطلاق الـــنار علـــى السفير الإسرائيلي واجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلي وعدم صدور قرارات علنية. ازداد التوتر.

في الثالثة واثنتي عشرة دقيقة سمع طنين الطائرات عن بعد. "طيران يا شباب". انتبه المسترخون وخرج البعض إلى شرفات الطوابق العليا يتأملون السماء. زرقة شهر يونيو/ حزيران الصافية. سحابات صغيرة لا تخفي شيئا والشمس بدأت تميل نحو النصف الغربي من قبة السماء. لم يكن ممكنا رؤية أي شيء من اتجاه البحر. فجأة دوت دفعة (صلية) من طلقات رشاش ثقيل ثم انفجـــرت الســـماء والأرض. ســـماء كـــل بيروت وأرض المربع. أصوات انقضاض الطائرات وأصوات الرشاشات الثقيلة المضادة للطائرات. شوهدت الطائرات بوضوح تنقض على منطقة المدينة الرياضية على أطراف المربع. وتعالت أصوات الانفجارات واندفع الناس إلى الشوارع. وعلى عكس ما هو مـــتوقع فـــي حالة الغارة الجوية أن يختفي الناس، امتلأت الشوارع بهم بين راكض ومتوقف يرفع رأسه نحو السماء محاولا رؤية الطائرات المغيرة.

انتهــت الغـــارة الأولى، توقفت أصوات الانفجارات وهدأت الرشاشات قلــيلا وابــتعدت أصــواتها وعلا ضجيج سيارات الدفاع المدني والسيارات المدنــية التــي تحاول الخروج من المنطقة بسرعة وأخرى تحاول الدخول للاســتطلاع. واختلط كل ذلك بالغبار ورائحة الدخان وأصوات إطلاق النار فــي الهواء بدون سبب أو بحجة فتح الطريق للسيارات المندفعة، وأصوات الــناس وأجهــزة الراديو. وتبادل الناس أخبار مواقع القصف فامتدت على ألســنتهم لتشــمل كل المنطقة الجنوبية وكل المربع وأكد البعض إصابة مقر القائد العام وثكنة الــ١٧ والمدينة الرياضية ومخيمات برج البراجنة وصبرا وشاتيلا. كان مصدر هذه الأنباء كلها إذاعة صوت الكتائب التي أخذت على عاتقهــا مــنذ تلك اللحظة إذاعة أنباء غير صحيحة عن القتال موسعة رقعة الإصــابات ومبالغة في قوة العدو ومثيرة الرعب في القلوب. لم تمضِ دقائق حتى عاد الطيران مرة أخرى وانفجر الجو مرة أخرى. وفي هذه المرة شاهد الكثــيرون طائــرات ســكاي هوك وهي ترمي بعشرات القنابل الثقيلة على المدينة الرياضية بدت وهي تسقط كأنها سرب من الطيور الجارحة السوداء ينقض على فريسة.

في هذه المرة أصيبت سيارات الدفاع المدني التي كانت قد اندفعت إلى المواقــع المضــروبة فــي الغارة الأولى. واندفع الناس ثانية يركضون في اتجاهــات مختلفة. وتكرر الأمر عدة مرات تشكلت خلالها حلقة من البشر. الراكضــون إلى خارج منطقة القصف والراكضون نحوها، التقوا في سوار ضــخم يحدد بالفعل منطقة الأهداف المتوقعة ولم تكن حدود "المربع" تخرج كثيرا عن هذا السوار البشري.

ثــم بــدأت الأخــبار تــرد. وتأكد أن الغارات قد تركزت على المدينة الرياضية وأصيبت الأكواخ التي تجاورها وأن أي موقع آخر في بيروت لم يــتعرض للقصف في هذه الغارة. ولكن كانت هناك أخبار عن غارات جوية وقصف مدفعي على مواقع عديدة في الجنوب امتدت حتى حدود مدينة صيدا.

كالعــادة، انهارت شبكة الاتصال التليفوني تحت ضغط الذين يحاولون الاطمئــنان. وانقطعــت عن المربع المواصلات العادية (السرفيس) ولم يبقَ

متحركا إلا السيارات الخاصة وكلها تابعة لمنظمات أو منظمين. وانتظر الناس الغروب حتى يعودوا إلى بيوتهم للاطمئنان عليها، وعندما عادوا عرفوا أن ماسورة المياه الرئيسية التي تمر من أمام المدينة الرياضية قد انكسرت وانقطعت المياه عن قسم كبير من المربع.

حل الظلام.. ولأول مرة منذ شهور شهدت شوارع المنطقة الغربية حركة سيارات ليلية كبيرة، تحرك الناس يطمئنون على أهلهم وليطمئنوهم. ودخلت أسر كثيرة إلى بيوتها في المنطقة لتأخذ ما تحتاجه للإقامة عند أقارب آخرين أو خارج بيروت. وأذاعت الإذاعات أن القوات المشتركة في الجنوب قد ردت على الغارة الجوية بقصف مركز على المستوطنات الإسرائيلية في شمال الجليل بفلسطين.

أدرك الجميع أن المعركة ستستمر وأن الغد سيشهد غارات أخرى. تزايد عدد القادمين والراحلين والسيارات التي تحمل الأمتعة والأطفال. بين الحين والآخر كانت تسمع صفارات سيارات الدفاع المدني وكان معنى ذلك أن جثثا جديدة وجدت تحت أنقاض المدينة الرياضية أو أن هناك جرحى ينقلون من الجنوب إلى مستشفيات بيروت. في تلك الليلة سقطت الحواجز الرملية التي كانت قد أقيمت بين مخيم شاتيلا وحي الغبيري ذي الأغلبية الشيعية وسقطت معها الشكوك ورغبات الثأر وبدايات القطيعة بين سكان المنطقتين. كذلك بدأ أول معسكر للاجئي الغزو الإسرائيلي للبنان عندما لجأ بعض سكان مخيمي صبرا وشاتيلا المجاورين للمدينة الرياضية وهدمت منازلهم أو تصدعت، إلى حديقة الصنايع التي اختاروها لبعدها عن المربع وقربها الشديد من مقر رئاسة الوزارة وحي الحمرا. هناك فرشوا وناموا ثم أقاموا خياما بدائية على الحبال الممدودة بين الأشجار. بعض العائلات فضل الذهاب إلى شاطئ المنارة وافتراش الجزيرة التي تتوسط شارع الكورنيش والنوم تحت أشجارها في حمى السفارتين البريطانية والأمريكية.

عصر الناس أجهزة الراديو بحثا عن أخبار وعن توقعات. كانت إذاعة صوت الكتائب تنعق بالأخبار المشئومة، بينما كانت إذاعتا فلسطين ولبنان

العربي تذيعان الأناشيد الحماسية والتعليقات السياسية وقليلا من الأخبار، أما إذاعات العالم فكانت تنقل الأخبار كعادتها دون موقف محدد.

لم ينَم أحد، ومن نام حلم بالكوابيس. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تقصف فيها بيروت من الجو ولا كانت المعاناة الأولى من ويلات الحرب. ولكن مشاعر الناس كانت هذه المرة تتوقع الأسوأ، وطالت الساعات.

أيقظ صوت الطيران من ظل نائما حتى الخامسة والنصف صباحا. تدفق الناس إلى كورنيش المنارة وحاول رواده المحافظة على عاداتهم. يركضون ويتداعبون ويمشون بكلابهم، يرتدون سترات الرياضة ويتبادلون التحيات بهزة من الرأس أو ابتسامة. لكن القادمين الجدد أربكوا البرامج اليومية. لم يعُد المكان يسمح بالركض أو حتى الجلوس الهادئ.. عدد كبير من الأطفال الصغار ظهروا على الشاطئ في وقت مبكر جدا بالنسبة لأعمارهم. لهم طلباتهم واحتياجاتهم والمكان غير مهيأ لذلك والشمس شديدة على رءوسهم وبشراتهم. بدأت الخيام البدائية تظهر بين الأشجار، وبدأ اكتشاف الأماكن الخفية على الشاطئ لقضاء الحاجة.. ووصل نبأ التجمع الجديد إلى الباعة فبدءوا يتوافدون بسرعة. من عادتهم المجيء عند العصر ولكن الحرب غيرت المواعيد، جاء باعة الكعك والمحمصات وسيارات تصنع القهوة والشاي وباعة البيرة والكازوز ووصلت مقاعد صغيرة وطاولات وبدأ لعب الطاولة والورق وتداخلت محطات الإذاعة ونشرات الأخبار.

ما يزال صوت الكتائب يذيع الغارات ويضخم الخسائر والخراب وتنقل عنه إذاعة إسرائيل التي لم يصدر عنها أي بيان رسمي. مر الطيران الإسرائيلي فوق بيروت وسمعت أصوات انفجارات بعيدة قدر الناس أنها في منطقة الدامور. تردد بعد ذلك أن الطيران الإسرائيلي قصف طريق الأوتوستراد الذي يصل بيروت بصيدا وأن العشرات استشهدوا. أذاعت صوت الكتائب، أن "باصا" يحمل طلابا من معهد "سبلين" أصيب وأن الخسائر تفوق الخمسين شابا. مع كل خبر تحدث حركة بين "مجتمع" الشاطئ، تتحرك سيارات للاطمئنان. يندفع الناس نحو أول سيارة قادمة ليسألوا ركابها عن حقيقة الأخبار. ازداد عدد أجهزة الراديو الصغيرة في أيدي الناس وازداد

الـــتوتر. كثيرون لهم أقارب يذهبون إلى صيدا يوم السبت ويعودون صباح الاثنين. من منهم كان على الطريق وقت الغارة؟

تردد أن مجلس الأمن سيجتمع. وأعلن رئيس وزراء سورية أنها تضع كـــل إمكانـــياتها للدفاع عن لبنان والمقاومة. سرت موجة من التفاؤل وخلع بعـــض الشـــباب بنطلوناتهم كاشفين عن المايوهات التي استعدوا بها لقضاء الـــيوم علـــى الـــبحر ونزلوا إلى الماء. وبين مجموعة وأخرى كانت بنادق الكلاشـــنكوف تـــرقد بجوار الزوجات أو الأمهات أو أصحاب العربات في انتظار أصحابها السابحين.

عند الغروب، وعلى طريق العودة إلى المربع والمنطقة الجنوبية كانت مـــنطقة الحمـــرا أكثر ازدحاما من المعتاد يوم السبت وظهرت في الشوارع الجانبـــية مجموعات من الأطفال يدل مظهرهم على أنهم من أبناء المخيمات أو مـــن أبناء الجنوب. المحال التجارية مغلقة والمقاهي خاوية إلا من زبائن قليلين.

مـــع اقتراب الظلام تقترب مواكب الأسر العائدة إلى بيوتها في المناطق المســـتهدفة. أجهزة الراديو تعمل حتى على الطريق ومتابعة الأخبار وتبادلها مســـتمر وازداد عـــدد السيارات المارة في طريق كورنيش المزرعة. على حـــدود المربع عادت الحواجز المسلحة تدقق في الهويات ولكن على عجل. الجميع يتصرف بعصبية وشرود. ما الذي سيحدث؟ هل هي الحرب؟ هل هي مجرد غارات انتقامية ؟ تردد أن هناك وقفا لإطلاق النار ولكن إذاعة الكتائب ذكـــرت أن القصـــف المدفعـــي المتبادل في الجنوب لا يزال مستمرا، هناك طيران هليوكوبتر على طول الشاطئ الجنوبي، ويقال إن البوارج الإسرائيلية قصفت طريق الساحل لتمنع المرور عليه. شائعات عن هجرة بعض العائلات من الجنوب إلى الجبل، ومن صور إلى صيدا، ومن صيدا إلى بيروت.. ومن بيروت إلى أين ؟؟

ازدحـــم المـــربع فـــي المساء.. مواعيد العمل الجديدة.. الانتشار نهارا والعمـــل مساء. أما السكان المدنيون فالأمر بالنسبة لهم تشتت نهارا ومحاولة أداء الأعمـــال المنزلية ليلا والنوم مبكرا تحسبا لليوم التالي. لا يوجد ماء إلا

مــا تبقى في الخزانات. لينَم الأطفال دون حمام بعد يوم طويل من اللعب في الحدائق وعلى شاطئ البحر. الكبار يحاولون مقابلة المسئولين من جيرانهم. "كيف شايفها؟".. "إن شاء الله خير".. "تفتكر فيه وقف إطلاق نار".. "طبعا.. اللـــي له أول له آخـــر".. "لكـــن هذه المرة باين شديدة" .."أبدا نسيت المرة الماضـــية؟" .. الإجابـــات لا تشفي الغليل ولا تطمئن.. يعود السؤال، "تطلع الأولاد على الجبل؟".. ويحتار المسئول.. إن أجاب بالإيجاب يكون متشائما، وإن أجـــاب بالنفي يتحمل مسئولية ما سيجري لهم.. يتردد.. يجيب "يعني.. الصيف بدأ.. والمدارس معطلة.. أفضل تطلعوا الجبل كام يوم".

فعلـــيا، لـــم يكـــن هـــناك عمل إلا في مكاتب المالية ومخازن التسليح واللاســـلكي والباقـــي كله اجتماعات، رسمية وغير رسمية.. الجميع يتبادل عـــبارة الحمـــد لله علـــى السلامة.. "أخبارك؟".. القيادة تشدد على الاستنفار واســـتدعاء قـــوات التعبـــئة (الاحتياطـــي).. على جميع الأخوات العاملات الالتحاق بجمعيات الهلال الأحمر الفلسطيني، على الإخوة القادرين المدربين الالـــتحاق بنقاط "التجمع"، الباقون على اتصال.. لأول مرة تمر ليلة بكاملها دون ســـماع أصـــوات إطلاق النار.. صمت ثقيل إلا من أصوات السيارات المســـرعة وســـيارات الشحن التي تنقل مواد التموين والذخيرة.. مجموعات التنصت تتابع أخبار مجلس الأمن.. صدر قرار ٥٠٨ المطالب بالامتناع عن الأعمال العدوانية، أرسل ريجان رسالة إلى بيجن يطالبه بضبط النفس.

ظلت الأضواء في النوافذ حتى ساعة متأخرة من الليل. الأمهات يرتبن أمورهـــن. إعداد ما خف حمله وغلا ثمنه.. وملابس الأولاد.. وطعام الغد.. وتنظيف ما يمكن تنظيفه. الباقون في المخيمات بدءوا تنظيف الملاجئ تحت الأرض وإعدادهـــا.. رواد كـــل ملجـــأ يعرفون بعضهم بعضا من المرات السابقة. بعض الجدد وبعض الغائبين، ومشاحنات حول الأماكن.. من بجوار الـــباب ومـــن في الداخل.. البعض يفضل الاقتراب من الباب "شوية هوا.. الرائحة لا تطاق في الداخل" والبعض يفضل الداخل. "الشظايا بتصل للباب.. خلينا في الأمان".

أذان الفجر، ثم أصوات النيران، والناس تخرج من المربع بهدوء شديد كـــأنهم يخشون لفت أنظار الطيران المعادي.. مرة أخرى إلى شاطئ البحر،

والذين قرروا الرحيل حملوا معهم أمتعتهم إلى الجبل أو إلى حديقة الصنايع.. "يعيــن الله" .. غــارات علـــى الطريق، قصف على كل الجنوب.. القذائف وصلت صيدا.. القوات المشتركة ردت.. ومن المؤكد أن الغارات ستستمر.. "ربــك يســتر".. "الله يكون مع الشباب".. وتمر الساعات ببطء والهدوء يلف بيروت.

* *
*

للأحد طعم خاص في بيروت، وحكاية...

فالأحد هو العطلة الرسمية، ومعظم المؤسسات تضيف إليه السبت، وفي الصيف يهجر معظم البيروتيين المدينة إلى الشاطئ أو الجبل ابتداء من عصر الجمعة أو صباح السبت. وتشهد المناطق المزدحمة هدوءا مريحا يتمتع به من لم يذهب إلى خارج المدينة.

وخــلال الحــرب اللبنانية التي استمرت سبع سنوات، كان الأحد يتميز بــالهدوء أيضـــا. إنـــه يوم راحة المقاتلين. لم يرتبك هذا التقليد إلا في بداية دخــول القــوات الســورية إلى لبنان، إذ أن يوم العطلة في سورية هو يوم الجمعـــة وليس الأحد ولكن "أحد لبنان" سرعان ما ابتلع "جمعة سورية" وعاد مرة أخرى إلى الهدوء.

كـــان مـــن المتوقع أن يمر الأحد ٦ يونيو/ حزيران كأي أحد آخر. لا يـــتأثر بما يجري في الجنوب أو في الشمال. ولكنه رغم الهدوء الذي بدأ به كـــان أحدا خاصا. الهدوء لم يكن بسبب خروج الناس إلى الشاطئ والجبل. الذين أمكنهم ذلك قلة فالقصف الجوى على الطرق استمر طيلة السبت، وفي اللـــيل كانـــت الغارات الوهمية والحقيقية على طريق الجنوب، الخروج إلى شـــاطئ بيروت كان محدودا، الجزء الآمن منه لا يزيد عن نصف كيلو متر أمام السفارتين الأمريكية والبريطانية و الزحام شديد. أما المناطق الجنوبية و

الغربـــية من المدينة فقد كان هدوءها متوترا كئيبا بحيث يمكن سماع أجهزة الراديو عن بعد تختلط نشرات أخبارها التي لا تبشر بخير.

بـــدأت إذاعـــة صوت الكتائب، و نقلت عنها إذاعة إسرائيل، بسيل من الأنـــباء عن القصف، والقصف المتبادل و الغارات الجوية، و الهجمات على طرق الجنوب التي امتدت شمالا حتى تخطت الدامور أي وصلت إلى حدود بـــيروت. أخبار عن وقف إطلاق النار وعن انتهاك وقف إطلاق النار، وكل طـــرف يلقى المسئولية على الآخر. كان معنى أخبار قيام القوات المشتركة الفلســـطينية واللبنانـــية بالرد على العدو بقصف مكثف على مستوطناته أن الحـــرب ستستمر فالعدو سيرد أيضا. وخلا المربع من السكان المدنيين ومن معظم العاملين في الأجهزة. بقيت الحراسات وبعض الذين قدروا سياسيا أن الحـــرب لـــن تتصـــاعد، وآخرون اقتضت مهامهم أن يبقوا. تم نقل غرف العملـــيات إلى خارج المربع فارتبكت الاتصالات التليفونية الداخلية وأصبح من الصعب معرفة الأخبار الواردة على اللاسلكي وتحول الجميع إلى أجهزة الراديو يتابعون البلاغات.

فـــي الحادية عشرة صباحا رن جرس التليفون .المتحدث صحفي أجنبي صديق :

ــ هالو..

ــ هالو..

ــ هل هناك أخبار ؟

ــ لا جديد عما تسمع ..

ــ هل سمعت بتقدم برى للقوات الإسرائيلية ؟

ــ أمس وفشلوا ..

ــ لا.. اليوم..

ــ لا لم أسمع ..

ــ أبلغني موظف بالأمم المتحدة أن طابورا مدرعا إسرائيليا اخترق منطقة عمل القوات الدولية ووصل إلى مشارف صور.

ــ وماذا فعلت القوات الدولية ؟

ــ لا شيء ..

ــ هل هناك تقدم على محاور أخرى ..

ــ نعم .. في الوسط والشرق ..

ــ شكرا ..ابقَ على اتصال ..

ــ أبلغني إن كانت هناك أخبار هامة ..شكرا ..

بـــدأ الغزو .. هذا يفسر التركيز على الطرق وعلى المستودعات حتى بيروت. أخيرا تغلبت وجهة نظر شارون وإيتان .. كان من المعروف أنهما مـــن أنصار الاجتياح وأن معارضيهما كانوا يخشون الخسائر، وقال إيتان : "الجيش للحرب ولتقديمْ خسائر"..ستكون حربا دموية. كلما ازدادت خسائرهم ازدادوا إصــــرارا على تحقيق مكاسب سياسية على الأقل .. هذه المرة ليست ككـــل مـــرة .. بـــدأت الاتصالات التليفونية والشخصية لإبلاغ المعلومات وتـــبادلها. "نعم وصلتنا برقيات الشباب من الجنوب .. المعنويات عالية جدا" .. عندما تذكر البرقيات أن المعنويات عالية جدا فذلك معناه أن الهجوم شديد جـــدا .فـــي الغـــرفة الواحدة يعمل أكثر من جهاز راديو .. لم تعُد لنشرات الأخـــبار مواعيد..كل الإذاعات باستثناء إذاعة إسرائيل تقطع برامجها لتذيع الأخـــبار الجديدة. تراجعت إذاعة بيروت الرسمية إلى آخر قائمة الإذاعات . فـــي الـــبداية كـــان صـــوت الكتائـــب ثم إسرائيل ثم صوت لبنان العربي "المرابطون" ثم صوت فلسطين ثم إذاعة الثورة العربية .. بعد ساعات تغير هذا الترتيب وجاءت الإذاعات الوطنية "المرابطون، فلسطين، الثورة العربية" في المقدمة. قرف الناس من إذاعة صوت الكتائب .. أسقطت صور والنبطية وقلعـــة الشـــقيف والزهراني في الساعة الأولى .. وعنها حاول العدو القيام بإنزال شمالي صيدا على جسر الأولي أسقطت إذاعة الكتائب كل مدينة صيدا .. وعـــنها تنقل إذاعة إسرائيل كأن ما يجري لا علاقة له بجيشها وإنما هي "تـــنقل" ما تذيعه إذاعة الكتائب. اتضح التنسيق الكامل بين الإذاعتين. بذلت الإذاعـــات الوطنية جهودا كبيرة لتكذيب الشائعات والأنباء التي تحدثت عن ســـقوط كل الجنوب. مرت فترة الظهيرة دون غداء وعندما أذاعت الإذاعات

أن العـــدو دفع بطابور مدرعات نحو صور وذكرت أنباء عن تدمير طابوره الأول طلـــب الشـــباب الطعـــام وانفتحت الشهية وعلت الأصوات من جديد لمناقشة الاحتمالات.

علـــى شـــاطئ كورنيش المنارة قلت مظاهر اللعب والمرح المعتادة، لا يـــزال بعـــض الشباب يسبح، ولكن الأمهات كن أكثر قلقا وحرصا على بقاء الأطفال بجوارهن. أجهزة الراديو تجمع الناس دون تعارف، والتعليقات على كـــل خـــبر تضـــيع علـــى الأذن الخبر التالي. الطائرات تغير على الدامور والـــناعمة وحتى الدوحة وعرمون .. مشارف بيروت ..غارات على مخيم بـــرج البراجـــنة ومحـــيط المطـــار والإشاعات تتوالى عن حجم الإصابات وضـــخامة الحشـــود الإسرائيلية وسرعة تقدمها. البوارج ظهرت في عرض البحر تقصف قرى ومدن الشاطئ "لن يقصفوا شاطئ بيروت".."هنا السفارة الأمريكية وخلفها الجامعة الأمريكية".. ازدادت مبيعات البيرة والمياه المعبأة والقهـــوة وسرعة السيارات المسلحة بالرشاشات الثقيلة التي تغير أماكنها بعد كل وجبة نيران.

ــ سقطت ثلاث طيارات

ــ وطائرتان هليوكوبتر .

ــ يا زلمه.. كلام..

ــ صدق يا زلمه.. صدّق..

ــ شو أصدق ؟من حرب الـــ٧٣ العرب ماسقطوش ولا طيارة.

ــ لكن إحنا سقطنا ثلاث طيارات ..

ــ فين؟..فرجيني أسير طيار ..

ــ أنا شفت طيار أسير ..

صـــمت الكـــل .."أنـــا شفته بعيني "..مرة أخرى إلى الإذاعات ..فعلا ..هـــناك طـــيار أســـير ..ظهـــرت الســـعادة على الوجوه .."والله واكلينها الإســـرائيلية".."مـــن اللي سقطها"؟.. "يخلف عليه".."والثانيين ماهم أسرى ؟" قتلوا .. وجيء بجثثهم.."حلو".

اشتدت الغارات .. وعاد الوجوم ثانية .. وكثفت إذاعة الكتائب من أنباء سقوط المناطق والمدن والقرى، وعلى حد قولها وصل الإسرائيليون إلى مدخل بيروت الجنوبي.. ومع اقتراب الغروب أغارت الطائرات الإسرائيلية على المنطقة الجنوبية وأعلن عن اجتماع يعقده مجلس الأمن ثانية.

مع الغروب عادت الحركة إلى الشوارع، والضحكات أيضا. مقاومة شديدة في صور والنبطية وقلعة الشقيف. البعض وصل من هناك .. الخسائر قليلة .. مازال في الإمكان الوصول إلى صيدا. وبدون اتفاق مسبق تحاشى الناس تبادل الأنباء السيئة ورددوا وبالغوا في الأنباء السارة عن المقاومة وخسائر العدو. وعلم أن أبوعمار وصل من خارج لبنان إلى بيروت. قال البعض "ياريته كان بره، كان يحرك العالم النايمة". وأجاب آخرون "معقول أبو عمار يبقى بعيد ؟".

شهد ليل بيروت مزيدا من الترتيبات والحركة. الأرجح أن يواصل العدو قصفه للمدينة ويحتمل وصول أعداد من اللاجئين من الجنوب. استمرت غارات الطيران وقنابل الإضاءة على الطرق والقصف من البحر .الأصوات تسمع في بيروت من بعيد وأعداد الذين نزلوا إلى الملاجئ لقضاء الليل في ازدياد. ولكن خبر المساء كان ظهور الطيار الأسير على شاشة التليفزيون الذي غطى الحديث عنه على أخبار قرار مجلس الأمن رقم ٥٠٩ بوقف إطلاق النار فورا وانسحاب القوات الإسرائيلية بدون شروط.وتتبع الناس باهتمام أخبار مؤتمر الدول الصناعية واستدعاء ريجان لفيليب حبيب. كان واضحا أن موقف أوروبا ضد الغزو. لعله خير. كذلك رددت الإذاعات التصريحات المصرية التي أدانت الغزو و طالبت بالجلاء الفوري غير المشروط، ثم تصريحات رئيس إيران عن استعداد القوات الإيرانية والمتطوعين الإيرانيين للسفر فورا إلى سورية ولبنان. و تفاءل الناس بأن هذه المعركة ستكون كبيرة ولن يتخلف أحد عنها. تهون التضحيات إذا شارك الكل. وجاء تصريح الرئيس السوري حافظ الأسد واضحا و محددا. "أن سورية لن تسمح بالقضاء على الثورة الفلسطينية ". إذن ستكون حربا حامية في البقاع الغربي و الجبل. لابد من إطالة أمد القتال حتى وصول المتطوعين

الإيرانيين أيضا. ذلك سيحسن موقف شيعة لبنان. وستكون المقاومة في الجنوب على أشدها. لم تكن محصلة اليوم سيئة برغم أن الإسرائيليين هاجموا كل المناطق و بلغوا مواقع لم تكن متوقعة وترددت كلمات "اجتياح" و "إبادة" و "غزو" كثيرا. وكذلك تكررت عبارة "معنويات مقاتلينا عالية".

هل الصباح كئيبا..اختفى الأطفال من الشوارع..لم تمر سيارات المدارس. ظهرت سيارات البلدية لجمع القمامة و العاملون ينحنون لرفعها تارة ويتطلعون نحو السماء تارة أخرى توقعا للطيران .أصوات سائقي سيارات السرفيس التي توقظ الناس قبل الفجر بنداءات "واحد ع الشام،صيدا صيدا، طرابلس.." خفت ولكن لا يزال واحد يصيح "الشام ..الشام.. صيدا..".. هل هذا معقول.. هل لازالت السيارات تصل إلى صيدا ..

ـ الطريق سالكة؟

ـ سالكة.

ـ وآمنة ؟

ـ على الله ..

ـ بكام ؟

ـ خمسين ليرة.

كان أمس بخمسة وعشرين فقط!

ـ جيت من صيدا ؟

ـ اليوم على بكير "أي مبكرا".

ـ كيف الحال هناك ؟

ـ غارات وقصف. الإسرائيلية فِي الزهراني.." مدخل صيدا الجنوبي "وبيقولوا الشقيف سقطت..

ـ وصور ؟

ـ دخلوها ..

هل هذا معقول؟.. عودة إلى الإذاعات.. صور محاصرة وتقاوم.. العدو لم يستطِع دخول مخيمي الرشيدية والبرج الشمالي.. مقاومة عنيدة في

البســاتين حولها. القصف من الجو والبر والبحر. محاولة التفاف على صيدا من ناحية الجبل والشرق. قصف مستمر من البحر والجو. معارك شديدة عند الرميلة على طريق صيدا – بيروت.. خطة العدو واضحة.. تقطيع الجبهة.. إنــزال علــى طــول الطريق الساحلي لقطع الإمدادات.. ذلك يفسر قلة عدد اللاجئيــن مــن الجنوب. ما يزال الجنوب صامدا والعدو لم يسيطر إلا على الطرق.

شــاي، وقهــوة، وصــمت إلا من أصوات أجهزة الراديو.. فجأة دوت أصوات فرقعة مكتومة قريبة. قفز الجالسون.. ثم ضحك أحدهم قائلا "شوفوا .. شــوفوا الحاجــة مصرة على النظافة". الجارة كانت تنفض سجادتها من غــبار الغــارات في اليومين السابقين.. رفّهت الواقعة عن نفوس الجالسين. اقــترح أحدهــم الخــروج من المربع لمشاهدة ما يجري في المدينة.. اليوم الاثنين. هل فتحت المحلات والبنوك أبوابها؟

علــى بعــد مئات الأمتار من "المربع" كان كل شيء يمضي كالمعتاد. زحام المرور، مؤسسات مفتوحة، سيارات مسرعة، خضار ولحوم طازجة، ومــا يــزال الســرفيس بليرة ونصف رغم أخبار قصف مصفاة الزهراني. التغيير الوحيد كان ازدحام البنوك. ولكن اليوم هو الاثنين. ربما كان ازدحاما عاديــا مــع بداية الأسبوع. كان الغسيل المنشور بألوانه يبهج النفس. الحياة تمضــي كالمعــتاد، وكأن "المربع" والمنطقة الجنوبية في بلد آخر.. منطقة الحمرا لا تزال كما هي، زحام وسيارات وبيع وشراء وأجانب بالإضافة إلى الســكان الجــدد اللاجئين من المنطقة الجنوبية والمخيمات.. حديقة الصنايع أكثر ازدحاما باللاجئين وعربات الخضرة والطعام والحلوى بدأت تحيط بها، وفي الداخل سيارة تحمل آلة صنع القهوة الاكسبريسو والشاي للرواد الجدد. ســيارات مســلحة تقف بجوار الحديقة، الأبناء يزورون عائلاتهم في مقرها الجديــد، بالإضافة إلى تحول حديقة الصنايع إلى مركز هام للأخبار الواردة من مختلف المناطق.

استمرار محاولات الإنزال حول صيدا وقصفها برا وبحرا وجوا.. كذلك استمرار قصف الدامور والناعمة.. أخبار عن إصابة قائد كتيبة الجرمق وهو

في الوقت نفسه قائد القوات المشتركة بقاطع النبطية وقلعة الشقيف. كسرت ساقه من شظية ونقل إلى مستشفى الجامعة الأمريكية. حالته ليست خطرة جدا وأجريت له جراحة. لا أخبار عن قادة منطقة صور والقاطع الأوسط. القادمون يقولون إنه تم توزيع القوات إلى مجموعات وإن عزمي وبلال ومسعود بخير. أذاع صوت الكتائب نبأ سقوط "بضعة" صواريخ على مستوطنة في الجليل الأعلى وإصابة شخص واحد.. المهم أن هناك من يطلق الصواريخ. قرر أبو النمور التوجه إلى صيدا.

أبو النور شبل من أشبال "فتح" تربى في صفوفها حتى أصبح ضابطا في قوات العاصفة. في عام ١٩٧١ كان لا يزال في سن الأشبال ولكنه كان يتصرف بأكبر من سنه. اختاره القائد الشهيد جواد أبو الشعر قائد القطاع الأوسط ليكون معه دائما. في ذلك الوقت كان قادة الصف الثالث يقتدون بالشهيد القائد أبو علي أياد في اهتمامه بالأشبال. لابد من الاهتمام بصغار السن، هم قادة الثورة في المستقبل. البعض نفذ ذلك قولا وعملا، والبعض نفذه شكلا أما من الناحية العملية فهو يحول الأشبال إلى "مرافقين" لخدمته. أبو النمور من الصنف الأول. مرافقته لجواد كانت مدرسة. في الثانية عشرة من عمره لبس حذاء عسكريا ثقيلا وتعلم أن يمشي كل يوم عشرين كيلو متر على الأقل. حفظ تاريخ فلسطين ومبادئ وأهداف وأساليب "فتح" وأتقن فك وتركيب البندقية والقنبلة، ومن بعد تدرب على صناعة المتفجرات الشعبية. أخته كانت زهرة، ظلت في معسكر الزهرات ولم تتَح لها فرصة الانتقال إلى القوات إلا فيما بعد عندما برزت في معارك تل الزعتر كعاملة لاسلكي ثابتة الأعصاب ومبادرة ومتحمسة.

لم تكن هناك منافسة بين أبو النمور وأخته ولكن لم يكن هناك أيضا أي تدخل أو تداخل فيما بينهما. كان جادا كتوما كما علمه الشهيد جواد. وسنحت له فرصة لقاء كوادر كثيرين وهو مع جواد فتعلم منهم بندية تبعث على افتخارهم. ودفع به جواد إلى التعليم وتعلم مهنة. تعلم مهنة اللاسلكي وإصلاح أجهزة الراديو وتعلم قيادة السيارات. ثم تقدم فيمن تقدم إلى الكلية العسكرية التابعة لقوات العاصفة وتخرج منها ملازما بجدارة وتفوق وعاد

مـــرة أخـــرى إلى الجنوب الذي هو منه. لا يعرف أحد إن كان فلسطينيا أو لبنانـــيا. فـــي الواقـــع هو من قرية حدودية نصف سكانها لبنانيون ونصفهم فلسطينيون كأسرته تماما. إخوته وأخواته يعملون في التجارة وأمه حاجة لا تصافح الرجال ووالده متوفٍ. قبل الغزو بشهور رشح لدورة خارجية. درس اللغة الإنجليزية، وبدلا من قضاء الوقت في بيروت بدون عمل التحق بإحدى المؤسســات البحثــية الــتابعة للمنظمة ليزداد تعلما وخبرة. سمع بمحاولات الإنزال على جسر الأولي فذهب إلى من اختاره شقيقا أكبر:

- أنا رايح صيدا..
- سألت الأول؟
- اسأل من؟
- غرفة العمليات.
- أنا تابع لقيادة صيدا.
- ربما يحتاجونك هنا.
- أنا أعرف المنطقة.. ومكاني هناك..

وانــتهى الحــوار.. ومضى دون مصافحة كأنه سيعود بعد ساعة. بعد عشــر دقــائق تحدث تليفونيا ليقول "لا توجد سيارات أجرة. سآخذ سيارتي معي". كان إخوته قد اشتروا له سيارة صغيرة على أن يدفع ثمنها أقساطا من مخصصه. ومضى.. استمرت الادعاءات تذكر أن الطيران المعادي يقصف بتركــيز شــديد طــريق بــيروت صيدا وأن الكثيرين استشهدوا أو أصيبوا خصوصا على الأوتوستراد المار أمام قرية الدامور. "الله يحميه".

فــي الرابعة والنصف عصرا كان المربع مأهولا إلى حد ما.. القصف الجــوي لــم يكن قد تخطى حدود المدينة الرياضية والمنطقة الجنوبية حتى الآن.

انطلقــت صلية الرشاش الثقيل التي كانت تسبق كل غارة عادة، وانفجر الجو بأصوات الرشاشات المضادة للطائرات ولعبت في السماء طائرات الــ إف ١٦ تلقي بالونات حرارية وتنقض انقضاضا وهميا على هدف ما في قلب

المربع. ركض الواقفون بجوار جامعة بيروت العربية في مختلف الاتجاهات إلـــى خـــارج المـــربع، وفجأة خشخشت أصوات النوافذ والزجاج والستائر المعدنية في دائرة يبلغ نصف قطرها كيلو متر على الأقل وأعقب ذلك انفجار رهيب هز الأرض والمباني. وتكرر ذلك أربع مرات شوهدت أثناءها طائرة الـــ إف ١٦ وهي تنقض ثم تندفع صاعدة ليخرج من بطنها صاروخ على هيئة طائرة صغيرة يخترق حاجز الصوت فتهتز الأبنية قبل أن ينفجر الهدف لتهـــتز الأرض. صـــاروخ مافـــريك. يقال إن ثمنه مئة ألف دولار. أربعة صـــواريخ منه ألقيت على هدف واحد في خمس دقائق. نصف مليون دولار تقريـــبا تكاليف هذه الغارة. ترى أي هدف هذا؟ الاستنتاجات كالعادة رشحت مكتب القائد العام، والذين كانوا بعيدين عن المربع خيل لهم أن المربع كله قد انهـــار. اختفـــت الطائرات من الجو واندفعت السيارات والناس ليكتشفوا أن الهـــدف كـــان مبـــنى كلية الهندسة في قلب المربع. ولم يكن كل المبنى هو المقصود وإنما طوابقه الموجودة تحت الأرض. ثلاثة صواريخ انفجرت على مداخـــل هذه الطوابق والصاروخ الرابع شق بناية مدنية قريبة نصفين مزيلا نصفها الأعلى تماما ومصدعا النصف الثاني. لم تكن الخسائر البشرية كثيرة. كانت المنطقة خالية. ولكن خمسة من سكان البناية كانوا قد بكروا في العودة فاستشهدوا، كذلك استشهد حارسان والضابط المناوب في مبنى كلية الهندسة الذي كان يستخدم فيما مضى غرفة عمليات نقلت منذ بداية القتال.

ترددت بسرعة كبيرة أنباء قصف كلية الهندسة، وأذاعت إذاعة الكتائب أنهـــا المقـــر الســـري لياسر عرفات ومستودع للذخيرة وأن عددا كبيرا من معاونـــيه قتل. ردت الإذاعات الوطنية بسرعة وحذرت الناس من الاقتراب من المنطقة لتصدع أبنيتها. حرص العائدون إلى المربع على عدم دخوله قبل "آخـــر ضـــوء" حين لا يمكن للطيران المعادي تحديد أهدافه. في السابعة إلا خمس دقائق أذن أذان المغرب من جامع جامعة بيروت العربية، وتقدم الذين يـــريدون دخول المربع من مختلف الاتجاهات وفجأة دوت الرشاشات ثانية. فـــي هـــذا الوقت تظهر طلقات الرشاشات الثقيلة كالنجوم في السماء وتسهل رؤية الطائرات المعادية لانعكاس أشعة الشمس عليها وهرع الجميع خارجين

وتكررت أصوات الصواريخ مرة أخرى تشق حاجز الصوت وتنفجر لينعكس وهــج الانفجار وقت الغروب على سماء غرب بيروت كلها وتهتز المدينة. ثلاثــة صــواريخ مافريك أخرى على كلية الهندسة، أحدها وصل إلى مدخل الطوابق الأرضية من ناحية الغرب بعد أن كانت الغارة الأولى قد أزالت من طــريقه النصف العلوي من البناية التي تخفيه عن الرؤية المباشرة. واتضح ســر قصــف البــناية المدنية في المرة الأولى. لم يكن خطأ في التصويب. المافــريك ثمــنه أغلى من ثمن البناية، وإنما كان لفتح الطريق أمام الإصابة المباشرة الثانية. ورحم الله شهداء البناية الذين أزيحوا من الحياة.

ظــلّ الغــبار ودخان القصف وطلقات الرشاشات الثقيلة التي تلمع في السماء حتى هبط الظلام الكامل على المدينة. ومنذ تلك الليلة زادت الكلمات والعبارات المستعملة عبارتان "أول ظلمة" تمييزا للحال عن "آخر ضوء" بعد أن تكررت الغارات في هذه الفترة بالذات وعبارة "طفي الضو" تقال بعصبية من المسلحين على الحواجز المقامة على مداخل المربع. وصدرت التعليمات بالتعتيم قدر الإمكان مع أن التيار الكهربائي كان لا يزال ساريا.

* * *

دبابات العدو تندفع على محور الجيّة – السعديات – الدامور.

صيدا محاصرة تماما والعدو يقطع بينها وبين مخيّم عين الحلوة .

غــارات جوية مكثفة على كل المناطق. لم يعُد هناك محور محدد يتقدم علــيه العدو و إنما هو يتقدم في كل الاتجاهات. المفاجأة كانت صعوده إلى الجــبل و مــروره فــيه بــدون أي مقاومة. بلاغات قياده القوات المشتركة الفلســطينية اللبنانــية تنــبه إلى خلو الجبل من أي قوات فلسطينية أو حتى جماهــير فلسطينية. الغارات على بيروت يساندها قصف بحري من البوارج

الإسـرائيلية .أصـوات الراجمات و المدافع على البوارج تتميز عن غيرها .ربمـا لأنها كبيرة العيار و ربما لازدياد الرطوبة على سطح البحر. طبول مدويـة ضـخمة تعقـبها انفجارات في مناطق متعددة في بيروت. راجمات البوارج تطلق العشرات من الصواريخ كل دفعة و تمشط الأحياء كلها ولكن التركيز كان على دائرة تضم المطار و مثلث خلدة والأوزاعي و حي الرملة البيضاء و مستديرة الكولا و الفاكهاني ومخيم برج البراجنة. شارع كورنيش المزرعة الذي يصل بين المنطقة الشرقية شرقا وساحل الروشة غربا يقصف باستمرار، كل ست دقائق قذيفة، بدأت القذائف الانشطارية والعنقودية تنصب علـى المـناطق المخـتلفة. صوت القنبلة العنقودية مميز. صوت الإطلاق كالطبل الضخم، ثم صوت انفجار أصغر نسبيا ثم أصوات تبدو للمبتدئ كأنها أصـوات تحطـم زجاج أو شظايا أحجار تتناثر بعد الانفجار ،ولكن تكرار الصـوت يفهم السامع في ملجئه أن الذي يتناثر ليس زجاجا أو حطاما ولكنه القـنابل العـنقودية الصغيرة. حذرت الإذاعات الوطنية السكان من الأجسام الغريـبة المعدنية وغير المعدنية. أغلقت مناطق بكاملها حتى يمكن تطهيرها من القنابل العنقودية المتناثرة. تراجعت الحياة بسرعة في المحال التي لم تكن قـد أغلقت بعد أبوابها. لم تعُد نداءات "الشام، صيدا..طرابلس" تتردد. خلت مسـتديرة الكـولا إلا من السيارات المسلحة وحفر الخنادق. حتى أبو علي الحلواني لم يفتح أبوابه.

أبو علي الحلواني وأولاده من علامات المربع المميزة الشهيرة. بدأ منذ سـنوات قـبل انـدلاع الحرب اللبنانية في عام ١٩٧٥. كان يصنع الحلوى ويبيعها في دكان صغير ذي طاولتين وأربعة مقاعد ومنصة يخرجها صباحا إلـى الرصـيف ويدخلها مساء. وتطور الحال. مع الحرب اللبنانية اكتسب الشـارع الذي يقع فيه دكان أبو علي أهمية متزايدة لقربه من مباني جامعة بـيروت العربية، ومستديرة الكولا ولافتتاح العشرات من المكاتب والمقرات للقوى اللبنانية والفلسطينية المختلفة فيه حتى أصبح الشارع هدفا محتملا لأي

اعتداء. وتوسع أبو علي مع توسع الشارع وتحول من دكان إلى "محلات" بعد أن استأجر الشقة الأرضية الملاصقة له، وحولها كلها إلى مقهى وحلواني حديث على الطريقة اللبنانية، مقاعد جلدية فخمة، طاولات رخامية حديثة، موكيت على الأرض، تكييف مركزي، موسيقى مركزية، وآلة لصنع القهوة الاكسبريسو والشاي بالإضافة طبعا إلى الحلويات. ارتفعت أسعار أبو علي حتى قاربت أسعار محلات الحمراء. كان هناك أبو علي الكبير رحمة الله عليه وأبو علي الصغير ابنه. والأخير على درجه عالية من الذكاء وخفة الروح والدأب. التقط رطانة "الثوريين "الذين اتخذوا من محلاته محلا مختارا لمناقشة قضايا الأمة كلها وإشاعات المربع. أحيانا كان البعض يمازحون أبو علي فيسألونه إن كان مع الشعبية "الجبهة الشعبية " أو "فتح "، أو إن كان مع منظمة العمل الشيوعي أو الحزب الشيوعي اللبناني، ولم يكن يتأخر عن الإجابة التي لابد أن تحتوي عباراتها على كلمات مثل "البرجوازية الصغيرة " و "الكومبرادور " و "الإمبريالية". كان يعرف تقريبا كل زبائنه لذا كان قادرا على الإجابة عن أسئلتهم بما يرضيهم ويضحكهم. ووصل الأمر بأبو علي إلى أنه كان يبيع الحلوى والقهوة والشاي "بالدين "على كشف المخصص الشهري، فمعظم رواده إن لم يكونوا جميعا متفرغون. وكان أول الشهر يتسلم مستحقاته أو أحيانا يطلب احتجازها من المالية المركزية للمنظمات إن كان الزبون قد "غاب " أو سافر.. وساعده ذلك على أن يرفع أسعاره بتوافق دقيق مع كل زيادة للمخصصات تقررها المنظمات دون أن يشكو أحد، ولكن مع تغيير بطيء في نوعية الزبائن سواء لارتقائهم هم أو لانضمام زبائن جدد. باختصار كان أبو علي الحلواني شهيرا في المربع تزوره أجهزة الأمن التابعة للمنظمات بحثا عن معلومات أو مشبوهين أو خلافه .ويجلس عنده أصحاب الأخبار غير المنشورة واشتهر وازدهر حتى قال فيه "جمهر" (الشاعر) :

أبو علي التوسّعي	رأسمالي تطلّعي
بيمد الأذرعي	وفي كل حتة راح يفوت
ولما إنه برجوازي	يبقى مثل الأشكنازي
الرأسمالي أصله غازي	وكمثل الأخطبوط
يبقى قاعدة بريالية	مثله مثل الصهيونية
رجعي فاشي والبلية	إنه ساكن في البيوت
يبقى مين أخطر علينا	هوه ؟ والا إسحق رابينا
الأكيد إنه ابتلينا	وإن سكتنا راح نموت
الرفض واجب يا رفاق	لا ولا وألف لاء
تسقط الأمطار شتاء	قوموا يا لّلا الجو راق
بكرة يابو علوه ندفع	إحنا برضه أصدقاء

لـم يحـدث أبدا طوال الحرب اللبنانية ورغم سقوط قذائف عديدة على المـنطقة والشارع أن أغلق أبو علي الحلواني محلاته، حتى عندما سقطت قذيفـة مباشـرة علـى السـاحة الخلفية لمحلاته فأحرقت براميل من السمن الصناعي فاحت رائحتها كالشمع المحروق في الحي.

مـرة واحدة قبل الحرب الأخيرة بأشهر أغلق أبو علي أبوابه لأسابيع. أوقـف مجهولـون سيارة مليئة بالمتفجرات أمام محلات أبو علي الحلواني. طـبعا لـم يكن مقصودا في ذاته وإنما كان المقصود هو مجموعة الأجهزة والمؤسسات المحيطة به. في العاشرة صباحا من أول أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨١ انفجـرت السـيارة. استشـهد ٨٣ شخصـا وجرح أكثر من مئتين واحترقت ثلاث بنايات وتحطمت ست بنايات، تحطم الزجاج في دائرة قطرها كـيلو متريـن وتحطمت محلات أبو علي وقتل كل من كانوا بداخلها إلا هو وأخـاه اللذين أصيبا إصابات بالغة ولم يحمهما سوى ساتر رملي كان مقاما

أمـــام زجـــاج فاترينة المحل التي يقفان وراءها. بقيت أبواب أبو علي مغلقة حـــتى شـــفي وأخـــوه وعـــادا للعمل ورمما المحلات وجدداها. أعيد افتتاح المحلات يوم أول مايو/ أيار ١٩٨٢ لتغلق مع أول أيام الحرب، ويغادر أبو علي المربع إلى منطقة آمنة هو وأهله. واستمر متعهد توريد الكعك لمحلات أبو علي يأتي بها كل يوم فجرا ويعلقها لـــه كالعادة على الباب، ولأكثر من أســـبوع كـــان الكعـــك من نصيب الحراسات والمارة وأبناء السبيل. ولكن المحلات بقيت سليمة بما تحتوي من حلويات وأثاث.

على أطراف المربع الجنوبية تقع مقبرة شهداء الثورة الفلسطينية. تعود الـــناس زيارتها وأصبحت من رموز وعلامات التاريخ الفلسطيني في لبنان. الـــراقدون هـــناك مئات من المقاتلين والقادة. من كل الأقطار العربية، نساء ورجـــال، يجمـــع بينهم جميعا أنهم رحلوا في عمر الورد ودفاعا عن الثورة الفلســـطينية ومن أجل فلسطين. في مواجهة الداخل إليها يقف نصب تذكاري لشـــهداء تل الزعتر بجوار مقبرة الحاج أمين الحسيني القائد الفلسطيني الذي عاش ومات من أجل فلسطين قائدا لشعبها وثوراتها. ورغم احتدام القتال في جميع المواقع (لم تعُد هناك جبهات) واستمرار الغارات الجوية على بيروت وغـــيرها، فإن الناس ظلوا يجدون سبيلا لزيارة المقبرة لقراءة الفاتحة على روح هـــذا الشهيد أو ذاك في ذكراه السنوية ولم يكن يمر يوم دون أن يكون ذكرى سنوية لشهيد أو أكثر ممن يرقدون ؟ وتحولت المقبرة إلى حديقة غناء. شـــيء مـــا يدفـــع الأحياء إلى زراعة الورود فوق الذين رحلوا. ربما كان إصرارا على الحياة أو أنهم يعلمون أن بعضا من الشهيد سينبعث أزهارا إن هم رووه بالوفاء والماء.

فـــي ذلك الصباح كانت المعارك حامية حول الدامور، ومع ذلك تجمع عـــدد مـــن الأصدقاء لزيارة قبر الشهيد جواد أبو الشعر في ذكراه السنوية السادسة. لم يكن ثمة كلام كثير.. الماء قليل ولكن أمكن توفير ما يكفي لسقي شجرة ياسمين زرعت بجواره. جيء بها من شجرة أم كان يحبها في منطقة الصـــنايع. ازدهـــرت الشجرة مع السنين. اكتفى الزوار بجمع بعض أزهار الياسمين والتفرق بعد اتفاق على لقاء.

- امتى نشوفك؟
- مش اليوم.
- ليه؟
- مشغول.
- فيه شيء؟

تـردد قـبل أن ينتحي جانبا ويقول.. "طالع الدامور مع الشباب".. كان مصابا من قبل وغير لائق للقتال.. "وجودي مهم معهم".. "ناخذ للشباب هناك تمويـن وخـبز".. كـان متخصصا في غير القتال والسياسة ولنقل إن اسمه فـاروق. لبنانـي جنوبي من أوائل من عملوا لفتح في لبنان. ومن أصغرهم عمـرا أيضـا.. أصيب في حرب ١٩٧٥ إصابة أضعفت ذراعه، مع الوقت والمؤسسات لم يجد له مكانا فاعلا، حمل فلسطين في قلبه وطاف الدنيا، وعاد قـبل الحـرب بأشهر.. "لا راحة في البعد.. أكون قريبا ولكن دون انخراط" وجـاءت الحـرب وانخرط.. "طيب، خذ بالك من نفسك.. سلم على الشباب ولما ترجع عارف مكاني".. "بالسلامة".

الدامـور.. سـتكون معركة رهيبة وسيخسر العدو كثيرا.. من اللحظة الأولـى والعـدو يركز على قصف الدامور وجوارها جوا وبحرا، ثم برا.. الدامور عنق الزجاجة على طريق بيروت صيدا، والسهل الساحلي المزروع أمامهـا جعل جميع العسكريين – وحتى غير العسكريين – يتوقعون الإنزال الإسـرائيلي هـناك عند أول معركة كبيرة. كان سكان الدامور من مهجري مخيمات تل الزعتر والمسلخ والكارنتينا يعرفون ذلك.عندما بدأ القتال هاجر الجمـيع إلـى بيروت. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يهاجرون فيها أو يهجرون فيها.

معظـم سـكان الدامـور وقت الحرب لم يكونوا أصلا سكانها.. إنهم فلسـطينيون ولبنانيون مهجرون من مخيمات سبق لقوات الكتائب أن أزالتها بالجرافات وقتلت من أهلها الآلاف.

أمــا ســكان الدامــور الأصليون فقد هجروا في مطلع عام ١٩٧٦ إثر المعــارك الشــديدة التي دارت فيها. في ذلك الوقت كانت قوات الكتائب قد هاجمت منطقة المسلخ والكارنتينا عند مدخل بيروت الشمالي وارتكبت مذابح رهيــبة راح ضــحيتها المئات من الشباب، وشاهد العالم كله الصور البشعة لهذه المذابح من بينها صورة مشهورة يقف فيها ثلاثة من الكتائبيين بينهم فتاة – أو شــاب طويــل الشعر – تعزف على الجيتار وأمامهم جثث القتلى. ردا على هذا الهجوم هاجمت القوات المشتركة الفلسطينية واللبنانية قرية الدامور التــي كانــت معقــلا لقــوات النمور التابعة لكميل شمعون وقوة كبيرة من الكتائبيين كانوا يقطعون الطريق على المارة وينزلونهم "حسب الهوية". كانت معركة الدامور الأولى (يناير/ كانون الثاني ١٩٧٦) شرسة، حوصرت فيها قوات الكتائب والأحرار وحوصر الرئيس السابق كميل شمعون في قصره مع ابــنه. وبعد أن اجتاحت القوات المشتركة الدامور كانت المشكلة أمام القيادة الفلســطينية هي إنقاذ أهلها وحمايتهم من الثأر والانتقام. ذبح البعض قبل أن يتمكن من الوصول إلى الكنيسة للاحتماء بها وسمح للكثيرين بمغادرة القرية بحرا، وأرسلت طائرة هليوكوبتر نقلت الرئيس السابق كميل شمعون وتوجه ضــباط مــن قــوات العاصفة (فتــح) واصطحبوا معهم ابنه داني آمنا إلى المــنطقة الشرقية، وحوطت قوات خاصة من ميليشيا منطقة بيروت التابعة "لفتح" الكنيسة لحماية من فيها ونقلتهم آمنين إلى بيروت. ولجأ الكثيرون من السكان إلى قرى منطقة الشوف الأخرى. وكالجراد انقضت عصابات النهب والســلب على بيوت القرية فلم تبقِ بها إلا الحجارة وأصبحت القرية أطلالا خــلال أيــام. وكالعادة أمر أبو عمار بصرف تعويضات ومعاقبة المخالفين وعقــدت اجتماعات داخلية تنظيمية لمناقشة المسئولية والمسئولين. واستنكر الجمــيع ما حدث. وتمت لقاءات مع القساوسة ومع زعماء المنطقة وقياداتها مــن المسيحيين وفشلت كل محاولة لإعادة السكان إلى بيوتهم. كانوا خائفين والحرب لم تكن قد انتهت بعد.

وفــي أغســطس/ آب ١٩٧٦ عــادت الدامور محورا لنقاش حاد على الساحة الفلسطينية واللبنانية. اقتحمت الكتائب مخيم تل الزعتر بعد حصار دام حوالي ٦٠ يوما وبعد تعهد بضمان حياة الباقين عند خروجهم. وقعت مذبحة

رهيبة قتل فيها حوالي ألف ومئتين من أبناء مخيم تل الزعتر، وتم خروج الباقين في يوم واحد حزين. البعض وجد مكانا له عند أقاربه والبعض توجه إلى الدامور ليقيم بين أطلالها. وصدرت تعليمات بإسكان أهالي مخيم تل الزعتر وكل المهجرين الآخرين في الدامور واعتمدت اعتمادات مالية كبيرة لإصلاح ما يمكن إصلاحه. وثار جدل شديد حول صحة هذه الخطوة. كان المبرر الوحيد الذي قدمه أنصارها هو أهمية المنطقة العسكرية وكانت حجج المعارضين كلها مبدئية "لا يجوز احتلال أراضي الغير وبيوتهم".

اضطرارا، توجه قسم كبير من المهجرين إلى الدامور حيث مراكز الخدمات والمعونات والمأوى وسرعان ما شهدت الدامور المكاتب والمعسكرات والمواقع على الجبال المحيطة. وحاولت القيادة ضبط الأوضاع، وبلغت في تشددها إلى حد إعدام اثنين من أخطر المسيئين لسمعة الثورة، وخفت حدة الجدل، واحتفظ كل برأيه، وجاءت الحياة بالحل.

توزع من بقي حيا من شباب تل الزعتر. البعض سافر إلى ألمانيا الغربية، والبعض التحق بالقوات المقاتلة وانتقل إلى الجنوب أو إلى بيروت، والبعض وجد عملا في بيروت في إطار المؤسسات والأجهزة أو حتى عملا حرا، والبعض افتتح محلات في منطقة الدامور لخدمات السيارات العابرة. وشيئا فشيئا زحف قسم كبير من الناس إلى قرية الناعمة شمالا أو إلى بيروت. وبعد أن أصبحت الدامور هدفا مستمرا لغارات الطيران الإسرائيلي وجد الناس لهم أماكن في بيروت، بنايات الشقق المفروشة على الروشة التي اشتهرت بها بيروت في الماضي.. وكالعادة تسكن كل مجموعة مع أهلها وجيرانها، وأصبح معروفا أن بنايتي الجمال في الروشة مسكونتان بأهالي تل الزعتر ولم يبقَ في الدامور عمليا إلا القوات المختلفة المنتشرة على الجبال وفي الوديان حولها. الطريف أن بعض سكان الدامور الأصليين لم يضيعوا وقتا بعد أن وصل أهالي تل الزعتر. وجدوا من بينهم من يتفقون معه على زراعة بساتينهم المترامية على السهل وضمنوها لهم. وقيل يوما إن ذلك قد تم إكراها، ولكن أحد الملاك قال: "إكراه أو لا إكراه أفضل تنزرع الأرض بدل ما تبور وستعود لنا يوما". وازدهرت البساتين ثانية حتى دمرتها قذائف

الطائرات والمدفعية وتمشيط الرشاشات بحرا وجوا وبرا خشية أن يكون بين أشـجارها "فدائيون" كأولئك الموجودين في البساتين حول صور وصيدا ولا زالوا يقاتلون.

لم تغِب أخبار الدامور عن الإذاعات منذ أيام.. غارات جوية.. وقصف بحري وبري وتعزيزات من القوات المشتركة. اجتمع شمل أهالي تل الزعتر في بنايتي الجمال وما جاورها. أطلق أحدهم اسم "تل الجمال" على البنايات. الأطفال يملئون درج البنايتين والشوارع المحيطة، النساء ومعظمهن من كبار السـن يجلسـن جماعات يتداولن في الأحوال، الشابات منهن منهمكات في الغسـيل والطبخ، وأجهزة الراديو على مختلف المحطات. بين الحين والآخر يندفع الجميع نحو سيارة تحمل مسلحين. هؤلاء قادمون من الدامور.. أو من خلـدة أو من الناعمة.. "ما الأخبار"؟ هل فلان بخير؟.. وتبدأ كل تسأل عن ابـنها أو زوجهـا أو شقيقها. يتناول المسلحون الشاي أو الطعام، وقد يغير أحدهـم قميصـه أو بذلته الكاكية ويخف الجمع من حولهم. العجائز يرددون الدعـوات "الله يهـده بيجـن" .. "يخرب بيوتهم مثل ما خربوا بيوتنا".. "الله ينصـركم.. الله يحمـيكم الله يرجعكم لأهاليكو سالمين".. الشابات يعدن إلى أعمالهـن أما الأطفال فيرددون حكايات معظمها من صنعهم ولكن كل منهم يؤكـد أنـه سمعها من شقيقه المقاتل أو من أبيه أو عمه.. المهم أن الحكاية مؤكدة.. وقع الإسرائيليون في "فخ" نصبه المقاتلون.. خسائرهم كبيرة، دبابات كثـيرة دمرت.. الطائرات تهوى في البحر.. وسرعان ما تترتب المجموعة: فدائية ضد إسرائيلية.. ويرفض الجميع لعب دور الإسرائيلية فيلعب الفدائيون دورهم ضد عدو وهمي. ويتناقل الجميع أنباء أخرى.. تشكلت لجنة للإسكان وهي توزع شققا في الحمرا وغيرها، تشكلت لجنة أخرى لصرف المساعدات وهي تصرف مئة ليرة لكل فرد إذ أن الثورة ستقدم الخبز بالمجان لتجمعات المهجريـن. ويدور النقاش وتكثر الأسئلة.. أين؟ ومتى؟ ومن؟ هل ستصرف بطاطين؟. لا.. الدنيا صيف.. والأطفال؟ "يمكن".

عـند الغـروب يعـود الـرجال المسنون. طوال النهار يدورون على الـتجمعات الأخـرى للاطمئـنان والسؤال عن الأهل في الجنوب ومحاولة

الحصول على شيء يفيد.. فرشة.. بطانية.. وعاء بلاستيك.. طعام محفوظ. وتــنفرط المجموعات النسائية لتجتمع بمجموعات أخرى مشتركة.. العائلات وأبناء القرية الواحدة.. والجيران السابقون، وتتداول الأخبار.. "الشباب بخير الحمــد لله" "مــثلهم مــثل غيرهم".. "الله يحميهم" .. "أبو عمار صرف للكل مســاعدات.. لبنانــية وفلســطينية للكل.." "أبو محمود وصل من صور هو وأهلــه".. "ومحمــود؟" يــتردد اللسان وتأتي الإجابة "ماقالش".. ويقول آخر "الشــباب بخــير في البساتين". "والله يا عم عزمي الصغير طلع بطل" "طول عمــره".. "بــلال معــاه ثلاثيــن أسير" "ناس بتقول سبعة وأربعين" .. "لسه مــادخلوش الرشيدية ولا البص".. "الله ينصرنا".. "في الوكالة، يقصد وكالة غــوث اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، بيقولوا اتصالهم انقطع بعين الحلوة".. "من امتى كانوا سائلين؟".. "والله ناس أودام اللي باقيين..".. "ولا حد سائل".. "إذا حكــامك العرب ما سألوا بدك الأجانب يسألوا؟" وينقطع الحديث المتقطع بوصــول قــادم جديد، زائر، أو سيارة مسلحة أو مسئول الشعبة التنظيمية، وتتسع الحلقة حوله، وتتكرر الأسئلة.. ودائما الإجابات المطمئنة والمشجعة، لا تــزال الدامور صامدة.. "كيف تسقط؟" خرايب على جبال والفدائيين ديابة (ذئــاب) وشــرفك ليخســروا فيها واحد على كل شبر".. "إن شاء الله" "كل الشــباب هناك.. كلهم سوا.. قيادة واحدة وسلاح واحد وقلب واحد.. ادعيلهم بالنصر" وتعلو الدعوات، "الله ينصرهم. الله يحميهم".

ومــن بعيد تسمع أصوات القصف الشديد على المنطقة الجنوبية وخلدة والأوزاعــي.. "بدهــم يقطعوا طريق الإمدادات عن الشباب".. "الطيران ما وقفش ومش قادرين يتقدموا".. "وشرفك قذيفة بي سفن واحدة بترجع طابور دبابــات".. "العســكري الإسرائيلي بيخاف يموت.. كان جوه الدبابة ومستني الطــيران يفــتح الطــريق".. "والله يا عم شبابنا أبطال".. "لكن يد واحدة ما تصفق".. "تعمل ايه.. حكمة ربنا .. نحارب إسرائيل وحدنا.. والعالم بيتفرج والعرب بيستنكروا".

ولاحــظ عجــوز أن سيارات الإسعاف توقفت عن المجيء متجهة إلى مستشفى الجامعة الأمريكية، القتال مستمر ولا جرحى.. قطعت الطريق على الدامــور.. مــن الممكــن أن يمشــوا فــي الجبال بعد أن تفرغ ذخائرهم..

والجرحى؟ والشهداء؟.. اشتد القصف وقنابل الإنارة من الجو والبر والبحر. واضـــح أن العــدو مصر على الوصول إلى بيروت.. ويخيم الصمت على الحلقــات وتســرح الأبصار نحو الجنوب ويتنهد عجوز مسن قائلا بصوت خافت مسموع :"مثل الـــ ٤٨".

* *
*

كـفّ الناس عن العودة إلى بيوتهم في "المربع" أو المنطقة الجنوبية بعد الغـروب. الرجال فقط يعودون بسياراتهم لأخذ ما يمكن حمله، وضروري، للمعيشـة ثـم يخـرجون ليلا أيضا. توزعت العائلات في بيوت الأصدقاء والأقـارب والمعـارف وشقق المسافرين أو المهاجرين إلى منطقة أخرى. وتجمع سكان المخيمات في البنايات المفروشة والفنادق المهجورة في منطقة رأس بـيروت. ومع ذلك ظل رواد شاطئ المنارة في الصباح على عاداتهم. ركـض ومشـي سريع ورياضة متنوعة، ومسامرة وغزل. إلا أن العائلات التي كانت تحضر بأولادها وطعامها كما كان الحال في الأيام الأولى للحرب اختفـت. كـان الظن أن الحرب ستستمر يومين أو ثلاثة أو حتى أربعة ثم يوقـف إطـلاق النار، ولكن الحرب وصلت إلى بيروت والقصف يأتي من ناحية البحر ولابد من البحث عن مكان أكثر استقرارا.

تقطعـت العلاقات اليومية. العناوين الجديدة لا تزال مجهولة ولا يعرف أحد أين ذهب جاره أو قريبه وبدأ البحث واللقاء بالصدفة.

- الحمد لله على السلامة..

فـي الماضـي كانوا يقولون "كيفك؟".. "كيف الحال؟".. الآن "الحمد لله علـى السـلامة" باعتبار أن الجميع معرض للخطر وأن من بقي سالما حتى لحظة اللقاء يستحق التهنئة بالسلامة.

- فين انتم دلوقت ؟

لابد أنهم غيروا مكانهم.. أين استقروا؟.. "في بيروت".. "معكم العيال؟" الـبعض يجيـب "فيـن يـروحوا؟.. خليهم معنا.. اللي يجرى علينا يجرى علـيهم؟.. البعض أرسل أطفاله إلى خارج بيروت الغربية.. إلى الجبل.. أو حتى إلى الشمال والبقاع.. "محبوسين طول النهار في الشقة أو في الملجأ ح يجنوا". ويتم تبادل الأخبار والعناوين والتوقعات وعرض الخدمات والتمنيات والتحيات للآخرين.. وافتراق على أمل اللقاء.

وبدأت لجنة الإسكان تعمل.. بيانات متكررة بمنع اقتحام الشقق أو سكنها إلا عن طريق اللجنة. ممنوع السكن في الشقق المسكونة. ثم الاستيلاء على المدارس وفرشها بسرعة.. بطاطين وفرشات وأواني بلاستك للمياه، وطوابير ومعارف وشكاوى.. "إحنا ثمانية يا أخي.. كيف نعيش؟ بدنا مكان أوسع".. "طيب يا والدي خليك دلوقت ونشوف".. "الله يوفقك العيال نايمين على بعض".. "يا عمي نستحمل بعضنا".. ويستمر حصر الشقق الفارغة التي تركها أصحابها إلى مناطق أخرى. دعيت اللجنة الأمنية إلى تشديد نشاطها. يجب منع السرقات والاعتداءات وفتح الشقق. من المسئول عن الشقق: اللجنة الأمنية أم لجنة الإسكان؟.. لابد من لجنة تنسيق.. أصحاب الشقق يبحثون عن معارف أو معارف المعارف للإقامة في شققهم بعد رحيلهم. يفضل الشباب أو الكبار في السن.. الأطفال لا يمكن التحكم فيهم سيعبثون بمحتويات الشقة... حبذا لو كان الساكن الجديد من المسئولين في المنظمات... وجوده سيحمي الشقة بشرط ألا يكون مسئولا كبيرا أو معروفا حتى لا تصبح البناية هدفا. قل عدد المقيمين في حديقة الصنايع.. لم تعُد مسألة أيام ويعودون إلى مخيماتهم.. واضح أن الحرب ستطول.. المدارس أكثر سترة.. بقي بها بعض العائلات، "أفضل للعيال.. بيلعبوا طوال النهار بلا مشاكل مع الجيران ولا حبيسة الحيطان" و"مين قال إن إسرائيل مش ح تقصف المدارس والبنايات؟".. "وممكن تقصف الجنينة كمان" "إحنا جيران رئيس الوزراء ووزارة الإعلام والسياحة.. أمان هنا يا عمي".

نزولا من منطقة الصنايع في اتجاه البحر تقع منطقة الحمرا. بدأت بعض المحلات تغلق أبوابها خصوصا الكبيرة منها التي تعتمد على عاملين كثيرين وليس على أصحاب المحال أنفسهم. عدد كبير من العاملين والعاملات غادر منطقة بيروت الغربية أو لم يعُد قادرا على الوصول إليها أو هو مشغول بالبحث عن مكان لأسرتهِ. بدأت تظهر على رصيف شارع الحمرا "بسطات" بائعين جدد. جاءوا من سوق الروشة أو من "المربع" وبدءوا يعرضون سلعهم لسكان المنطقة الجدد.

"ولسوق الروشة" تاريخ قصير وطويل. كانت منطقة الروشة من مفاخر بيروت ما قبل الحرب اللبنانية، مقاهي، كازينوهات، محلات، بنايات شقق مفروشة وكورنيش جميل يطل على البحر المتوسط بالإضافة إلى صخرة الروشة المشهورة التي يتفاخر السباحون بالقفز من فوقها وينتحر من عليها العاشقون. ثم جاءت الحرب اللبنانية ودمرت منطقة الأسواق التجارية في قلب بيروت وأصبحت ساحة للقتال وخرائب، وهاجر تجار قلب بيروت إلى رصيف كورنيش الروشة.. بدءوا بفرش بضائعهم مع مطلع النهار وجمعها عند الغروب. ثم اقترب الشتاء فأقاموا مظلات من ألواح الصاج. ثم جاءت العواصف والرياح فأقاموا جدرانا من قماش الخيام تطورت إلى ألواح خشبية حتى أصبحت "محلات" مبنية. وظهر سوق طويل وكبير يحتوي على كل شيء ويغطي كل كورنيش الروشة. تضايق البعض طبعا.. أخفى السوق منظر البحر وأفسد الصورة السياحية للمنطقة، ولكن الكثيرين وجدوا راحة في السوق الجديد. أصبح التسوق متعة.. "فرجة وشمة هوا".. وأسعار أرخص أيضا. قبل الغزو الإسرائيلي بأشهر انفجرت سيارة مفخخة أمام السوق ودمرت العشرات من المحلات وقتلت وجرحت حوالي مئة شخص. وقيل يومها إن السبب هو محاولة إجلاء "السوق" من هذا المكان واستعادة جمال الروشة ومنظرها السياحي. ولكن تجار سوق الروشة سارعوا بإعادة بناء سوقهم. وتم كالعادة صرف التعويضات من منظمة التحرير الفلسطينية. ولم تمض أيام حتى كان كل شيء كما كان بل وأفضل. أسطح الصاج والاترنيت أصبحت إسمنت مسلح والجدران الخشبية أصبحت حجارة وتوصيلات الكهرباء العشوائية أصبحت مرتبة ومنظمة. ثم جاء الغزو والقصف البحري والبري وتكاثر المسلحون في المنطقة لمقاومة أي إنزال إسرائيلي محتمل واضطر تجار سوق الروشة للهجرة ثانية والبدء من جديد. البضاعة في السيارة والسيارة على الطريق وحيثما وحينما يتوقف القصف تخرج البضائع وتفرش على مقدمة ومؤخرة السيارة ويبدأ البيع، ومع أول قذيفة تجمع البضاعة بسرعة وتنتقل السيارة. يوما بعد يوم أصبح لكل سيارة وصاحبها مكان في شارع الحمراء أو في الشوارع المتفرعة منه. لا أحد يأخذ مكان الآخر. ثم بدأ فرش البضائع على الأرض. السلع الأكثر رواجا كانت الملابس والأحذية وأجهزة الراديو والمسجلات الصغيرة وحجارة

البطاريات من مختلف الأحجام، وكل ما يحتاجه المهاجرون الجدد في ظروف الحرب.

التجار المتخصصون أغلقوا مكاتبهم ومحلاتهم إلا الصغار منهم. راجت تجارة مولدات الكهرباء وارتفعت أسعارها أربعة أضعاف في أسبوع مع بدء انقطاع الكهرباء. على الأرصفة انتشرت مصابيح الغاز الصغيرة والشموع والمصابيح اليدوية التي تعمل بالبطاريات الجافة. كانت المنطقة الشرقية تورد ما تحتاجه المنطقة الغربية وظلت صلات التجار قائمة مع رفع الأسعار طبعا. ولكن النقود لم تكن مشكلة. الكل يصرف معونات ومخصصات، ولم تعُد للمدخرات أهمية.. من يضمن حياته ؟ البنوك لا تزال تفتح أبوابها والبعض يودع أرباحا ومتحصلات بمبالغ كبيرة. ووفرت حرية المنافسة ضوابط على ارتفاع الأسعار ولكنها كانت تتغير بسرعة كبيرة ومن مكان إلى آخر. كلما اقتربت من خطوط التماس أو المناطق المستهدفة كانت الأسعار أقل وكلما ابتعدت عن مواقع الخطر ترتفع الأسعار، وكل شيء موجود. إذا طلبت شيئا ولم تجده يمكنك الاتصال تليفونيا بالتاجر أو الوسيط وسيحضره لك، ربما مع بعض التأخير لليوم التالي. كانت الحرب فرصة لتوزيع المخزون من السلع غير الرائجة.. من يدقق.. الكثيرون فقدوا ما كانوا يملكون ولابد من شراء جديد. الملابس أولا.. ثم الطعام.. ثم الأحذية، ثم الماء ثم وسائل الإضاءة. أما الطعام فهو متوفر. محلات السوبر ماركت الكبيرة لديها مخزونها. إدريس، وسميث وبيوض وغيرهم لديهم مستودعات ومخزون يكفي شهورا.. التغيير كان في نوعية الزبائن. غاب الزبائن التقليديون لهذه المحلات، هاجروا إلى المنطقة الشرقية أو إلى خارج لبنان. الزبائن الآن هم من سكان المخيمات أو الأحياء الشعبية. ازداد الطلب على الأرز والمكرونة وقلّ على "الكتش أب" والمستارد ولحوم الخنزير. وفي السوبر ماركت لا مساومة ولا تقليب.

معظم المطاعم أغلقت أبوابها. كل مطاعم الشاطئ أصبحت خاوية حتى من الأثاث. معظم مطاعم الحمرا أغلقت إلا من استطاع تركيب مولد كهربائي لتشغيل ثلاجاته. ظهرت مطاعم الرصيف على طريقة مخيم صبرا،

ساندوتشـــات من كل نوع بضعف السعر فقط. سعر الدجاج المشوي لم يزِد كثيرا.. أصبحت الدجاجة بخمس عشرة ليرة وكانت قبل الحرب باثنتي عشرة ليرة. استمرت محلات الحلويات دون توقف وازدادت مبيعاتها. التوتر والقلق يدفعـــان الناس لأكل الحلو، والحلويات لا تحتاج إلى ثلاجات لحفظها. اللحوم الطازجـــة قلـــت وارتفعـــت أسعارها كثيرا بعد انقطاع الطرق عن الجنوب والبقاع والشمال. لم تعُد شاحنات اللحوم القادمة من تركيا تصل إلى بيروت الغربية. أما الأسماك فقد أصبحت تعتمد على الجهود الذاتية.

كـــان صـــيد السمك وبيعه عملا للكثيرين على طول الشاطئ اللبناني.. قـــوارب صـــغيرة فردية وجماعية تصطاد وتبيع على الكورنيش الممتد من الـــناقورة فـــي الجنوب إلى الحدود السورية في الشمال. يتم الصيد بالشباك وأيضـــا بالديناميـــت. احـــترف اللبنانيون صيد الأسماك بالديناميت. يطوف الـــزورق بجـــوار الشـــاطئ حتى يكتشف سربا من الأسماك فيلقى قالبا من المـــتفجرات يغـــوص بعـــده الشـــباب لجمـــع السمك وخلطه بالأسماك التي اصـــطادوها بالشـــباك وبـــيعها. فـــي السنوات الأخيرة أضيفت إلى أسماك الديناميـــت والشباك الأسماك المجمدة أو المثلجة القادمة من تركيا. وللبائعين خـــبرة فـــي خلط الأسماك المجمدة مع الأسماك الطازجة وهى لا تزال في الـــبحر داخـــل الشباك ثم يسحبونها أمام المشترين لتباع أسماكا طازجة. مع الغـــزو انقطعـــت الأســـماك المجمدة الواردة من تركيا، وانقطعت الأسماك الطازجـــة الـــواردة مـــن صور وصيدا، والتهب الشاطئ اللبناني بمحاولات الإنـــزال والقصـــف والرمايات، وأصبح خطرا على الزوارق أن تخرج إلى البحر أمام بيروت والبوارج الإسرائيلية أمامها تقصف المدينة، منعت سلطات الاحتلال خروج زوارق الصيد في صور وصيدا. واختفى السمك إلا ما يأتي بـــه صيادو السنارة. وهؤلاء هواة أشبه بالمحترفين من طول ما وقفوا على صـــخور شاطئ بيروت واصطادوا. في الصباح يخرجون بقصباتهم مشيا أو "بالســـرفيس" ويصطادون طول النهار ويعودون عند الغروب. لم يتوقفوا بعد الغـــزو. يقـــف الواحد منهم على صخرة ساعات كأنه لا يسمع الطيران أو القصـــف ولا ترهبه البوارج. هؤلاء أكلوا سمكا وأطعموا جيرانهم واستشهد

بعضهم يوم قصفت الكتائب شاطئ المنارة قبل الحرب بأشهر، وعندما كانت قوات الغزو تمشط الشاطئ وتقصفه لإبعاد المقاتلين تمهيدا للإنزال.

خلت جميع فنادق الشاطئ إلا واحدا هو "الكارلتون" حتى قصفت واجهته مـــن ناحية البحر. انتقل زبائن هذه الفنادق والزبائن الجدد إلى الفنادق القليلة الباقـــية فـــي مـــنطقة الحمرا التي تعتبر من فنادق الدرجة الأولى. من أبرز الفنادق فندق الكومودور وفندق البريستول، وكلاهما من الفنادق الفخمة التي يـــتراوح إيجـــار غرفة ليلة واحدة في أي منهما بين أربعمئة وخمسين ليرة لبنانية (١٠٠ جنيه مصري) وستمئة ليرة لبنانية (١٥٠ جنيها مصريا). وكما تخصصت الشوارع والبنايات بالنسبة لتجمعات السكان المهاجرين، تخصص الكومودور في رجال الإعلام الأجانب وتخصص البريستول في الشخصيات اللبنانـــية البارزة من رؤساء الوزارات السابقين والوزراء والزعماء، بالطبع مـــع استثناءات هنا وهناك. اجتمع في فندق الكومودور مئات من المراسلين الأجانـــب من مختلف البلاد وممثلون لمختلف الصحف والإذاعات وشبكات التلـــيفزيون وأظهـــر الفندق وإدارته قدرة غير عادية على مواجهة ظروف الحرب وانقطاع الاتصالات. كانت لديه محطته الخاصة لتوليد الكهرباء وبئر مياه خاصة وأجهزة التلكس والخطوط الدولية إلى جانب المستودعات المليئة بـــأنواع الشـــراب والطعـــام. وإلى جانب ذلك كانت لدى إدارته قدرة توفير الخضـــار واللحوم الطازجة وضمان استمرار عمل خطوط الاتصال بالتلكس والهاتف عن طريق الاحتفاظ بفريق صيانة متخصص وبعلاقات متميزة مع المقاومـــة الفلســـطينية التـــي حرصت كل الحرص على إبقاء هذه الخطوط واستمرار عملها كنافذة تطل منها على العالم ووسيلة لمخاطبته. وكانت لدى فندق البريستول نفس التسهيلات ولكن رواده لم يكونوا في حاجة ماسة لها.. كانوا من الحكام. وكانوا في حاجة أكثر إلى الهدوء والأمان والخدمة الجيدة. وقـــد عرف الغزاة ذلك فحاوروا المراسلين الأجانب في الكومودور بالقذائف على طريقة التنبيه. أول قذيفة سقطت بجوار الفندق على بعد أمتار منه كانت فـــي الأسبوع الأول. ورغم أن الفندق لم يصَب بسوء ولا أي من نزلائه فقد اعتـــبر المراسلون الأجانب أنهم هم المقصودون. وعندما تضايق الغزاة من

نشاط رجال الإعلام في الكومودور قصفوه بقذيفة اخترقت شقة تقع أمام مدخله وأدى انفجارها إلى تحطم زجاج بعض نوافذ الفندق.

أما البريستول فقد كان نصيبه أكبر بكثير من الكومودور، خصوصا عندما أبدت الزعامات الوطنية البيروتية والسيد وليد جنبلاط المقيم في الفندق بعد نزوله من قريته في الجبل، مواقف قيادة المقاومة، وكانت تتردد شائعات عن عقد اجتماعات مع قيادة المقاومة فيه. الحوار كان للتأديب وليس للتنبيه. قصفوه وقصفوا ما حوله حتى احترقت أجنحة منه ومع ذلك استمر يعمل، ولاحظ الناس علما كبيرا للصليب الأحمر الدولي يغطي جانبا منه وعرف أن قيادة الصليب الأحمر الدولي اتخذت من فندق البريستول مقرا لبعض أعضائها ومع ذلك لم تتوقف قوات الغزو عن قصف الفندق.

نشأت حول كل فندق منهما أوضاع خاصة به، حول الكومودور ازدهرت صناعة "التاكسيات" الخاصة. عربات أمريكية فارهة تحمل أرقام سيارات الأجرة الحمراء اللون وعلى استعداد دائم للتحرك إلى مختلف أماكن العاصمة وبالذات تلك التي تتعرض للقصف، وكذلك على استعداد للذهاب إلى المنطقة الشرقية وإلى ميناء جونيه لإيصال المواد الإعلامية لكي يتم إرسالها للخارج. وبعد احتلال الجنوب كانت هذه السيارات تذهب حتى الناقورة وتعود. أما عن أسعارها فالأمر يتوقف على الظروف. إذا كانت الأحوال هادئة نسبيا فإن رحلة الجنوب تتكلف ألفي ليرة لبنانية ذهابا وعودة لمدة يوم كامل. أما في الظروف الصعبة والقصف المستمر فقد دفع مراسل أجنبي مبلغ أربعة آلاف ليرة لبنانية لسائق التاكسي لكي ينقله وفريق التصوير معه إلى منطقة الجامعة العربية التي تتعرض للقصف وهي مسافة لا تزيد عن كيلو مترين.

حول فندق البريستول كانت السيارات الخاصة ذات الأرقام الخاصة بالوزراء والنواب والزعماء اللبنانيين. كذلك كانت هناك سيارات عسكرية تحمل مدافع مباشرة عديمة الارتداد وأخرى تحمل مسلحين للحراسات

وأجهزة لاسلكي للاتصالات. وعند الغروب يقيم هؤلاء حواجز على الطرق المؤدية إلى الفندق لفحص هويات ركاب السيارات المارة.

اقـترب الأسبوع الأول من نهايته. تغير وجه المدينة بسرعة وارتباك. هـذه المرة ليست كالمرات السابقة. وصل الغزاة إلى الدامور وهم يقصفون بيروت. هل سيتوقفون هناك؟ هل سيتقدمون؟ الأخبار تقول إنهم دخلوا مناطق الجـبل كلهـا ويتجهون نحو طريق بيروت – دمشق. أين يذهب الناس؟ في الماضـي كـان الناس يذهبون إلى الجنوب إذا اشتعلت المعارك في بيروت، وإذا التهبت في الجنوب يأتي الناس إلى بيروت، وفي الصيف تذهب العائلات القادرة إلى الجبل. أين يذهب الناس هذه المرة؟ لا يوجد مكان آمن.

اتسعت رقعة الدائرة المهجورة من حول المخيمات. الكثيرون قدروا أن القصـف لن يطال المناطق الخالية من الفلسطينيين. والبعض قدر أن مناطق السـفارات وخاصة السفارة الأمريكية والسفارة البريطانية والسفارة الفرنسية سـتكون آمـنة. وانتقلـت عـائلات بكاملها من بيوتها إلى بيوت الأقارب والمعارف في تلك المناطق.

البيروتـيون اجتماعـيون بطـبعهم. يتزاورون، كرماء، كل بيت على اسـتعداد دائم لاستقبال ضيوف الصباح والعصر والسهرات. دائما الحلويات والنراجـيل والقهـوة والشاي وشواية اللحم والفحم والعرق والمازة. والناس أقـارب ومعـارف وأصـحاب مصالح. حتى انتشار التليفزيون والعمارات الحديـثة لـم يؤثر على حب البيروتيين للتزاور والسهر والتجمع. هذه المرة تختلف، الزيارة ليست لساعات وإنما تمتد لأيام. لولا الصيف لوقع الناس في مـأزق. المقاعد متوفرة ولكن الأسرة والأغطية لا تكفي الزيادة المفاجئة في عـدد الضـيوف الدائميـن. تجمـع الأطفال في الماضي كان فرصة للعب والتسـلية، ولكـنهم في هذه المرة كثيرون وخائفون ومحشورون في غرفة واحـدة.. وهـم لا يفهمون لماذا يمنعونهم من الخروج للعب كالعادة. الكبار يخشـون الغـارات والقصف وتناثر الشظايا والصغار يريدون أن يتفرجوا. الكـبار يطلبون الهدوء والصغار يقلدون أصوات القصف والطائرات. الكبار يتسـاءلون عـن الحـرب ومجـراها وآثارها، أما الصغار وخاصة تلامذة

المـــدارس، الذين كانوا يستعدون لأداء امتحانات النقل السنوية، فقد قدروا أن الحرب لو طالت فلن تكون هناك امتحانات، وسيتم النقل إلى السنوات التالية بدون امتحان.. على أي حال لم يعُد الأهل يطالبونهم بالدرس والكتب تركت في البيت والألعاب أيضا. لابد من اختراع ألعاب جديدة.

عندما أذاع التليفزيون الإسرائيلي، والكثيرون يشاهدونه في بيروت، نبأ أشـــبال مخـــيم الرشيدية الذين قاتلوا طابورا مدرعا ودمروا عددا كبيرا من آلـــياته بقاذفات بي ٧، وعندما صوروا الأشبال وهم يخرجون بنظام رافعي الـــرءوس مـــن خـــنادقهم بعد أن فرغت ذخيرتهم، أصبحت اللعبة المفضلة لأطفـــال بـــيروت هـــي اصطياد الدبابات وعمل قواذف بي ٧ من أخشاب الأنقاض والتباري في إلقاء القنابل اليدوية – قطع حجارة – إلى مسافة أبعد.

* *
*

- فاروق سأل عليك.
- رجع من الدامور؟
- أمس.
- أي أخبار من أبو النمور؟
- لا..
- فين فاروق؟
- في ضبية.

حـــوار قصـــير يتجنب أصحابه التفاصيل.. الإذاعات ذكرت أن قوات الغـــزو احتلـــت الناعمة وحارة الناعمة شمالي الدامور.. كان الله في عون الشـــباب هـــناك. الغـــزاة الـــتفوا على الجبل فوق الدامور وهذا معناه أنهم محاصـــرون تمامـــا. أبو النمور ذهب إلى صيدا، وصيدا محتلة الآن.. هل تمكـــن مـــن الإفـــلات؟ هـــل اختفى؟ هل استطاع الوصول إلى مخيم عين

الحلــوة؟.. لــم يكن أحد يسأل بصوت عالٍ. الكل يتجنب الإجابات الحزينة. إذاعــة الكتائــب تواصــل حربها النفسية وإذاعة إسرائيل تذيع رسائل من الأســرى ولكن صيدا لا تزال تقاوم وسلطات الغزو تمنع الوصول إلى مخيم عين الحلوة والطائرات تواصل قصف "الدامور". إذن لم تسقط الدامور بعد.

فاروق عنده تفاصيل وقد ذهب إلى ضبية.

ضبية اسم مخيم للاجئين الفلسطينيين يقع على طريق بيروت – جونيه شــمالي العاصــمة. كــان يضم فلسطينيين مسيحيين حرصت وكالة غوث والفاتــيكان في أوائل الخمسينات على عزلهم في مخيمهم هذا في قلب منطقة مسيحية وبنت لهم بيوتا صغيرة بدلا من الخيام وأقامت لهم مدرسة وكنيسة. كان الرهان أن ينفصلوا عن جمهرة اللاجئين الفلسطينيين. ولكن سكان مخيم ضبية التحقوا بصفوف الثورة الفلسطينية في أواخر الستينات. وتحول المخيم الــذي أريــد له أن يكون معزولا في قلب منطقة مارونية إلى قلعة فلسطينية علــى طريق رئيسي، والأهم، أنه كان نموذجا حيا لدور النضال الوطني في توحيد الشعب. كان مخيم ضبية شوكة في عين الطائفيين، لذا هاجمته قوات الكتائــب فــي الشــهور الأولى من الحرب اللبنانية في عام ١٩٧٥ وقتلت وطــردت معظــم سكانه الذين لجئوا إلى بيروت الغربية وأسكنوا في بنايات كانت إحداها في منطقة رأس بيروت بجوار مركز الأبحاث الفلسطيني ومبنى الصــليب الأحمر الدولي، والأخرى في منطقة الصنايع، والأخيرة هي التي انهارت على سكانها بقنبلة تفريغ ألقتها عليها طائرة إسرائيلية واشتهرت باسم بناية الصنايع. أما البناية الأولى فقد اشتهرت باسم سكانها، بناية "ضبية" حيث تقيم عائلات المهجرين من مخيم ضبية الأصلي، وحيث أقيمت قيادة عسكرية محلية للدفاع عن هذا المحور القريب من البحر.

الطابق الأرضي في بناية ضبية كان كخلية النحل. توزيع سلاح فردي وتمويــن وبطاطيــن وتجمعات لمقاتلي الميليشيا وشبان صغار السن جاءوا للانضمام إلى المقاتلين ونساء يجهزن الطعام للمواقع المحيطة وأطفال يلعبون فــي الســاحة المجاورة. في ركن، كان فاروق يجلس على الأرض وقد خلع حــذاءه ليرتاح. التقت الأعين. "الحمد لله على السلامة". "في المرة الثالثة لم

نتمكن من الوصول". على أي حال لم يكن هناك داعٍ.. الشباب تفرقوا داخل الدامــور وحولها.. أصبح من المستحيل توزيع الطعام بشكل مركزي.. على كـــل مجموعة أن تدبر أمورها. "هذا أفضل.. القتال مجموعات يرهق العدو" "هـــذا يفســـر اســـتمرار الغارات الجوية على الدامور رغم وصول القوات الإســـرائيلية إلـــى شمال الناعمة". خطة الغزو واضحة: قصف جوي، إنزال عـــن طريق البحر شمال الموقع المعين، تقدم بري من الجنوب إلى الشمال. وتتكرر الأسئلة عن الشباب، أحيانا بالاسم وغالبا بشكل عام.. بخير.. خسائر قليلة. الشباب يعرفون الأرض جيدا. ما يزال من الممكن التحرك على الأقدام عـــبر الجبال. المشكلة أن طريق الجبل من فوقهم أغلقت. بين الحين والآخر يقـــول أحدهـــم "انتشروا يا شباب" "التجمع غلط".. ويخرج البعض ويحضر آخرون. وخارج البناية على الجانب الآخر من الشارع ثلاث شجرات كبيرة تحولت إلى مظلة موقع تقف تحته بعض السيارات العسكرية وفراش وأحجار اتخذت كمقاعد، ومكان لعمل الحلاق المهاجر من مخيم صبرا ويحمل أدواته فـــي كـــيس بلاستيك ويستعمل مرآة السيارة العسكرية للزبائن. المنطقة أكثر ازدحاما من المعتاد. ما يزال الظن بأنها آمنة بقربها من مقر الصليب الأحمر الدولـــي ولكونهـــا على أطراف منطقة الحمرا. تفرق الأصدقاء على موعد "فـــاروق.. الوالـــدة سألت عليك" .. "طمأنتهم".. "راجع البيت؟".. "لا عندي شغل".. انخرط فاروق ثانية.

لم يعُد الاتصال سهلا. لابد من المرور على البيوت والمواقع للاطمئنان والحصـــول علـــى الأخبار. الإذاعات الوطنية لا تذكر التفاصيل، والإذاعة الرســـمية تـــنقل عن الإذاعات الأخرى أخبارها وإذاعة الكتائب تواصل بث الســـموم، أما إذاعة إسرائيل فهي تذيع نداءات للاستسلام: "أيها المسلح.. قف وفكـــر.." ثـــم وعد بأن الجيش الإسرائيلي سيعامل المستسلمين معاملة حسنة وسينتقم من الذين يقاومون.. الأذن تسمع النداءات وتترجمها بطريقة أخرى. الـــنداءات معـــناها أن الشـــباب بخير وأنهم لا يزالون أحرارا في البساتين والجبال. والتهديد بهذا الشكل معناه أن هناك مقاومة عنيدة.

الغارات الجوية مستمرة. المطار الدولي مغلق، والسفارات الأجنبية تنقل مقارها إلى المنطقة الشرقية وتدعو رعاياها إلى الرحيل خلال ساعات. كثيرون في المنطقة الشرقية يتصلون تليفونيا بأصدقاء لهم في المنطقة الغربية يعرضون ضيافتهم "أيام وينتهي كل شيء".. "اليهود داخلين داخلين" "الإسرائيليين وصلوا خلدة".. "القوات السورية انسحبت من الجبل".. وإذاعة الكتائب تواصل إسقاط المناطق.. الدامور الناعمة، خلدة، طريق عرمون، الشوف كله، جبل الباروك، اقتربت القوات الإسرائيلية من الطريق الدولي بيروت – دمشق.. البقاع الغربي كله.. الإذاعات الوطنية تقاوم حملات الأكاذيب. الناس أقامت شبكة إعلامها الخاص. كل خبر يُثبت أن إذاعة الكتائب تكذب ينتشر على الألسن بأسرع من موجات اللاسلكي. كذابون.. عملاء خونة.."إذاعة العدو في الداخل". هكذا أصبح اسمها. إذاعة إسرائيل تنقل عنها الأخبار كأنها هي الناطق الرسمي باسم قوات الغزو. ولكن إذاعة إسرائيل كانت أذكى من إذاعة الكتائب في تعليقاتها وبرامجها. ورغم أن إذاعة الكتائب كانت في السنوات السابقة على الغزو قد استطاعت أن تكسب آذانا كثيرة لبراعة البرامج الفنية التي تقدمها إلا أنها خلال الأيام الأولى من الغزو كشفت عن لسان قبيح وقلب أسود قضى على أي مصداقية لها. كانت في السابق تذيع أدق الأنباء بما لديها من شبكة اتصالات وبما تقدمه لها أجهزة الدولة نفسها من معلومات. كانت أي حادثة تقع في أي مكان في لبنان تبلغ لقوى الأمن الداخلي المتواجدة في مكان الحادثة، وهذه بدورها تبلغها لقياداتها، وكان لإذاعة الكتائب مندوبون في هذه القيادة يبلغونها أولا بأول كل خبر فتذيعه الإذاعة على الفور، لذا تعود اللبنانيون أن يسمعوا إذاعة الكتائب خصوصا عند وقوع اشتباك أو انفجار أو حادث كبير. من هنا اكتسبت إذاعة الكتائب مصداقية لدى المستمع لم تكن تتمتع بها الإذاعات الأخرى. لكن الأيام الأولى للغزو والأكاذيب المتوالية التي كانت تذيعها إذاعة الكتائب أسقطت هذه المصداقية تماما. ولم تكن الأكاذيب وحدها هي التي أسقطت إذاعة الكتائب وإنما أيضا أسلوب الشماتة في التعليقات أو استمرار البرامج كما هي كأن الحرب في بلد آخر، وكثيرا ما كانت إذاعة الكتائب خلال الغزو تعلن عن أهداف كل هجوم عندما تبكر في الإعلان عن نجاحه بمجرد أن يبدأ. وهكذا أوصلت إذاعة الكتائب قوات الغزو إلى مثلث خلدة على مدخل

بـيروت الجنوبـي بـل وأعلنـت عـن استسلام المقاتلين في تلك المواقع. واضطرت القيادة المشتركة اللبنانية الفلسطينية إلى تكذيب النبأ وأكدت صمود مثلث خلدة. وصدق الناس بيان القيادة وكذبوا إذاعة الكتائب خصوصا عندما اشـتعلت سـماء بيروت بطلقات المدافع المضادة للطائرات معلنة عن غارة جويـة كبـيرة فـوق مـناطق خلدة والدوحة والناعمة والدامور فالطائرات الإسـرائيلية لا تقصف قوات إسرائيلية وهذا معناه أن هذه المناطق لم تسقط بعد.

اشـتد القصـف، وفجأة سكتت المدافع المضادة للطائرات، مع استمرار الانفجارات على الأرض وفي الجو. تردد بين الناس بسرعة البرق تفسير ما حـدث. معركة جوية. الطائرات السورية في الجو. هلل الكثيرون.. أخيرا.. بعـد أن وصل السيف إلى حلوقهم.. لا بأس مرحبا بهم.. نسورنا.. ازدادت الحركة في الشوارع وعلت أصوات أجهزة الراديو.. فعلا.. معركة جوية.. الجـيش السـوري دخل المعركة أخيرا.. استمرت الأصابع تحرك مؤشرات أجهـزة الـراديو بحثا عن التفاصيل.. إذاعة البوم الكتائبية أذاعت نبأ سقوط طائرتيـن سوريتين.. تأخر البلاغ السوري.. انقبضت القلوب.. اشتد قصف الطائـرات الإسـرائيلية وازدادت كثافة الغارات الجوية.. لم يكن بقي على الغـروب إلا أقـل مـن ساعة.. ارتبك الناس في الشوارع بين الرغبة في مواصلة معرفة الأخبار وبين الرغبة في ترتيب أمور المبيت والحماية بالليل. الإذاعـات الوطنـية تتكلم عن معارك شديدة بين الدامور وخلدة. في منطقة المسـابح محاولات إنزال إسرائيلية برمائية وجوية متكررة. توقع الناس أن العدو يحاول الوصول إلى بيروت قبل هبوط الظلام وساد الوجوم والقلق.

فجأة حملت شبكة الاتصال البشرية النبأ.. "الشباب أسروا دبابتين" "مش معقـول!!".. "ورحمـة الشهداء.. ضربوا ستة وأسروا اثنين".. "فين هم ؟". "علـى الطـريق".. واندفعـت الجمـوع إلى الشوارع.. وتأكد النبأ.. أكدته الإذاعـات الوطنية ولم تذكره إذاعة الكتائب ولا إذاعة إسرائيل. نقلته إذاعة مونـت كارلو في خبر عاجل. وتحلق الناس حول المقاتلين القادمين من تلك المواقـع.. "مجـرد اشتباك الطيران في الجو مع الطيران السوري انكشف

طـــابور الدبابات على الأرض.. في عشر دقائق.. خلصوا.. تركوا الدبابات المدمـــرة وركضـــوا ناحـية البحر.. ما وصل منهم واحد.. وأخذنا دبابتين سليمتين صاغ".. "القيادة أرسلت من يقود الدبابتين إلى بيروت". في التاسعة مساء لعلع الرصاص في شوارع بيروت، وركب الشباب والشابات والأطفال علـــى الدبابتيـــن وطافوا بهما في جميع المناطق. واندفع المراسلون الأجانب يصـــورون المشهد الذي حول بيروت إلى شعلة من الفرح والنيران – فوق الدبابتيـــن كان مقاتلون من كل الفصائل اللبنانية والفلسطينية. وكانت الفرحة مضاعفة عندما شوهد مجاهدو حركة أمل على الدبابات وعرف أن المعركة دارت أمـــام موقعهم في "مدينة الزهراء" وهي من مؤسسات المجلس الشيعي الأعلـــى علـــى طـــريق خلدة جنوب بيروت.. ارتفعت المعنويات. ازدحمت الشوارع بالناس وتبادلوا الحديث دون معرفة سابقة، قل التوتر على الحواجز المســـلحة. امتلأ المربع (حي الفاكهاني) بالسيارات القادمة من خارجه لتفقد البيوت والمتاجر. تبادل الناس الأنباء بروح متفائلة وتراجعت بعض العائلات عـــن نيتها مغادرة بيروت. ولما كان التيار الكهربائي مقننا ويوزع لمدة ست ساعات فقط لكل منطقة، انتقل الكثيرون إلى المناطق المضاءة لكي يشاهدوا على شاشة التليفزيون موكب الدبابتين بعد أسرهما. ونقلت الإذاعات الأجنبية أنباء عن قرب انعقاد مجلس الأمن، وعن البيانات التي صدرت من حكومات أجنبـــية وعربـــية تديـــن استمرار الغزو، واهتم الناس بالبيان الصادر عن الحكومة المصرية الذي يدين الغزو والذي يشجب استعمال الولايات المتحدة الأمريكـــية للفيـــتو ضـــد قرار لمجلس الأمن بوقف القتال وانسحاب القوات الإســـرائيلية. وعاد الناس يسمعون إذاعة دمشق، وحلم البعض باتساع جبهة القـــتال ومشـــاركة الجـــيوش العربـــية. وساهمت الإذاعات الوطنية في هذا المهـــرجان العام، هدأ صوت المذيعين وبدأت بعض البرامج التي تسخر من الغـــزو وجيش الغزو. وردا على نداءات إذاعة العدو أذاعت صوت فلسطين بـــرنامجا موجهـــا إلى الجنود الإسرائيليين يبدأ أيضا بنداء "قف وفكر" "أيها الجـــندي الإســـرائيلي.. قف وفكر.. من الذي دفع بك إلى هذا المأزق ؟ من الـــذي جـــاء بك من بلد بعيد إلى فلسطين؟ من الذي وضعك في قبر متحرك اسمه دبابة ؟"

وردد البعض سؤالا متفائلا.. "ترى هل سيصلون إلى مثلث خلدة"؟

مثلث خلدة هو مفترق طرق على المدخل الجنوبي لمدينة بيروت، عندما يبدأ طريق بيروت – صيدا – صور إلى الجنوب، ومنه يتفرع طريق جبلي يتجه شرقا إلى بلدة عالية على طريق بيروت – دمشق. وقد احتل هذا الطريق الجبلي أهمية حيوية منذ أيام الحرب اللبنانية ١٩٧٥ – ١٩٧٦ عندما سيطرت قوات الكتائب على مداخل طريق بيروت – دمشق الدولي وتحول الطريق الجبلي الفرعي إلى طريق رئيسي أمام كل القوى والأفراد الذين لم يمكنهم أمنيا وسياسيا العبور على الطريق الدولي. ومع تقدم قوات الغزو نحو خلدة لم يعُد هناك أي طريق يوصل إلى الجبل أو إلى مدينة عالية سوى هذا الطريق الجبلي الضيق. كان معنى الاستيلاء على مثلث خلدة التحكم في هذا الطريق وإحكام الحصار على مدينة بيروت.

في تلك الليلة وصل قادمون من الجبل بسياراتهم وساهم وصولهم في رفع المعنويات، وتناقل الناس أخبارهم بسرعة. القتال يمتد من جبل الشيخ جنوبا حتى بيروت شمالا. حتى مناطق صور وصيدا ما تزال تقاتل، واعترفت إذاعة العدو بالمقاومة العنيدة في مخيم عين الحلوة وادعت أن الفدائيين يحتجزون المدنيين داخل المخيم كرهائن.

أما إذاعة الكتائب فقد واصلت نشر أنباء القصف الجوي والبري والبحري على كل المناطق وأصرت على أن الإسرائيليين وصلوا مثلث خلدة. وبدأ اللعب على الألفاظ في البلاغات العسكرية "تسيطر" و"تمت السيطرة" و"تطهير"، و"سقطت" و"دخلت".. وأصبح الناس يعرفون أن كلمات "تسيطر" أو "تمت السيطرة" تعني أن الموقع لم يسقط وأن العدو يقصفه من بعيد، أما "تطهر" فمعناها اشتباكات شديدة، و"سقطت" معناها نجاح العدو في محاصرة الموقع من كل الجهات وأخيرا "دخلت" معناها سقوط الموقع فعلا.

كثف العدو قصفه للمدينة، واقتربت البوارج البحرية من الشواطئ تقصف بالراجمات مناطق خلدة والمطار وطريق المطار والمناطق الجنوبية ومنطقة الفاكهاني ولكن أصوات القصف كانت تصم الآذان في كل مكان. ثم

أطلقت طلقات الإنارة فأحالت ليل بيروت إلى نهار وسمعت أصوات الطيران مختلطة بالقصف ولم يعُد أحد يعرف المواقع التي تتعرض للقصف. كانت الإذاعات قد توقفت لانتهاء برامجها ولم يعُد يجدي البحث عن إذاعات على الموجات القصيرة. بدأت راجمات القوات المشتركة تقصف في اتجاه الجنوب من داخل بيروت. كان معنى ذلك عند الذين يعرفون أن قوات العدو قد اقتربت كثيرا بحيث أصبحت داخل مدى رماية الراجمات. في شقة يحيى وزوجته سماء تجمع خليط من الناس، معارف وزملاء دراسة وإخوة نضال. لم يكونوا على معرفة سابقة، ولم يحاولوا السؤال عن هوية بعضهم البعض. كانوا يلتقون ليلا للنوم. الشقة في منطقة الحمرا وتقع في الطابق السابع والأخير من بناية مرت سنوات الحرب اللبنانية دون أن تمسها قذيفة أو شظية. اعتبرت الشقة آمنة والتجأ إليها الأصدقاء. كان الأكثر أمنا هو صدر أصحابها الواسع. كان رواد الشقة متغيرين من ثلاثة إلى خمسة عشر. في تلك الليلة اتضح أنه لا يمكن الاستمرار في الشقة لكونها على سطح البناية. القذائف تصفر وهي تعبر من البحر إلى أهدافها في المنطقة الجنوبية وقذائف التنوير تضيء غرف الشقة وشرفتها. من شرفة الشقة كان في الإمكان رؤية جانب من فندق الكومودور ومقر كلية البنات الذي تحول إلى مقر للمهجرين الجدد وبنايات أخرى عديدة لم يكن سكانها متعارفين قبل اندلاع الحرب. بدت الطوابق العليا مظلمة تماما ولا أثر حتى لضوء شمعة. السكان نزلوا إلى الطوابق الأرضية. عبر الشارع شقة واحدة على سطح بناية حولها صاحبها إلى حديقة صيفية، وشتوية زجاجية، وجمع فيها أصص زهور متنوعة ولون زجاجها وأضواءها. صاحب مزاج لا يشاهد نهارا إلا وهو يروي "زرعاته" أما ليلا فجمع صغير ساهر دائما.. لم تنطفئ شمعة هذه الشقة في تلك الليلة ولا انطفأت أضواء غرف فندق الكومودور التي شغلها المراسلون الأجانب، ولا سكتت صفارات سيارات الإسعاف والدفاع المدني المتجهة إلى مستشفى الجامعة الأمريكية ولا غابت أصوات القصف المجنون.

مع أول نشرات الأخبار في الصباح بدأت الكآبة تزحف إلى النفوس. ريجان طلب من بيجن وقف إطلاق النار، والأخير قبل بشرط قبول سورية،

وســورية مســتعدة ولكن القتال لم يتوقف بعد. هجمات متكررة على مثلث خلــدة. الناس تسرع في الشوارع لشراء ما يلزم. حركة السير قليلة وتفاؤل الأمــس هبط، والطائرات المعادية لم تغادر الأجواء أبدا. ثم ألقت الطائرات الإســرائيلية منشــورات موجهــة إلى قائد القوات السورية الموجودة داخل بــيروت. وقــبل أن تصل المنشورات إلى الأرض كانت إذاعة الكتائب تذيع نصها وتضيف من عندها تأكيدا بأن القوات الإسرائيلية ستدخل بيروت. بذلت الإذاعات الوطنية جهودا كبيرة لمقاومة الحرب النفسية. ثم جاء نبأ مقتل نائب رئــيس الأركــان الإســرائيلي الجنرال آدم، وأفاضت الإذاعات الوطنية في التعريف به، ثم جاءت قصة مقتله وكيف أجبره قصف القوات المشتركة على اللجوء إلى أحد الملاجئ في منطقة الدامور، ومن داخل الملجأ أطلق فدائيان علــيه وعلــى مرافقــيه النار فقتل على الفور واعترفت إذاعة العدو بمقتل كولونــيل آخر معه. وتداول الناس النبأ وتساءلوا: هل يستطيع شارون تحمل كــل هذه الخسائر؟ لقد أعلنوا عن مقتل أربعة عشر ضابطا كبيرا خلال أيام ومن المؤكد أن العدد أكثر من ذلك، فإلى متى يمكنهم الاستمرار؟ قال أحدهم: المشــكلة أنــه كلما زادت خسائرهم زاد إصرار بيجن وشارون على تحقيق مكسب ما وإلا انهار الجيش والحكومة.

ازداد الحديــث عن وقف إطلاق النار، وعن نشاطات فيليب حبيب في دمشــق. أصــبح للغــروب أهمية أخرى غير الأمن وإمكانية التحرك داخل المديــنة، الغروب في بيروت يعني بداية نهار العمل في نيويورك وواشنطن حيث خيوط اللعبة كلها، والاتصالات ومجلس الأمن وقراراته.

اجــتمع مجلس الأمن عدة مرات منها مرة يوم الأحد. في الماضي كان المجلــس لا يجــتمع يومي السبت والأحد. ويك إند هذه المرة غير المرات الســابقة. تفاءل البعض بهذا الاهتمام الدولي.. آخرون تشاءموا.. ذلك معناه أن الكــبار يعــرفون أن العملــية كبــيرة وخطيرة وهم لا يريدون أن تفلت وتجرهم إلى صدام. على أي حال لم "يفعل" المجلس شيئا. أصدر قرارات لم تــنفذ والفائدة الوحيدة منه هي إعلان مواقف الأعضاء. الخيوط في يد البيت

الأبـيض، ريجان يقول: هيج قال، هيج يقول.. ثم جاء فيليب حبيب الذي لا يقول شيئا.

مـن إعلانات إذاعة الكتائب إعلان محلي عن "عرق كفريا" وهي قرية جبلية لبنانية، يبدأ الإعلان بصوت الممثل والملحن زياد الرحباني ابن السيدة فـيروز يقول "مش عارف ليه صحيت ع بكير (باكرا) وراسي رايق.. مش فاكـر شـو شـربت امبارح" فيرد صوت نسائي غنوج قائلا "عرق كفريا.. بيـتعمل.. مـن عنـب كفـريا.. بيتشمس ع رواق.. وبيتعصر ع رواق.. وبينزل.. ع رواق".

إعـلان يحكـي قصـة بـيروت والعالم... كانت "بتتحرق ع رواق.. وتنقصف ع رواق.. وتتحاصر ع رواق"...

وبرواق لا يحتمل وصلت بيانات التأييد والدعم.

* *
*

عـندما استنتج الناس في بيروت أن قوات الغزو قد استولت على مثلث خلـدة وقطعت طريق الجبل لم يكن قد مر على البداية إلا أقل من أسبوعين. معارك شديدة دارت حول مثلث خلدة الذي يقع على مدخل بيروت الجنوبي، ويـتفرع منه طريق الجبل، تكبد العدو خسائر كبيرة وقبل وقف إطلاق النار مـرة ثم عاود الهجوم ومحاولات الإنزال، فشل مرات قبل أن تذكر بلاغات القـيادة المشـتركة أن "قواتـنا" قصفت تجمعات العدو في مثلث خلدة. ظل الكثـيرون يـأملون ويتساءلون.. كان معنى سقوط مثلث خلدة وقطع طريق الجـبل أن بـيروت أصبحت مطوقة من جميع الجهات. تأكد ذلك بالقصف المدفعي. لم يعُد أحد يعرف من أين تصدر القذائف حتى يمكن تجنب آثارها، في الماضي كان الناس قد اكتسبوا خبرة في التعامل مع قصف المدافع عندما كـان مصـدرها المنطقة الشرقية، أما الآن فإنها تقصف من دائرة كاملة بما

فــيها البحر. في الأسبوع الأول من الغزو كان القصف محصورا بشكل عام فــي المنطقة الجنوبية، ومنطقة المربع (الفاكهاني والجامعة العربية وصبرا وشـــاتيلا) أما الآن فقد اتسع نطاق القصف ليشمل منطقة البربير وبرج أبي حــيدر وشــاطئ البحر كله. ذكر القادمون من المنطقة الشرقية أخبارا عن تحركات إسرائيلية في اتجاه الميناء: ثم قطع شارون الشك باليقين عندما دخل منطقة بعبدا، وهي منطقة القصر الجمهوري، واقتحم مقر الحرس الجمهوري وأزاح قــائده عن مقعده والتقطت له الصور. قال البعض إن شارون ظن أن مكتــب قائد الحرس الجمهوري هو مكتب رئيس الجمهورية، ولكن العارفين قالوا إنه قصد الإعلان عن وضع رئاسة جمهورية لبنان تحت حمايته. لم يثِر هــذا النبأ أي تعليق من إذاعة الكتائب، وهاجمت إذاعة المرابطون (صوت لبنان العربي) رئيس الجمهورية الذي سكت ولم يحتج، ولم يندهش الناس في بــيروت الغربــية وتيقنوا أن بيروت أصبحت مطوقة، رئيس الوزراء شفيق الــوزان أقدم على الاحتجاج بطريقته. رفض الذهاب إلى القصر الجمهوري طالما أن موكبه سيمر على حواجز إسرائيلية. تدخل فيليب حبيب وتم ترتيب ثقب إبرة تعبر منه سيارة رئيس الوزراء إلى القصر الجمهوري دون المرور على حاجز إسرائيلي. وردت قوات الغزو على موقف رئيس الوزراء بتوسيع نطــاق القصــف وتكثيفه على بيروت الغربية ثم الاتفاق على وقف إطلاق النار. وبدأ حوار بيروت... اقتراحات.. اقتراحات مضادة.. قصف مركز.. وقف إطلاق نار.. اقتراحات.. وهكذا.

فــي ذات الــيوم مات الملك خالد، الباحثون عن التفاؤل قالوا إن حرب أيلــول/ سبتمبر توقفت عندما مات جمال عبد الناصر، رد "آخرون": الحرب كانــت قد توقفت قبل أن يموت، وقال البعض عبد الناصر ليس الملك خالد، أصــر المتفائلون على تفاؤلهم وقالوا إن الملك الجديد سيحاول أن يفعل شيئا لكي يثبت أنه ملك.. فقال المتشائمون كان يحكم المملكة قبل أن يموت الملك. وتســاءل الــبعض مازحــا ألن يذهب أبو عمار للعزاء؟ هدأ القصف بالفعل وتكاثــرت الحشــود على تلال خلدة وتتبع الناس أخبار العزاء على أمل أن ينعقد مؤتمر قمة عربي، ولكن ذلك لم يحدث.

في ذات اليوم أيضا أذاع الاتحاد السوفياتي بيانا "شديد اللهجة" مهددا بترجمة تأييده للعرب إلى أفعال ونشرت الصحف أن السفير السوفياتي قابل "جورج حبش" وأبلغه أن وحدات من الأسطول السوفياتي تتجه بالفعل إلى البحر المتوسط. علت من جديد أصوات المنادين بالتحالف الاستراتيجي مع الاتحاد السوفياتي وسرت إشاعة أن هناك غواصة سوفياتية على بعد عشرة أميال من الشواطئ اللبنانية. ارتفعت المعنويات وتفاءل الناس بقرب نهاية الحرب. رد العدو بجولة جديدة من القصف المركز شمل مقر السفارة السوفياتية وما حولها. حول الناس تفاؤلهم إلى أخبار وصول المتطوعين الإيرانيين. قالت الشائعات إنهم بالمئات، وفي آخر النهار أصبحوا بالآلاف وإنهم وصلوا إلى منطقة سوق الغرب فوق الجبل. أذاع صوت الكتائب أنباء عن اشتباكات بين المتطوعين الإيرانيين وسكان قرى الجبل من الدروز. قال الناس "هذا تأكيد أنهم وصلوا". توقف القتال على الشريط الساحلي ونشط على طريق الجبل وتحول اتجاه قوافل المهجرين.

وصل البعض من الجنوب. الطريق مفتوح إلى صيدا وصور. الإسرائيليون لا يدققون على الحواجز. هناك حواجز كتائبية تنشط أحيانا عند "الجية" وهي قرية ساحلية جنوب الدامور. أخبار القتال في الجنوب ترددت كالبرق في بيروت. عزمي لا يزال يقاتل، وبلال وحسن، معهم أسرى. عين الحلوة تقاتل. الإسرائيليون يجرفونها بالجرافات. البعض في قرى الجنوب انضم لقوات سعد حداد. أذاع الشيخ مهدي شمس الدين بيانا يدعو فيه إلى مقاطعة جيش الاحتلال. الصيف زحمة.. كثيرون بلا مأوى. آلاف الأسرى. كل بالغ معرض للاعتقال. حشود دبابات على الطريق في اتجاه بيروت. الإذاعة الرسمية بدأت في إذاعة رسائل من الأهل إلى الأهل.. "من فلان وأسرته في بيروت إلى العائلة في صيدا أو صور أو النبطية أو أي قرية من قرى الجنوب". "نحن بخير طمنونا".

بدأت قوافل المهاجرين من بيروت. الجنوبيون الذين كانوا قد هاجروا إلى بيروت خلال السنوات العشر السابقة بدءوا في العودة إلى الجنوب المحتل الآن. لم يعترضهم أحد. قالوا "لابد أن نكون هناك.. الإسرائيليون

يصــادرون الأراضــي إن لم يكن أحد عليها" قال أحدهم "العدو يريد تفريغ بيروت من الناس للانفراد بالمقاتلين.. يريدون تجفيف البحر لالتقاط السمك".. رد آخرون "بيروت لن تفرغ.. ستكون المعركة أقل إيلاما إذا خرج الأطفال والنساء والشيوخ أو حتى الذين لا يريدون أن يقاتلوا".. "ستقل مشاكل التموين والإعاشــة". النقاش جرى بين الذين لم يخرجوا أما الذين خرجوا فقد سموا أنفســهم "عــائدون". نشــرت الصحف صور قوافل السيارات وهي تنتظر تصــريح المرور أو التفتيش. البعض ذهب وعاد في اليوم التالي ليأخذ أفراد عائلته.. حارات بأكملها فرغت من سكانها الذين كانوا أصلا مهجرين إليها. تــبادل الــناس المواقــع.. سكان المخيمات في المنطقة الجنوبية انتقلوا إلى البيوت الخالية. ومن جديد بدأ تبادل العناوين وطرق الاتصال ببعض.. بأين المسألة مطولة. "كل ما طولت كل ما احلوت".

نحــن لســنا أقوى عسكريا، ولكننا أقوى سياسيا. لابد من كسب الوقت وإطالــة المعركة حتى يتحرك الأشقاء والحلفاء والأصدقاء. هؤلاء يتحركون بــبطء. "معقــول ســورية تتركــنا" "معقول العرب يقفوا يتفرجوا؟" "معقول الســوفيت يتركوا إسرائيل تأخذ لبنان؟".. الأمل كان يدفع الناس إلى الإجابة بالنفي، وخطرت على البال أغنية وردة: "أيامي بتحلو.. بتحلو معاك والعيشة والــناس والجو". سأهم وقف إطلاق النار مرتين خلال خمسة أيام في كسر سرعة اندفاع قوات الغزو نحو بيروت. التقط الناس أنفاسهم وتبادلوا الأخبار مســقطين الأنــباء الســيئة عــن الجنوب مبرزين قصص البطولة وأخبار المتطوعيــن الإيرانيين والتئام الصف الإسلامي اللبناني حول قيادة المقاومة. خفــت الحساسية التي كانت قد بلغت الذروة قبل اندلاع الحرب بين اللبنانيين والفلســطينيين وتتــبع الــناس باهتمام أخبار اجتماعات أبو عمار مع رئيس الــوزراء شــفيق الوزان ومع الرئيس صائب سلام رئيس التجمع الإسلامي ونبيه بري رئيس حركة أمل. وصل الرئيس السابق سليم الحص إلى بيروت الغربــية بعــد أن ظــل في بيته في ضاحية الدوحة جنوب بيروت أياما بعد احتلال قوات الغزو لها. ثم وصل وليد جنبلاط من قصره في قرية المختارة بجــبل الشوف تحت الاحتلال، وبذلك تجمع في بيروت الغربية رموز القوى والفئات المعارضة للغزو، وبدأت المفاوضات. واشتدت الحرب النفسية.

في الساعة الثانية والدقيقة الثانية والأربعين من فجر يوم ٦/١٧ صحا سكان بيروت الغربية والشرقية أيضا على هدير قصف مدفعي وصاروخي من كل الجهات.. قدر البعض أن مئات المدافع أطلقت في نفس الوقت على المدينة. هرع الجميع إلى الطوابق الدنيا والملاجئ بل والشوارع.. لم يعُد مكان آمنا. استمر القصف والقصف المضاد حتى عصر نفس اليوم عندما أعلن عن وقف إطلاق النار وقالت إذاعة إسرائيل إنه موقوت بثمانية وأربعين ساعة فقط. أما إذاعة الكتائب فقد حرصت على تنبيه الناس إلى أن القصف قد بدأ في الثانية واثنتين وأربعين دقيقة أي ٢٤٢، مذكرة بقرار مجلس الأمن الذي يحمل نفس الرقم، وأن قرار وقف النار أعلن في الثالثة وثمانٍ وثلاثين دقيقة عصرا، مذكرة بقرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ ووقف النار في حرب ١٩٧٣. وأضافت إذاعة الكتائب وعنها تنقل إذاعة إسرائيل أنباء عن موافقة قيادة المقاومة على نزع سلاحها وعلى الخروج على سفن أمريكية بدأت تصل إلى شرق المتوسط. نفت الإذاعات الوطنية هذه الأنباء. وتساءل مازح "هل سيرسلون لنا سفينة المرح "LOVE BOAT" وهو اسم مسلسل تليفزيوني مرح تدور أحداثه على سفينة سياحية اسمها سفينة المرح.

ساهم الإنذار بعودة القصف بعد ثمانٍ وأربعين ساعة في إشاعة التوتر والوجوم رغم نفي الإذاعات لهذا الخبر ورغم نفي رئيس الوزراء للنبأ. ولكن إعلان المقاومة عن أنها مستعدة للتعاون الإيجابي مع السلطة اللبنانية، فتح باب التفسيرات والتوقعات. وجاء قرار مجلس الأمن الذي يطالب "إسرائيل" باحترام حقوق الإنسان في المناطق المحتلة ليزيد من توتر الناس في بيروت الذين اعتبروا القرار تأكيدا لجميع الأنباء المخيفة الواردة من المناطق المحتلة.

ومرت الساعات ببطء وانتهى موعد الإنذار ولكن القصف الواسع لم يبدأ. مجرد اشتباكات حول المطار وفي المنطقة الجنوبية وحرائق في مخيم برج البراجنة. اشتباكات عادية، لم تعُد توقف عجلة الحياة الجديدة ولا المفاوضات الجارية.

ثـم بـدأت لعـبة قطـع المياه والكهرباء. احتج رئيس الوزراء. وشن المراسـلون الأجانب حملة شديدة على هذا الإجراء. وجاء الرد قصفا مدفعيا إسـرائيليا شـديدا علـى بـيروت الغربية، وقذيفة.. قذيفة واحدة نحو فندق الكومودور حيث يقيم معظم المراسلين الأجانب أصابت بناية بجواره وسيارة مارة في الشارع الذي كان يعد آمنا نسبيا. اشتعلت السيارة واندفعت سيارات الدفاع المدني تحمل المصابين وتحاول إطفاء الحريق. وأذاعت إذاعة الكتائب النـبأ محـددة أن الهدف هو فندق الكومودور ومبالغة في الخسائر، وأسرع المصـورون بتصـوير المكـان. في ذلك اليوم تركز القصف على منطقة الفاكهانـي والجامعـة العربية وبرج أبي حيدر، إلى جانب المناطق الجنوبية كلها ثم توقف القصف والقصف المضاد دون إعلان عن وقف إطلاق النار.

وتوقع الناس هدوءا ليوم أو أكثر ولكن الأخبار حملت أنباء اندلاع القتال على الجبل حول طريق بيروت – دمشق وأعالي جبال الباروك ومدينة عالية ثـم مدينة بحمدون. كان الناس قد كفوا عن الأمل بدخول سورية الحرب بعد أن أعلـن قبل أيام عن معركة جوية سقطت فيها عشرات الطائرات السورية وعـن تدمير قواعد الصواريخ السورية في سهل البقاع، وقبول سورية وقف إطـلاق الـنار. ولكـن تجدد القتال على الجبل والطريق الدولي حمل معه مخاطـر محاصـرة بقية قوات المقاومة على الجبل وهي القوات التي كانت آمـال الـناس معقـودة على وصولها إلى بيروت مع المتطوعين الإيرانيين والتونسـيين الذيـن قـيل إنهم وصلوا إلى دمشق بالآلاف ولكنهم منعوا من الانتقال إلى لبنان.

كذلك كان البعض يتوقع أن يتوقف القتال نهائيا قبل حلول شهر رمضان المـبارك. رمضـان فـي بيروت الغربية لـه طعم خاص فهو مناسبة تمتد ثلاثيـن يوما تبرز فيها بيروت الغربية هويتها الإسلامية والعربية وعاداتها الشـرقية بشكل عام والبيروتية بشكل خاص. ليلة الإعلان عن رؤية الهلال يسـتمر إطـلاق النار في الهواء حتى الفجر تقريبا، مصحوبا بإلقاء أصابع الديناميـت في الخلاء وعلى شاطئ البحر وإطلاق صواريخ الألعاب النارية في الجو. كان الكل يسهر بجوار أجهزة التليفزيون لمعرفة ما إذا كان الصيام

سيبدأ في نهار الغد أم في اليوم التالي. وكانوا جميعا يحاولون سماع الإذاعات العربية. من المعروف أن بدء رمضان في لبنان يعتمد على بدايته في المملكة السعودية، والقاهرة، ودمشق، في الماضي كان يعتمد على بدايته في القاهرة، ثم أصبح يعتمد على بدايته في دمشق، ومع تطور الأوضاع أصبح يعتمد في السنين الأخيرة على إذاعة المملكة العربية السعودية. في تلك الليلة كانت أخبار دمشق عن القتال على طريق الجبل وكانت أخبار القاهرة عن فشل اجتماع وزراء الخارجية العرب في تونس، وعن لقاء بيجن وريجان في واشنطن أما الأخبار المحلية فقد كانت عن القصف والقتال وانتظار بيان دار الإفتاء.

عندما أعلنت دار الإفتاء عن رؤية هلال شهر رمضان المعظم لم يحدث إطلاق نار في الهواء. ربما أطلق بعضهم النار هنا وهناك، ولكن الناس كانوا منشغلين بالاستماع إلى الأخبار. جاء الإعلان عن رؤية الهلال متأخرا جدا كالعادة وما إن تناول الذين ينوون الصيام سحورهم وخلدوا إلى النوم حتى اخترقت الطائرات الإسرائيلية حاجز الصوت فوق بيروت وألقت قنابل مضيئة في سمائها ونهض الناس من نومهم خائفين وهرعوا إلى الملاجئ والطوابق الدنيا. لم تكن هناك إذاعات لمعرفة ما يحدث. هل هي غارة؟ هل هو قصف؟ هل بدأت معركة بيروت؟.. هل بلغ الهوان بأمة العرب والمسلمين درجة أن تبدأ إسرائيل اقتحامها لعاصمة عربية ليلة شهر رمضان المبارك؟.. وحل صمت كئيب بعد هذه الغارة، لم يستطع الناس النوم ولا الكلام مع بعضهم البعض. أدار بعضهم أجهزة الراديو على الإذاعات العربية. بعضها يحتفل ببداية الشهر المبارك، الأدعية والابتهالات ثم أذان الفجر. وغفت عيون مرهقة، وخرج البعض للاطمئنان على الأقارب والحصول على ما يحتاجه إفطار رمضان واستمر الباقون في الملاجئ والطوابق الدنيا.

حمل النهار الأول أنباء تجدد القتال على الجبل والطريق الدولي، ونداء من الولايات المتحدة للأطراف بوقف النار، ونصيحة الحكومة الأمريكية لرعاياها بمغادرة لبنان عن طريق جونيه على سفن أمريكية. سفن مصرية

وفرنسية وصلت إلى نفس الميناء لنقل الرعايا. وفهم سكان بيروت الغربية من هذه الأخبار أن معركة بيروت مؤكدة وحتمية.

وعبر "البوابات" بين المنطقة الغربية والمنطقة الشرقية تدفقت قوافل السيارات الدبلوماسية تنقل "الرعايا" إلى جونيه حيث السفن التي ستنقلهم إلى لارنكا في قبرص. كثيرون من العرب المقيمين داخل بيروت بدءوا أيضا في الخروج منها. كانت حواجز الكتائب تسمح للجميع بالمرور إلا السوريين والفلسطينيين.

بسرعة نشأت صناعة جديدة في لبنان، هي صناعة نقل الخارجين من بيروت. أجرة الراكب من بيروت إلى دمشق أصبحت خمسمئة ليرة لبنانية وكانت قبل الحرب خمسا وثلاثين ليرة لبنانية. "يا عمي بندفع للحواجز وبنرجع فاضيين". أجرة الانتقال في زورق من الشاطئ إلى المركب المسافر أصبحت مئة ليرة والركاب درجات. الأجانب (أمريكيون وأوروبيون بشكل عام) لهم سفن ركاب مجهزة أما العرب فسفن الشحن في الانتظار. عائلات فلسطينية كانت قد قدمت إلى لبنان من الأردن بعد أحداث عامي ٧١/٧٠، وأخرى قدمت من سورية مع أبنائها المقاتلين استطاعت الخروج من بيروت بجوازات سفر أردنية. في كل يوم نشرة أخبار خاصة بالطرق. طريق طرابلس سالكة.. طريق الميناء مغلقة إلا للدبلوماسيين. طريق الجنوب مفتوحة. أما طريق الكحالة – شتورا – المصنع – دمشق فهي خطرة جدا.. الطائرات الإسرائيلية تقصف القوات السورية المنسحبة شرقا.

ثم توقف القتال ثانية بين القوات السورية وقوات الغزو. لم يعُد أحد يعرف داخل بيروت إلى أين وصل الإسرائيليون ولكن الذي أصبح مؤكدا هو أنهم قد سيطروا على الطريق الدولية التي تصل بيروت بدمشق وأنهم احتلوا الجانب الغربي من هذا الطريق الجبلي، بذلك أصبحت بيروت معزولة ومطوقة تماما وأصبحت القوات السورية المتواجدة داخل بيروت وهي خليط من القوات الخاصة السورية، وقوات من جيش التحرير الفلسطيني الخاضع للقيادة السورية محاصرة داخلها، ومعتمدة على التسهيلات التي تقدمها قيادة المقاومة بعد أن انقطعت سبل الاتصال بينها وبين دمشق.

همس المراسل الأجنبي الخبير بشؤون الشرق الأوسط تعليقا على إغلاق الطريق الدولي "هذه خطوة أعادت إلى منظمة التحرير الفلسطينية استقلاليتها الكاملة". كان بذلك يشير إلى نهاية مرحلة كانت فيها القيادة الفلسطينية تضع فـي اعتـبارها عند اتخاذ قراراتها أو تحديد تحركاتها السياسية وجود قوات سورية داخل وحول بيروت، على الطريق إلى الجنوب أو إلى دمشق، وإلى المطار الدولي.

كـان الشـعور بـالوحدة، يلـف الجميع.. أين العرب؟ أين العالم؟ أين الجـيوش؟ قال قائل يدافع ويبرر.. "لا يجب أن نترك المبادرة في يد العدو.. نحـن الذين نحدد موعد ومكان المعركة"، واندلع نقاش حاد.. هذه هي الحجة التـي منعت قتال العدو ثلاثين عاما باستثناء حرب ١٩٧٣. كان العدو دائما يهاجم ويحتل ويتوسع.. لماذا إذن كل هذا السلاح والتضحيات؟ .. قال ساخر هل سمعتم نكتة "وقت الحشرة".

ونكـتة "وقـت الحشرة" أو "وقت الزنقة" تقول إن شخصا يدعي الفتوة والشـجاعة كـان يمشـي وهـو متمنطق بمختلف أنواع الأسلحة الفردية، مسدسـين، وخنجر وقبضة حديدية.. إلخ، وذات يوم خرج عليه قاطع طريق وأمره أن يخلع سرواله ليغتصبه فأذعن مدعي الفتوة والشجاعة.. ثم اكتشف قـاطع الطـريق أنه يحمل كل هذه الأسلحة فنهره سائلا "وله.. ليش كل هذا السـلاح؟". فأجـاب الآخر "لوقت الحشرة" وتعالت ضحكات مره .. أتكون الحشرة غير ما نحن فيه ؟

* *
*

- عاد أبو النمور..
- أين ذهب ؟
- عمليات خمسة.

"عمليات خمسة" هو الاسم الذي أطلق على مقر غرفة العمليات العسكرية الجديدة التي كانت معدة من قبل كاحتياطي واستعملت بعد بدء الغزو وقصف مناطق الفاكهاني وصبرا وشاتيلا والجامعة العربية. هناك تصل البرقيات من جميع المواقع ومن هناك تخرج التعليمات. وفيها تلتقي القيادات اللبنانية والفلسطينية.

الطريق إلى "عمليات خمسة" لا يزال مفتوحا ولكنه ليس آمنا. القصف المتقطع دائم على كافة مداخل المنطقة. من المؤكد أن العدو استطاع تحديد المنطقة ولكنه لم يحدد موقعها بالدقة وإلا قصفها. قبل "عمليات خمسة" كانت هناك "عمليات ٣".. موقع قديم ومكشوف. قضفته الطائرات في غارة خاصة. قبل أن يقصف بيومين أجلت المقاومة بقية السكان من حوله. وفي يوم الغارة كان لا يزال الموقع يعمل بعدد قليل حفاظا على الاتصالات وأيضا للتمويه على الموقع الجديد. قصفت الطائرات الإسرائيلية بنايتين كاملتين لكي تفتح الطريق للقذائف الخاصة بتدمير الطوابق الأرضية وما تحت الأرض. في اللحظات ما بين الهجمات خرج من كانوا "بعمليات ٣" بعد أن اطمأنوا إلى خلو المكان من المدنيين. لحظات وانهار المبنى. كانت الحادثة التي نبهت قيادة الموقع إلى ضرورة إخلائه هي انتحار ضابط صغير. دخل إلى دورة المياه وأطلق النار على نفسه. كان ذلك عصر يوم من الأيام الحزينة التي شهدت اندفاع قوات الغزو حتى بيروت. تكتم العارفون بالنبأ. جرى تحقيق سريع. قدر المحققون أن المنتحر فعل ذلك لأحد سببين: أنه لم يكن موجودا في موقعه عند بدء الغزو، أو أنه كان متورطا في علاقة مع العدو وأنبه ضميره. أخذا بالأحوط، وبعد قصف منطقة كلية الهندسة مرات والإعلان عن

أنهـــا كانت مقرا لغرفة العمليات صدرت الأوامر بالإجلاء. وتم الانتقال إلى عمليات خمسة وعمليات خمسة وثلاثين. والأخيرة كانت من أحدث المواقع.

لم يكن أبو النمور في "عمليات خمسة"، بعد اتصالات قيل له أن يذهب إلى عمليات خمسة وثلاثين وينتظر، تم اصطحابه إلى هناك. انتظر ليقابل أبو عمار أو أبو جهاد، ثم تأجل الموعد إلى المساء.

قابلـــه أصحابه بحماس وفرح. لم يتغير. فقد بعض وزنه "ما الأخبار؟" تكلم قليلا. انتقلوا إلى مكان آخر. شقة يحيى الجديدة مأمونة وآمنة. بدأ يحكي حكاية صيدا وعين الحلوة.

دخلت صيدا قبل اكتمال تطويقها. العدو شق طريقه من الجنوب الشرقي بعد أن نجح في إنزال دباباته على المدخل الجنوبي والمدخل الشمالي واحتل التلال شرقي صيدا.

ذهبـــت ومجموعـــة لمهاجمـــة أحـــد مواقعهم شرقا. قاتلنا حتى فرغت ذخيرتـــنا. بقي عدد قليل من الشباب. الباقي انسحب شرقا. عندما عدت إلى صيدا لم أجد أحدا في موقعه. عرفت بانسحاب البعض إلى مخيم عين الحلوة واخـــتفاء البعض الآخر. القيادة انسحبت نحو الجبل شرقا. ذهبت إلى أسرة أعـــرفها شـــرقي صيدا. بقيت هناك. دفنت سلاحي ونزلت إلى المدينة. بعد ثلاثة أيام أخذونا في الطوق. العدو يفاجئ الناس بطوق من الآليات ويفرزهم: النساء والأطفال في ناحية والرجال في ناحية أخرى. الملثمون كانوا يجلسون جانبا يشيرون برؤوسهم فقط. أعتقد أنهم ليسوا عربا منا. لم يكونوا يعرفون، بدلـــيل أن فلانـــا، وفلانا، وفلانا كانوا ضمن الطوق ولم يتعرفوا عليهم وهم معـــروفون فـــي صـــيدا. أنـــا غير معروف هناك. مررت. ختموا أوراقي. وخرجـــت. ســـمعت أن الناس دلوا الإسرائيليين على أبو عطوة. أبو عطوة لبناني من صيدا انضم إلى تنظيم فلسطيني وساهم في حريق صيدا الكبير قبل الغزو بأسبوع. لهذا لم يشيروا إلى الآخرين ولكن أشاروا إليه فقط.

عيـــن الحلـــوة قاومـــت ببسالة. أرسل الإسرائيليون عجوزا يبلغهم أن يخرجوا للتفاوض. رفض الشباب وحملوه رسالة للإسرائيليين. فليحضر بيجن

نفســه هــنا للــتفاوض ومــن الممكــن أن يصــطحب معه شارون. أعاده الإســرائيليون ثانــية ومعــه عميل لهم. غمز العجوز بعينه للشباب ففهموا. أطلقوا النار على العميل وانضم العجوز للشباب. الطيران الإسرائيلي يقصف الأكــواخ صفا. صفا، ثم تتقدم الجرافات ثم الدبابات ثم المشاة. من بقي من الشــباب على قيد الحياة انسحب شرقا أو تسلل إلى مدينة صيدا أو البساتين المحــيطة بها. حظر التجول مفروض على صيدا وصور أيضا. طوال الليل تســمع أصــوات إطلاق نار في البساتين وتطلق قوات الغزو قنابل مضيئة فوقهــا. قابلت الكثيرين ممن أعرفهم بالوجه في شوارع صيدا. الإسرائيليون بــدءوا فــي اعتقال الكثيرين لبنانيين وفلسطينيين. عملاء في قرى الجنوب يــبلغون الإســرائيليين عن أنصار الثورة. البعض انضم لقوات سعد حداد. البعض انتهز الفرصة لتصفية حسابات عشائرية. الناس على الطرق والجبال بــلا مــأوى. جميع العاملين في مقر الهلال الأحمر الفلسطيني ومستشفياته اعتقلوا وأخذوا أسرى. الطريق إلى صيدا مفتوحة. من الممكن الاستفادة من ذلــك خصوصا بالنسبة لغير المعروفين علنا. "هناك حشود آليات كثيرة على الطريق".

"وماذا عن الوضع بشكل عام.. علاقة الناس بالإسرائيليين ؟"

"حاول الإسرائيليون إيهام الناس بأنهم أفضل من الفدائيين. كانت الدبابة "تركن" على جانب الطريق لكي تمر سيارة مدنية. وجاءوا بطائرة هليوكوبتر مــرة لحمل طفل مريض إلى مستشفى بإسرائيل. الوضع اختلف مع حملات التفتيش والاعتقالات العشوائية والسرقات".

"سرقات !"

"صحيح.. الإسرائيليون يسرقون عندما يدخلون البيوت لتفتيشها. ينزلون الناس من بيوتهم بمكبرات الصوت لفحص أوراقهم والتفتيش عن مختفين أو عــن ســلاح. وعندما يعود الناس إلى بيوتهم يكتشفون إختفاء أشياء صغيرة ثميــنة. بــالذات أجهزة الراديو والمسجلات والتحف. القادمون من الجنوب يقولــون إن هناك حاجز شرطة عسكرية إسرائيلية يفتش الجنود العائدين في إجازات".

"أية أخبار عن عزمي وإخوانه ؟".

"لا أخـــبار مؤكـــدة.. قابلت بعض الإخوة القادمين من هناك مشيا على الأقدام. الكثيرون لا يزالون في البساتين. يقولون إن المطران حداد (مطران مديـــنة صور) ذهب بنفسه وأخذ أسرة عزمي (زوجته وأولاده) إلى الكنيسة لحمايتهم".

"اعمـــل الخير وارميه البحر"... كان عزمي معروفا بحمايته لمسيحيي الجنوب في منطقة صور وعلاقته الحسنة برجال الدين المسيحيين هناك.

تفرق الأصدقاء. بقي أبو النمور مع أخيه الأكبر الذي اختاره. كان من الواضـــح أن لديـــه مـــا يقوله. قال بصوت خافت "رأيت فلان في عمليات خمســـة". "ومالــــه؟". "هذا هارب". "عارفين". "مفروض يحاكم".. "بعدين".. سكت ثم سأل "القيادة تعرف ما حصل؟".. "طبعا". "والحل؟".. "نستعد لمعركة بـــيروت.. وبعديـــن الحساب".. أوصاه الأخ الأكبر بعدم ذكر السلبيات أمام الآخريـــن، وأن لا يضـــيع الوقت في تفاصيلها عند مقابلته للقيادة، يكفي ما حملـــته الأيام السابقة من أخبار سيئة مبالغ فيها. قال أبو النمور: "كان ممكن صيدا تقاتل أطول وأحسن".

– صحيح.. وعلى العموم لسه الفرصة موجودة..
– مهم القيادة تعرف الوضع.. مناطق كاملة الإسرائيليين ما دخلوها.
– القيادة عارفة.
– أنا بدي اشتغل في الجنوب.
– قول لهم.
– يوافقوا ؟
– أكيد.. لكن ما تقولش لحد غيرهم.
– طبعا.

سمح توقف قوات الغزو على أبواب بيروت، حتى مع استمرار القصف بالـــتقاط الأنفـــاس. وأدى وصول فيليب حبيب إلى بيروت وزيارته اليومية لقصـــر بعـــبدا إلى بروز الوجه السياسي للمعركة وإمكانية كسب مزيد من الوقـــت. ومـــن حيث أراد الغزاة إضعاف بيروت معنويا، ساهموا في تقليل

المشـــاكل التـــي ترتبــت على سرعة الاجتياح. ساهمت هجرة الكثيرين من الجنوبييــن إلى الجنوب في توفير أماكن للذين قصفت مناطقهم كما ساهمت أيضـــا في انتقال عدد كبير من الشباب المدرب على القتال إلى الجنوب مع عـــائلاتهم. بعض العائلات حرص على ترك أبنائه الشباب في بيروت خوفا عليهم من الاعتقال. عائلات كثيرة أخرى اصطحبت أبناءها خوفا عليهم من البقاء في بيروت التي تقصف يوميا والمقدمة على معركة مميتة. في الحالتين كان ذلك مفيدا. الأبناء الذين بقوا في بيروت تحركوا بحرية ودون قلق على الأهـــل أثـــناء القـــتال. والذين صحبتهم عائلاتهم حملوا معهم خبراتهم غير المنكسرة، وبالذات بعد معارك مثلث خلدة وحي السلم وكلية العلوم. وصحح انـــتقال الـــناس مـــن وإلى الجنوب الأخبار الأولى التي كانت إذاعة الكتائب وإذاعـــة إســـرائيل تذيعها. مناطق كثيرة لم يدخلها الإسرائيليون بعد، لم يكن وصولهم إلى مداخل بيروت معجزة عسكرية وإنما كان نتيجة اندفاعهم على الطـــرق الرئيسية من ناحيتهم وانسحابات من على الجانبين لا مبرر لها من الناحية الأخرى.. فقد الاندفاع الإسرائيلي زخمه. وبدأ هجوم سياسي أمريكي يســـتعمل التهديد الإسرائيلي بل والفعل الإسرائيلي. الرحيل.. رحيل المقاومة مـــن بـــيروت أو تدمـــيرها علـــى رءوس من فيها. وبين جولات القصف، والمفاوضات، عاودت قوات الغزو لعبة قطع الكهرباء والماء وإغلاق بوابات الخـــروج مـــن بـــيروت الغربية وإلقاء المنشورات التي تدعو سكان بيروت لمغادرتها قبل فوات الأوان.

قدر البعض أن الأوضاع ستحسم خلال أيام. كانت لجنة الإنقاذ الوطني التـــي شكلها الرئيس سركيس قد بدأت اجتماعاتها بعد أن وافق وليد جنبلاط ونبيه بري على حضور جلساتها. تفاءل الناس بقرب توقف القتال نهائيا. ثم ظهر أن إسرائيل تشترك في الحوار الدائر داخل هذه اللجنة بالقصف. تصعده وتخففه حسب مجرياته. كانت قيادة المقاومة قد أبدت استعدادها للتفاهم إيجابيا مع لجنة الإنقاذ، وفهم الناس من ذلك أن المقاومة على استعداد للخروج فعلا مـــن بـــيروت أو علـــى الأقـــل العـــودة إلى داخل المخيمات الفلسطينية في العاصمة. في يوم ٦/٢٥ أعلن وليد جنبلاط انسحابه من لجنة الإنقاذ الوطني

"لأنه ليس على استعداد لتوقيع شهادة وفاة المقاومة" وأيده في موقفه نبيه بري رئيس حركة أمل، وانهمر سيل من القذائف الإسرائيلية برا وبحرا وجوا على بيروت الغربية كلها مع تركيز خاص على أحياء المنطقة الجنوبية ومنطقة المربع والفاكهاني وصبرا وشاتيلا والجامعة العربية) وحي الرملة البيضاء الذي يعد من أغنى أحياء بيروت وأحدثها، وعند الظهر قدم رئيس الوزراء شفيق الوزان استقالته لرئيس الجمهورية وأيده فيها الوزراء خالد جنبلاط ومروان حماد، ثم بقية الوزراء المسلمين في الوزارة. وخاطب الوزان فيليب حبيب بحدة قائلا إنه لا يستطيع أن يتباحث ويتفاوض تحت ضغط القصف المجنون.

ساد التوتر والقلق. تراجع التفاؤل وقلت حركة السير في الشوارع وبقي الناس في الملاجئ تحت الأرض أو في الطوابق الأرضية. أغلقت المحلات القليلة التي كانت لا تزال تصرف بضائعها، ولمّ تجار الأرصفة بضائعهم ولم يكن يمشي في الشوارع إلا أفراد قلائل يثير تحركهم العجب.

في شقة على سطح بيت قديم بالقرب من حي الحمرا جلست جماعة عند صديق.. تنتظر.. الصمت كان يلف المنطقة كلها إلا من أصوات القذائف والطيران. على الطاولة "طقم" شاي للمفطرين من الجالسين. الجميع ينصت إلى جهاز الراديو لمتابعة أنباء القصف والتحركات السياسية. ما يكاد النقاش حول الوضع السياسي يبدأ حتى ينتهي.. القصف شديد ويشمل كل المناطق.. والمعارف والأصدقاء موزعون تحت الخطر. ابنة أصحاب الشقة الطفلة حاولت مداعبة الجالسين حتى ملت وشعرت بأنهم مشغولون بغيرها رغم أنه لم يكن هناك أطفال غيرها. فجأة قال أحدهم: سامعين.. ناس بتلعب طاولة زهر.. أنكروا عليه سماعه أي شيء سوى القصف. سكت. ثم عاد وأكد أنه يسمع صوت الزهر يتدحرج.. أنصتوا.. لم يسمعوا شيئا. ثم قال أحدهم وكان يرتاد هذه الشقة من قبل: "هذا صوت الحمام في العريشة اللي جارنا". فعلا كانت هناك عريشة وحمام لا يزال يطير ويحط دون وجل من القصف أو الطيران. ولكن الأول عاد وقال.. "لا، فيه صوت لعب طاولة".. وسكتوا. فجأة، يبدو أن لعبة الطاولة في طابق سفلي تطورت إذ ضرب أحد اللاعبين

"بالقشـــاط" بشدة ففرقع فرقعته المعهودة، وضحك الجميع.. فعلا "ناس بتلعب طاولة".. "فيه طاولة زهر هنا؟".. "لا فيه شطرنج".. "ماشي".

وفـــي كثير من المواقع والبيوت انتشرت لعبة الشطرنج وطاولة الزهر ولكن الأكثر شيوعا كانت لعبة "الصبر" بورق اللعب. واكتشف اللاعبون بهذه اللعـــبة أنهـــا متعددة ومتنوعة وتبادلوا معلوماتهم بشأنها. كانت أفضل ألعاب قضاء الوقت أثناء القصف، وأيام الانتظار، على انفراد مع النفس.

فـــي الخامســـة عصـــرا أعلن عن التوصل لوقف جديد لإطلاق النار. امـــتلأت الشـــوارع بالسيارات والناس واندفع الكثيرون كالعادة نحو منطقة الجامعـــة العربـــية للاطمئنان، كانت عادة اللقاء في هذه المناطق بعد وقف إطـــلاق الـــنار قـــد أصبحت جزءا من حياة سكان بيروت. أينما كانوا أثناء القصـــف فـــإنهم يلـــتقون بعد وقف إطلاق النار في منطقة الجامعة العربية، وعـــندما يحل الظلام تبدأ صيحات "طفي الضو" والحواجز توقف السيارات الداخلة إلى المنطقة للتأكد من هوية الركاب.

في تلك المنطقة احتل شارع عفيف الطيبي مكانة خاصة. فهو يمتد بين مفـــرق جامعـــة بيروت العربية وشارع كورنيش المزرعة، وفيه تقع مكاتب مجلـــة فلسطين الثورة والإعلام الخارجي ومركز التخطيط الفلسطيني ومقار الحـــزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي، ومكاتب المالية المركزية التابعة لفتح ومكاتب اللجنة العلمية التابعة لفتح ومكاتب أخرى لمنظمات عديدة. وفي الشارع الموازي له تقع مكاتب وكالة الأنباء الفلسطينية "وفا"، ومقر المجلس الـــثوري لحـــركة فـــتح، ومقر الدائرة السياسية (وزارة الخارجية) لمنظمة الـــتحرير الفلســـطينية. وهـــو أيضـــا الشارع التي تقع فيه محلات أبو علي الحلوانـــي (مقهى المثقفين) وكان الشارع قبل أن تنفجر فيه سيارة ناسفة قبل عـــام تقريـــبا مـــن الحرب يضم مقهيين آخرين أغلقا لأسباب أمنية، ومطعم صـــغير يقـــال إن صـــاحبته كانت دائما عضوا في آخر انشقاق يساري في الشارع. وقد خلا شارع عفيف الطيبي أو شارع فلسطين الثورة أو التخطيط كما كان يسمى عند رواده، خلا من السكان بعد أول أسبوع من الحرب وكان لـــه نصيب دائم فيما تناله المنطقة كلها من قذائف. في ذلك اليوم نال الشارع

نصيبه أيضا وتناثرت فيه الشظايا والأنقاض، وما إن توقف القتال حتى امتلأ بالسيارات والقادمين الذين جاءوا ليطمئنوا ويتقابلوا.

تحول أبو خالد الرايق إلى شخصية هامة في هذا الشارع المشهور. قبل الحرب لم يكن أحد يحس بأبو خالد الرايق.. كان أحد حراس مركز التخطيط. لم يلفت نظر أحد من قبل إلا لأنه لم يكن يتصرف كما كان حراس المكاتب يتصرفون. كان دقيقا منضبطا يقظا، والأهم أنه لم يكن يغادر المركز عندما تنتهي نوبته. معظم الآخرين كانوا يأتون عند بدء نوبتهم ويغادرون عند نهايتها. والبعض كان يحرس في أكثر من مركز أو مؤسسة. هنا نوبة وهناك أخرى. لكي يجمع مرتبين في الشهر "المعيشة غليت واحنا عندنا أولاد" أبو خالد لم يكن يغادر، تم التحري عن سبب ذلك فتبين أنه على خلاف مع زوجته، أو هكذا قيل. المهم أنه كان رجلا مهذبا رقيقا ينفذ الأوامر وقد جاء إلى المركز بعد واقعة نسفه وتلك شجاعة. اكتسب لقب الرايق لهدوئه الشديد. في الأسبوعين الأولين لم يبقَ إلا هو، الآخرون غادروا لترتيب أحوال أسرهم فكلهم كانوا من سكان مخيمات صبرا وشاتيلا أو ليسوا من سكان لبنان أصلا. أبو خالد اطمأن أن أسرته انتقلت عند أخيه الذي يعمل "ناطورا" (بوابا) في بناية من بنايات الروشة. يوما بعد يوم تحول أبو خالد إلى حلقة اتصال بين الباقين من العاملين في مركز التخطيط وسكان البناية المدنيين والسكان المدنيين في البنايات المجاورة. عند "أبو خالد" تتجمع أخبار الإخوة، وعنده أحلى شاي وكذلك "ساندويتش ع الماشي" إذا كنت جائعا، خبز وجبنة أو خبز وزيتون. إن شئت فتح لك أبو خالد علبة لحم من التموين.. هنا أيضا ماء للشرب وورقة وقلم لكي تترك رسالة مكتوبة. ومهما كنت مسئولا أو غير مسئول غير مسموح لك بالخروج من مركز التخطيط بأي شيء إلا بإذن مكتوب من الأخ المسئول. وعندما يتوتر أبو خالد أو يغضب فإنه فقط يحرك ساقيه وهو واقف وينقل قدميه ويهز رأسه قليلا. وطوال الوقت احتفظ أبو خالد بأناقة نظيفة برغم فقره الظاهر. بعد توقف إطلاق النار استقبل أبو خالد الرايق القادمين من خارج المنطقة. كان يبتسم بفرح وهو يحكي كيف نجا بالصدفة عندما قصفت الأبنية المقابلة وتناثرت الشظايا إلى حيث كان

المفروض أن يكون جالسا خلف ساتر رملي قصير على باب المركز. طلب منه المسئولون أن يرحل، فقد تم إفراغ المركز من كافة الأوراق الهامة والسرية، وأحرقت الملفات التي تتضمن أسماء. كان الخوف هو أن يقوم العدو بعمليات خاصة ضد المؤسسات والمراكز. عرض عليه المسئولون أن ينتقل إلى موقع آخر خارج المربع. ولكن أبو خالد فضل البقاء فقد كان يشعر بحرية أكبر في مكانه الخطر. وتم الاتفاق على تدعيم السائر الرملي أمام المركز تحصينا لموقع أبو خالد وحماية له، وعلى "دعم" أبو خالد بأخوين آخرين يريحانه نهارا على الأقل.

مع أذان المغرب، وموعد الإفطار، انتشر نبأ استقالة ألكسندر هيج، وعاد الناس إلى أجهزة الراديو. ولوحظ أسف إذاعة الكتائب "ووجوم" إذاعة إسرائيل. بدأ السؤال عن الوزير الجديد. تطوعت إذاعة مونت كارلو بتقديم الوزير الجديد إلى المستمعين وإبلاغهم أن هيج قد استقال بسبب أزمة بيروت وغزو لبنان. بدأت المعنويات ترتفع من جديد. وبغض النظر عن الأسباب اعتبر الناس استقالة هيج نصرا لهم. ووردت من واشنطن برقية عن الوزير الجديد وتاريخه وارتباطاته. يقولون إن له ارتباطا وثيقا بالسعودية. "لعله خير". عاد المتفائلون بقرب انتهاء القتال نهائيا إلى تفاؤلهم. بكرت قوات الغزو في إطلاق قذائف الإنارة في سماء بيروت وسمعت طلقات المدافع والرشاشات الثقيلة من الناحية الجنوبية في بيروت. اشتباكات متفرقة حول الجانب الشرقي من المطار وفي حي السلم. تجمع الناس حول أجهزة التليفزيون في المناطق التي كان يصلها التيار الكهربائي حسب التقنين ليتفرجوا على مباريات كأس العالم لكرة القدم. وفي الصباح احتار الناس عندما صوتت الولايات المتحدة منفردة ضد إجماع هيئة الأمم المتحدة حول قرار بإدانة الغزو (لا تغيير في الموقف الأمريكي)، وعندما قرعوا أن من بين الذين أسفوا لرحيل هيج المفاجئ الحكومة الإسرائيلية، ووكالة تاس السوفياتية، وجريدة الشعب الصينية. وحرصت إذاعة لندن على أن تضيف إلى نبأ الاستقالة المكرر قولها "ومن المعروف أن الوزير هيج كان قد وافق على تجميد إنتاج الأسلحة النووية عند حدها الحالي وهو مطلب سوفياتي".

وعـــادت إذاعة إسرائيل إلى التأكيد على ضرورة خروج المقاومة من لبـــنان بعد نزع سلاحها، وعاود الطيران إلقاء المنشورات التي تدعو الناس إلـــى الخروج من بيروت قبل فوات الوقت وتوقفت المفاوضات والاتصالات وتراجع التفاؤل.

* * *

رحـــل مـــن رحـــل، وبقي من بقي. الراحلون لهم مبرراتهم ودوافعهم والـــباقون بعضـــهم ملـــزم وبعضـــهم ملتزم والكثيرون لهم دوافع تخصهم. واكتسب من بقي عادات جديدة يومية. الخروج صباحا للحصول على خبز، والاطمئـــنان علـــى شـــقق المعارف الذين رحلوا، والسؤال عن الأصحاب والبحث عن الأخبار. وترتيب وصل ما انقطع وينقطع.

بدأت المجموعات تتشكل من جديد، أقارب، معارف، جيران، أبناء مهنة واحـــدة، ملتزمون بلا أطر قائمة فاعلة، وانتظمت لقاءات هذه المجموعات. كان الوقت مشكلة. الحرب يقوم بها رجال المدافع والصواريخ والمجموعات الموجـــودة علـــى خطوط التماس. المفاوضات تقوم بها القيادة. والباقي في انتظار. أكثر الناس انشغالا وفعلا كانوا شباب الدفاع المدني. تطوع الكثيرون في صفوف جمعية الصليب الأحمر اللبناني حتى أعلن عن غلق باب التطوع. تنظـــيمات كثيرة شكلت فرق الدفاع المدني الخاصة بها. تقاطر المتطوعون علـــى مستشفيات الهلال الأحمر الفلسطيني. مؤسسات توقفت وأجهزة جديدة تشـــكلت. لجنة الإسكان، لجنة الأفران، جهاز التموين، المستوصفات الشعبية ونقـــاط الإســـعاف، فـــرق حـــرق الـــزبالة، مجموعات توفير المياه، جهاز التحصـــينات والموانـــع. معظـــم هـــذه الأجهزة والجماعات تشكلت بمبادرة

أعضائها. اختفت أسماء وبرزت وجوه. حتى الأجهزة التي تشكلت بأمر من القيادة اعتمدت على من لم يكن لهم قبل الحرب صوت مسموع، ولم يكونوا معروفيـن. سـقطت العلانية ولم تقم السرية، فكان الاعتماد على المجهولين وتقطع الاتصال بين الجماعات. تشكل جهاز الاستطلاع، بل أكثر من جهاز استطلاع. الوحدة لم تكن كاملة برغم الحصار والمعركة. فقط قياده العمليات كانـت واحـدة ومركـزية، وكذلك لجان صرف المساعدات. تطلب التنسيق لتحقـيق بعـض المهام عقد اجتماعات يوميه للأجهزة والمؤسسات الجديدة للتغلـب على مشكلة انقطاع القنوات بسبب السفر أو الاستشهاد أو الانقطاع خـارج بـيروت. فاروق ألقى بنفسه في خضم المهام، "لو ما عملت شي ح أجن". قبل الحرب عاد من الخارج بعد أن ظن أن صلاته القديمة قد انقطعت بـإخوة فضل الابتعاد عنهم بهدوء. كانت أطر المؤسسات تدفع خارجها من كانت أحلامه أكبر ، وكان الوفاء للقضية وذكرى الشهداء يجعل المرء يؤثر الابـتعاد والانزواء. كان من عادته أن يصلي ويصوم دون أن يعلن ذلك أو يتفاخر به. هكذا نشأ وهكذا عاش. في أيام القصف الشديد عندما لا يتمكن من الحركة للاطمئنان على " الشباب " ينذر أياما يصومها إن لم يصَب أحد. حل رمضان وهو صائم .وكثيرا ما كان إفطاره في العاشرة مساء لأنه لم يستقر فـي مكان وقت الإفطار ولم يتبقَ له ما يفطر به. لم يفطر إلا أياما معدودة طـوال أيـام الحصار. عندما اندلع القتال كانت له مصالح وأعمال. تركها وانخرط و نجح في إقناع أسرته "أمه وإخواته "بالسفر إلى خارج لبنان. بقى مـع خـال يقـربه في العمر.عندما تمكن مدير البنك الذي يتعامل معه من الاتصال به بعد أسبوعين من ابتداء الغزو أبلغه أن خسائره وصلت ما يقرب مـن خمسين ألف ليرة لبنانية وأنه في انتظار تعليماته. أوقف نشاطه المالي والـتجاري وتفرغ للاستطلاع. لم يكن خبيرا عسكريا ولكنه كان ذخيرة من الإيمـان والحـنان الأخوي يقدمه لإخوانه الصغار بتواضع. الاستطلاع في الحرب كحرب بيروت لم يكن سهلا وهى محاصرة من كل الجهات وأبوابها مشرعة للقادمين والخارجين وبوارج العدو تمخر البحر أمام الشاطئ. اختار البنايات العالية ومنها برج المر الذي يعد أعلى بناية في بيروت الغربية وهى بـناية لم تكتمل وإن قامت طوابقها السبعة والثلاثون، بلا مصاعد ولا حتى درج مـأمون ولا نوافـذ ولا أبـواب. كان يصعد كل يوم يزور إخوانه في

البنايات العالية ويأتي لهم بالإفطارعند الغروب. ويتناول الإفطار مع المجموعات. أحصى صديق له متوسط عدد الطوابق التي يصعد درجاتها في اليوم الواحد فبلغت أكثر من مئتي درجة يصعدها وهو صائم ويهبطها والظلام دامس. وعندما انتقلت مهام الاستطلاع إلى غيره، اشترك في مهمة التحصينات و إقامة الموانع على الطرق الرئيسية والنقاط التي يحتمل أن تحاول دبابات العدو عبورها، ولم تحُل مهامه دون القيام بعشرات الخدمات الشخصية والعامة للآخرين. أكثر ما كان يؤلمه هو عدم إدراك البعض لأهمية مراجعة النفس وحسابها، وأهمية تغيير المسلك الذي أوصل الحال إلى ما هي عليه. ولكنه كان يتغلب على مرارته بقدرة وصفاء، ولعل الصيام كان سلاحه في ذلك. وفى لحظات الخروج كان وعد فاروق "اطمئنوا سنزور الشهداء كما تعودنا وسنواصل".

تجمع الكتاب والصحفيون والشعراء، بحكم التخصص. صدرت جريدتان جديدتان: المعركة، والرصيف. صدرت نشرة عن الهلال الأحمر الفلسطيني اسمها بلسم، عادت صحف المنظمات إلى الظهور. تمكنت السفير والنهار واللواء وهي صحف يومية من الاستمرار مع اختصار عدد الصفحات بسبب نقص الورق والطاقة. وأيضا نقص المحررين. تبارت الصحف في نشر الصور يوميا على صفحتين أو أكثر. كانت فلسطين الثورة والمعركة والرصيف توزع مع التموين على المواقع. لم تكن تحمل أخبارا جديدة للقارئ، الكل كان يتتبع الأخبار عن طريق الإذاعات ساعة بساعة . ولكنها كانت تحمل حكايات أحيانا، ومقالات رأي أحيانا أخرى. ومادتها تساعد الإذاعات الوطنية التي كان عليها أن تغطي كل منها ست عشرة ساعة إذاعة يوميا.. ولها فوائد أخرى ككل الصحف. الفرش للأكل، والفرش للنوم، والفرش للنظافة.. إلخ. ظلت هذه الصحف تصدر حتى أيام "الخروج". الرصيف فقدت مؤسسها ورئيس تحريرها الشهيد علي فودة الذي أصيب في يوم من أيام القصف وكان في منطقة "عين المريسة" الساحلية ونقل إلى مستشفى الجامعة الأمريكية وكاد يضيع مجهولا عندما كتب كاتب المستشفى اسمه "علي فاضل"، ونقل إلى غرفة العناية الفائقة واستشهد بعد يومين من إصابته وساعات من اكتشاف أصدقائه لمكانه، واستمرت الرصيف في

الصدور. فلسطين الثورة فقدت اثنين من كتابها. عراقيان، خرجا بسيارة للتوجه إلى مخيم برج البراجنة، لم يكونا يعرفان أن الطرق قد لغمت. وجدا لافتة مكتوبا عليها خطر ممنوع المرور. ظنا أنها تنبيه للمدنيين بعدم الاقتراب من خطوط القتال. نزل أحدهما ونحى اللافتة جانبا لكي تمر السيارة، ومرا ولم يعودا.

تغيرت تقاليد دفن الشهداء. قبل الغزو كانت جنازة الشهيد في بيروت قد تطورت من جنازة يشارك فيها المعزون أفرادا وجماعات سيرا على الأقدام من جامع جامعة بيروت العربية حتى مقبرة الشهداء والنعش تحمله سيارة إسعاف من سيارات جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني، وربما رافق الموكب سيارة أو سيارتان عسكريتان، فأصبحت جنازة الشهيد طابورا عسكريا طويلا من السيارات العسكرية ثم طابورا طويلا من السيارات الخاصة التي تحمل المعزين. وتوزعت باقات الورد التي كانت في الماضي تتقدم الجنازة يحملها أشبال أو زهرات أو أصدقاء الشهيد، توزعت على السيارات المختلفة وازدادت حجما وضخامة. وأصبح من الممكن تقدير مرتبة الشهيد أو تنظيمه من حجم الطابور وحجم باقات الورود. أما إذا ظهر ملصق الشهيد في جنازته فذلك معناه أنه شهيد "مهم" أو على الأقل من تنظيم أو جماعة في تنظيم تستطيع أن تعجل بطباعة ملصقه قبل خروج الجنازة. كانت هناك استثناءات طبعا. في بعض الحالات كان بسطاء الناس "يفرضون" المشي على الجنازة، يحملون النعش ويمشون ويمشي وراءهم المعزون. هذا معناه أن الشهيد معروف لبسطاء الناس أو أن واقعة استشهاده دفعتهم إلى إعلان غضبهم أو حزنهم أو محبتهم فجاءوا مشيا ويمشون. الذين كانوا يستشهدون في صدامات مباشرة ضد العدو الإسرائيلي كانوا غالبا يتمتعون بهذه الجنازة الشعبية، والذين كانوا يستشهدون نتيجة للغدر والاغتيال من أجهزة المخابرات كانوا يلاقون نفس "المكافأة". مع استمرار الحروب في لبنان، لأكثر من عشر سنوات، أصبح للجنازات تقاليدها وتصنيفاتها، وأصبح للناس أيضا قدرتهم على الحكم عليها من مظاهرها. كان إطلاق النار في الهواء بكثافة من لوازم جنازات الشهداء. بعد فترة وإلحاح ومتابعة تمكنت حركة "فتح" من السيطرة على جنازات شهدائها. توقف إطلاق النار تماما إلا من

واحـــد وعشـــرين طلقـــة تطلقهـــا قـــوة الكفاح المسلح (الشرطة العسكرية الفلسطينية) عند المقبرة. أمكن النجاح في ذلك عندما تقاطعت الدواعي الأمنية بالنسبة للمشيعين مع الدواعي الجماهيرية بالنسبة لرغبات الناس. كذلك كانت بعـــض الجنازات تحظى بالفرقة الموسيقية التابعة لقوات العاصفة أو الفرقة الموســـيقية لمدرسة أبناء الشهداء. وهكذا تنوعت جنازات الشهداء ولكن في حدود، وبقيت أمور مشتركة بينها جميعا، أولها أن كافة الإجراءات الخاصة بالمدفـــن تقـــوم بهـــا المؤسســـة الاجتماعية لرعاية أسر الشهداء والأسرى والمعـــروفة باسم مؤسسة الشهداء وهي من أقدم وأقدر المؤسسات الفلسطينية وأكـــثرها انتظاما وأقلها كادرا وعاملين، ولعل ذلك سر نجاحها. ثم الطريق الـــذي تســـلكه الجنازة وهو طريق ثابت من أمام جامعة بيروت العربية إلى مقابر الشهداء على طريق المطار وهي مسافة تبلغ حوالي كيلو متر واحد، ثم ســـيارة جمعـــية الهلال الأحمر الفلسطيني التي تحمل النعش ملفوفا في علم فلســـطين ثـــم أم علي النصراوية التي تشاهد باستمرار بجوار سائق سيارة الإسعاف.

كـــل ذلك انتهى. لم يبقَ إلا سيارة الإسعاف تحمل نعش الشهيد ومندوبا عـــن مؤسســـة الشهداء وبعض أهله إن كان قد تبقى لـــه أهل أحياء. أصبح المـــوت مألوفـــا وكثـــيرا وأصبحت المشكلة إيجاد مكان للدفن. لم تعُد هناك زهور ولا محلات زهور. أزهار بيروت كانت تأتي من خارجها. السيارات العسكرية موزعة على المواقع ومنشغلة بغير الجنازات. إطلاق النار لم يعُد لـــه معنى في ظل القصف المستمر. المطبعة كانت تعمل في ظروف صعبة، بالكـــاد تصدر الصحف، وتوقف طبع الملصقات، حتى أم علي النصراوية لم تعُد تركب بجوار السائق.

أم علـــي النصراوية... ستينية من جليل فلسطين، هاجرت إلى لبنان في ١٩٤٨. أم لشهيدين نزلا من رحمها وأم لعشرات الشهداء تعودوا أن ينادوها "يامه" وأن تناديهم "يا بني". قبل علانية الوجود العسكري الفلسطيني في لبنان كـــان هناك مشهد متكرر في مخيم شاتيلا. تدخل مجموعة من رجال المكتب الثاني اللبناني تضرب وتعتقل وتفتش وترهب ثم تنتقي بعض الرجال لتهينهم

علـــنا أمـــام سكان المخيم. ثم يأتون بأم علي النصراوية ويعلقونها في فلكة ويتـــناوبون ضـــربها علـــى قدميها "كنت أخاف فخاذي تظهر ألبس بنطلون بيجامة ابني علي". "كنت تصرخي؟؟"، "أبدا كنت أسبهم وأهتف لفلسطين". مع "فتح" برزت أم علي النصراوية تقود المظاهرات وترقص بالكلاشنكوف في جـــنازات الشهداء وترافق المجموعات الذاهبة إلى التدريب تطبخ لهم الطعام وترعى نومهم في الليل. "وفين أبو علي يامه؟؟".. "في المخيم عضو في حلقة ما وصلش حتى عضو شعبة" وتضحك. بعد استشهاد ابنها الأول أصبح همها نقـــل الشهداء والجرحى من مواقع إصاباتهم. تركب عربة الإسعاف بجوار الســـائق تقرأ آيات القرآن وهي تجمع الأشلاء. وتعود لتودع الجثمان إحدى المستشـــفيات وتســـهم في ترتيب الجنازة، وتذهب لإحضار الجثمان وترافقه حتى القبر. عندما استشهد ابنها الثاني تبنت مقاتلا من أصدقائه، فلما استشهد أعطـــت كـــل وقـــتها للجـــرحى والشهداء. مع بداية الغزو انشغلت أم علي النصراوية طوال الليل في جمع أشلاء وجثث الشهداء من بين أنقاض المدينة الرياضـــية. كذلك فعلت في اليوم الثاني والثالث.. ثم تغيبت عن الأنظار. لم تعُـــد هناك مواكب لدفن الشهداء. كل شيء يتم بسرعة ودون مشيعين إلا قلة من الأقارب ومندوبي مؤسسة الشهداء. كانت جنازات الشهداء مناسبات للقاء المعـــارف والأصدقاء القدامى الذين توزعوا من الجنوب حتى بيروت. وكما أن المناضـــل الطيب يجمع الناس حوله كذلك موكب جنازته عندما يستشهد. توقـــف كل ذلك مع أيام الغزو الأولى ولم يعُد أحد يشاهد أم علي النصراوية التي واصلت مهمتها.

- سمعت ؟
- خير ؟
- لا خير ولا شي.. أم علي النصراوية استشهدت..
- مش معقول.. امتى ؟
- أيام معركة طريق الجبل.
- كيف ؟
- بيقولوا من قصف الطيران على الطريق.. كانت في سيارة إسعاف.

– لا حول ولا قوة إلا بالله.. اندفنت ؟

– دفنوها.

– فين ؟

– ناس بتقول ع الجبل وناس بتقول في مقبرة الشهداء.

أم علـــي النصـــراوية التـــي شاركت في دفن شهداء الثورة الفلسطينية والحـــركة الوطنـــية اللبنانية دفنت وحيدة.. عشرات من الذين تبنتهم حزنوا لأنهـــم لم يكونوا في وداعها. لن يتعرف الناس على قبرها وهي التي كانت تعرف سكان القبور جميعا. من الغريب أنه في غمرة الموت الجماعي تكون واقعـــة موت فردية أكثر إيلاما. من يحل محل أم علي النصراوية؟ كثيرون ممـــن عـــرفوها تشاءموا عندما سمعوا باستشهادها؟ آخرون قالوا البركة في الشباب. ومع ذلك فالخبر غير مؤكد. يقول البعض إنها انقطعت على طريق عودتها من الجبل إلى بيروت وإنها توجهت إلى دمشق. محتمل. أسماء كثيرة قـــيل إن أصـــحابها استشهدوا ترددت فيما بعد ضمن القوات التي تتجمع في مـــنطقة الـــبقاع. وفي كلتا الحالتين لم تعُد أم علي النصراوية تجمع الأشلاء وجثث الشهداء.

شباب الدفاع المدني استمروا بما كانت تقوم به أم علي.

في السنوات الأخيرة قبل الغزو قل عدد الشباب المتطوعين في صفوف العمل المسلح، كان التفرغ في صفوف العمل المسلح فلسطينيا أو لبنانيا يواجه مشـــاكل الحياة: طالت الطريق والأعمار تزيد والحياة لها احتياجاتها. زواج، أهـــل، معيشـــة مـــرتفعة التكاليف، ومخصصات الفدائي لا تكفي. الكثيرون فضـــلوا العمـــل فـــي أعمـــال أخـــرى مع تقديم جزء من وقتهم لتنظيماتهم والمساهمة في الأعمال التي لا تتطلب تفرغا كاملا في القواعد، وعند اندلاع القـــتال يتفرغ الجميع وتتوقف الأعمال. ثم جاءت مشاكل الاشتباكات المحلية بين التنظيمات، وزاد ضغط العائلات على أبنائها لكي يتركوا العمل المسلح. فـــي بلد كلبنان تؤدي الاشتباكات المحلية إلى مشاكل عائلية وعشائرية وإن كانـــت أسبابها سياسية. بدأت سمعة "البندقية" تتعرض للاهتزاز وفقدت قدرا

من بريقها. ولكن رغبة الشباب في العمل جماعة وبنشاط ظلت. انتعشت النوادي الرياضية والنوادي المحلية ولكن أكثرها انتعاشا كانت فرق الدفاع المدني. هنا يستطيع الشاب أن ينشط مع جماعته وأن يظل على صلة بالنشاط السياسي المسلح أيضا. معادلة ترضي النفس وترضي الأهل. وشهد العام السابق للغزو جهدا كبيرا في تدريب فرق الدفاع المدني ساهم في تنشيطه توالي انفجار السيارات المتفجرة الناسفة في بيروت الغربية. أصغر الانفجارات كان يوقع العشرات من القتلى والجرحى ويهدم على الأقل بناية ويحرق أكثر من سيارة، وتندفع فرق الدفاع المدني من كل اتجاه لتسهم في الإنقاذ.

حادثة بعد حادثة اكتسبت هذه الفرق خبرة كبيرة في عمليات الإنقاذ والتقدم تحت النار. كانت فرق الكشافة الإسلامية في بيروت الغربية هي الأولى في هذا المجال ثم لحقتها المجموعات التي تشكلت حول التنظيمات المختلفة. في البداية تتوفر سيارة ستيشن يتم تحويلها إلى سيارة إسعاف وتطلى باللون الأبيض ويرسم عليها الهلال الأحمر ويرفع عليها علم التنظيم المعين. وساهم صغر سن السائقين والمتطوعين في تقوية اندفاعهم وحماسهم وكذلك في زيادة سرعة السيارات وعلو صفارات الإنذار التي تطلقها رائحة غادية سواء كانت تحمل مصابين أو خالية. ومنذ الأيام الأولى للغزو أصبحت مقار وسيارات الدفاع المدني هدفا للغارات الإسرائيلية، وعندما كانت سياراتهم تندفع نحو صيدا في اليوم الثاني والثالث هاجمتها الطائرات الإسرائيلية وقصفتها واستشهد عدد غير قليل منهم، كما قصفت الطائرات الإسرائيلية مقر الدفاع المدني في صيدا ومقرات عديدة في بيروت. ولم يفِد أن المتطوعين حسنو النية أضافوا إلى علامات الهلال الأحمر صليبا أحمر كبيرا، ورسموهما على ظهر السيارات والمقرات وعلى جوانبها. تماما كما لم يفِد رفع العلم الفرنسي وعلم الصليب الأحمر الدولي وعلم الهلال الأحمر الفلسطيني فوق مستشفى عكا.

مستشفى عكا من أقدم مستشفيات جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني في بيروت. هو الثاني على وجه التحديد. الأول كان في منطقة الحازمية جنوب

شـــرقي بيروت وضاع عندما سيطرت قوات الكتائب على تلك المنطقة. أما مستشفى عكا فهو يقع على الطريق الممتدة من البحر غربا حتى أول طريق بيروت دمشق الدولية شرقا، وهو نفس الشارع الذي تقع فيه السفارة الكويتية والـــذي يـــتقاطع مع الطريق المؤدي إلى المطار. مع استمرار القتال أصبح المستشـــفى على خط القتال الأول. مكشوف تماما من ناحية الجنوب، مفتوح علــى مخيم شاتيلا من ناحية الشمال، مقطوع الطريق بالنيران غربا وشرقا. كان المستشفى يؤدي خدماته للمنطقة الجنوبية كلها، حي السلم، الليلكي، برج البراجـــنة، بير العبد، الشياح، الغبيري وكذلك لقسم كبير من ساكني مخيمي شاتيلا وصبرا. بدأ المستشفى بطابق في بناية وتطور ليصبح عدة طوابق في بنايتيـــن متجاورتيـــن وبه مستشفى خاص للأطفال ومركز لبحوث إصابات الحـــروب، ومدرسة للتمريض وعيادات خارجية شاملة وصيدلية كبيرة. أما العاملون فكانوا وحدة عربية إسلامية ونموذجا مصغرا لوحدة شعوب العالم. جمعيات طبية من كل جنس ولون ودين وجنسية وحتى عقيدة سياسية كانت ترسل بمتطوعين للعمل في هذا المستشفى، أطباء، وممرضات وصيادلة. في نهايـــة الأســـبوع الأول مـــن الغزو وصلت مجموعة من الأطباء الفرنسيين أعضاء الجمعية الطبية الفرنسية الفلسطينية التي يرأسها البروفيسور لاريفير وكان على رأس المجموعة. اختارت مستشفى عكا للعمل وكان الوصول إليه من قلب المدينة قد أصبح مغامرة. فيما بعد انضم إليهم أطباء متطوعون من جنســـيات عديـــدة. وبالاتفاق مع جمعية الصليب الأحمر الدولي تم رفع علم فرنســـا وعلـــم الصليب الأحمر الدولي وعلم الهلال الأحمر الفلسطيني لعل قـــوات الغـــزو تجنب المبنى الواضح المعالم قذائفها. كثيرون من "الجيران" ســـكان الأحـــياء الشـــعبية والمخيمات لجئوا إلى المستشفى لأنه متين البناء ويحـــوي طابقـــا تحـــت الأرض وكذلـــك أملا في أن يكون بناء آمنا خلال القصف، ولكن قوات الغزو خيبت ظنهم(*) وكان على شباب الدفاع المدني أن

(*) فيما بعد خيبت قوات الغزو ظن الناس مرة أخرى في مستشفى عكا وذلك عندما اقتحمت بيروت الغربـــية بعـــد خروج المقاومة، وسمحت لعصابات من الكتائب وقوات سعد حداد وبعض قواتها الخاصة بذبح الآلاف من مخيمي صبرا وشاتيلا. وتذكر التقارير أن مستشفى عكا تعرض للاقتحام ثـــلاث مـــرات وذبـــح بعـــض العاملين فيه من الأطباء العرب واغتصبت ممرضات فلسطينيات ولبنانيات وفلبينية.

يغامروا بالوصول إلى المستشفى الذي قصف واشتعلت فيه الحرائق لنقل المصابين منه. أصر الأطباء على تشغيل المستشفى ولو كنقطة إسعاف. المصابون ينقلون أولا بأول بعد إسعافهم إلى المستشفيات الجديدة التي أقامها الهلال الأحمر الفلسطيني في رأس بيروت والحمرا والتي جهزت على عجل فأنقذت حياة الكثيرين.

لم يكن مستشفى عكا وحده ضحية للقصف الإسرائيلي، ولم يكن كذلك لأنه كان على خطوط التماس. لحقه مستشفى البربير وهو مستشفى لبناني خاص يقع في نهاية شارع كورنيش المزرعة ناحية "بوابة" المتحف بين المنطقة الغربية والشرقية، ثم لحقه مستشفى جمعية المقاصد الإسلامية وهو في قلب منطقة الطريق الجديدة الآهلة بالسكان وأصيب يومها عدد كبير من الأهالي الذين لجئوا إلى المستشفى ظنا أنه آمن، كذلك أصيب طبيب لبناني شاب أصر على عدم مغادرة قاعة الأطفال قبل إخلائها تماما وفي آخر جولة تفقدية له عمن بقي أصيب وبترت قدماه. ومع استمرار الحصار تصاعد القصف وضاقت حلقة الأماكن التي كانت تعد آمنة نسبيا وقصفت قوات الغزو مستشفى فندق "التريومف" وهو أول مستشفى ميداني أقامته جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني في فندق بجوار فندق البريستول. ثم تتابعت المستشفيات المقصوفة حتى وصلت إلى مستشفى الجامعة الأمريكية نفسه وكان الكثيرون يظنون أن تبعيته للجامعة الأمريكية "تعطيه حصانة ضد القصف". معقول يقصفوا الأمريكان؟ قصف، فأثار دهشة أكثر من الاستنكار، واحتار البسطاء أين يحتمون.

وبدأ سباق آخر في أيام الغزو.. مستشفى يقصف، مستشفى يقام.. أطباء كبار يرحلون أطباء بسطاء يتطوعون وأطباء أجانب يصلون إلى بيروت الغربية. مستشفى الجامعة الأمريكية يضطر لإغلاق أجنحة لنقص العاملين من الأطباء والممرضين، والمتطوعون يتدفقون على المستشفيات الجديدة ونقاط الإسعاف تنتشر في الشوارع والحواري.. سماء زوجة يحيى التحقت بدورة للتدريب على الإسعاف كانت فصولها تتم أثناء القصف، أستاذة الجامعة الأمريكية اختارت مهمة مجالسة الأطفال المصابين الذين فقدوا

أهلهـــم، وتلبـــية رغباتهم. محمد وأحمد ووردة ونضال كل هؤلاء أصبحوا ممرضـــين وممرضات ومجالسين للمصابين والمصابات ومنظمين للطوابير الساعية للمعونة من أي نوع. وامتلأت قاعات المستشفيات الجديدة بوجوه من كـــل الأمـــم. قليل من التعارف والحب والسعادة في هذه اللحظات لن يؤذي أحـــدا. اختلطـــت مواعـــيد الزيارة بمواعيد اللقاء وأصبحت المستشفيات من الأماكن التي يطوف بها سكان بيروت الغربية باحثين عن مفقود، أو زائرين لمصاب، أو مواسين لأهل، أو حتى لطلب وجبة طعام ساخنة وقت الظهيرة.

* *
*

مـــع بداية شهر يوليو/ تموز زادت موجة الرحيل عن بيروت الغربية. كانـــت كـــل الظـــروف تشجع على الرحيل. شهر رمضان، تعطل الدوائر الحكومـــية التي كانت لا تزال تعمل، الإعلان عن تأجيل امتحانات المدارس إلـــى أجـــل غير مسمى، صرف المرتبات الشهرية، والشهر نفسه من أشهر الصيف التي لا تحتمل في ظل رطوبة بيروت وحرارتها. بالإضافة إلى هذه العوامـــل المتكررة سنويا منذ اندلاع الحرب اللبنانية في عام ١٩٧٥، ساهم توقـــف القـــتال المتقطع في بيروت، وتوقفه الدائم على الخطوط الإسرائيلية السورية وابتداء المفاوضات مع فيليب حبيب وقبول المقاومة مبدئيا بالخروج مـــن بـــيروت ساهم كل ذلك في زيادة درجة تفاؤل الناس فقدروا أن الأمر سيســـتغرق أســـبوعين أو ثلاثة على الأكثر وأضافوا عطلة العيد، وغامروا بالخروج إلى قرى الجبال أو إلى المنطقة الشرقية لقضاء عطلة الصيف.

وربمـــا كانت حملة القصف البري والبحري في الأيام الأخيرة من شهر يونيو/ حزيران التي رافقتها حملة من قصف المنشورات من الجو عاملا من العوامـــل المساعدة في تشجيع الكثير من العائلات على الخروج، وإن كانت المنشورات لم تلعب فعلا أي دور في إخافة السكان.

كانـت الطائرات تحوم ثم تلقي بالمنشورات المطبوعة على ورق ملون التي تطلب من سكان بيروت الغربية سرعة الخروج منها قبل فوات الأوان، يـركض الصـبية فـي الشوارع لجمع هذه المنشورات.. سباق.. من يلحق الورقـة قـبل أن تقـع على الأرض؟ في شارع من الشوارع دفعت الريح بمجموعـة من المنشورات بعيدا عن أيدي الصبية الراكضين نحوها، وقعت على الأرض أمام أحد المارة فانحنى ليأخذ واحدة، وفجأة صاح أقرب الصبية فـيه قـائلا "حاسب مسمومة" تراجع الرجل ومضى في سبيله، وبعد أقل من سـاعة كانت إشاعة قوية تتردد في بيروت الغربية تقول إن المنشورات التي ألقتها الطائرات كانت مغطاة بمسحوق سام وإن عددا قد نقل إلى المستشفيات بأعـراض غريـبة وإن السبيل الوحيد للتخلص منها هو حرقها.. واشتعلت الحرائق تلتهم المنشورات.

رغم كثرة الراحلين كان القسم المسكون أو الذي لا يزال صالحا للسكن فـي بيروت مزدحما، خصوصا في أوقات توقف القصف. كثيرون خرجوا بعـائلاتهم، ولكـن الكثيرين أيضا اكتفوا بإرسال أطفالهم إلى خارج بيروت الغربـية. مسنون كثيرون بقوا. الفلسطينيون المسنون بشكل عام لم يرحلوا. "لـم يعُد في العمر بقية".. "فعلناها مرة ولن نكررها".. "البركة في الشباب".. "فيـن أروح يـا بنـي خليهم ييجوا".. كثيرون منهم فقدوا الولد الذي يأتيهم بالطعـام والمـاء. ينزلون في الصباح بحثا عن الخبز والخضروات والماء، ولحـم إن أمكن العثور عليه. ساعدتهم أعمارهم على تحمل الانتظار الطويل أثناء القصف والبقاء وحيدين في بيوت كبيرة مهجورة. المسنات بوجه خاص كـن أكـثر إصـرارا علـى البقاء. أكثر من جدة فلسطينية من سكان رأس بـيروت، وهـو حي الميسورين، رفضن السفر إلى أبنائهن خارج لبنان، أو حتى الانتقال معهم إلى بيروت الشرقية وبعضهن مسيحيات ولا خطر عليهن هـناك. قـبل الغزو كانت لهن حياة الراحة، الأبناء والأحفاد يقومون بكل ما يلـزم، يتزاورن ويتحادثن مع بعضهن ولا علاقة لهن بالشارع. أثناء الغزو عرفـن زيارة المستشفيات للمواساة، واستعدن قدرتهن وخبراتهن في صناعة الأكـلات التـي لا تحتاج إلى لحم أو حتى إلى خبز. "المحشي" كان الطبق

الشـــائع، ربما لأن الموسم كان موسم باذنجان وكوسة وربما لتوفير الخبز، ولكـــن مـــن المؤكد أن عملية تفريغ الباذنجان والكوسة والحشي كانت تقطع الوقت والقلق والتوتر.

كثـــيرون مـــن المسنين اللبنانيين الميسورين لم يغادروا بيروت الغربية "الدوافع تختلف".

"ارحلي يامه".. "اللي يصير عليكم يصير علي".

"ارحلي يامه".. "يا هارب من قضايا مالك رب سوايا".

"ارحل يابا".. "وليدات "تصغير ولد" الكتايب بيبهدلوا الناس ع الحواجز".

"ارحلـــوا.. إحـــنا نحافظ لكم على الشقة".. "ما خايفين ع الشقة خايفين عليكو".

في شارع من شوارع حي فردان، وهو أيضا من الأحياء الميسورة، تنبه الشباب من الباقين إلى مسن وزوجته ما يزالان في شقتهما. مرت "دنيا" التي يعرفها بعض أطفال بيروت لأنها مثلت لهم وغنت أيام المعارك أثناء سنوات الحرب اللبنانية، مرت عليهما. كانت لديها خبرة التعامل مع الأطفال. "وماله مـــا هم أطفال". "بدكو شي؟".. "تسلمي".. "عندكو مي؟".. "أقل الماء يكفينا".. وأتـــت لهمـــا بجالون ماء.. "عندكو خبز؟".. "عندنا الحمد لله".. "طري ولا ناشـــف؟".. "هـــوه فـــيه خبز طري ها الأيام".. وجاءت لهما بالخبز الطري الطازج الساخن. وعرفت دنيا من حكايات العجوزين أنهما لم يتزوجا. عاشا ســـويا مـــنذ أكثر من ثلاثين عاما، لم ينجبا أطفالا. اكتفى كل منهما بالآخر. وجـــاء الســـؤال الحساس والحرج "ليش ما ترحلوا شوية وتعودوا بعدين".. أجـــاب العجـــوز بما يكشف أنهما قد ناقشا الأمر مطولا فيما بينهما.. "إحنا شـــهود. شهود ع اللي بيحصل.. شهود على الظلم.. ظلم الإنسان للإنسان.. ظلـــم العالم وصمته ع اللي بيجري في بيروت.. إن عشنا بنحكي.. وإن متنا نمـــوت ســـوا".. وبكـــت دنيا.. في اليوم التالي جاءت بكمية أكبر من الماء والخـــبز، واعـــترض العجـــوزان.. ليسا في حاجة إلى كل ذلك.. كانت دنيا تخـــاف أن يظنا أنها تدفعهما للرحيل بسؤالها أو أنهما عبء فقالت لهما ربما استطعتما تقديم ما يتوفر لآخرين نحن لا نعرفهم بعد.

كانــت قد شكلت بنشاطها هي وأصدقائها وصديقاتها مجتمعا جديدا في الشــارع الــذي تعــود لسنوات ألا يتدخل ساكن في شؤون جاره ولو بتحية الصباح. ومع استمرار القصف والحصار زادت مهام الشباب في هذه الأحياء العائلــية الجديــدة. توفير الشمع، توفير الأماكن الآمنة في الطوابق السفلى، حراســة الشــقق الفارغــة من النهب والاغتصاب، ثم الخروج "بالكلب" في رحلــته الصباحية لكي يقضي حاجته وإسقاء وإطعام "العصفور الأليف" في قفصه.

فــي مــثل هذه الشوارع الميسورة لم يكن أحد قبل الحرب يعرف جيدا "عاصــف". مجرد شاب يروح ويأتي ويقيم مع والدته العجوز. كان عاصف يــتردد علــى الأحياء غير الميسورة أيضا، وعلى المخيمات. وهناك، على الحواجز كانوا يوقفونه، يخرج هوية تسلح بها من فتح باسمه واسم أبيه ولكن أحــدا لــم يكــن يلحظ أو يذكر، وبعضهم كان يظن أنه اسم حركي مستعار أعطي له. عاصف فوزي المنجد. كثيرون لم ينتبهوا إلى اسم والده الذي كان قائدا مشهورا في حرب ١٩٤٨. قليلون كانوا يعرفون ذلك ويعرفون أيضا أن ذلــك القائد الوالد لم يترك لأبنائه شيئا عندما توفاه الله منذ سنوات وأنه كان يواجــه مشكلة الجنسية الرسمية. واحد من ذلك الجيل العربي الذي ولد قبل تقسيم المشرق إلى دول. كانت هيئة عاصف لا تتفق واسمه ولا ذكرى والده. كذلــك كان مسلكه. بالغ الرقة. يلمس الباب فإن لم يجب أحد ينسحب بهدوء، فــإذا حــدث وفتح الباب كانت أولى كلماته اعتذار عن الإزعاج. مهنته فقط كانــت توافــق هيئته وسلوكه. فنان مصور.. الحرب كشفت لعارفيه وللذين تعرفوا عليه طاقة كبيرة في داخله. يطوف من الصباح الباكر حتى الغروب مشيا في شوارع بيروت الغربية وخطوط التماس ومناطق القصف، يصور، ويــنقل المــاء ويــوزع الخبز ويصل بين الأصدقاء ويلعب طاولة الزهر، ويســتمر فــي الليل زائرا أو مشتغلا فيما صور. أفلح بعد أسابيع من ابتداء الغــزو في إقناع والدته بالسفر إلى أخيه خارج لبنان، ووعدها بأنه سيرعى كلــبها وعصفورها اللذين كانا يشاركانها وحدتها في شيخوختها، ولذلك كان كل شيء ممكنا مع عاصف إلا موعد الساعة السابعة صباحا وموعد الساعة الــرابعة عصــرا، نصــف ساعة للكلب والعصفور حتى في ظل القصف.

وعندما احتاج بعض الذين فقدوا بيوتهم إلى بيوت لا يعرفها أحد، وآمنة، كانت لدى عاصف مجموعة من مفاتيح شقق الجيران الذين رحلوا تاركين له مهمة رعاية الشقق وما فيها.

أصبح مبرر التفاؤل عند الناس هو اقتراب الاتفاق بين المقاومة من ناحية وبين فيليب حبيب من ناحية أخرى عبر رئيس الوزراء اللبناني شفيق الوزان. كلما ذكرت الأخبار قرب الاتفاق ازداد تفاؤل الناس بانتهاء المحنة، وعندما كانت تنقل الأخبار أنباء تشدد فلسطينية أو إسرائيلية كانت موجة التفاؤل تتراجع. أصبح واضحا للناس أن إسرائيل تريد إبادة المقاومة بينما أمريكا تريد ترويضها على الأقل، والإبادة والترويض يلتقيان في استعمال أداة "الضرب" و"التهديد" و"التجويع" و"الحصار". زادت الضغوط على قيادة المقاومة وطلبت منها قيادات الحركة الوطنية والقوى الإسلامية أن توافق على الخروج. وفي ذات اليوم الذي أعلنت فيه قيادة المقاومة موافقتها على الخروج شنت قوات الغزو هجوما واسعا بالمدفعية برا وبحرا على بيروت وحاولت التقدم على مختلف المحاور وبالذات محور الأوزاعي (مدخل بيروت الجنوبي) ومحور كلية العلوم وحي السلم (الجانب الجنوبي الشرقي من بيروت). واحتار الناس بين التفاؤل والتشاؤم وازدادت التساؤلات. لماذا تقصف إسرائيل بهذا العنف؟ كان من الملاحظ أن كل موجة قصف تأتي تكون أشد من سابقتها، وتشمل مناطق أكثر، مع تركيز شديد على محور الرملة البيضاء – سبينيس – السفارة الكويتية – أي محورا يمتد من شاطئ البحر حتى المخيمات.

معروف أن الحرب تبدأ من حيث انتهت، هذه قاعدة عسكرية معروفة، إن توقف القتال عند مستوى معين من الأسلحة فإنه يبدأ بهذه الأسلحة ويزداد عنفا. ولكن الذي حدث في أيام رمضان لم يكن فقط تطبيقا لهذه القاعدة العسكرية، وإنما كان مشاركة في الحوار العام والخاص، ومحاولة مدروسة لهدم المعنويات. كأن قوات الغزو كان يخيفها "تعود" الناس على ما سبق من قصف ودمار. وترددت داخل الحصار نكتة القمحة والدجاجة. يقال إن رجلا رفض أن يخرج من بيته وتحصّن في غرفته فلما سأله أهله عن السبب قال

"أخشى أن تأكلني الدجاجة لأنني حبة قمحة". وحاول أهله إقناعه أنه ليس حبة قمح وإنما هو إنسان. لم يقتنع. أخذوه إلى طبيب للأمراض النفسية وحاول الأخير إقناعه بالخروج إلى الشارع لأنه ليس حبة قمح وإنما هو رجل. وأخيرا استعمل معه العلاج بالصدمات الكهربائية وهو علاج مؤلم جدا. أبدى الرجل اقتناعه بأنه ليس حبة قمح وخرج من عيادة الطبيب إلى منزله ولكنه مع ذلك رفض الخروج منه. جاءوا بالطبيب ثانية وسأله عن سبب عدم خروجه: "ألم يقتنع أنه رجل وليس حبة قمح؟" قال "بلى.. أنا اقتنعت أنني لست حبة قمح ولكن من يضمن لي أن الدجاج اقتنع أنني رجل ولست حبة قمح".

وأطلق بعض المحللين على ما يدور من معارك وقصف وحصار معركة الضمانات، ولكن الحقيقة لم تكن كذلك، على الأقل حتى الأسبوع الأخير من القتال. كانت معركة طحن "حبة القمح" التي كان الخوف أن تثمر سنابل. وقد دارت المعارك حول بيروت تماما بطريقة "درس" القمح بالطريقة القديمة التي تدور فيها الدراسة دوائر تضيق كل مرة وتضرب حزم القمح لتقشير حبها قبل طحنه.

القضم والتقشير، خطة الاستيلاء على بيروت. وبقدر ما كان كسب الوقت وإطالة أمد معركة بيروت مفيدا لتقوية التحصينات وتعود الناس على الأوضاع الجديدة، بقدر ما كان ذلك مضرا على المستوى العربي والعالمي. في البداية كانت فكرة احتلال عاصمة عربية وتدميرها فكرة مرفوضة ولا يمكن تصورها، بعد كل موجة قصف وقضم واحتجاجات ووقف لإطلاق النار كان قطاع من الرأي العام العالمي والعربي يتعود ويستعد لفكرة اقتحام بيروت. يوما بعد يوم تحولت بيروت من اسم لعاصمة عربية إلى مكان يدور على رحاه القتال والمتفرجون يترقبون نتائجه. وتزداد وحدة أهالي بيروت.

توالت أيام الصيام، وتطورت أشكال الحصار وضاقت حلقاته المسكونة. كان من المفروض أن هناك وقفا لإطلاق النار، ولكن القتال مستمر. قصف شديد ومحاولات للقضم، وقصف مضاد ومحاولات للصد. إغلاق الممرات بين بيروت الغربية والشرقية وقطع الكهرباء والماء. ثم فتح أحد الممرات

للخروج فقط وأحيانا للخروج والدخول ولكن للمشاة فقط. وعندما تفتح بوابة من البوابات للدخول بالسيارات تتدفع المئات وربما الآلاف من السيارات تحمل الذين كانوا قد رحلوا من بيروت الغربية. فهم عندما يعرفون أن الطريق مفتوح للمرور يسارعون بالدخول للاطمئنان على مساكنهم وجيرانهم. العودة مضمونة. الخروج من بيروت الغربية مسموح به دائما. ودائما عندما تفتح البوابة للعودة بالسيارات تكون هناك سيارات ملغومة مهربة إلى بيروت الغربية. عندما كان القصف يتوقف تبدأ السيارات المتفجرة. ومعظمها موقت للانفجار عند اقتراب الغروب قبل الإفطار. وأحيانا تكون السيارات المفخخة مزدوجة كسيارة الفنادق التي كانت تحمل حوالي نصف طن متفجرات والتي راح ضحيتها المئات من بينهم آخر أسرة يهودية تسكن حي وادي أبو جميل الذي كان حي اليهود في بيروت. بعد انفجار هذه السيارة الضخمة بحوالي ساعة وبينما كانت سيارات الدفاع المدني وشبابه مشغولين برفع الجرحى والقتلى، والناس من حولهم باحثين وسائلين ومتطوعين، انفجرت سيارة أخرى، بشحنة أقل ولكنها أيضا ذهبت بالعشرات. كان انفجار السيارات أشد وقعا على معنويات الناس من القصف وغارات الطيران. فهذه لا يمكن حسابها أبدا، كما أنها تكشف عن تسيب لا يزال مستمرا برغم الحرب وتذكر بأيام سوداء سابقة على الغزو لم يكن يمر أسبوع دون أن تشهد بيروت كارثة سيارة متفجرة تودي بالعشرات. أطلق البعض على السيارات المتفجرة لعبة الروليت اللبناني. يذكر التاريخ أن الفرسان والنبلاء الروس كانوا في الماضي يضعون رصاصة واحدة في ساقية مسدس ثم يديرونها فلا يعرف أحد في أي ثقب هي، ويضع المتراهن فوهة المسدس على صدغه ويطلق النار. له خمس فرص من ست. أي أنه يعرض نفسه للموت بنسبة ١٧% تقريبا وهي نسبة عالية في الرهان على الحياة. ثم عرف جنوب لبنان لعبة الروليت الفلسطيني وهي تعني التحرك على الطرق التي يقصفها الإسرائيليون بين الحين والآخر دون إنذار، وأنت وحظك. الروليت اللبناني كان أبشع من الاثنين. سيارات مدنية مليئة بالمتفجرات وموقوتة أو متحكم فيها عن بعد، تنفجر في أوقات الزحام وتودي بحياة العشرات وتصيب المئات. كل انفجار معناه جولة جديدة فيما تبقى من المدينة للاطمئنان على المعارف والأصدقاء الذين ربما كانوا من الضحايا،

والطواف على المستشفيات للسؤال عن المفقودين وزيارة المصابين، ثم ظهور حواجز اللجنة الأمنية العليا من جديد لفحص هويات راكبي السيارات، وكانوا جميعا بالطبع يحملون هويات تثبت عضويتهم في منظمات فلسطينية أو وطنية إذ من يجرؤ على التحرك ليلا في بيروت المظلمة بدون أوراق كهذه وما أسهل الحصول عليها.

ولاحظ الناس أنه منذ غارات أول رمضان لم يعُد الطيران يقصف وإنما يطير على ارتفاعات منخفضة ويخترق حاجز الصوت ويلقي بالمنشورات نهارا وبالقنابل المضيئة ليلا، مع ازدياد كثافة القصف من البر والبحر. وظن الناس أن هناك ضغطا ما أدى إلى عدم استعمال الطيران في القصف وتفاءلوا وتراجعت مجتمعات الملاجئ تحت الأرض التي كان قصف الطيران قد أوجدها وترتبت حياة المقيمين فيها، وانتقلت الحياة في ظل القصف المدفعي إلى الطوابق الدنيا أو درج البنايات حيث ينتشر سكان البناية على الدرج من أسفل إلى أعلى حسب شدة القصف، كلما ازداد حدة ازداد السكان تدافعا إلى أسفل. بقي البعض على ثقتهم في الملاجئ تحت الأرض وعدم اطمئنانهم لأمن درج البنايات. أتاح ذلك فرصا أكبر للأقل خوفا وانتشر لعب الشطرنج وسماع أجهزة الراديو بين الطوابق، ومن شاء لقاء خاصا يصعد أكثر إلى أعلى. كانت مشاهدة مصادر القصف ومنظر القذائف عندما تنفجر – وهو مشهد مثير يشبه الألعاب النارية في الليل ولكن على الأرض مباشرة – فرصة للتعارف والقفز على الحواجز. من المبرر جدا أن تلقى الفتاة بنفسها في أحضان الشاب الواقف بجوارها لأنها خائفة من القصف كما كان من المبرر التعثر في الظلام وتبادل الهمس خشية أن يسمع الأعداء والشد على الأيدي والأكتاف ثم التواعد خارج البناية.

كل شيء كان يسمح للشباب بالتلاقي. الظلام في الشوارع، والآباء في الملاجئ، والبحث عن الخبز يتطلب ساعات، وإحضار مياه عذبة من بعيد يتطلب معونة الصديق والجار، وتداول الأخبار أو السؤال عنها يسمح بالكلام بدون سابق تعارف، واللجوء المفاجئ إلى مدخل بناية ينتهي بتعارف ولقاءات. وبحجة الأمان كان الشاب الواقف مع صديقته بجوار شجرة أو حتى مدخل بناية في الظلام يصيح عندما يرى سيارة قادمة بأضوائها. "طفي

الضـــو". معـــه حق. الإسرائيليون يراقبون بيروت الغربية من فوق البنايات العالـــية في بيروت الشرقية، يجب السير بالأضواء الخافتة. في الظلام جاء صـــوت الشـــاب "أنت ما تنفعيش غير في الكلام" وردت الفتاة بحدة "أنا ما انفعش غير في الكلام طيب ياللا نتجوز دلوقت".. قال الشاب بصوت مندهش "حد يتجوز في الحرب". وردت الفتاة بحماس شديد "هي الحرب اللي يلزمها جواز".

وساد الصمت إلا من وقع الأقدام التي اقتربت منهما ثم عبرتهما بهدوء. الحرب توجب الزواج وبسرعة. عدد غير قليل تزوج أثناء الحرب. رغبة في تســجيل العلاقـــة التي ربما ظلت غير معلنة شهورا أو سنوات أو خوفا من المســتقبل المجهول والموت العجول الذي قد يخطف أبا لجنين قبل أن يترك ورقة تثبت للناس أنه والده، أو خشية حساب الملكين في لحظة قد تكون بعد خطـــوة، أو حصولا على ما يسمح بالبكاء علنا على الحبيب الشهيد، أو كل ذلك معا في ليل يضيئه بدر شهر رمضان والقنابل المضيئة في السماء ووهج الحرائق في أفق بيروت الجنوبي.

كان الشبان أكثر قوة واندفاعا والشابات أكثر تفتحا وجمالا. في بيروت يتفتح جمال الصبايا الصغار بعد انتهاء الدراسة في الصيف وعند ابتدائها في الخـــريف. التلميذات يخلعن ملابس المدارس بعد انتهاء الامتحانات ويرتدين ملابـــس الصيف التي يحرصن على أن تكون كاشفة لأنوثتهن المبكرة، وفي الخـــريف يـــتم تفصيل ملابس المدارس على المقاسات الجديدة للأجساد التي كـــبرت في الصيف وحملت معها ذكرياته. الغزو والحصار فتحا الباب أمام تغيـــير الملابـــس القديمة الصغيرة. ضاعت في البيت المتهدم أو المهجور. وعـــند شراء ملابس جديدة تتعجل الفتيات الزمن ويزدن من أعمارهن لكي يمكن ارتداء ما يرتديه الكبار، ثم التصرف مثلهم.

أغلقـــت محـــال الـــزهور أبوابها لعدم وجود الصنف. وانتشرت أكوام القمامـــة، ولم يخلُ شارع من أنقاض متناثرة، وغطى غبار الانفجارات كل المديـــنة، ولكـــن الصبايا حرصن على تلوين شوارع بيروت بألوان الربيع

بملابسهن، وعلى ملء الأسماع بالضحكات الصافية التي لم تحشرجها بعد السجائر والنراجيل، وكن وأصحابهن يتكلمون كلاما كبيرا بأصوات لم تكبر بعد. وعندما يتشدد الكبار معهم يتعللون ويتحججون للإفلات، أو يغيظونهم قليلا بالضحك على خوفهم من أصوات القصف فيفضل الكبار خروجهم محافظة على الهيبة أمام الصغار، وإطلاقا للذكريات القديمة على اللسان.

* *
*

لم يعُد أحد في بيروت الغربية يذكر بدقة رقم "اتفاق وقف إطلاق النار".

الإذاعات والصحف ووكالات الأنباء هي التي تعد الاتفاقات، أما سكان بيروت الغربية فقد كانوا ينتظرونه فقط. يبدأ القصف، لا أحد يهتم بما يقال عن مسئولية خرق وقف إطلاق النار وما إذا كانت هي قوات الغزو أو قوات المقاومة، المهم أين القصف، وما هي خسائره، وإلى أين وصلت قوات الغزو. علق صحفي أجنبي على هذه الجولات من القتال عندما ادعى ريجان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أن الجانب الفلسطيني أحيانا خرق وقف إطلاق النار قائلا، إن قانون التوراة يقول عين بعين وسن بسن، ولكن من الواضح أن قانون ريجان وبيجن هو عين بألف، وسن بمئة ألف.

كان القصف المركز يتوقف ساعات أو يوما ليعود أكثر شدة وكثافة. أمكن ملاحظة ارتباط القصف بجانب من النشاطات السياسية. كلما حققت منظمة التحرير الفلسطينية كسبا سياسيا أو إعلاميا، أو حصلت على تعاطف قوة دولية ما يكون الرد الإسرائيلي قصفا مركزا وشديدا على بيروت الغربية.

في ٢ يوليو/ تموز قابل أبو عمار الصحفي الإسرائيلي يوري أفنيري، وقصفت قوات الغزو بيروت الغربية. في نفس اليوم أصدر ثلاث من

الشخصــيات اليهودية العالمية هم ناحوم جولدمان وفيليب كلوتزنك ومنديس فرانس بيانا تضمن تأييدا لحقوق الشعب الفلسطيني، وازداد القصف حدة. في الثالــث مــن الشــهر نفسه ظهرت المبادرة الفرنسية المصرية التي تتضمن إقرارا بالحقوق الفلسطينية وقصفت قوات الغزو المنطقة الجنوبية من بيروت الغربية. في السابع والثامن من نفس الشهر صرح كرايسكي مستشار النمسا، وماريو سواريز الزعيم الإسباني الاشتراكي مؤيدين لحقوق الفلسطينيين، وفي اليوم التاسع أقر المؤتمر اليهودي العالمي "إحقاق الحقوق المشروعة للشعب الفلســطيني" وقدمت قيادة المقاومة مشروعها الخاص لرئيس الوزراء، وكان الــرد قصفا مركزا وشديدا على كل بيروت الغربية استمر حتى التاسعة من مساء يوم ١١ وقالت الصحف ووكالات الأنباء والإذاعات والمراقبون إن هذا هو وقف إطلاق النار السادس منذ بدء الغزو.

تذكــر الــناس ٥٤ اتفاقا لوقف إطلاق النار خلال الحرب اللبنانية في عامــي ١٩٧٦/٧٥ تمت كلها تقريبا بمبادرة من القيادة الفلسطينية، وخرقت كلهــا تقريبا من جانب الكتائب إلا مرات قليلة خرقتها بعض القوى بالتنسيق مع الشقيقة سورية. ولكن وقف إطلاق النار هذه المرة يختلف. فأول اتفاق تم عــندما كانــت قوات الغزو لم تدخل صيدا بعد، أما هذا الاتفاق السادس فقد أعلــن وقــوات الغزو داخل المنطقة الجنوبية من بيروت أو على أطرافها. أطلق ديلون السفير الأمريكي على هذه العملية اسما جديدا في العلوم السياسية "وقف إطلاق نار متدحرج" Rolling Ceasefire ففي كل مرة كانت قوات الغزو تخــرق وقــف إطلاق النار، كانت تحاول التقدم. مرة بحجة أن "الفلسطينيين بــدءوا بخــرق وقــف إطلاق النار" وأخرى بحجة "تجميل" الخطوط. ولكن تجمــيل الخطوط هذا كان يعني تشوية ما تبقى من بيروت وتغيير معالمها. أصبح من المطلوب ملاحقة التغييرات التي تتم في معالم الشوارع والبيوت. بعد توقف القصف يندفع الناس كالعادة نحو "المربع" وبالذات منطقة الفاكهاني والجامعــة العربــية والكولا ليكتشفوا تغيير معالمها عن اليوم السابق. وإلى جانــب الــناس كان العشرات من المصورين الصحفيين ورجال التليفزيون يســارعون بالذهاب لتصوير الخرائب والحرائق التي لا تزال مشتعلة. كذلك

كان يفعل "عاصف" وأطلق البعض عليه اسم الذاكرة المتدحرجة Rolling Memory بالأمس كان هنا بناية. اليوم البناية أصبحت أنقاضا. بالأمس كان هنا شارع واليوم مجموعة من الحفر وأكوام من الحجارة. والتقطت العدسات صورة حبال الغسيل المنشور في بنايات كانت للمهجرين على أطراف حي الرملة البيضاء وفي قلب أحياء الفاكهاني والطريق الجديدة. ترك السكان كل ملابسهم فيما يبدو ولم يعودوا لأخذها. الأغلب أنهم رحلوا أو قتلوا أو لم يتمكنوا من العودة خوفا من القصف المفاجئ. وراجت تجارة الملابس الجديدة والمستعملة.

في اليوم الحادي عشر من شهر يوليو/ تموز توقف القصف الساعة التاسعة مساء ولم يكن من الممكن للناس أن يتحركوا لرؤية آثار الدمار الجديدة، ليس فقط بسبب الظلام وإنما أيضا لأنه في ذلك الوقت كانت المباراة النهائية للحصول على كأس العالم في كرة القدم بين فريقي إيطاليا وألمانيا تذاع على شاشة التليفزيون اللبناني. كثيرون التجئوا إلى البنايات أو الفنادق التي لديها مولدات كهرباء ليشاهدوا المباراة. زوار الجرحى في مستشفى الجامعة الأمريكية اختاروا هذا الوقت للقيام بزيارتهم والتمتع بمشاهدة المباراة. البعض أتى ببطاريات السيارات لتشغيل أجهزة التليفزيون.. بدأت المباراة ولم يكن القصف قد توقف بعد. كان الناس قد تعلموا أنه في الساعة الأخيرة قبل وقف إطلاق النار المعلن والمتفق عليه يشتد القصف من الجانبين كأنه الدقائق الأخيرة من سباق. وقد توقف القصف فعلا دون أن يحس بذلك كثيرون ممن استغرقتهم تفاصيل المباراة النهائية. بل كان في الإمكان سماع أصوات التهليل "للعبة الحلوة" أو لتسجيل هدف. كالعادة كان هناك من راهن على هذا الفريق أو ذاك، وعندما انتهت المباراة بفوز إيطاليا اعتبر المتفائلون ذلك فألا طيبا، "برضة إيطاليا من البحر الأبيض" "مواقفها معانا أفضل من ألمانيا".

فيما بعد عندما أعلن اتحاد الكرة الإيطالي منح كأس العالم لمدة أسبوع لمقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية تقديرا لصمودهم وبطولتهم قال الذين راهنوا على إيطاليا: "شفتم".

النهار التالي شهد حركة شديدة دلت على ارتفاع في المعنويات والتفاؤل. قدمت قيادة المقاومة مشروعها الذي يتضمن الموافقة على الخروج من بيروت، لم يناقش الناس تفاصيل المشروع ولكنهم تبادلوا الأنباء المؤكدة عن قرب انتهاء المحنة، وتخلل الأحاديث تعليقات عن مباراة الأمس، وأخبار عن أن التليفزيون اللبناني سيعيد بثها لمن لم يتمكن من رؤيتها. حتى أبو خالد الرايق تكلم عن المباراة. لم يرَها ولكنه سمع كما يسمع الناس عن أخبارها. كان مهتما بالحصول على علبة حليب مجفف لجرو صغير عثر عليه. "فين لقيته يا بو خالد؟" "والله في الشارع".. "ده رضيع".. "بكره يكبر".. "ناوي تسميه؟".. "سميته بيجن".. "بيجن! مش معقول".. "غلط؟".. "مش فكرة غلط.. أنت ح ترضعه مش هيك؟".. "صحيح".. "وح تتعود عليه".. "صحيح" "طيب".. فكر أبو خالد في المشكلة وقال "شو أسميه؟".. توالت تعليقات الواقفين "سميه صاروخ".. "لا سميه مدفع".. "لا.. سميه.. بندق".. وضحك الجميع وتركوا أبو خالد الرايق مع كلبه الصغير الذي سيؤنس وحدته خلف الساتر الرملي العالي على باب مركز التخطيط.

كانت بنايات الشارع قد حصلت على نصيبها من القذائف ولكنها لا تزال واقفة، ولوحظ أن الحرائق التي شبت في الطوابق العليا توقفت من تلقاء نفسها.

لم يكن في إمكان سيارات الإطفاء العمل. ظلت تحترق طوال الليل. الحمد لله لم ينتشر الحريق إلى الطوابق الأخرى.. بعض الطوابق العليا اخترقتها القذائف، وأحدها وكان شقة سكنية كنسته الصواريخ. وبقيت أشياء صغيرة معلقة على الجدران أو على حافة الأسقف المنهارة. كرسي، لعبة أطفال، كنبة، فرن بوتاجاز، خزانة.. إلخ. كان المشهد كأنه ديكور مشاهد تصوير سينمائي حيث الغرف لها ثلاثة جدران فقط وبلا سقف. بعض التجار كان يخلي ما بقي في محاله من بضائع، وبعض السكان كان يحاول إعادة تثبيت أبواب الشقق بالخشب لتظل مغلقة بعد أن انفتحت أبوابها من شدة الانفجار، تردد أن هناك سرقات. نفى الشباب المتوزعون في الحي أن يكون ذلك قد حدث. أكد بعض الزائرين حدوث سرقات ولكن انتقائية. آلات إلكترونية حديثة، مسجلات، تليفزيونات ملونة، أجهزة فيديو، أجهزة راديو

صـــغيرة، التعلـــيق دائمـــا "الحمد لله على سلامتكم، شقق بحالها راحت في الحـــريق والقصف، كله يتعوض".. والرد دائما "الله يسلمكم، المهم مش قيمة الحاجة، المهم أنه مش معقول في ظروف مثل ظروفنا ناس تسرق من غير مـــا تتمسك". شددت القيادة من تعليماتها بضرورة ضبط حالة الأمن وتوقيع أقصـــى العقـــاب علـــى السارقين. الإعدام عقوبة من يضبط متلبسا، والأمر مفـــوض لقادة المواقع دون الرجوع للقيادة العليا. كانت حالة الأمن من هموم الحصـــار. قلـــت إلى درجة غير متوقعة حوادث التسيب الأمني. وربما لأن الجميع معرض للموت ولم يعُد للمسروق قيمة، كذلك لأن الناس جميعا كانوا مســـلحين وعلى درجة من "الإيجابية" في مواجهة الغزو تجعلهم لا يسكتون كمـــا كـــانوا يفعلـــون فـــي الماضي إيثارا للسلامة عندما يشاهدون مسلحين يسرقون أو يعتدون. ومع ذلك كانت هناك حوادث أمنية خطرة بالإضافة إلى الســـيارات المـــتفجرة التي كان من المؤكد أن العدو يرسل بها عبر المنطقة الشرقية كلما توقف القصف.

أقل الحوادث الأمنية تأثيرا على المعنويات كانت حوادث المرور. أدى نقـــص البنزيـــن وضيق الرقعة المسكونة، وخلو أحياء كاملة من سكانها إلى اخـــتلال أنظمة المرور. لم يعُد هناك طريق ذو اتجاه واحد مع قيام السواتر الترابـــية علـــى الطـــرق الرئيسية، ولا حدود للسرعة مع القصف المتفرق العشوائي. إذا حدث وتصادمت سيارتان دون أن يصَب أحد، وقبل أن يشتبك ركاب السيارتين يتدخل الواقفون "الحمد لله على السلامة يا إخوان، حديد في حديـــد، الحمـــد لله مافـــيش حـــد انصاب، كله حديد في حديد، على إيه مين غلطـــان.. الصندوق واحد"، والمقصود أن الذي سيدفع تكاليف الإصلاح هو قطعا الصندوق المالي لمنظمة التحرير الفلسطينية، حتى ولو كانت السيارتان مدنيتيـــن، أي تابعتيـــن لمدنييـــن غير منظمين. بعض حوادث المرور أدى لخسائر بشرية، قتلى وجرحى. وأصبح مألوفا أن يصبح الصبح ليشاهد الناس بقايـــا سيارتين متحطمتين من شدة التصادم وآثار الدماء من حولهما ورافعة إحدى التنظيمات تقوم بسحبهما إلى جانب الطريق.

تلك الحوادث كانت تترك أثرا خفيفا من الانتقادات والاعتراضات على ألســـنة الناس ولكنها تمر. أما حوادث محاولات الاغتصاب رغم أنها كانت

قلــيلة جدا بل نادرة بالنسبة للظروف التي كانت تمر بها بيروت المحاصرة فإنهــا كانــت تــترك آثارها بشدة في نفوس الناس. تتوالى التعليقات المرة، وتذكير بأيام سابقة على الغزو كان الناس فيها يخشون التحرك في الشوارع لــيلا خوفــا علــى أنفسهم ونسائهم وبناتهم من سيارات المسلحين المترنحة بالســكر. كــان البعض يعتقد منذ زمن بعيد أن مرتكبي هذه الحوادث ليسوا مجــرد منحرفيــن أو مجرمين مرضى تسللوا إلى صفوف المنظمات. كان مــنطقهم يقول إن من يفعل ذلك لابد مرتبط بأجهزة مخابرات تقصد الإساءة إلى سمعة المقاومة وإلى سمعة البندقية، في الماضي كان هذا المنطق لا يزيد عــن كونه رأيا للبعض، ولكنه اكتسب في الحصار قوة تنفيذية. الإعدام فورا لكــل من يحاول المس بأي فتاة أو امرأة. ولم تسجل الذاكرة أي أحداث من هذا النوع.

ولكــن الحادثة التي هزت قطاعا هاما من سكان بيروت الغربية، كانت اغتــيال ريما فارس وكريم مجدلاني. والأولى سيدة مسيحية في مقتبل العمر وزوجــة وموظفــة فــي السفارة الكندية كلها حماس للعمل والحياة. ترفض وأســرتها وأهلهــا التعصب وتتعاطف مع الناس دون التزام تنظيمي محدد. بقيــت أســرتها في بيروت الغربية رغم أهوال الحرب اللبنانية ولكنهم كانوا مطمئنيــن تماما. فرغم كل ما يقال كانت بيروت الغربية الملتفة حول قضية فلسطين القومية منطقة لا تعرف التعصب الطائفي. وساعد الوجود الفلسطيني الكثيف والمسلح على تثبيت هذه العقيدة. والثاني مسيحي من رجال الأعمال، لا يعــرف له نشاط سياسي وإن عرف عنه وعن أسرته تعاطف قومي قديم. فــي لــيلة ســوداء هــدأ القصف قليلا، تحركوا مع مجموعة من الأصدقاء بسيارات ثلاث وذهبوا للاطمئنان على بيت ريما وهناك غيرت ريما وكريم ســيارتهما بسيارة أخرى من أمام البيت لها أو لأهلها وانطلقا مع الأصدقاء لإكمال الجولة. عند منعطف على بعد أمتار تقدمت سيارة ب م دبليو سوداء حــتى حــاذت ســيارة ريما وكريم وأطلقت عليهما الرصاص من مسدس. وأســرعت مختفية. أسرع الأصدقاء للسيارة التي توقفت فوجداهما قد فارقا الحــياة. كــان الحادث من الغموض بحيث أثار تكهنات عدة. من المقصود: ريمــا أم كريم؟ وما المقصود؟ تهجير المسيحيين عن المنطقة الغربية؟ إخافة

المسـيحيين الباقين فيها؟ لقد قصفت إسرائيل كنائس عدة في المنطقة الغربية بحجـة أن بهـا مسـلحين، وكان يسكنها بالفعل لاجئون من مختلف الأديان والجنسـيات، هـل كان الاغتيال إنذارا من أجهزة أمريكية أو إسرائيلية أو كتائبية للسفارة الكندية التي رفض سفيرها الانتقال من بيروت الغربية، وبقي هو وسفارته كما بقي السفير اليوناني وسفارته بينما بقي السفير الفرنسي في بيـته ورحلـت سفارته؟ هل كان هذا الاغتيال ردا على ما نجح فيه السفير الكـندي عـندما أدخـل إلى المنطقة الغربية بضعة آلاف من ليترات وقود المحـركات وزعهـا علـى المستشفيات والمخابز لدعم صمودها في وجه الحصار؟ لا أحد يعرف حتى الآن، ولكن تأثير الواقعة نفسها كان مخيفا، لقد هرب القتلة دون أن يتمكن أحد من إيقافهم. صحيح أن المنطقة ساحلية وشبه مهجـورة، ولكن الناس تتوقع أن كل ما بقي من المدينة هو تحت السيطرة المحكمة. لم يعُد أحد آمنا إذن. وعلى من يتحرك في الليل أن يتحرك ضمن مجموعة وأن يكون مسلحا وحذرا أيضا. ومع جثمان الفقيدين رحل عدد من أقاربهما إلى المنطقة الشرقية، وكان من الممكن أن يؤدي ذلك إلى فزع بقية المسـيحيين فـي بيروت الغربية لولا استمرار بعضهم في العمل الاجتماعي النشط الذي كان يقوم به خدمة للناس وطمأنة لمن خاف. كانوا مجموعة من الشباب العلمانيين ورجال الدين جمعوا حولهم من رغب في "عمل شيء ما". لا يمكن ذكر أسمائهم ولا يمكن نسيان ما فعلوه. كان موقعهم من جزر تجمع الأصدقاء والمعارف، وتوزيع المعونات على العائلات المحتاجة. ومن ساحة مبناهم انطلق حل الناس لمشكلة نقص الوقود وانقطاع الكهرباء ومن ثم نقص الخبز.

تقدمـت الجـارة الجديـدة القادمة من المنطقة الجنوبية من بيروت إلى أحدهـم وطلبت خبزا. اعتذر لعدم وجود وقود لتشغيل الفرن.. قالت أعطني طحيـنا. أعطاهـا طحينا. بعد ساعة شم رائحة نار تشتعل، أطل من نافذته فوجـد المـرأة قد أقامت فرنها الخاص. صفحة من الصاج المقوس مرفوعة علـى أحجـار وتحتها نار الخشب والحطب وحوض العجين بجوارها، ترق الخبز حتى يصبح في مساحة الصاج ثم تضعه عليه وتقلبه ليصبح رقاقا لذيذ المـذاق. رفعـت المرأة رأسها فرأته، أرسلت ابنها بثلاثة أرغفة من صنعها

متمنية له غداء طيبا. بسرعة انتقلت الخبرة. وانتشرت الأفران الفردية والبسيطة في الشوارع والحدائق ومداخل البنايات. وطور أحدهم الفكرة إلى فرن أكبر. جاء ببرميل وفتحه من الناحيتين وقسمه بصفائح الصاج ووضعه على الأرض، النار من تحت والخبز من فوق. ربما لم يكن الخبز مستديرا كخبز الصاج الأصلي، ولكنه على أي حال خبز يكفي العيال. والوقود في هذه الحالة متوفر توفر القمامة على زوايا الشوارع.

بدأت مشكلات الحياة مع ابتداء الغزو. وتضاعفت عندما أعلنت قوات الغزو بكل تبجح أنها قطعت المياه والكهرباء عن بيروت الغربية، ومنعت دخول قوافل التموين إليها. وأصبح مطلب السماح بمرور الغذاء والماء والكهرباء قضية دولية (!!) يتدخل فيها ريجان ورؤساء الدول ويجتمع لها مجلس الأمن وتصدر بشأنها التصريحات فلا تهتم إسرائيل بل تحكم الحصار أكثر فأكثر وتساعدها حواجز الكتائب التي تتشفى بمصادرة المأكولات التي يحملها القادمون من المنطقة الشرقية على أقدامهم لزيارة بيوتهم وأهلهم ومعارفهم. تعود الناس الحياة بدون كهرباء، استعملوا الشموع وراجت تجارة مصابيح الغاز الصغيرة. والقادرون والمنظمات والفنادق الكبيرة اشتروا مولدات كهرباء، التموين الطازج (الخضروات واللحوم) كان مشكلة فعلية تغلب عليها الناس "بالتهريب". اتضح أنه في الإمكان رشوة الجنود والضباط الإسرائيليين بمبالغ صغيرة، خمسين دولارا أمريكيا، أو مئة دولار أو قطعة حشيش، مقابل مرور قوافل سيارات الشحن الصغيرة المحملة بالفاكهة والخضروات وجالونات البنزين. لم يمنع ذلك ارتفاع أسعار هذه السلع. بلغ ثمن الكيلو من فاكهة الكرز عشرين ليرة لبنانية (٤ جنيهات مصرية)، كذلك كان ثمن كيلو العنب، أسعار البنزين بلغت أرقاما خيالية ٥٠٠ ل. ل (مئة جنيه مصري) للصفيحة (٢٠ لترا). محل جزارة تمكن من تهريب الخراف وذبحها في الشارع بعد ذلك. وقفز سعر كيلو اللحم أربعة أضعاف ليصل إلى ٨٠ ليرة لبنانية (ستة عشر جنيها مصريا). بقية مواد التموين كانت متوفرة. أمرت قيادة المقاومة بتوزيعها على الناس، وافتتحت لذلك مراكز عدة، أرز وعدس، وحبوب، ومعلبات وسكر وشاي وصابون إلى آخر القائمة. ومن حيث كانت قوات الغزو تقصد إرهاق معنويات الناس بالقصف المتقطع

والمتبادل مع فترات قصيرة من وقف إطلاق النار. أدى ذلك إلى إتاحة الوقت الكافي لأسر كثيرة لتخزين بعض المواد الضرورية لمواجهة أي حصار. بل أن عائلات كثيرة في بيروت كانت عند ابتداء الغزو مستعدة لاحتمال اختفاء المواد التموينية في حالة اندلاع القتال، ومن حسن الحظ أن الغزو بدأ بعد أن كان الموظفون والعمال والمسلحون قد قبضوا رواتبهم واشتروا ما تحتاجه بيوتهم. حافظت العائلات على ما لديها كاحتياطي وكانت تشتري ما تحتاجه ليومها طالما توفر ذلك في السوق. عمليا لم يحدث نقص في أي مادة غذائية إلا الخبز الذي اضطرت اللجان المنظمة لتوزيعه إلى تخفيض نصيب الأسرة منه إلى ثلاثة أرغفة في اليوم. لم تكن المشكلة هي نقص الطحين بعد أن أمرت القيادة الفلسطينية بتوفير متطلبات الناس من الاحتياطي لديها، وإنما كانت المشكلة هي نقص الوقود بالنسبة للمخابز ونقص المياه بالنسبة للعجين. وفي بعض الأحيان، إذا توفر الوقود والماء، تكون المشكلة هي استحالة توزيع الخبز في ظل القصف المكثف العشوائي على كل مناطق بيروت بحيث يصبح الوقوف في طابور الخبز مغامرة بالحياة. سكان المخيمات والأحياء الشعبية الذين لجئوا إلى قلب المدينة وحي الحمرا كان في إمكانهم حل المشكلة بالأفران التي أقاموها على عجل داخل البنايات، بقيت آلاف العائلات التي تسكن شقق البنايات والتي لا تملك خبرة العجين والخبيز. الكبار يمكنهم تحمل عدم وجود خبز والعيش أياما على المكرونة والأرز. الصغار يفرحون بالفطائر يوما أو يومين ولكنهم يطلبون الخبز والساندوتش. أحيانا، كانت أزمة الخبز تستمر أياما وتشهد شوارع بيروت خبزا مهربا من المنطقة الشرقية، وزحاما على الأفران القليلة التي لا تزال تعمل. في بعض الأحيان يسمع الناس إطلاق رصاص مفاجئ، ثم يتبين أن المشكلة هي خلاف على أسبقية الحصول على خبز من مخبز. الكل يريد الحصول على الخبز والعودة إلى بيته قبل عودة القصف. لم يعُد طلب الخبز في الشوارع تسولا، بل أمرا حياتيا. المرأة الخمسينية التي ترتدي ملابس تشير إلى مكانة اجتماعية ميسورة، قالت ووجهها يحمل كل علامات الضيق "الله يخليلك ولادك، رغيفين بس للأولاد". أغلب الظن أنها لا تعرف غير هذا الدعاء. لم تتعود والمؤكد أنها لا تعرف طريقا لمخبز. لم يحدث من قبل أن نزلت إلى الشارع لهذا الغرض. مشكلة الخبز كانت تقلق القيادات، تجول أبو

عمار في الأحياء وفاجأ مخبزا يعمل للمقاتلين. شاهد طوابير النساء والأطفال واقفــة بجوار المخبز تنتظر انتهاء تحميل سيارة عسكرية بالخبز لتذهب به إلى المواقع الأمامية. أمر بإرجاء تسليم الخبز للمقاتلين حتى يتم توزيع الخبز على السكان المدنيين.. الناس أولا، نحن نتحمل، وتراجعت السيارة العسكرية وبـدأ توزيع ما بها من خبز على طابور الواقفين، وهلل الناس ودعوا لأبو عمـار بالنصـر والحمايـة. وترددت في كل بيروت كلماته "الناس الأول" أصـبحت هـي العبارة السحرية التي تهاجم بها العجوز أي مخبز أو موقع طالبة خبزا. وتقول أبو عمار قال "الناس الأول".

ويومهـا حصـل شيخ كان في الطابور على ثلاثة أرغفة حملها ومشى عـدة خطـوات ثم توقف. كان برفقته طفلان. قطع رغيفا ووزعه عليهما، ومضى الثلاثة يأكلون الخبز ساخنا بدون غموس في الطريق العام.

* *
*

صمد وقف إطلاق النار السادس حتى يوم العيد. الاشتباكات المحدودة وطلقات الإنارة وطلعات الاستطلاع الجوي والسيارات المتفجرة مستمرة. شعر البعض بالملل خصوصا أولئك الذين كانوا يتابعون السياسة. تصريحات، نداءات، مؤتمرات، اجتماعات، اتصالات، وعود، استنكارات، إدانات، وإشاعات. اختفت أسماء وبرزت أسماء. حفظ الناس اسم فيليب حبيب، شارون وبيجن وإيتان معروفون من قبل، لمع اسم شفيق الوزان رئيس الوزراء، وعاد اسم صائب سلام زعيم مسلمي بيروت السنة يحتل مانشتات الصحف ومقدمات الأخبار. لم يبقَ في صف الأسماء الأولى من الذين شغلوا حياة لبنان السياسية سنوات الحرب السابقة إلا وليد جنبلاط ونبيه بري. لم يعُد أحد يعرف ما إذا كان السفير سوالداتوف، صاحب المقابلات شبه اليومية مع أبو عمار قبل الحرب، موجودا في بيروت أم رحل. حتى رئيس الجمهورية إلياس سركيس الذي كان يظهر يوميا على شاشة التليفزيون اللبناني جالسا في نفس المقعد، وربما مرتديا نفس الملابس أثناء مقابلة فيليب حبيب له ولفؤاد بطرس وزير الخارجية بحضور رئيس الوزراء شفيق الوزان، حتى هو نسيه الناس. كان يظهر كما هو دائما محطوطا على كرسيه مشبكا يديه ونظراته لا معنى لها لا هو واجم ولا هو مبتسم.

هواة الإحصاء أحصوا بيانا سوفياتيا شديد اللهجة كل سبعة أيام. يعقبها دائما قصف شديد ومركز على بيروت الغربية يشمل السفارة السوفياتية والمنطقة المحيطة بها. ترددت نكتة أن رجلا كان لديه مجموعة من الدجاجات وديك، وعندما تقدم الديك في السن أتى الرجل بديك جديد شاب. بدأ الديك الجديد ممارسة حقوقه على الدجاجات. كان نشطا وصياحا في الوقت نفسه كأنه يغيظ الديك القديم. فجأة بدأ الديك القديم يصيح. جاء صاحبهم وسأله: فهمنا لماذا يصيح الديك الشاب ولكن لِماذا تصيح أنت؟ فأجاب الديك القديم.. حتى لا يظنني دجاجة.

مقابل تراجع أسهم السوفيات علت أسهم فرنسا وميتران خصوصا بعد أن سبه بيجن وطالبه بالاعتذار عن تشبيهه لما يحدث ببيروت بما حدث من قبل في قرية فرنسية على أيدي النازيين. وقصفت قوات الغزو قصر الصنوبر وهو مسكن السفير الفرنسي الواقع على المدخل الجنوبي الشرقي لبيروت الغربية.

وعادت أخبار الاتصالات مع الحكومة المصرية إلى الصحف والإذاعات. لم يعترض أحد إلا من قبيل تسجيل المواقف الشكلية. الاتصالات بالمملكة السعودية كانت يومية، وتابع الناس اتصالات الملك فهد وتحركات سعود الفيصل وزير الخارجية. عندما فشل تحرك رئيسي اليمنين من أجل عقد مؤتمر قمة عربي كان تعليق الناس "حدا بيسمع للفقرا؟". وعندما أعلنت الحكومة السورية أنها لن تقبل انتقال الفدائيين إلى سورية، تعجب الناس قائلين "أين يذهبون إذن؟" "كلوهم لحم ورموهم عظم".. "يا عمي يخافوا منهم". الشعور بالمرارة ازداد عندما عرضت دولة غير عربية استضافة المقاتلين وتسهيل انتقالهم كانت اليونان أول من أعلن استعدادها لذلك. فيما بعد أعلنت إندونيسيا عن استعدادها إعطاء الفلسطينيين جزيرة من جزرها الـ١٣ ألف. "فين إندونيسيا دي يا أخي؟".. "بعيد يامه".. "بعيد كتير؟".. "كتير".. "عند الصين؟".. "تقريبا".. "يا بيّ هذا سفر يومين بالطيارة.. إبني لما راح الصين قعد يومين ع الطريق".. "ولا يهمك يامه.. مش رايحين إندونيسيا".. "أمال فين ح تروحوا يامه؟".

أين يذهب المقاتلون وقياداتهم؟ كانت تلك هي قضية المفاوضات. لم يعُد أحد يتكلم عن البقاء في بيروت. لم يعُد أحد يعترض على الخروج من بيروت، "اختلط الحابل بالنابل ولا عادش لا رافض ولا قابل". كانت مشكلة المفاوضات هي شكل الخروج "كريم ومشرف"، وأسلوب الخروج "بحرا وبرا"، ووجهة الخروج. والأخيرة كانت أشدها إيلاما على نفوس الناس. الأشقاء الذين لم يسارعوا بالنجدة يترددون عند الضيافة أيضا.

كانت أيام "صمود" وقف إطلاق النار فرصة للناس لكي يعيدوا ترتيب أمورهم. كثيرون جاءوا من خارج بيروت الغربية، ودخلوها مشيا على

الأقــدام ليطمئنوا على بيوتهم وأهلهم وأصدقائهم. كثيرون جاءوا من خارج لبنان أيضا مرورا بدمشق وحمص وطرابلس ثم بيروت، أو عن طريق ميناء جونــيه. عشــرات مــن المتطوعين الأجانب للعمل في المجال الاجتماعي والطبــي وصلوا عن طريق ميناء جونيه. ازدحم فندق ماي فلاور بالأجانب المتطوعيــن وبموظفي هيئات الأمم المتحدة الذين وفدوا إلى بيروت لمحاولة إغاثة مئات الآلاف من اللاجئين، قليلون منهم استطاع الوصول إلى الجنوب وعاد ثانية. لا مكان للإقامة. جميع مراكز وكالة الإغاثة مدمرة، الإسرائيليون يضــايقونهم واحــتمالات بــيروت لا تــزال متفجرة أيضا. بعض الشباب الفلســطيني واللبناني جاء من البلاد العربية وتمكن من الوصول إلى بيروت الغربــية، بعضهم عاد وخرج مع أسرته بعد أن أمن لهم تأشيرات دخول إلى البلد الذي جاء منه.

بــرغم الــتفاؤل الفطري لدى البيروتيين وتوقع الكثيرين أن يحل عيد الفطــر وقــد انتهت المشكلة تماما، إلا أن الجميع كان يتصرف بقناعة دفينة بحتمــية معركة بيروت، ولم يبذر الناس في احتياطي تموينهم رغم رمضان والحصـــار الشديد. تم تغيير المواقع القيادية العملياتية. ودعت بعض البنوك موظفــيها للالتحاق بأعمالهم في بيروت الغربية لمواجهة طلبات السحب من المدخرات. ولمواجهة مشكلة نقص المياه حفر الهلال الأحمر الفلسطيني عدة آبار في شوارع مختلفة.

لم تكن مشكلة المياه مفاجئة لسكان بيروت. بيروت تعاني منذ سنين من نقــص طبيعــي ومصطنع في مياه الشرب. في الصيف لا تستطيع مصادر الدولــة تأميــن المياه الصالحة للشرب كل ساعات اليوم ويجري تقنين المياه حســب الظروف. أحيانا يتم قطع المياه لأسباب غامضة مثل انفجار ماسورة مــياه، أو انهيار جبلي، أو تعطل في محركات الضخ، وكان الناس يفسرون الأمــر بإنه محاولة لتسويق المياه المعدنية التي تعبئها من عيون الجبال عدة شــركات. كانت كل أسرة تحتفظ لديها بالأواني اللازمة لتخزين المياه. وقد تطــور الأمر إلى تركيب خزانات من الصاج في الطوابق الأرضية مزودة بمحركات صغيرة تضخ المياه إلى الشقق العليا. وفي بنايات كثيرة كانت مياه

الشـــرب تصب في خزان كبير في الطابق الأرضي ويتم رفعها إلى السطح بمحـــرك كهربائـــي إلى خزانات أخرى لتتوزع بعدها على البناية. لذا كان انقطـــاع الكهـــرباء يتســـبب في أزمة مياه. بنايات أخرى كانت لها آبارها الخاصـــة التـــي تضـــخ مـــياها بمحرك موجود في قاع البئر ويعمل بوقود السولار. لذا كان نقص الوقود يتسبب في أزمة مياه. فلما جاء الحصار كانت أزمـــة المياه متشعبة. بدأت عندما انفجرت ماسورة كبيرة يوم الغارة الأولى وانقطعت المياه عن قسم كبير من المنطقة الجنوبية ومنطقة الجامعة العربية، ثم انقطعت الكهرباء فلم يعُد من الممكن تشغيل المحركات حتى في المناطق التي يصلها الماء، ثم جاء نقص الوقود فلم يعُد من الممكن الاستفادة من مياه الآبار.

مجهـــول فـــي وكالـــة اليونيسيف بدأ. كان الناس قد تجمعوا في جنينة الصـــنايع. الجنيـــنة بهـــا ماسورة مياه لسقي الزرع. حاول الناس استعمالها ولكـــنها كانت مدفونة في الأرض ذات فتحة على سطحها وكان الماء يختلط بالطيـــن. جاء الرجل وركب على الفتحة ماسورة أخرى بها حنفية. زاد عدد الـــناس، وزاد عدد الذين يأتون إلى الجنينة للحصول على الماء. بدأ الرجل يستعمل إمكانات اليونيسيف واعتماداته المالية في صنع خزانات من الصاج حجـــم كـــل منها متر مكعب. كان كل خزان مزودا بحنفية. ورفع الخزانات علـــى قوالـــب طوب بارتفاع نصف متر عن الأرض ليسمح بوضع الأواني تحت الحنفية لتمتلئ. ثم استأجر "فنطاسا" يملؤه بالماء من حيث يوجد ويفرغه فـــي الخـــزانات للـــناس. بســـرعة انتشرت فكرة الخزانات. تبنتها جمعيات ومنظمات عديدة. وأصبح لكل حي خزاناته. قلت مصادر المياه وعاد الرجل إلـــى العمـــل ثانـــية. كانت حرفة حفر آبار الماء قد ازدهرت في السنوات الأخـــيرة. شـــركات وأفراد استقدموا حفارات محمولة على سيارات وأتقنوا مهـــنة حفر آبار المياه التي كانت تبلغ في عمقها ما بين ثلاثين إلى خمسين مـــترا، تغلـــف بأنابيـــب من الصاج وينزل إلى قاعها محرك مضخة يعمل بالكهـــرباء. وأصـــبحت البـــئر جزءا من بناء أي بناية جديدة. بحث الرجل المجهـــول عـــن أصـــحاب الحفـــارات وتعاقد مع أحدهم وبدأ يحفر. تبعته

المنظمات والجمعيات وحتى بعض سكان البنايات الذين لم يكن لديهم بئر. الجزار الذي هرب قطيعا من الغنم وأقام مذبحا أمام محله حفرا بئرا. لزوم الشغل. ثم انقطعت الكهرباء وتوقف ضخ مياه الآبار. استأجر الرجل مولدا كهربائيا وضعه على سيارة وأخذ يطوف على البنايات لتشغيل محركات الضخ بها. ساعة لكل بناية. طورت المنظمات والجمعيات هذه العملية وأحضرت مولدات كهربائية كبيرة مجرورة يمكنها تزويد أكثر من بناية في نفس الوقت. ولكن المولدات تحتاج إلى وقود. الوقود وفرته قيادة المقاومة، وساهم في توفيره سفراء كندا واليونان وفرنسا الذين أدخلوا فناطيس من السولار بحجة حاجة سفاراتهم له. وتنبهت قوات الغزو ومنعتهم بعد ذلك، بل منعت الصليب الأحمر الدولي من إدخال الوقود للمستشفيات. وكان لابد من التقنين الذاتي سواء في استعمال الوقود أو في استعمال الماء. وانتشرت الأمراض الجدلية نتيجة الزحام وقلة الماء. وسجلت حالات من الحمى التيفودية، والنزلات المعوية، وأصبح مألوفا رؤية طوابير الأطفال الذين يحملون أواني مختلفة الأحجام لملئها بالماء بدءا من الزجاجات الفارغة الكبيرة حتى جالونات البلاستيك. وتفننت الصبايا القادمات من الجنوب في حمل الأواني الكبيرة على الرءوس دون مسكها والسير بها أمام الشباب بصدور ناهدة وبسمة داعية. وراجت تجارة الأواني البلاستيكية وأصبحت من المهربات كما راجت تجارة المولدات الكهربائية والمياه المعبأة التي ظهر منها أنواع لم تكن معروفة ولم يعرف أحد كيف وصلت. والطريف أن نوعا منها كان اسمه "Hossar" أي "حصار". أما أصحاب المزاج في شرب الشاي فقد كان عليهم أن يغامروا بالوصول إلى خطوط التماس حيث لا تزال مياه الشرب الحكومية متوفرة لتعبئة المياه من هناك لكي تستعمل فقط في صنع الشاي، إذ أن مياه الآبار والمياه المعدنية كانت تغير طعمه. كل هذه المعلومات بلغت عيون العدو وآذانه وعند أول موجة قصف كانت مراكز توزيع الماء هدفا للقذائف.

لم يمُت أحد من العطش، ولكن البعض مات من أجل الماء عندما كانت تفاجئهم القذائف وهم في الطوابير في انتظار ملء ما جاءوا به من أوانٍ.

كذلـــك ماتـــت زهـــور كثـــيرة. البيروتـــيون يهوون وضع أصص الزهور "والـــزريعة" في شرفاتهم وعلى أسطح المنازل وداخلها ويتفننون في تنويعها ورعايـــتها. يتـــبادلونها ويـــتهادونها فـــي المناسبات. لم يكن سقي الزهور "والزريعة" سهلا مع نقص الماء، فإن توفر الماء فالصعود إلى الطوابق العليا بحمـــل مـــن المـــاء يكفي، مشقة. سماء زوجة يحيى كانت تحتفظ في بيتها بزريعات تحبها وترعاها، وظلت تحمل لها الماء طوال أيام الحصار وتصعد درجات سبعة طوابق لكي تسقيها وتبلغ الأصدقاء بأخبارها. هذه أينعت وهذه مريضـــة مـــن الغبار، وتلك أزهرت، كذلك كانت هي ويحيى يحملان الماء الصالح للشرب إلى جريح صديق نقل إلى شقة خاصة بعد أن تم وضع ساقه فـــي الجـــبس. وحيـــث تـــتوفر الكهرباء تعـــمل الثلاجات، والشهر هـــو يولـــيو/تمـــوز، الحـــرارة فيـــه لا تحتمل، وأصبحت زجاجة ماء مثلج هدية يحملانها إلـــى الصديق الجريح وإلـــى الأصدقاء الآخرين.

ســـماء ويحـــيى قضـــيا أيـــام الحصار في حركة دائبة بين الأصدقاء والمعارف، وفي رمضان عرفت مائدة إفطارهم، وكانا صائمين، دفء تلاقي الأصحاب.

لم يستطع الحصار أن يهزم شهر رمضان. للبيروتيين تقاليدهم في هذا الشهر. موائد الإفطار حتى للمفطرين، يزداد استهلاك الحلوى، وفي الصيف تتـــنوع المثلجات من الفاكهة إلى الشراب إلى (البوظة) الجيلاتي. صحيح أن المحـــلات التي تقدم هذه الحلويات قلت، ولكن الناس أيضا قل عددهم وكانوا على استعداد للمشي أو الانتقال من حي إلى آخر للحصول على كأس (بوظة) أو كـــوب من العناب، أو زجاجة مياه غازية مثلجة. النقص كان في اللحوم الطازجـــة والخضروات. التهبت أسعارها ولم يكن ما يهرب منها كافيا لكل الـــناس في شهر كشهر رمضان، ومع ذلك أمكن توفير طبق "الفتوش" الذي يتشـــكل مـــن سلاطة خضراء مقطعة تقطيعا صغيرا جدا مع قطع من الخبز الـــيابس. وطالما أن طبق "الفتوش" موجود فإن كل شيء يصبح موجودا فهو مـــثل طبق الفول المدمس في شهر رمضان في مصر. فسر فاروق ذلك بأنه في شهر رمضان يحرص الناس على أن يتشاركوا جميعا في أكلة ما، وهي

في لبنان طبق "الفتوش". وقد كان متوفرا حتى بالنسبة للمجموعات في الخطوط الأولى، ولمجموعات الاستطلاع في أعالي البنايات العالية.

غاب عن بيروت في شهر رمضان إطلاق النار في الهواء في ليلة القدر، كذلك غابت استعراضات فرق الكشافة الإسلامية التي كانت تطوف شوارع بيروت في السنين السابقة، وغابت الزينات التي تنتشر في جميع الشوارع والحواري تحمل أعلاما مختلفة الألوان والأشكال وشبكات الإضاءة الملونة، ثم الاستعدادات للعيد.

اقترب العيد ولم يقترب الحل. لم يتحرك أحد إلا مظاهرة ضخمة في تل أبيب ذكرت الإذاعات أنها ضمت ٨٠ ألفا خرجوا ضد حرب لبنان وهتف بعضهم لمنظمة التحرير الفلسطينية. بعدها شاهد الذين يشاهدون التليفزيون مظاهرة رسمية في دمشق كانت تهتف للرئيس الأسد. ترددت أنباء عن مظاهرات صغيرة في باريس وتونس والمغرب ولكن الحصار ازداد إحكاما.

اشتباكات المنطقة الجنوبية حرمت بيروت من الطرق التي كانت سيارات التهريب تشقها داخل منطقة بساتين تصل إلى طرق الجبل. كانت هذه البساتين وقطع الأرض الزراعية الصغيرة مصدرا من مصادر الخضروات إلى بيروت المحاصرة ومعبرا للكثير من البضائع الأخرى. بدأت السلع الإسرائيلية تصل إلى بيروت الغربية، لم يكلف المهربون أنفسهم مشقة تغيير العلب والصناديق، وصلت إلى الشوارع بكتابتها العبرية. التفاح غمر الأسواق. أمكن للمسنين الفلسطينيين التعرف عليه بدون أن يروا الكتابة العبرية على العلب "من الخليل، هذا تفاح الخليل". ذكر القادمون من الجنوب أن السلع الإسرائيلية تغمر الأسواق. أصدر الشيخ محمد مهدي شمس الدين بيانا يحرم فيه التعامل بهذه السلع. لم يكن هذا البيان الأول. أسعارها أرخص، وتصل على أي حال. وأغمض المتشددون عيونهم ولكن الكثيرين امتنعوا عن الشراء من تلقاء أنفسهم. مجرد رغبة في المقاومة.

عشية العيد دارت معركة حول المطار وتم صدّ قوات العدو. وطافت الفتيات على أشجار الياسمين الباقية على أسوار بعض بيوت بيروت الغربية

يجمعن أزهار الياسمين لكي يضعنها على قبور الشهداء في الصباح كما هي العادة. البعض قطع أغصانا خضراء من أشجار الكينا والبعض حمل جالونات الماء لسقي "الزريعة" المزروعة حول القبور.

قبل فجر العيد بدأ زحف الناس نحو مقبرة الشهداء. كانت هذه المناسبة تتحول إلى مظاهرة ضخمة ملونة بالأزهار والأعلام والملصقات وزيارات القادة المصحوبين بمرافقيهم المسلحين ومجيء عائلات من الجنوب والشمال ومجموعات من المقاتلين لزيارة رفاق السلاح الذين سبقوا. هذه المرة ودون تحذير من التجمع، زحف الناس في هدوء الظلام مشيا إلى المقبرة التي قصفتها مدفعية العدو وازداد عدد قبورها بسرعة ودون أن تتمكن مؤسسة الشهداء من وضع شواهد عليها كما هو الحال مع من سبقوا. قليلون التقوا في ذلك اليوم فالزيارة سريعة وأصوات اشتباكات المنطقة الجنوبية والمطار مسموعة. رجال الإعلام الأجانب صوروا الزوار والباكين على الراقدين تحت التراب. المقاتلون على الطرق كانوا يدلون القادمين على المسالك الآمنة إلى المقبرة. الطرق الأخرى ملغمة والمواقع الترابية تمنع تقدم السيارات. أبو عمار زار المقبرة وقرأ الفاتحة وذهب ليصلي صلاة العيد كالعادة. قادة آخرون جاءوا ورحلوا بدون أجهزة إعلام ومصورين هذه المرة. الشواهد كانت محطمة من آثار القصف وأشجار الصنوبر تناثرت أغصانها على الأرض معوضة نقص باقات الورد المعتادة.

في جامع جامعة بيروت العربية تجمع عدد قليل من المصلين. أصروا على إقامة الصلاة رغم خطورة المنطقة وانتشار القنابل العنقودية في الطرق المحيطة. أسندوا أسلحتهم إلى جدار الجامع وصلوا ودعوا لأمة الإسلام باليقظة والوحدة والنصر. لم يكن منهم أحد عضوا في تنظيم من قبل ولكنهم تسلحوا بعد الغزو وأعطوا لأنفسهم مهمة حماية الممتلكات من السرقة، والدفاع عن الجامع إذا وصل الإسرائيليون.

اجتمع الأصحاب عند أبو خالد بعد الزيارة. تبادلوا التهنئة بالعيد متمنين وضعا أفضل في العيد القادم. وزع أبو خالد حلوى العيد التقليدية على الذين حضروا، وسلموه بدورهم نصيبه من الحلوى، وقدم أبو خالد الشاي الساخن

"معمـــول على مية شرب". طاف فاروق والأصحاب على مجموعات الشباب يوزع الحلوى، مهنئين بالعيد، متعاهدين على الثورة حتى النصر.

وعلـــى طريق العودة، كانت تظاهرة قد خرجت من جامع عائشة بكار تـــتجه نحـــو نقطة عبور المتحف في نهاية شارع كورنيش المزرعة تهتف بضـــرورة رفـــع الحصار عن بيروت الغربية وبحياة رئيس الوزراء شفيق الوزان، يتقدمها عدد من رجال الدين المسلمين. لم تصل المظاهرة إلى نهاية طريقها، عندما وصلت قرب مستشفى البربير قبل نقطة العبور بمئات الأمتار لعلـــع الرصـــاص، وسقطت قذائف وتفرق الجميع. في منطقة الحمرا حيث تجمـــع المهجـــرون الجـــدد حـــاول الأطفال أن يقيموا عيدا. حاولوا تجربة المفـــرقعات ولكـــنها لـــم تبهج أحدا. حاولوا اللعب ولكن الحذر جعل أهلهم يمنعونهم. حتى الملابس الجديدة لم تكن ميزة، فالكل يرتدي ملابس جديدة بعد أن ضـــاع القديم أو احترق. الجديد الوحيد هو زيادة كمية الحلوى التي كانت المنظمات والجمعيات توزعها على الجميع في هذه المناسبة.

عاد قصف الطيران وازداد القصف البري والبحري كثافة وتركزا.

توالت تصريحات القادة الإسرائيليين عن اقتحام بيروت. البعض يفضلها بالحـــرب والـــبعض يفضـــلها بالدبلوماسية. والبعض بعطي مهلا وإنذارات وآخـــرون يـــتحدثون عـــن إعطاء فيليب حبيب فرصا جديدة. ولكن القصف مســـتمر والحصار يزداد إحكاما. معالم المدينة تتغير بسرعة. خارطة جديدة ترسمها قنابل الطائرات. لم يعُد من الممكن تفسير أسباب قصف مواقع بعينها فكـــل الأماكـــن تقصف وتدمر. التركيز كان على المناطق التي يرجح تقدم الآليات الإسرائيلية منها عند اقتحام بيروت. يريدون إزالة كل العوائق وقتل كل حياة قبل أن "يغامروا" بالتقدم.

بـــدأت الجولة السابعة (بين وقف إطلاق النار السادس والسابع) عصر أول أيـــام العيد. تصاعدت على مدى الأيام التالية حتى بلغت مداها يوم ٢٨ يولـــيو/ تموز. الإنسان يحب تفسير الوقائع وربطها ببعضها. قال البعض إن

العدو يريد حرماننا من الاحتفال بالعيد. وقال آخرون إنهم "يحتفلون" بذكرى ثورة يوليو ١٩٥٢. في مثل هذه الأيام من كل عام كانت بيروت الغربية تشهد عشرات الاحتفالات الجماهيرية التي تقيمها التنظيمات "الناصرية". كل تنظيم يقيم احتفاله الخاص، وتنطلق مكبرات الصوت بالساعات احتفالا "بذكرى" الثورة. وكان صوت جمال عبد الناصر المسجل على شرائط يذاع من الإذاعات المحلية مصحوبا بإطلاق النار في الهواء. هذه السنة قام الإسرائيليون بإطلاق النار في الهواء. وتحدثت إذاعة صوت لبنان العربي (المرابطون) عن ذكرى ٢٣ يوليو، وترحمت على أيام كان فيها العرب كالبنيان المرصوص. آخرون فسروا اشتداد القصف بأنه محاولة إسرائيلية لاستباق أي حل يسمح بخروج قيادات المقاومة من بيروت وهم على قيد الحياة، وأضاف آخرون أن الغرض هو استنفاد ذخائر المقاومة وشق الطريق أمام القوات الإسرائيلية، ولم يستبعد البعض أن تكون هذه الجولة هي رد شارون وبيجن على زيارة وفد الكونجرس لبيروت الغربية ومقابلتهم لأبو عمار وحصولهم على ورقة موقعة منه بأنه يوافق على مجمل قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين. واضح على أي حال أن مناحيم بيجن لم يكن سعيدا بهذه المقابلة ولا بتصريحات أعضاء الوفد لدرجة أنه قال لهم عندما قابلوه إنه مستعد لقتل عشرة فلسطينيين وخمسة لبنانيين مدنيين مقابل قتل مسلح فلسطيني واحد. توقع الناس أن العالم كله سيهب محتجا ومدينا، في الربع الأخير من القرن العشرين يصرح رئيس حكومة بأنه على استعداد لقتل خمسة عشر "بريئا" مقابل "خصم واحد". كان القصف مفهوما ومحتملا، ولكن الصمت العالمي والعربي كان جارحا.

ثم جاءت تصريحات العقيد القذافي التي هدد فيها "بقطع يد المستسلمين والخونة" لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يصرح فيها بشأن غزو لبنان. سبق ونصح المقاومة الفلسطينية بالانتحار، ورد أبو عمار على نصيحته بالسؤال عما يفعله الأشقاء، وقال "إن الفلسطينيين لم يبلغهم نبأ أي مظاهرة من المحيط إلى الخليج". أثارت تهديدات القذافي سخرية مرة "لن يجد أيادي ليقطعها". من سوء حظه أنه في ذات اليوم الذي صرح فيه بهذه التهديدات

هاجمت الطائرات الإسرائيلية بنايتين على شاطئ الروشة كانتا تضمان المئات من المهجرين الجدد من اللبنانيين والفلسطينيين، وأسفرت الغارات عن قتل وجرح حوالي خمسمئة طفل وامرأة وشيخ. بررت إذاعة الكتائب قصف البنايتين بأن إحداهما كانت تضم موقعا لأحد قياديي منظمة فلسطينية وأنه كان موجودا. نفت الإذاعات الوطنية ذلك. وتحدث القائد المعني بصوته في الإذاعة مؤكدا أنه لم يصَب ولم يكن هناك. فهم الناس من الخبر أنه حيث يكون قائد أو قيادة أو موقع فإن المكان معرض للقصف والتدمير. ولعبت إذاعة الكتائب بأعصاب الناس. أخذت تذيع أخبارا من طراز "شوهد أبو عمار يخرج من الطابق الأرضي لبناية البيكادللي في منطقة الحمرا حيث حضر اجتماعا عسكريا عاليا". ويخلي الناس البناية والبنايات المحيطة بها، يتكدسون في بنايات بعيدة توقعا لقصف هذه البناية. وفي ظل القصف المتواصل وانقطاع الاتصالات "أسقطت" إذاعة الكتائب كل بيروت تقريبا. وكانت الدهشة تصيب الناس بعد توقف القصف عندما يكتشفون كذب الأنباء. أخيرا أمكن إعلان توقف إطلاق النار يوم ١٩٨٢/٧/٢٨. كان وقف إطلاق النار السابع بعد قصف استمر متواصلا لمدة ثلاث عشرة ساعة.

لم يكن الليل هادئا. طلعات متواصلة من الطيران وقنابل إضاءة تضيء سماء بيروت ومحاولات للحصول على الخبز والماء والاطمئنان على الأصدقاء. وفي الصباح انفجر الوضع ثانية وعادت الغارات الجوية والقصف البحري والبري. فوجئ الناس. كانوا يتوقعون فترة أطول. أصيب الكثيرون في الشوارع ولم تتوقف أصوات سيارات الدفاع المدني. توقف القصف في الحادية عشرة مساء. لم تكن هناك أي فرصة للخروج أو الاطمئنان على الأهل. ظل الناس في الملاجئ تحت الأرض. بدأت الأعصاب المشدودة تفلت. مشاجرات صغيرة حول المساحة التي يشغلها كل واحد في الملجأ، تصادمت العادات وتذكر البعض خسائره واحتدمت المناقشات وانهار التمايز الاجتماعي بين الناس العاديين "ما حدش أحسن من حد". عوارض أمراض السجون بدأت تظهر على الناس المحبوسين في ملاجئهم أياما. أبو عمار يصدر النداءات لكل العالم. بيروت تحترق. بيروت تباد، بيروت صامدة،

بيروت لن تركع، والعالم مشغول بالاجتماعات والمباحثات وإصدار القرارات التي لا تنفذها إسرائيل.

مـــع الصـــباح عاد القصف والغارات الجوية ومحاولات الإنزال على شاطئ بيروت الغربية مباشرة والتقدم على جميع المحاور. بعد الظهر تركز القـــتال حول المطار الذي سقط بعد خمس عشرة ساعة من القتال المستميت وتـــبادل القصـــف. حسبت أجهزة الرصد عدد الغارات الجوية فبلغت ٢١٠ غارة، مئتين وعشر غارات، جوية، مصحوبة بقصف بري وبحري كثيف بلغ حسب أرقام مصادر أجنبية ١٨٥ ألف قذيفة، مئة وخمسا وثمانين ألف قذيفة، مختلفة الأحجام والأنواع، معظمها حارق وعنقودي ومنشاري. تركز القصف على "المربع" أي منطقة الجامعة العربية والكولا والفاكهاني وصبرا وشاتيلا. الطائـــرات تعقبـــت مدافع المقاومة على الأرض. المقاومات الأرضية قلت ذخيرتها وتعطل الكثير منها. قال شفيق الوزان غاضبا وهو يقطع المباحثات مع فيليب حبيب "إن أرادت إسرائيل أن تميتنا فلتفعل نحن قوم مؤمنون، نؤمن بـــأن كـــل شيء إلى زوال". أصيب بيت الرئيس صائب سلام. ولأول مرة تقصف الطائرات أحياء سكنية مدنية معروفة بخلوها من أي وجود فلسطيني مسلح. واشتعلت الحرائق ولا سيارات إطفاء تقاومها. في نفس الوقت ذكرت الأنـــباء أن مناحـــيم بيجن احتفل بعيد ميلاده وأن "التورتة" كانت على شكل دبابـــة مـــن طـــراز "ميركافا". لو أن الذي فعل ذلك من حكام العالم الثالث لهاجمته صحافة العالم ونشرت صورته كدليل على التخلف، ولكن الذي فعل ذلك هو مناحيم بيجن، رئيس وزراء إسرائيل، ربما أصبحت موضة بعد ذلك وتكـــون "تورتات" أعياد الميلاد على هيئة صواريخ ومدافع وبوارج، ويكون "البونبون" على هيئة القنابل العنقودية.

أخيرا انعقد مجلس الأمن، ولم تعترض الولايات المتحدة بالفيتو، وتقرر وقف إطلاق النار، هو التاسع حسب إحصاءات المراقبين.

خـــراب، خراب، خراب، بنايات وشوارع بأكملها اختفت، لم تعُد هناك بناية في منطقة الجامعة العربية دون إصابة مباشرة أو أكثر. اتسع المعرض الـــذي أقامـــه الإعلام الخارجي أمام مكتبه لأنواع القذائف التي تقصف بها بيروت. ممنوع اللمس. ممنوع الاقتراب، بعضها لا يزال "حيا". فرق الهندسة

تجمـــع القـــنابل المتناثرة. جرافة تحاول شق طريق للسيارات بين الأنقاض. الانفجارات تتوالى من القنابل العنقودية التي انتشرت في المنطقة كلها. شظية مـــن الشظايا أصابت عين عدنان. عدنان كان قد أصيب في الحرب اللبنانية وظـــل يعـــالج علـــى مـــدى عاميـــن. أصيب ثانية في عينه ونقل فورا إلى المستشفى. الكنائس قصفت أيضا والمستشفيات. ملجأ العجزة قصف وكان به أكـــثر مـــن ثلاثين طفلا وفتى متخلفا عقليا. ثم نقل من بقي حيا إلى مدرسة بالقـــرب من مقر السفير البريطاني في منطقة الصنايع. أبو خالد كان حزينا. الكلب الصغير اختفى.. ربما نفق في القصف. الكلاب هجرت المنطقة كلها. مـــن الماضـــي تعلم الناس أن الكلاب لا تتحمل قصف الصواريخ لحساسية ســـمعها فـــتهرب. القطط تركت المنطقة لعدم وجود طعام. حتى الصراصير كانت تنفق من أثر انفجار الصواريخ. الإنسان وحده بقي مع الحجارة. أمهات قدمـــن مـــن الجنوب للسؤال عن أبنائهم أو لصرف معاشاتهم. أين نذهب؟.. انتقلوا.. إلى أين؟ .. ويتطوع الذين يعرفون بوصف المقرات الجديدة لمراكز الخدمـــات في منطقة الحمرا.. فين الحمرا؟ "كل الدنيا تعرف الحمرا فين".. "إحنا من الجنوب يا بني".

ويـــتطوع البعض بتوصيل الأمهات، وتتوارد أخبار الناس في الجنوب. حظر التجول لا يزال مفروضا. لم يعُد هناك مخيم اسمه عين الحلوة.. الناس تعـــيش بيـــن الأنقاض حرقوا مخيم الميه ميه. يخلعون أشجار البرتقال على جانبـــي الطريق من صيدا إلى صور. عمليات كثيرة تتم ليلا. هاجم الشباب مقـــر القيادة العسكرية الإسرائيلية في صيدا، وضربوا باص إجازات شمال صـــور. عزمـــي موجود وبلال وحسن.. وشباب كثيرون موجودون. الناس تعلمت السرية. حتى في بيروت لم يعُد ممكنا الحصول على إجابات مباشرة عن أماكن المكاتب. كان أبو عمار يتجول بسيارة غير سياراته المعروفة وقد بدل مرافقيه المعروفين. حتى الذين كانوا يرونه صدفة كانوا يتكتمون مكانه. أصبح مكان أبو عمار هدفا للطائرات. ومع ذلك كان الناس يفاجئون به بين أنقـــاض الخطـــوط الأولـــى ومنطقة الجامعة العربية يقابل المقاتلين والناس والمراسلين الأجانب.

عــثر عاصــف علــى سيدة عجوز بين أنقاض مخيم مار الياس على الطريق إلى منطقة الجامعة العربية. كانت تبحث بين الأنقاض عن شيء ما.. ســألها فقالت إنها تبحث عن وعاء بلاستيك لتحمل فيه ماء. كان بيدها وعاء بلاستيكي مثقوب من أثر شظية. حاولت سد الثقب بقطعة من القماش. عرض علــيها عاصف أن ينقلها إلى مكان آخر تجد فيه الماء والطعام رفضت. ثم قالت له إنها تعيش مع حفيدتها المريضة. تجمع بعض المقاتلين واصطحبوها إلــى حيث تقيم. مجرد ركن تحت الأنقاض ترقد فيه فتاة صغيرة.. أين ذهب باقــي أفــراد العائلــة؟ لــم يسأل أحد، الإجابة على الأرجح أنهم قتلوا أثناء القصف. مرة أخرى عرضوا عليها نقلها وابنتها. رفضت العجوز بإصرار. جــاءوا لهــا بجالون ماء وكمية من التموين والخبز. استكثرت ما جاءوا به ودعت لهم بالحماية والنصر.

تأكد الجميع أن معركة بيروت بدأت، وأن سكانها سيخوضون المعركة وحدهــم. لا أمل في أي تحرك من الخارج. أعلن بشير الجميل ترشيح نفسه للرئاســة.. رفضــته كل القوى الوطنية والإسلامية في بيروت الغربية. بدأ البيروتــيون يعيدون النظر في مسألة خروج المقاومة. لو خرج الفلسطينيون بدون أن تتوفر حماية لأهل بيروت الغربية ولمن سيبقى من الفلسطينيين في المخــيمات فإن بشير الجميل والكتائب سينفردون بمن بقي. "لو أن الأمور لم تســر على هذا النحو". كانت قيادة المقاومة تعلن أنها على استعداد للخروج من بيروت فور وصول قوات دولية. رفضت إسرائيل. عبر الرئيس صائب ســلام عــن رأي ســكان بيروت الغربية عندما رفض خروج المقاومة قبل وصــول هذه القوات الدولية. بدأت مساومة "مذلة" بين فيليب حبيب والدول العربــية: مــن يقــبل رجال المقاومة في بلده؟ وكم منهم؟ لم يكن مزادا بل مناقصة. الكل يتبارى في إنقاص العدد أو الرفض، إلا الدول الفقيرة كاليمنين والسودان. الباقي يضع شروطا، كاد الناس أن يكفروا بالعروبة أو كفروا.

علــى شريط كاسيت قديم نقل من شقة أصيبت بالقذائف وجد الأصحاب أغنــية لمحمــد رشدي اسمها ضاع الولد. في فقرة من فقراتها يأتي صوت محمد رشدي مليئا بالشجن صارخا يقول :

آه آه يا غريب
دي السكة كانت مشوار صعيب
آه آه يا غريب
ولا لك قريب ولا لك حبيب
ياما قلت آه آه
ولا حد سامع شكوتك
ياما قلت آه آه
ولا حد عارف عزوتك في غربتك
تعبوك يا طيب يا أمير
فرشولك السكة بحرير
أتاريها شوك
أتاريها نار
أتاريها بحر مالوش قرار
والموج خدك يا بريء.. يا بريء
تهت ضليت الطريق
معذور يا ولد..

السكة كانت مشوارا صعبا.. ياما قلت آه ولا حد سامع شكوتك. انتشرت كلمات الأغنية.. ولا حد عارف عزوتك في غربتك.. الأغنية عنوانها "ضاع الولد في المدينة".. بيروت هذه التي أفسدت مئات من المناضلين والمقاتلين تعلم الآن الآلاف كيف يصمدون ويعيدون النظر في ما مضى من أخطاء. انفكت عقدة اللسان، تصارح الذين كانوا يتجاملون فيما مضى أو يسكتون. "لو أن الأمور لم تسر على النحو الذي سارت عليه في السنين السابقة" قال أبو عمار "نحن نسدد الفواتير.. فواتيرنا وفواتير غيرنا أيضا". كان بشير الجميل قد أعلن مهددا أن على الفلسطينيين أن يسددوا فواتير "الماء والكهرباء". فهم الناس أنها فواتير السنين الماضية.

الانتقام قادم ولن تسامّح بيروت التي صمدت فدخلت التاريخ المعاصر كأول عاصمة عربية تهزم التفوق التكنولوجي بالصبر.

لم يتوقف القصف المتقطع. عاد الكثيرون من سكان بيروت الغربية الذين كانوا قد غادروها إلى الجبل أو المنطقة الشرقية. انتهى الشهر ومن الصعب دفع إيجار شهر جديد.. الأسعار مجنونة، والإهانات يومية من الكتائبيين، ومنظر التعاون مع الإسرائيليين والترحيب بهم مذل ومهين، ويخنق النفس. العودة أفضل، وربما كانت المحنة قد انتهت.

ولكن المحنة كانت لا تزال تحمل للبيروتيين فصولا. حاولت قوات الغزو اقتحام بيروت يوم ١٩٨٢/٨/٤. واستمر القتال أربعا وعشرين ساعة سقطت فيها القذائف من الجو والبر والبحر بمعدل خمس عشرة قذيفة كل دقيقة. استطاعت قوات العدو أن تتقدم وتحتل ثكنة للجيش اللبناني تقع في جنوب غرب بيروت ولكنها لم تستطع التقدم على بقية المحاور بل تراجعت في محور المتحف. كانت إذاعة الكتائب قد أعلنت منذ الثامنة صباحا أن قوات الغزو قد وصلت إلى مستشفى البربير ومقر السفارة الكويتية ودوار المطار، تلك كانت أهداف الحملة الفاشلة. وعندما خيم الظلام كان وهج الحرائق ينير بيروت الغربية كلها. وادعى إسحاق شامير أن الهجوم لم يكن محاولة لدخول بيروت وإنما لتحسين المواقع. وجاءت تصريحات أخرى تعترف بمقتل تسعة عشر جنديا إسرائيليا. المراسلون الأجانب الذين شاهدوا آثار معركة المتحف سجلوا تراجع الإسرائيليين. كانت معركة المتحف معركة بيروتية وخارج تصور أي عسكرية تقليدية تحت غطاء كثيف من القصف الجوي والبحري والبري لمدة أيام احترق خلالها حرش بيروت وتهدم سور أرض السباق، التفت الدبابات الإسرائيلية بهدف تخطي الحواجز الترابية والألغام الأرضية، وكادت بالفعل أن تصل إلى مستشفى البربير. لم يكن في تصورهم أنه ما يزال هناك أحياء في المناطق التي قصفوها على الجانبين، ولكن الواقع أن مجموعات من الشباب كانت هناك. وكما التف الإسرائيليون على الحواجز التف الشباب على الدبابات وقصفوها بقواذف الصواريخ المحمولة المسماة ب ٧ أو بي سفن كما يسميها المقاتلون. احترقت ثلاث آليات وتراجع الطابور مرتبكا واصطادته صواريخ الراجمات التي كانت تقصف المحور بشدة. استشهد شابان وأصيب أربعة وانهزم شارون

الذي كان يراقب المعركة من فوق أوتيل ألكسندر في المنطقة الشرقية، وجاء الطـيران موجـات متتالية يقوض البنايات المحيطة بمكان المعركة بعد أن كانت مجرد أنقاض واقفة لتصبح ركاما على الأرض.

اتصل الملك فهد بريجان طالبا منه التدخل لإعادة القوات الإسرائيلية إلى مواقعها الأولى ووقف النار وفك الحصار. تم وقف النار فقط. المفاجأة يومها كانـت أن سـركيس احتج لأول مرة منذ بداية الغزو واتصل بريجان طالبا وقف النار. البعض يفسر ذلك بأنه كان قد تأكد من عدم التجديد له، والبعض يقـول إنه خاف عندما قصفت بعبدا خلال القتال وربما كان التفسير المعقول هو أنه لاحظ امتعاض فيليب حبيب من العملية الإسرائيلية فتشجع واحتج.

مـر يوم شبه هادئ. وفي السادس من شهر أغسطس/ آب عاد الطيران المعادي إلى أجواء بيروت. وعند الظهر انقضت طائرة من طراز إف ١٦. لـم يسمع الناس سوى صوت انقضاضها وارتفاعها من جديد، ثم رأوا كرة هائلـة مـن الدخان تصعد من شارع صغير خلف وزارة الإعلام في منطقة الصـنايع. ركض الناس نحو المكان ليجدوا بناية من أحد عشر طابقا مكومة علـى الأرض. كأنهـا كانـت مـن تراب. اندفعت سيارات الدفاع المدني والجـرافات. بـناية الصنايع التي تهدمت كانت مسكونة من بعض مهجري مخـيم ضـبيه. أذاعـت إذاعة الكتائب أنها كانت مقرا لأبو عمار وأنه كان بداخلهـا وخـرج قـبل قصفها بدقائق. الناس كانوا قد شاهدوا أبو عمار في سـيارته بعـيدا عـن المكـان في ذلك الوقت وقبله. قتل المئات من النساء والأطفال والشيوخ، قطع المقاتلون الطرق المؤدية إلى البناية لتسهيل عمليات البحـث والإنقـاذ. انفجـرت سيارة ملغومة في الشارع المجاور بعد الغارة بنصف ساعة. تنسيق دقيق بين من هم في الجو وبين العملاء على الأرض. تسـاءل الناس عن سر عدم سماع صوت الانفجار عند الغارة وقال الخبراء بعد ذلك إن القنبلة التي قوضت البناية تستعمل لأول مرة في الحروب. قنبلة الوقود التفريغية Vacuum Fuel Bomb التي تنشر مادة شديدة الاشتعال فتحرق الهواء كله محدثة تفريغا جويا فوق الهدف وحوله لينسحق تحت وطأة الضغط الجوي. ولأهمية القنبلة تحدثت عنها بالتفصيل إذاعات العالم ووكالات الأنباء

وأصـــدرت وكالـــة تـــاس بيانا حولها وتحدث العسكريون الفرنسيون عنها واشـــتهرت بناية الصنايع ليس بسبب ضخامة خسائرها البشرية وإنما لكون القنبلة التي استعملت قنبلة حديثة تستعمل لأول مرة.

قال أحدهم ساخرا بمرارة، ولكن الضحايا أيضا يموتون لأول مرة.

* *
*

دخل الغزو شهره الثالث.

نشـــرت جـــريدة دافار الإسرائيلية نبأ انتحار ليوتنت كولونيل إسرائيلي عـــائد من لبنان بأن ألقى نفسه من الدور الرابع في وزارة الدفاع الإسرائيلية وقـــد ترك مذكرة تقول "لا أستطيع تحمل أكثر من ذلك".. واضح أنه تحمل طويلا. الشاعر اللبناني خليل حاوي انتحر بإطلاق الرصاص على نفسه في الـــيوم الـــرابع مـــن الغزو. سعيد من استشهد. تعيس من كتبت عليه الحياة ليحكـــي. العالم يتفرج، فإن ثار يحتج أو يصرخ أو يندهش. انقسم العالم إلى شهود ومذبحة. استقال المقدم جيفا قائد كتيبة الدبابات الإسرائيلية. كتيبته على أبـــواب بـــيروت. قال إنه شاهد بمنظاره أطفالا يلعبون في أزقة مخيم برج الراجنة ويخشى أن يتلقى أمرا بقصفهم يوما. قالوا إنه انتحر عسكريا، قضى علـــى مستقبله العسكري اللامع باستقالته. الطيار الأسير أرسل برسالة لأبو عمـــار يطلب فيها أن يتبرع بدمه للمصابين. قال إنه لم يكن يعرف وهو في طائرته في السماء أن تلك هي آثار الغارات. كان التنقل بالطيار الأسير من مكان إلى مكان للمحافظة على حياته وسرية مكانه مشكلة تشغل مجموعة من الشـــباب.. "إلـــى متى يستطيع الناس تحمل أكثر من ذلك؟". القصف مستمر والطائرات لا تزال تشق الطرق بهدم البنايات وتفتح الطريق لقذائف المدافع

لكي تصل إلى مزيد من الأهداف. لم يعُد الناس يخرجون من الملاجئ حتى بعد توقف القصف. سيتجدد وسيفاجئهم. حرارة الجو، والزحام وبكاء الأطفال والرغبة في رؤية "نور ربنا" يدفع بالبعض إلى الخروج ليعود مسرعا إلى الملجأ فيجد مكانه مشغولا بمن كان ينتظر، يريدون دفع الناس إلى الجنون والانتحار. مل الناس سماع الأخبار. ملوا النظر في وجوه بعضهم البعض في عتمة الملاجئ. ملوا الكلام في السياسة. أفكار كثيرة سقطت، ماتت، انتحرت في بيروت، استوى الخبيث والخبيث، الخبيث السافر والخبيث المقنع، انهارت الثقة، أين اليقين؟ ما الذي يمنع أي إنسان من أن يفعل أي شيء؟ زاد خطر الانفلات الأمني في الشوارع وعلى البيوت، الكل يموت أو سيموت، فلنستمتع أو ننام. الأم تريزا التي حصلت على جائزة نوبل لخدماتها التي قدمتها لفقراء الهند جاءت إلى بيروت الغربية وأخذت معها الأطفال المعاقين إلى دير في المنطقة الشرقية. قالت الإذاعات إنها قدمت تقريرا للبابا يوحنا بولس الثاني في روما عن الأحوال السيئة غير الإنسانية في بيروت الغربية. غريب، لم تمكث إلا ساعتين، عبرت بسيارتها إلى حيث الأطفال وعادت. لم تزُر مكانا، ولم تتجول في المدينة. ماذا لو رأت ما حدث ويحدث بالفعل؟

جاءت أخبار عن مظاهرة كبيرة في الكويت.. أخيرا. تطلب الأمر شهرين وخمسة أيام قبل أن تتحرك مظاهرة يحرسها رجال الأمن وتسير بنظام وتعبر عن الغضب بالصياح فقط. الكويت بعيدة وكل من فيها متعاطف مع المحاصرين أو من أهلهم، لا يحتاج الأمر إلى مظاهرة للإعلان عن ذلك. لو أنهم أو بعضهم فعل شيئا، أي شيء، في حرب فيتنام أحرق راهب بوذي نفسه احتجاجا، وبعد دخول القوات السوفياتية تشيكوسلوفاكيا أحرق شاب نفسه في ميدان كبير في براغ العاصمة. لم يحرق أحد نفسه، ولا حرق أي شيء آخر. بيروت فقط تحترق. القصف يتواصل والغارات الجوية أيضا. ولم يعُد أحد يعرف على أي شيء يختلف المتفاوضون، المقاومة ستخرج والبيروتيون يطلبون نزول قوة دولية قبل خروجهم. اتفقوا على الحل. "التزامن"، أي أن يتم خروج الفدائيين ودخول القوات الدولية في نفس اليوم. يقال إن مناحيم بيجن وشارون لم يوافقا على ذلك. لا بأس فليتقدموا إن

اســتطاعوا. حــاولوا التقدم مرات وفشلوا. كل فشل معناه مزيد من الغارات الجوية والقصف.

لــم تكــن العــيون قد نامت بعد فجر يوم ١٩٨٢/٨/١٢ عندما انطلقت المدافــع والراجمات الإسرائيلية من كل اتجاه تقصف بيروت. لعلها محاولة تقــدم. بــاقٍ على أول ضوء ساعتان ونصف. استمر القصف حتى الساعة السادســة صباحا. سمع الناس أصوات هدير الطائرات. ليست طائرة واحدة ولا حــتى ســربا واحدا كأن السماء امتلأت بالطائرات. بدأ القصف الجوي واهــتزت أرض بــيروت وأبنيتها. وتوالى القصف الجوي.. من الأصوات، استدل سكان الملاجئ والطوابق الدنيا أنها عملية تمشيط بالقنابل والصواريخ، تــبدأ من المنطقة الجنوبية حتى الشاطئ وتعود من جديد. في الدقائق القليلة التــي كانــت السماء فيها تخلو من الطائرات كانت البوارج والدبابات تصب حمــم مدافعهــا عشوائيا على الناس حتى تعود الطائرات من جديد. نوع من الطائــرات المســتعملة كان يزعق بصرير كئيب عند انقضاضها وصعودها ثانية، كأنها تجرح حديدا صدئا، طائرات أخرى كانت تخترق حاجز الصوت بالإضــافة إلــى القصف. أنواع من الصواريخ المستعملة كانت تشق الهواء فــترتجف لهــا الــنوافذ في كل بيروت ويسمع لها صوت انطلاق وصوت انفجــار. كثــيرون اكتســبوا خــبرة في التمييز بآذانهم. البعض خرج إلى الشــوارع. الــتحرك أثــناء الغارة الجوية أسهل من التحرك أثناء القصف المدفعي. للطائرات أهدافها لا تحيد عنها في كل طلعة وتحتاج كل طلعة إلى عشر دقائق على الأقل، هناك فرصة للانتقال خلالها من مكان إلى آخر بعيدا عن المنطقة التي تقصف.

فــي ذلك اليوم لم يبقَ أحد في الطوابق العليا. شرفة الطابق السادس في إحــدى بنايات منطقة الحمرا كانت مرصدا للجيران، بها إخوة وأخوات في سن الشباب يبدو أنهم نجحوا في إقناع والديهم بالرحيل وبقوا هم. طوال فترة الغــزو لم يتركوا شقتهم ولم تخلُ شرفتهم من أحدهم أو أكثر. حتى في الليل يخــرجون إلــيها بالشموع أو المصباح الغازي. في ذلك اليوم نزلوا. سحب الدخان الأسود غطت بيروت. ألقت الطائرات قنابل الإضاءة في عز النهار.

أبـو علـي صاحب دار النشر المتمرس في طابقة السابع نزل في ذلك اليوم ولجـأ إلى صالة فندق الكومودور. كثيرون غيروا أماكنهم. ليس إلى أماكن أكثر أمنا وإنما إلى أماكن أخرى. لمجرد ألا يكونوا وحدهم، أو لمجرد تغيير الحـظ فـي آخر لحظة كما يفعل المقامرون على طاولة الروليت، أو بدافع الملل وحده.

أذن أذان الظهـر والغـارة مسـتمرة، حسب الناس فارق التوقيت بين بـيروت وواشـنطن. لم يستيقظ ريجان بعد. الغارة مستمرة، بدأ لعب طاولة الزهر والشطرنج ولعب الورق لكشف الحظ. مجرد عمل بدون تركيز لقطع الوقت. مع القذائف الثقيلة تهتز مباني بيروت ويتمتم المسنون "يا ساتر استر يـا رب.. يـا ساتر استر يا رب". أصوات سيارات الدفاع المدني قليلة. من يسـتطيع الـتحرك؟ الإذاعـات تقول إن المستشفيات قصفت حتى مستشفى الجامعة الأمريكية. تعطلت إحدى الإذاعات الوطنية وعادت للعمل بعد فترة. إذاعـة الكتائـب تذيع أن الغارة مستمرة واشربوا بيره هاينكن. إذاعة مونت كـارلو في نشرة أخبار الساعة الثانية بعد الظهر بتوقيت بيروت ذكرت نقلا عـن قـبرص لانقطاع الاتصالات أنباء الغارة الجوية الأولى من نوعها في تـاريخ الطيران، وتحدثت عن اتصالات دولية بشأن وقفها. ترى هل أيقظوا ريجـان مـن نومـه..؟ لحظات مع الإعلان.. "بدي ساعة حلوة عريقة إلها عقارب بتكتك.. شوفي سيتزن".. سيتزن يعني مواطن.. ما هو ثمن الوطن؟ انتهـت نشـرة الأخـبار.. اعتذر المذيع بصوت باكٍ لاضطرارهم استئناف الـبرنامج كما هو.. ما يطلبه المستمعون.. "نطلب وقفَ هذه المذبحة". إذاعة لندن باللغة العربية خصصت كل نشرتها لما يجري في بيروت وذكرت أنباء عـن تصـريحات لمسـئولين بريطانيين حول ضرورة وقف إطلاق النار. أخـيرا.. أخيرا.. استيقظ ريجان واتصل به أحد مبعوثيه إلى بيروت تليفونيا وأسـمعه أصـوات الطائـرات والقصف. يقولون إنه ذهل.. اتصل تليفونيا بمناحـيم بيجـن. ذكـرت الإذاعة الإسرائيلية أن بيجن دعا مجلس الوزراء الإسـرائيلي إلى الانعقاد. توقف القصف في الخامسة مساء بعد إحدى عشرة سـاعة مـن الغارات الجوية المتصلة. أجمعت الإذاعات أن هذه هي المرة الأولـى فـي تاريخ الحروب التي تستمر فيها غارة جوية لمدة إحدى عشرة ساعة. "أبسط يا عم برضه احنا الأوائل.. طول عمر العرب أوائل".

البعض اندفع إلى الشوارع لاستنشاق الهواء. لم يكن هناك هواء. دخان الحرائق والقصف والغبار غطى سماء بيروت. السيارات تتحرك بعصبية والناس أيضا. مربع الجامعة العربية لم يعد كما كان أمس. بنايات كاملة انهارت على الأرض وحرائق مشتعلة فيمن بقيت واقفة. الجرافة تحاول شق طريق للسيارات، والسيارات تحاول تجنب الشظايا والقنابل العنقودية. أبو خالد لم يكن هناك، غادر هذه المرة. كان واضحا أنهم سيهدمون المنطقة كلها. عاد يحمل بندقيته ورغيفين وعلبة لحم. لم يكن بالناس رغبة في الحديث. فقط "الحمد لله على السلامة".. سلامة من؟ النفوس مجروحة. أيعقل أننا وباقي الأمة أشقاء؟ أيعقل أننا جميعا أبناء آدم وحواء؟ أهذه هي حضارة القرن العشرين؟ المراسلون الأجانب مذهولون. بعضهم كان في فيتنام وقارن، وبعضهم خاض حروبا وقارن.. لا مقارنة.

أيوب في اليوم التالي عبر عن غضب الناس. وأيوب هذا شخص غير معروف اتخذ اسم أيوب وبدأ يعلق أوراقا على أبواب المحلات والجدران يكتب عليها تعليقات ساخرة أو جادة تعبر عما يجول بنفوس الناس واكتسب شهرة بينهم دون أن يعرفوه. في اليوم التالي للغارة الجوية كانت تعليقاته كلها مريرة تكاد تكفر بكل شيء. حتى صبر أيوب كاد أن ينفد أو نفد بالفعل.

قال أحدهم هل بلغ الهوان بهذه الأمة أن تعرض أمريكا على العرب الحماية من إيران، وعلى الفلسطينيين الحماية من إسرائيل؟!! كانت المفاوضات تدور حول القوات الدولية، ومن سيحرس المقاتلين الخارجين ومن سيحمي الناس الباقين.

انتهت المفاوضات واتفقت الأطراف وظل كل يترقب الآخر ويتوقع منه الغدر، بدأ البحث عن البلاد المضيفة. وبدأت الحكومات تتدلل... نقبل ٦٠٠ مقاتل.. سنجعلهم ٨٠٠ مقاتل.. وهكذا.. ألقى أحدهم اللوم على الحكومات والأنظمة. سأله يحيى وماذا عن القوى التي ليست في الحكم؟ وسكت الجميع.

تحدد يوم بدء الرحيل، وتحددت القوة التي سترحل والوسيلة أيضا.. ما تبقى من المقاتلين من قوات بدر وهي قوات جيش التحرير الفلسطيني المتواجدة في الأردن التي وصلت بعد بداية الغزو وقاتلت واستشهد وجرح

عــدد من أفرادها. كذلك سيخرج معهم من تبقى في بيروت من مقاتلي جبهة التحرير العربية الذاهبين إلى بغداد.

راجــت تجارة الحقائب. اشتغل كتاب العدل (الموثقون الرسميون) ليلا ونهــارا في عمليات نقل ملكية السيارات المدنية التي سيضطر أصحابها إلى تركها برحيلهم. تردد أن هناك أمرا من العميد أبو الوليد (العميد الركن سعد صــايل عضــو اللجــنة المركزية لحركة فتح وعضو القيادة العامة لقوات العاصفة ومدير العمليات العسكرية للقوات المشتركة، استشهد اغتيالا وغدرا فــي البقاع بعد الخروج من بيروت بشهر) بأن لا يحمل أي من المقاتلين إلا ســلاحه الفــردي وذخيرته ومهمات في حدود سبعة كيلو جرامات. كثيرون نفذوا هذه الأوامر. البعض تمكن من التحايل عليها وأرسل برا مع السائقين بمــا يريد إرساله إلى دمشق أو حتى إلى عمان. استمر الحصار بقطع الماء والكهــرباء ومــنع التموين من الوصول إلى المنطقة الغربية. تحول اهتمام الناس إلى مشكلة انتخاب رئيس الجمهورية الجديد. تأجلت جلسة الانتخابات مــن ٨/١٧ إلى ٨/٢٣. البيروتيون في بيروت الغربية كانوا يأملون ألا تتم الانتخابات، أن يتأجل وصول بشير الجميل إلى كرسي الرئاسة ولو لمدة عام.

تنوعــت الهمــوم واختلفــت. للخارجيــن همومهم، وللباقين همومهم. الخــارجون يســألون إلــى أيــن؟ وكــيف؟ والباقون أنواع... فلسطينيون ولبنانيون... لاجئون جدد ولاجئون قدامى... أصحاب بيوت مدمرة وأصحاب بــيوت متضــررة وآخــرون لا تــزال لهم بيوتهم. بدأت فكفكة المؤسسات والأجهزة. أعطيت شقق المكاتب للعائلات الباقية في بيروت. كثيرون عادوا إلى شققهم المتضررة قبل أن يحتلها آخرون. تدفق الناس على منطقة جامعة بيروت العربية بحثا عن مكاتب مؤسسة الشؤون الاجتماعية ومكاتب صرف المعونــات والمساعدات. أصلحت بعض المحلات أبوابها وعادت للعمل تبيع الطعام والماء للمترددين على المكاتب. استؤنف حرق الأوراق وما بقي من وثــائق. الذيــن حصلوا على شقق متضررة بدءوا في ترميمها وسكنوا فيها بدون ماء أو كهرباء. محلات تركيب الزجاج بدأت تعطي مواعيد للطالبين، الحجــز امتد لأشهر قبل أن يبدأ العمل. إحدى دور السينما في الحمرا عادت إلى العمل بمولد كهربائي خاص.

رفـــع أحدهم العلمين اللبناني والفلسطيني على أنقاض بناية أمام جامعة بـــيروت العربية وأصبح مألوفا رؤية شاب مقاتل يقف بجوار العلمين ويرفع علامـــة النصر أمام زميل يصوره.. "الذكرى ناقوس يدق في عالم النسيان" عـــبارة محبـــبة إلى نفوس المقاتلين الذين تعودوا حفر أسمائهم على جدران بـــيروت ســـنوات طويلـــة. بيـــن الأنقاض وفي الشوارع جاء رجال ونساء بأطفـــالهم يفتشـــون عما يصلح للبيع أو للاستعمال. كابلات الشبكة الداخلية للتلـــيفونات التي تقطعت جمعت لتباع نحاسا أصفر، الطلقات الفارغة كذلك، الأخشاب والأبواب المتحطمة تصلح لترميم بيوت المخيمات، الملابس القديمة يمكن استعمال بعضها. كثيرة هي الأشياء التي يستفيد منها الفقير.

دعت الصحفية السويدية الصديقة، صديقا إلى فنجان من القهوة في فندق الكومـــودور وأثـــناء الحديث ضحكت وهي تنظر خلفه. نظر فإذا شابة أنيقة رشـــيقة تحمل كلبا صغيرا رضيعا في بطانية زرقاء فاخرة وترضعه الحليب من بزازة. اندهش. قالت الصحفية السويدية: مسكين هذا الكلب فقد السمع من القصـــف، عثرت عليه مجموعة تليفزيون أمريكية أثناء التصوير بين أنقاض مـــنطقة الجامعة العربية وعندما رحلوا تركوه في الفندق الذي خصص لـــه مـــن يعتني به ويطعمه. ابتسم الصديق. الكلب هو كلب أبو خالد بلا جدال. واضـــح أنه يحمم بالماء الساخن والشامبو. في اليوم التالي نقل الصديق النبأ لأبـــو خـــالد. انفعل كثيرا. فرح. وعندما سأله الصديق "هل تريد الكلب؟ من الممكن إحضاره"، تردد أبو خالد قليلا وقال "خليه مكانه أفضل له".

اقـــترب يـــوم ابـــتداء الرحـــيل. بدأت لقاءات الوداع وتبادل العناوين. الخارجون ليس لهم عنوان، ولكن من الممكن الاتصال عن طريق وسيط في عمان أو دمشق أو القاهرة أو حتى قريب يدرس في باريس أو براغ، أصبح الســـؤال المشـــترك هـــو "راحل أم باقٍ؟". صدرت الأوامر بتسجيل أسماء الراحلين والتنبيه عليهم بالاستعداد للرحيل في أي يوم. بدأت عودة بطيئة إلى بيروت الغربية من بيروت الشرقية ومن الخارج، الحزن يلف الجميع والبحث عن الكلمات المعبرة أصعب من أيام القصف.

قـــبل الرحيل بليلتين ضحكت بيروت. كانت تفاصيل المفاوضات تدور حول تسليم الطيار الإسرائيلي الأسير وعدد من جثث العدو الذين قتلوا خلال

الغــزو وقــبله، ودفنــتهم المقاومة. وافقت قيادة المقاومة وبقي الاتفاق على الإجراءات. ليلتها عاد ثلاثة من المقاتلين إلى مواقعهم الأمامية بعد أن اشتروا حقائــب للرحــيل. تخطوا هذه المواقع وشاهدوا جنديا إسرائيليا يجلس على دبابــته. بهــدوء تقدموا منه وأشاروا له بطرف بنادقهم أن يأتي إليهم رافعا يديه، وبهدوء أيضا استسلم الجندي الإسرائيلي الهمام. أخذوه وعادوا به إلى القــيادة. أســير آخــر. جن جنون القيادة الإسرائيلية وهددت بالويل والثبور وعظائم الأمور وطلبت أن يتم تسليم الأسير الثاني مع الأسير الأول، وافقت قــيادة المقاومة وكانت قد حصلت على تعهد خطي من فيليب حبيب يضمن عــدة أمور من بينها الإفراج عن الأسرى اللبنانيين والفلسطينيين الموجودين في معسكر أنصار في جنوب لبنان.

تــم تسليم الأسيرين والجثث. وشهد الطيار أنه عومل معاملة جيدة وأنه يحــترم أولئك الذين احترموا إنسانيته. وشهد رجال الصليب الأحمر الدولي بإنســانية رجال المقاومة وخلقهم بتسليمهم الجثث كل في صندوق وبأسمائها وبكــل احــترام يليق بالموتى. وتساءل الناس عن الآلاف الذين قتلتهم قوات الغزو، والمئات الذين أحرقت جثثهم وجرفتهم بالجرافات إلى قبور جماعية. تســاءلوا عــن موجب هذه المعاملة الإنسانية مع عدو نقل الأسرى بالشباك المعلقــة في طائرات الهليوكوبتر وعذبهم بإغراقهم في مياه البحر المتوسط وإخراجهم مختنقين، فمن عاش منهم تتكرر معه المأساة فمن بقي حيا ألقي به فــي معسكر اعتقال من خيام في العراء. كان رد قيادة المقاومة على القواعد الغاضبة: تلك حضارتهم وهذه حضارتنا وعقيدتنا.

ليلة الرحيل اقترح فاروق تنظيم وفد لتوديع المقاتلين الخارجين: لابد أن يــرى الــناس أنهم لا يخرجون مطرودين وإنما يخرجون بشرف مرفوعي الــرءوس وقلوبنا معهم. نفس الفكرة ترددت لدى آخرين. التقوا ونظموا فيما بينهم لافتات صغيرة تحمل كل عبارات المحبة والثقة.

وفــي صباح يوم ٨/٢٢ تجمع الأصدقاء في ساحة الملعب البلدي. كان رجــال قوات بدر قد صعدوا إلى اللوريات التي قدمها الجيش اللبناني. وقف الأصــدقاء حولهــم بلافتاتهم وبعضهم يحمل أطفاله معه.. كانوا في أغلبهم لبنانييــن. جماعــات ومجموعــات عملت مع المقاومة ومن أجل فلسطين..

مثقفون، شبان وشابات كانت لهم ألف ملاحظة وملاحظة على سلوك الفدائيين في بيروت ولبنان.. ولكنهم جاءوا. العيون دامعة والحناجر مخنوقة والهتافات تصدر من القلب. جاء أبو جهاد وأبو الوليد وودعا الجنود والضباط العائدين إلى عمان عن طريق قبرص. هتف الجميع ثورة حتى النصر، بالروح بالدم نفديك يا فلسطين. عندما بدأ الموكب يتحرك انفجر الجميع في البكاء. وتقدمت عجوز فلسطينية من السيارات تمد يدها إلى أعلى وعندما يمد لها المقاتل يده تقبلها وتدعو له بالحماية والنصر. لم تكن أم أحد فيهم وكانت أمهم كلهم. على باب ساحة الملعب البلدي أطلق أحدهم النار في الهواء تحية للخارجين فترددت طلقاته في كل بيروت الغربية كأنما نبه الناس إلى هذا الحدث العظيم. ضاعت في غمرة إطلاق النار هتافات المودعين، وغاب الموكب عن أنظارهم ومشوا جماعات عائدين والبعض لحق بالموكب حتى بوابة الميناء.

في الأيام التالية كان عدد المودعين أكبر بكثير، وعلى طول الطريق كان إطلاق الرصاص مصحوبا بإطلاق قذائف الـ ب ٧ ومدفعية الهاون نحو البحر. أصيب بعض المقاتلين الخارجين من جراء إطلاق النار، وفشلت محاولات السيطرة رغم تشديد الأوامر بمنع إطلاق النار ورغم تكرر الإصابات بين الخارجين. كان موكب الراحلين يستغرق ساعات والمودعون حوله وخلفه وعلى جانبي الطريق والناس ترش عليهم الأرز كعادة البيروتيين في تحية المواكب. واليوم الوحيد الذي أمكن فيه السيطرة على وقف إطلاق النار كان يوم خروج أبو عمار.

قالت وهم عائدون من الملعب البلدي: مثل يوم ما رجعنا بعد تشييع جواد.

وقال مجيبا صديقه الذي ألح عليه لكيلا يذهب إلى موكب الوداع طالما أنه لا يحتمل الانفعال "لم أتعود التخلف عن تشييع شهيد".

الخارجون كانوا شهداء أحياء...

*

آخر الموال ..

أنا إن عشت لك يا حكومة لألبسك طرح وشيشان
وان مت يا حكومة أنا واخد عليكي نيشان

(من موال أدهم الشرقاوي)

كان المقاتلون يستعدون للخروج أو هم بدأ خروجهم. شوارع بيروت الغربية مفروشة بالحزن وبأظرف الطلقات الفارغة التي يطلقها المودعون والغاضبون والمحبطون. لم يعُد حديث بين الناس سوى سؤال: باقٍ أم راحل؟ وسؤال إلى أين ؟ تناقلت وكالات الأنباء نبأ يقول إن الرئيس الأمريكي ريجان سيمنح فيليب حبيب مبعوثه إلى بيروت "وساما" تقديرا لما قام به الأخير.

وسام.. نيشان.. يعلق على الصدر ويكتب عنه الكتاب والمؤرخون.. سيتلقى التهاني، وتشرب الأنخاب.. وبيروت؟ والمقاتلون؟ والضحايا؟ والدمار والخراب والحصار والعطش والجوع والقصف بالأيام والغارات الجوية المتواصلة.. والناس الباقون ؟

وأضاف نبأ الوسام جرحا على جراح.. بصقة أخرى على كتب التاريخ وضحكة هازئة مما يسمى شرعة حقوق الإنسان.

وترددت في الخاطر صورة من الماضي.

صـياد مـن مديـنة رشيد الساحلية المصرية. اسمه الرشيدي. طويل كالصـاري، صـدره كالشراع، رحب النفس كالبحر، يحب المواويل، مؤلفا وملحنا ومغنيا، حكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة لسبع سنوات لاشتراكه مـع والده وإخوته في معركة ضد خفر السواحل. "منعونا نطلع نصيد.. أكل عيشـنا ورزق عيالـنا.. قـالوا فيه تهريب.. يمنعوا التهريب.. مالهم ومال السمك".. ثم يضيف "بعدين معقول أترك إخواني وأقف أتفرج".. تقبل الحكم بـنفس الهدوء الذي يتقبل به عودة الشباك فارغة من البحر، ولكن الذي آذاه أكثر من السجن كان قرار إدارة السجون بتفريق أفراد الأسرة وتوزيعهم على السـجون حـتى لا يجتمعوا في سجن واحد. كان نصيبه أن رحل إلى سجن الواحـات الخارجة في الصحراء الغربية. "أهه كله بحر.. هنا بحر رملة".. ويـنظر إلى مئات المسجونين السياسيين الموجودين في نفس السجن ويدندن "يا عيني ع السمك لما انشبك".

لقدرتـه الجسمانية فرزته إدارة السجن للعمل في المخبز عجانا.. فيقول لنفسه "الخير على ايديك دايما يا رشيدي". وأصبح مغني السجن والمسجونين، ونجـم كـل الحفـلات. ولكنه كان يحب أن يغني لنفسه عندما تغلق أبواب الزنازيـن مـوال أدهم.. أدهم وجد نفسه في مواجهة الظلم والحكومة. قاوم وراوغ ودخـل السجون وهرب منها بعد أن "انفرد وانثنى في الزنزانة وهو لوحـده" فانهارت جدرانها، ولم يسقط إلا غدرا "ما يوقعوش غير الصاحب" وتلقى رصاصات سبعا كان مع كل واحدة منها ينطق حكمة تعلمها في حياته. "خامس رصاصة جت مالكة حشاه" قال "أنا إن عشت يا حكومة لألبسك طرح وشيشـان. وان مت يا حكومة أنا واخد عليكي نيشان".. فقذ عرف أن الذين حاصروه وقتلوه وعدوا بالنياشين والأوسمة.

كـان الرشـيدي يغنـي الموال ويضفره بفقرات من عنده تؤكد معانيه وعـندما يصـل إلى الرصاصة الخامسة يتهدج صوته، وتدخل الأهات بين الكلمـات ويستعيدها المساجين من زنازينهم وتختلط أصواتهم وتتعالى كأنها أصوات إطلاق النار في الهواء مع مواكب الخارجين من بيروت.

أدهـم والرشـيدي فـي شوارع بيروت وبين أنقاضها.. ربما لن يكتب عـنهما أحـد.. وربمـا تمنع السلطات نشر "موالهم" كما منعت موال أدهم

الشـــرقاوي بعـــد أن مات. ولكن "مغني القرية" ظل يردده سرا ويتناقله جيلا وبلدا.. وتاريخا.

من المؤكد أن ريجان لم يحسب حساب أدهم الشرقاوي والرشيدي وهو يقـــرر مـــنح فيليـــب حبيـــب وساما. من قبل منح مناحيم بيجن جائزة نوبل للســـلام!! وقد اقترحوها لفيليب حبيب أيضا. لم لا؟ لهم أوسمتهم ونياشينهم. ولنا مواويلنا.

ومنين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه

وآدي رواية عن سبع جاسر صاحب شجعنة قتلوه

الإسم "مبهم" لكن النقب شرقاوي

تحقيق حول مذبحة
صبرا وشاتيلا*

[تُقَدِّم الصفحات التالية لتحقيق كتبه الصحفي الإسرائيلي أمنون كابليوك حول المذبحة التي راح ضحيتها أهالي مخيّمي صبرا وشاتيلا، في بيروت، بعد خروج منظمة التحرير الفلسطينية منها في أواخر صيف ١٩٨٢.

تنزع مقدّمة محجوب عمر عن الضحايا صفة المجهول لتصوّرهم في جهدهم البسيط، اليومي، المتراكم، ثمرة العبقرية التلقائية للمظلومين العزّل التي يهزمون بها الخوف ويعيدون بناء الحياة فوق أنقاض الحياة. وهو يلفت النظر إلى أن أمنون كابليوك كان أول من استخدم كلمة "إبادة" لتوصيف ما قامت به إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني خلال اجتياحها للبنان، متذرّعة بـ"تدمير البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية"، وذلك دون أن يتغاضى عن مزالق وعيوب منهج الصحفي الإسرائيلي في التحقيق الذي أجراه حول مذبحة صبرا وشاتيلا.]

---

* مقدّمة كتبها محجوب عمر لكتاب آمنون كابليوك "تحقيق حول مذبحة صبرا وشاتيلا"
ترجمة منى عبد الله
الطبعة الأولى ١٩٨٤
العربي للنشر والتوزيع، القاهرة

المذبحة..

منذ عام تقريبا بدأت مذبحة صبرا وشاتيلا.. لم تبدأ في يوم ١٦/٩/ ١٩٨٢ كما هو مذكور في الوثائق والتحقيقات، وإنما بدأت عصر يوم ٤/٦/ ١٩٨٢. كان اليوم يوم جمعة. وكان الناس في مخيم شاتيلا وحي صبرا قد بكروا جدا في الخروج من المنطقة كلها توقعا لغارات جوية إسرائيلية على "المخيمين" بعد أن سمعوا أنباء إطلاق النار عل سفير إسرائيل في لندن قبل ليلة.

وبالرغم من أن جميع شارك في الجدل الذي دار حول أجهزة الراديو والتليفزيون في الليلة الفائتة، وبالرغم من انقسام الرأي حول احتمالات تعرض "المخيمين" لغارات إسرائيلية انتقامية إلى متفائل ومتشائم: المتفائل يتوقع الضرب بعيدا في الجنوب والمتشائم يتوقعها قريبة في حي الفاكهاني الملاصق، إلا أن الغالبية فضلت، بالخبرة والغريزة، النزوح المبكر إلى خارج المنطقة.

وبالفعل جاءت الطائرات في الثالثة والربع عصرا تقريبا وصبت حمما من القذائف على جانب من الإستاد الرياضي المعروف باسم المدينة الرياضية والذي يقع على "حدود" منطقة صبرا وشاتيلا، بل أن بعض الأكواخ لمنتمية إلى هذين المكانين تلاصق صوره الجنوبي.

توالت الغارات الجوية على "المدينة الرياضية" يومها لأكثر من ساعة، وتكررت بعد ذلك. وفي كل مرة كانت أشلاء المنازل الصغيرة القريبة التي بنيت بأيدي أصحابها غالبا تتناثر غبارا في الهواء بينما أندفع من تبقى من سكانها أما إلى خارج المنطقة تماما أو إلى داخل "المعمعة" بحثا من الأبناء والجيران الذين كانوا يعملون وقتئذ داخل المدينة الرياضية أو لجأوا إليها ظنا منهم أنها ليست هدفا. وسقط من بين سكان صبرا وشاتيلا في اليوم الأول العشرات بين شهيد وجريح. وكما سيحدث في الفصل الأخير شارك العاملون بالخدمات الطبية في قائمة الضحايا، فقد اندفعت سيارات الإسعاف نحو

الأماكن التي قصفت لإغاثة المصابين فعادت الطائرات الإسرائيلية وقصفت المكان والسيارات وتطايرت مع الأنقاض والشظايا قطع من سيارات الإسعاف البيضاء اللون التي تحمل شارات الهلال الأحمر والصليب الأحمر وأشلاء العاملين بأرديتهم البيضاء المسالمة..

في ذلك اليوم، الرابع من شهر يونيو/ حزيران ١٩٨٢ بدأ الفصل الأول من مذبحة صبرا وشاتيلا واستمرت فصول هذه المذبحة تتوالى، ويتغير أشخاصها حتى كان الفصل الأخير الذي بدأ في اليوم السادس عشر من شهر سبتمبر/ أيلول ١٩٨٢ واستمر متصلا ثلاثة أيام تم فيها تدمير عدد كبير من "بيوت" المخيمين، وذبح وقتل وتشويه الآلاف من سكانهما. ولم يحدث ذلك هذه المرة بطائرات من الجو ولا بمدفعية من البحر والبر عن بعد كما حدث في الفصول الوسيطة، وإنما حدث بالأسلحة الخفيفة والسكاكين والبلط والجرافات.. وبدم بارد.

ما بين الفصل الأول والفصل الأخير سالت دماء كثيرة في صبرا وشاتيلا وفي بيروت كلها، بل في كل لبنان الجنوبي.. ثلاثة أشهر من التدمير والقتل والإبادة، وتشريد وتهجير مئات للآلاف، واعتقال الآلاف، وإزالة مخيمات بأكملها من على وجه الأرض واحتلال المدن والقرى. ثلاثة أشهر بدأت بمحاولة قتل سفير إسرائيل في إنجلترا، وبدأ فصلها الأخير بقتل البشير الجميل رئيس لبنان الذي انتخب في ظل الحرب الإسرائيلية، وشهدت في كل يوم وكل موقع "مذبحة" واحتجاجات واجتماعات للهيئات الدولية وبيانات تستنكر التجويع والحصار ومنع مياه الشرب وقصف المستشفيات وقطع الكهرباء ومنع الوقود واستخدام الأسلحة الممنوعة وتجريب الأسلحة المدمرة الجديدة والاستهزاء بالرأي العان العالمي. ثلاثة أشهر كانت فيها كلمة "مذبحة" تستعمل لوصف ما يحدث هنا وهناك، ولكنها أصبحت اسما للفصل الأخير في صبرا وشاتيلا.

كل شيء تغير في صبرا وشاتيلا في هذه الأشهر الثلاثة. الناس الذين كانوا لم يعودوا هم نفس الناس. بعضهم "عاد" إلى بيته وكثيرون لم يعودوا وجاء بدلا منهم آخرون من الجنوب ومن أحياء بيروت الأخرى. البيوت نفسها لم تعد هي نفس البيوت. لا نوافذ، لا أبواب، لا أسقف، لا جدران.. مجرد بقايا تذكر بأنه كان هنا "بيت". سكان المخيمات خبراء في الترميم وفي

استعمال ما تبقى من الأشياء واستكمالها بأشياء أخرى. قبل اكتمال خروج المقاتلين من بيروت، وخلال فترة وقف إطلاق النار التي سبقت "المذبحة"، جمع سكان المخيمات من بين الأنقاض ومن الشوارع كل ما يصلح لجعل "أنقاضهم" هم بيوتا من جديد. لا يزال الوقت صيفا وكل ما هو مطلوب كان رسم حدود وهمية "للبيت". هنا بيت أبو فلان وهنا بيت "أم فلان"، مجرد ترتيب للأوضاع بوضع علامات تميز "البيت" وتعل له عنونا. "الخارجون" من بيرؤت تركوا أشياء كثيرة تصلح ولو في غير الأغراض التي صنعت من أجلها، بل ويمكن استبدالها أو بيعها بعد أن تهدأ الأمور. التليفزيون يمكن أن يسد ثغرة في جدار، والثلاجة تقف حدا بين بيت وبيت، وطاولات المكاتب تتحول إلى أسرة أو أبواب وهكذا.. الحياة تعود إلى المخيمات بأسرع مما تعود إلى المناطق الحديثة المبنية. الناس هم المخيم.

حتى الناس لم يكونوا كما كانوا قبل ثلاثة أشهر. الشباب خرجوا من بيروت، وغابة السلاح زينة الرجال اختفت. لم يعد المخيم مكانا مأمونا بل معرضا لحملات التفتيش التي لابد قادمة. كثيرون ممن فقدوا بيوتهم في أحياء أخرى من بيوت جاءوا إلى المخيمين، وكثيرون ممن كانت بيروت المدينة قد أخذتهم في السنوات السابقة هرعوا عائدين إلى أقاربهم ومعارفهم، لكن الكثيرين أيضا ممن كانوا طوال السنوات السابقة في المخيم لم يعودوا إليه، قتلوا أو فقدوا الولد أو البيت فهاموا خارج المخيمين أو أقاموا في المناطق المحيطة. وتجمع في المخيمات فقراء من كل الجنسيات، لبنانيون وفلسطينيون ومصريون وسوريون وأكراد وغيرهم ممن كانوا يعملون في بيروت قبل الحرب ولم يعد لهم مكان للسكن بعد أن تهدمت أحياء بكاملها، ولا عمل بعد أن أغلقت مؤسسات كثيرة مع رحيل الفدائيين. ولكن الغالبية كانت من اللبنانيين الجنوبيين الذين فقدوا قراهم وبيوتهم من قبل، وهجروا قسرا في السنين السابقة فتجمعوا داخل المخيمين وحولهما. هؤلاء تلقوا الصدمة الأولى وسقطت منهم أسر بكاملها حتى بعد التأكد من هويتهم اللبنانية.

ولكن أهم ما تغير كانت هي النفوس. الأشهر الثلاثة من الحرب المتواصلة والصمت والعجز من حلوهم، ورحيل الأبناء والحمي، جعل الناس في المخيمات كالعراة يستقبلون شتاء باردا. سنة الحياة توالي الفصول، للربيع زهوه وزقزقة العصافير، وللشتاء ليل طويل وهم للفقير.. هكذا كان "ناس

المخيمات" بعد الخروج، لا انكسار.. وإنما بال منشغل وترقب ومحاولة لوصل ما انقطع وترميم الجسور.. وبحث عن الرزق.

وما بين فصل "الخروج" وفصل "المذبحة" برزت معالم البيوت وذابت حدود الجنسيات واختفت المتاريس وظهرت بين الأنقاض أزقة وحارات.

تطلب الإعداد للفصل الأخير من "المذبحة" وقتل طويلا. ثلاث عشر يوما ما بين "خروج الفدائيين ودخول الجيش الإسرائيلي. خلالها.. رحلت القوات المتعددة الجنسيات (أمريكية وإيطالية، وفرنسية) التي كانت قد جاءت لتمكث شهرا وهرولت خارجة من لبنان قبل مقتل بشير الجميل بساعات. وأدعى الأمريكيون بعد ذلك أنهم "فوجئوا" واحتل الجيش الإسرائيلي جميع البنايات العالية المحيطة بصبرا وشاتيلا لكي يتمكن من الرؤية بوضوح، (وإلا لماذا تكبد الجنود مشقة السعود إلى الطوابق العليا؟) وأدعى الإسرائيليون بعد ذلك أنهم لم يروا شيئا. وفي ليلة "الذبح" قطع التيار الكهربائي عن بيروت الغربية كلها، وأطلقت القوات الإسرائيلية القنابل المضيئة فوق صبرا وشاتيلا على فترات متقاربة بحيث يمكن رؤية أية حركة في تلك المنطقة. ومع ذلك يصر الإسرائيليون على أنهم لم يروا شيئا. حتى أثناء النهار، حين يمكن لطائرات الاستطلاع الإسرائيلية، أن تصور، كما كانت تفعل دائما، أي تغيير في هيئة ترتيب البيوت فتعرف القيادة كم بيتا تهدم أو كم متراسا أقيم، حتى بهذه الطريقة لم يلاحظ الإسرائيليون شيئا.. وبلغت مقدرة "التعتيم" درجة كتمت الأصوات، وامتصت صرخات النساء والأطفال، ومنعت الدخول أو الخروج من منطقة المخيمين إلا "للقتلة" الذين كان عليهم البقاء ثلاثة أيام داخل المخيمين وهم يعملون ليلا ونهارا قتلا وذبحا وتشويها وتدميرا، وهو عمل يحتاج بلا شك إلى ت جديد كميات الذخيرة والمواد الناسفة والطعام والماء والمخدرات.. كما سمحوا بدخول جرافة إسرائيلية واحدة، عل الأقل، لزوم إخفاء آثار الجريمة، دخلت إلى المخيم أثناء المذبحة..

ولكن رائحة الموت كانت أقوى، خصوصا أن الوقت كان صيفا، والقتلى كانوا ألفوا، وبعض الضمائر كانت لا تزال على قيد الحياة..

وبدأت التحقيقات.

*

التحقيق..

أثناء اجتماعات المجلس الوطني الفلسطيني في فبراير – شباط ١٩٨٣ في مدينة الجزائر العاصمة، ألقى أبو أياد (صلاح خلف) عضو اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) كلمة مطولة من ضمن المناقشات العامة في اجتماعات لمجلس. وورد في كلمة أبو أياد هذه اسم "أمنون كابليوك" الصحفي الإسرائيلي – الفرنسي الذي أصدر كتابا عن مذبحة "صبرا وشاتيلا" باعتباره الكتاب الوحيد تقريبا من وجهة نظر أبو أياد، الذي ذكر الحقيقة وكشف الجريمة وتحدث عن المذبحة.

كان أمنون كابليوك وقتها بين الحاضرين السامعين، وقد نشر بعد ذلك مقالات في الصحافة الإسرائيلية عن اجتماعات المجلس الوطني الفلسطيني مؤكدا حقيقة حضوره هذه الاجتماعات. وبدا الأمر وكأن قيادة المقاومة تكافئ الرجل على مواقفه الجريئة والشجاعة وبالذات لنشره كتابه الذي نقدم ترجمته العربية هذه.

"وأمنون كابليوك" يحمل جوازي سفر، شأنه في ذلك شأن معظم اليهود الغربيين الذين يقيمون في فلسطين المحتلة، جواز سفر فرنسي (هو الأصلي غالبا) وآخر إسرائيلي حصل عليه لكونه يهوديا ذهب إلى فلسطين واستعمل الامتياز القانوني الإسرائيلي الذي يمنح كل يهودي في العالم "مواطنة" إسرائيلية بمجرد أن تطأ قدماه أرض فلسطين.

سارع كابليوك، مثله في ذلك مثل كافة الصحفيين الإسرائيلية، إلى دخول لبنان بعد أن غزته القوات الإسرائيلية في يونيو/ حزيران ١٩٨٢. ولكنه، ومن واقع ما نشر من مقالات في الصحافة الإسرائيلية والفرنسية، كان يرى من أفعال قوات الغزو ما لم يره كثيرون غيره. ورغم كل القيود القانونية والمعنوية، ورغم انتماء كابليوك إلى "دولة إسرائيل" وتعلقه بها إلا أنه نشر منذ الأيام الأولى للغزو ما يتناقض مع مخطط بيجين – شارون في لبنان.

كان أهم ما نشره كابليوك أثناء الغزو مقال في جريدة "الموند" الفرنسية بتاريخ ١٩٨٢/٧/١٧ حول مخيم "عين الحلوة" الواقع بجوار مدينة صيدا في جنوب لبنان، بعنوان "المخيم الفلسطيني عين الحلوة": بقايا جدران وتعاسة للناجين "وجاء في ذلك المقال أن" شارون تكلم عندما شن هجومه على لبنان عن ضرورة تدمير البنية التحتية للمخربين. ولكن ما تم تدميره بالفعل هي البنية التحتية لشعب بأكمله في المخيمات الفلسطينية فالمنازل مدمرة والرجال مختفون، والمؤسسات من مدارس ومستوصفات.. ألخ مفككة. كانت تلك أول إشارة من صحفي أجنبي، وإسرائيلي بوجه خاص إلى عملية "الإبادة" التي يشنها الجيش الإسرائيلي ضد الشعب الفلسطيني (وإن لم يستعمل الكلمة ذاتها) وكانت أيضا إشارة ذكية تدل على معرفة بخصوصيات القضية الفلسطينية. فالبنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية ليست كأية بنية تحتية لجيش من الجيوش وإنما هي الشعب نفسه، وبالذات هي مخيمات الفلسطينيين اللاجئين، ومن هنا كانت خطة قوات الغزو هي تدمير وإزالة هذه المخيمات نفسها، وتهجير من تبقى من سكانها. وحتى عملية التهجير هذه تتم بطريقة خاصة، فالعدو يقتل، أو يجرح، أو يعتقل، أو يخطف إلى مصير مجهول كل "بالغ" من بين الرجال، ثم يسعى لطرد الباقين من السكان. وهو ما يترتب عليه فضلا عن المعاناة والتعاسة التي لاحظها كابليوك في مخيم عين الحلوة، تجميد التزاوج والإنجاب، وعرقلة تكاثر الشعب الفلسطيني وهو الأمر الذي يقلق إلى حد الإصابة بالأرق القادة الصهاينة كما صرحت بذلك في الماضي جولدا مائير بأنها عندما تذكر أن هناك طفلا فلسطينيا يولد كل دقيقتين تفقد القدرة على النوم.

ولقد أسرع كابليوك إلى صبرا وشاتيلا. وكمل يقول هو في تقديمه للكتاب أن جهده هذا بدأ غداة مذبحة "صبرا وشاتيلا". ولابد أنه بذل جهدا كبيرا لكي يحصل على ما حصل عليه من معلومات فقد استمع إلى جنود وإلى شهود، وجمع صحفا وتعليقات ورصد إذاعات وبرامج تلفزيون وأطلع على مضابط اجتماعات الكنيست، وذكر في كتابه كيف صدرت الأوامر للضباط والجنود بعدم الكلام، وكيف دارت التحقيقات في سرية وتكتم، إلى جانب عامل الوقت وتسارع الأحداث، وغياب المصادر المنظمة المتعاونة على الجانب اللبناني، وغياب المصادر المحلية لتي كانت تترنح تحت وقع المذبحة، ومع ذلك فقد أمكنه جمع مادة جيدة رتبها بشكل يبدو "محايدا"

و"ليبراليا" ولكنه في الوقت نفسه متعاطف مع الضحايا مستنكر لمرتكبيها، مبين لتناقض أقوال القيادات الإسرائيلية ومقتبس للتعليقات التي تدعم محاولته.

وفي سياق التحقيق الذي قام به كابليوك انشغل بقضية عدد القتلى الذي لاقوا حتفهم في المذبحة. وضع كابليوك أرقاما جعلته يقدر أن القتلى يزيدون على أربعة آلاف وأن أحدا لن يمكنه التوصل للعدد الصحيح. المصادر الرسمية الإسرائيلية قللت كثيرا من عدد القتلى، كذلك فعل تقرير المحقق العسكري اللبناني الذي حصر عدد القتلى بأربعمائة قتيل تقريبا، أما المصادر الفلسطينية فقد ذكرت رقم الأربعة آلاف ونبهت إلى آلاف أخرى من المفقودين الذين لا يعرف أحد مصيرهم. وسمح تضارب الأعداد الهائلة للصهاينة بالتشكيك في صدق وجدية التحقيقات.

ربما كان للعدد الكلي الصحيح أهمية إحصائية، ولكنه على أية حال لا يمكن أن يكون مصدرا للجدل حول صحة أو عدم صحة وقوع المذبحة، ولا حول هول أو درجة بشاعة المذبحة. أن التركيز على قضية العدد الذي قتل لن يبرئ أحدا، ولن يعيد إلى الحياة مفقودا لا تزال أسرته تبحث عنه. كما قد يتضمن النقاش حول "العدد" احتقارا ضمنيا للفرد، وتبريرا ضمنيا أيضا للقتل.

إن استعمال كلمة "المذبحة" في وصف ما حدث في صبرا وشاتيلا، ثم مناقشة مسألة العدد، يؤدي إلى إخفاء طبيعة ما حدث بالفعل ولو بنية حسنة. فالذي حدث كان حلقة من حلقات "الإبادة" هي كلمة لم يستعملها كابليوك، كما لم تستعملها أجهزة الإعلام العالمية. وبدأ الأمر كأن "مجرما ما" سواء كان بيجين أو شارون أو إيتان أو الثلاثة معا قد ارتكبوا "مذبحة" بعيدا عن الخطة الإسرائيلية الصهيونية الاستراتيجية العامة، أو بشكل يجافي الإجماع الفكري لأغلبية التجمع الصهيوني. ومن الغريب أن كلمة "إبادة" نفسها استعملها شارون مرات عديدة طوال الغزو. لم يستعمل بالطبع كلمة elimination وإنما دأب على استعمال كلمة genocide التي تعني "اجتثاث"، وقد استعملها أيضا في تفسيره لأوامره باقتحام بيروت وإدخال العملاء لقتلة إلى المخيمات.

إن تقييم ما حدث باعتبار أنه حلقة من حلقات " الإبادة" كان سيؤدي بالتأكيد إلى الربط بين مذابح سابقة داخل وخارج فلسطين المحتلة، وبين

مذبحة صبرا وشاتيلا. وبذلك أيضا يكون من قاموا بعمليات القتل والتشويه هذه منفذين لخطط إسرائيلية شكلا ومضمونا.

كما استعمل كابليوك للأسف تعبيرات مثل الميليشيات المسيحية اليمينية، أو القوات اللبنانية مما يربك الباحث عن الحقيقة، برغم أنه أورد، مشكورا معلومات قيمة عن الذين قاموا بالتنفيذ وأشخاصهم. وجميعهم كما ذكر نشأ وتربى وتدرب على القتل في أحضان الموساد الإسرائيلي.

إن تعبير الميليشيات المسيحية أو حتى القوات اللبنانية لا يخدم الحقيقة بل هو قلى بالمسئولية على "طائفة" بأكملها من بينها من يقف ضد الغزو الإسرائيلي للبنان، ومن بينها من يرفض التعاون مع الإسرائيليين، ومن بينها بكل تأكيد من باع نفسه منذ وقت مبكر لهم وتورط معهم إلى غير رجعة. وهؤلاء تلقوا أمرا إسرائيليا من شارون وإيتان، كما كشفت التحقيقات، بدخول المخيمات والقتل. وهؤلاء تم دعمهم ليس فقط من خارج المخيمات وإنما أيضا وبكل تأكيد بمجموعة من الخبراء الإسرائيليين في القتل والتشويه والترويع.

وتتضح مزالق هذا المنهج في التحقيق، وكذلك خطورة استعمال مثل هذه التعابير غير الصحيحة عندما نرى كيف استعملت لجنة التحقيق الإسرائيلية الرسمية المعروفة باسم "لجنة كاهان" هذه المقالات لتبرئة القيادة الإسرائيلية من المسئولية المباشرة عن المذبحة ولومهم فقط لأنهم لم يكونوا متيقظين إلى طبيعة "القوات اللبنانية"، الراغبة في الثأر شأنها في ذلك شأن العرب جميعا. وبالرغم من أن كابليوك قد حاول طوال التحقيق الذي قام به دون انتظار للتحقيق الرسمي (وربما بسبب عدم ثقته بذلك التحقيق) أن يؤكد علم المسئولين الإسرائيليين بطبيعة "القوات اللبنانية" وهو بذلك لا يبرئهم من نية القتل العمد، إلا أنه بلا شك وقع في "فخ" اعتبار أن حدود الجريمة هي تواطؤ أفراد من القيادة العسكرية عمدا مع مجرمين معروفين بينما هي أوسع من ذلك بكثير. أنها جريمة عنصرية تعكس فكرا صهيونيا عنصريا قام بها عنصريون وصرحوا بذلك أيضا (جوييم يقتلون جوييم كما قال بيجين) (وحرصا على أرواح جنودنا كما قال شارون) وهي جريمة إبادة تم تدبيرها وتنفيذها يف إطار استراتيجية عامة للدولة إسرائيل وكحلقة من حلقات تنفيذ هذه الاستراتيجية.

وللمساعدة على توضيح الفرق بين الجريمة العنصرية وبين جرائم الحرب الأخرى، وبين مذبحة ما وبين الإبادة، نذكر واقعة تسجل للقيادة الفلسطينية. فعندما اتصل بها البعض متحمسا لترجمة كتاب صدر في فرنسا وآخر صدر في الولايات المتحدة ينفيان بالأدلة والوثائق مقولة أن النازيين قتلوا ستة ملايين يهودي في أفران الغاز أثناء الحرب العالمية الثانية وقبلها، رفضت القيادة الفلسطينية أن يكون لها أي علاقة بمثل هذه الكتب موضحة أنه لا فرق لدى الثورة الفلسطينية بين قتل فرد واحد بسبب لونه أو دينه أو عرقه وبين قتل لملايين لنفس السبب، كذلك لا فرق بين القتل في غرف الغاز أو القتل بالرصاص أو غيره فكل ذلك جرائم ضد الإنسانية كلها. وتمسكت القيادة الفلسطينية بأنه سواء تمت تلك الإبادة أو لم تتم فإن ذلك لا يعطي أحدا من خارج فلسطين حقا فيها وأنه إذا اختلف المؤرخون الغربيون حول قراءة تاريخهم فإن ذلك أمر يخصهم هم.

ومع ذلك، فإن شهادة أمنون كابليوك في كتابه هذا هي شهادة من الجانب الآخر، ومن هنا أهميتها، خاصة عندما نذكر أن الكتاب قد صدر قبل مرور شهرين على "مذبحة" صبرا وشاتيلا، وأن الكاتب صحفي يعمل داخل إسرائيل ويكتب للقارئ الغربي، لذا فهو محكوم بأسلوب "حيادي" ليبرالي"، وكذلك محكوم بانتمائه للتجمع الإسرائيلي وخضوعه لقوانينه. وسيلاحظ القارئ أن "كابليوك" قد اقتبس أقوالا عمن عارضوا وأدانوا واستنكروا هذه المذبحة، وقد استعمل أحدهم بالفعل كلمة "العنصرية" في حديثه، ولكنه، أي كابليوك، لم يوضح للقارئ أن هؤلاء "قلة" حتى الآن على الأقل داخل التجمع الإسرائيلي، وأن بعضهم لم يكن يحتج على قتل الأبرياء بقدر احتجاجه على ما سماه "تشويه سمعة الجيش الإسرائيلي" أو "تلويث سمعة إسرائيل واليهود".

ولقد كانت مهمة "لجنة كاهان" منصبة على هذا الجانب، جانب تبرئة الضمير الإسرائيلي وتبييض صورة المؤسسة الإسرائيلية كلها في أعين العالم، وإلقاء مسئولية ما حدث على العرب أنفسهم.

*

إلى أين أذهب الآن؟

يختتم كابليوك كتابه بهذا السؤال على لسان امرأة تتابع تجوالها المستمر بالقرب من حفرة جماعية في مخيم شاتيلا. مات ثلاثة عشر عضوا من أسرتها ومن بينهم رضيعها البالغ من العمر أربعة شهور.

وكان كابليوك خلال وصفه قد ذكر فلسطينية شابة سنها ١٣ عاما كانت الوحيدة من أسرتها التي بقيت على قيد الحياة، ونقل عنها وصفا للطريقة التي قتل بها أهلها وجيرانها، ثم نقل عنها تساؤلها الحزين، "لا أعلم ماذا أفعل، ولا أعلم ما سيكون مصيري". وطوال تجواله في المخيمين بعد المذبحة كان السؤال الذي يسمعه بوضوح ويحفز ذاكرته "ماذا سنفعل الآن؟" " و"أين سنذهب الآن ؟"، حتى أنه اختار هذا السؤال ختاما لكتابه.

ولقد طردت المذبحة الوحشية التي تمت في تلك الأيام الثلاثة هذه التساؤلات على كل من سمع بها أو رآها..

وبرغم أن المرء قد يتصور أن وطأة الرعب وأثر فقدان الأحبة والأهل قد يمنع الإنسان من التفكير في أيامه المقبلة، إلا أن الواقع يقول أن كل من مر بمثل هذه الكوارث يطرح هذا السؤال على نفسه وعلى المحيطين. هكذا فعل الفلسطينيون عندما أجبروا على الرحيل من فلسطين في عام ١٩٤٨، وهكذا فعلوا بعد كل حلقة من حلقات الإبادة التي تعرضوا لها على يد العدو الصهيوني. في عام ١٩٧٤ عندما دمرت الطائرات الإسرائيلية مخيم اللاجئين الفلسطينيين بجوار مدينة النبطية في جنوب لبنان، هاجر من تبقى من الناس حيا إلى غيره من المخيمات، وكان أول ما سألوه لأنفسهم وللآخرين، ماذا سنفعل الآن؟، وعندما دمر الإسرائيليون وعملاؤهم مخيم تل الزعتر في أشهر يونيو – حزيران، ويوليو تموز، وأغسطس – آب ١٩٧٦، وأجبروا أهله على الرحيل وذبحوا في يوم الخروج وحده ألفا ومائتي شاب من المخيم، كان سؤال إلى أين نذهب هو أول ما سأله الناجون، كذلك كان الأمر مع مخيم عين الحلوة في صيف ١٩٨٢، ومع مخيم الرشيدية من قبله ثم مع مخيمات منطقة بيروت كلها، وأخيرا مع مخيمي صبرا وشاتيلا..

على لسان الضحايا، يعكس السؤال قدرة على الاستمرار والحياة لا يملكها إلا من لا يملك سوى الحياة، وحين تكون المعاناة أكبر بكثير مما

يمكن أن تتحمله النفس إذا تأملت تفاصيله.. ولكن السؤال أيضا يعكس يأسا مريرا من الواقع القائم كما يعكس افتقاد الثقة فيمن يرون ويسمعون دون أن يتحركوا لنجدة الناجين..

ولا شك أن كابليوك حين يردد هذه التساؤلات على السنة أبطال المأساة فإنه أيضا يرددها لنفسه هو وأبناء جلدته. ماذا سنفعل الآن؟ إلى أين نحن ذاهبون ؟ ..

ولكن السؤال عندما يأتي على لسان كابليوك، وأمثاله ممن يعلنون سخطهم على هذه المذبحة، لا يعكس الرغبة في الاستمرار.. على الأقل في استمرار ذلك النظام الذي ارتكب ويرتكب هذه المذابح فإن لم يكن القلق الذي يبديه، كابليوك هو قلق على النظام أو على الدولة التي كانت بلا شك حلما لقسم كبير من قاطنيها فإنه قلق على المصير الشخصي. فمن المنطقي أن من دبر ويدبر عمليات الإبادة هذه لن يتردد في ارتكابها ضد معارضيه من بين أبناء جلدته أنفسهم.

لقد اقتبس كابليوك في كتابه كلمات لعدد من الكتاب والمؤرخين والسياسيين، وهم وإن كانوا قلة، فقد أظهروا أثر أخبار المذبحة على ذوي الضمائر الحية، واستنكروها وبعضهم حذر من أنها ستقوض "الإجماع" اليهودي حول إسرائيل، و"الإجماع" الإسرائيلي نفسه. وذكرت أم لجندي إسرائيلي قتل في حرب لبنان، ذكرت أمام التليفزيون البريطاني أنها تشعر بأن ابنها قتل ثانية. كما أورد كابليوك استطلاعا للرأي تم بعد المذبحة ذكر فيه أن ٦٠% من العينة التي أجابت على الأسئلة قالت أن "إسرائيل مسئولة عن المذبحة".. صحيح أن النتائج العملية في نهاية الأمر لم تتفق تماما مع هذه النسبة فلا يزال قادة المذبحة وأصحاب خطة الإبادة يحكمون، كما أن أصوات المعارضين أقل مما كانت عليه أيام المذبحة، وساهم تقرير لجنة كاهان في "تفريغ" السخط نسبيا وتبييض وجه المؤسسة الإسرائيلية إلى حد كبير، ولاكن التساؤلات لا تزال قائمة، ويجب أن تظل قائمة..

فمن المؤكد أن القيادات الصهيونية العنصرية حاول وستحاول باستمرار تغييب ذكر مذبحة صبرا وشاتيلا من ذاكرة لإسرائيليين خاصة واليهود عامة والرأي العام العالمي أيضا. وستلجأ هذه القيادات إلى أساليب عدة لعل أسهلها بالنسبة لها هي نفوذها الكبير على وسائل الإعلام العالمية، ولكن أهم ما

ستلجأ إليه هذه القيادات يندرج في إطار التوجه العام الذي صرح به مناحم بيجين عندما واجه المعارضة في الكنيست والرأي العام كله بقوله "جوييم يقتلون جوييم" أي غير اليهود يقتلون بعضهم بعضا. إن كل واقعة اقتتال عربية – عربية أو عربية – فلسطينية أو فلسطينية – فلسطينية ستستغل على أوسع نطاق إعلاميا من أجل تبرئة القيادة الإسرائيلية، وتغييب أخبار وذكريات مذابحها فضلا عن إشاعة اليأس في نفوس الجماهير العربية. وستسعى القيادات الصهيونية العنصرية إلى إذكاء نار الاقتتال بالفعل وبالإعلام وبالتآمر، وبتضخيم أبناء الخلافات وباستغلال التصريحات الانفعالية العفوية التي تعكس مرارة "ظلم ذوي القربى" بحيث تؤكد مقولة "جوييم يقتلون جوييم" هذه.

كذلك ستحاول القيادات الصهيونية العنصرية أن تثبت للإسرائيليين خاصة ولليهود عامة، ثم للرأي العام العالمي أن "العرب" أشد عنصرية منها، ولا يستبعد أن تفتعل الحوادث التي تثير الشبهة العنصرية حول العرب كما حدث في الماضي عندما أحرق الصهاينة كنسا يهودية، لإخافة اليهود العرب وإجبارهم على الهجرة إلى فلسطين من بلدانهم العربية، أو عندما نسف الصهاينة أماكن عبادة يهودية في أوروبا لتشويه سمعة النضال الشعبي الفلسطيني. لذا فمن الضروري التنبيه إلى الفارق الدقيق والهام بين التصدي للغزو الصهيوني العنصري وبين أي عمل من شأنه تسهيل مهمة القيادات العنصرية الصهيونية في تضليل المزيد من اليهود والإسرائيليين. إن تشديد النضال، بكافة أشكاله ضد المؤسسة الصهيونية الإسرائيلية في فلسطين المحتلة وفي لبنان المحتل أيضا، ويف الوقت نفسه تشجيع كل صوت يهودي معارض لسياسة هذه المؤسسة من شأنه أن يبقى جذوة التساؤلات حول حقيقة هذا الكيان المصطنع وعدالته، وحول مستقبله وحول مكانه في التاريخ.

ولكي تظل هذه التساؤلات قائمة دوما، يجب أن تتحول واقعة صبرا وشاتيلا من مذبحة إلى حلقة من حلقات الإبادة، ومن مجرد حادثة في التاريخ إلى مأزق للضمير العالمي عامة والإسرائيلي خاصة.. يجب أن يتواصل التحقيق حول المذبحة. لا يكفي أن يدفن الناس في مقبرة جماعية، وأن يسأل الأهل عن أبنائهم المفقودين وأن يصدر كتاب أو كتابان عن المذبحة، وأن تحتج هذه الهيئة أو تلك ثم ينتهي الأمر عند هذا الحد ليصبح نسيا منسيا بعد

أعوام، أو تجهله الأجيال بعد سنين ولا يكاد أحد يعرف ماذا تعني كلمتي صبرا وشاتيلا.

ويبقى سؤال "ماذا سأفعل الآن"؟ معلقا فوق رؤوس الذين شاهدوا وسمعوا وقرأوا عن مذبحة صبرا وشاتيلا، العالم كله بشكل عام ونحن العرب بشكل خاص نواجه هذا السؤال. قد يقول قائل أن لا شيء يمكن أن يعل لإعادة الذين ذبحوا إلى الحياة ولا لتهدئة نفوس الناجين من سكان المخيمين، ولا لمعرفة مصير المفقودين، الهدف من طرح السؤال ليس هو ذلك على أي حال، كما أنه ليس دعوة إلى الأخذ بالثأر فإن الثأر لن يعيد أحدا للحياة أيضا، وإنما السؤال يعني: ماذا سنفعل لحماية أنفسنا نحن الذين سمعنا وقرأنا وشاهدنا واستنكرنا.. ولا يزال العدو الصهيوني العنصري يواصل اعتداءاته وجرائمه..

إن السؤال موجه لنا جميعا، والكثير يمكن أن يفعله كل منا...

ولعل نشر وإعادة نشر ما كتبه كاتب إسرائيلي كأمنون كابليوك باللغة العربية، كشهادة من الجنب الآخر، ليس إلا عملا غاية في البساطة والتواضع على هذا السبيل.

"وذكر"

ويا لها من تذكرة وذكرى

محجوب عمر

القاهرة، ١٩٨٣/٩/١٥

أزمة الخليج ومنعكساتها الإقليمية والعربية والدولية

مداخلة عامة*

[ما هو حادث في العراق اليوم، مشهد من زلزال التغيير الذي طرق باب المنطقة منذ عقود بل ومنذ قرن ونيف. والقسوة التي تتميّز بها المرحلة ناجمة عن "أنها تحمل رواسب الماضي ويدفع فيها الناس والدول والمؤسّسات والأفراد ضريبة عدم تحقيق التغيير في الوقت المناسب" كما يقول كاتب هذه المداخلة في منتدى انعقد عشية اندلاع الحرب على العراق، في مطلع عام ١٩٩١، لمناقشة أزمة الخليج وانعكاساتها الاقليمية، والعربية، والدولية.

يرصد الكاتب عناصر التغيير على الأصعدة الثلاثة (الاقليمية، والعربية، والدولية) وارتباطها ببعضها البعض، وتدخّل عوامل العفوية والوعي والتطوّر غير المتكافئ - والتناقضات التي تولّدها - في رسم المعطيات الراهنة والمستقبلية في عالم يحكمه النظام الدولي الجديد بما يعنيه من خطر السيطرة الخارجية على القرار المحلّي، كما تحكمه مفاهيم الحرية وحقوق الإنسان والانفتاح على المحيط والتفاعل الإيجابي مع العالم. وهو يرى في هذه المفاهيم سلاحا لا بدّ أن يمسك به الإنسان العربي للخروج من أزمته والسير نحو الوحدة أي نحو "الهدف المنطقي" الذي يرتسم في أفق المنطقة العربية، بالرغم مما

---

* الكاتب : محجوب عمر

منتدى مناقشة "أزمة الخليج ومنعكساتها الإقليمية والعربية والدولية"

١٣ - ١٧ يناير ١٩٩١

مجـلة الإتجـاه

قبـرص - ليماسـول

خلّفته عهود ماضية من ظلم وإحباط بتعاملها الفوقي القاهر مع فكرة الوحدة. فبناء هذا الصرح يبدأ، في نظر الكاتب، من قاعدة الهرم، ويعتمد على اكتساب استقلالية حقيقية على مختلف المستويات، تتبلور في احترام حقوق الفرد والجماعة والوطن والأمة.

وربما كان في أزمة الخليج، على قسوتها، مكسب للوعي العربي إذ أنها تدفع به إلى تخطّي الظواهر المتبدّلة والتحرّر من تجمّد الوضع القائم بأشكاله، وإلى الربط بين محنة العراق ومحنة فلسطين. ويحدّد الكاتب جوهر الربط أنه "في حقيقته ربط بين الاحتلال الإسرائيلي من ناحية وبين السيطرة الأمريكية على النفط والوجود الأمريكي العسكري في المنطقة من ناحية أخرى". إن تخطّي الظواهر يسمح بالتصدّي لمهمة التحرير التي طالما تأجّلت والتي يشدّد الكاتب على أن فلسطين هي بداية الطريق إليه وإلى الوحدة، وضمانه، ونهايته.]

بسم الله

أيها الإخوة،

السلام عليكم ورحمة الله و بركاته،

قد يبدو غريبا أن يعد مشارك في ندوة كندوتكم الموقرة مداخلة قبل أن يقرأ الأوراق أو يسمع للمتحدثين .

وإذ أعـــتذر عن هذا الخروج عن المألوف فان أسبابا عدة التي دفعتني إلـــى ذلـــك، أولها أنني انطلق بمشاركتي في هذه الندوة من اعتبارات محددة تـــتعلق بموضـــوعها كما تتعلق باهتمامي بالاستماع إلى كل ما يقال ويكتب تسـليما بـأن كـل قـائل عاقل وكل قول معقول فما بالكم بنخبة المفكرين المجتمعين اليوم حول موضوع الساعة كما يقال.

لقد تفضل الداعون إلى هذا اللقاء بتوزيع ورقة على المدعوين تضمنت موضـــوع انعقادهـــا ومحـــاور موضـــوعاتها. و نظرة متأنية إلى المحاور المذكـــورة الســـتة عشر تبين أنها كلها تتعلق بقراءة الوضع العربي الراهن وخاصة أزمة الخليج وانعكاساتها المستقبلية إقليميا ودوليا .

ونحن جميعا مجمعون على أهمية هذه المحاور التي نعيش أزمتها فعلا بـــل ويتساءل كل منا كما يتساءل كل عربي حول مستقبلها القريب جدا (أن حاجـــز يـــوم ١٥ يـــناير لم يبق أمامه إلا يومان). أما عن المستقبل القريب المنظور فقد فتحت المحاور المقترحة الباب لبحثه والنقاش حوله ولكن سرعة التسارع في عالم اليوم تقف عقبة أمام تحديد سقف واضح للأهداف المرجوة في المستقبل المتوسط والبعيد، فضلا عن تصور مساراتها.

ليس معنى ذلك أن لا جدوى من الحوار والبحث ومحاولة الوصول إلى تصـــورات مـــتفق عليها لتقرير استراتيجية للوجود العربي ومستقبله فجميع الحاضـــرين مـــتفقون على ما جاء في المقدمة في ورقة الدعوة، أو هم على الأقـــل متفقون على أن الأزمة الخليجية **(اقرأ الوضع الراهن)** تتم في إطار الوجود العربي وتؤثر عليه. وليس فينا هنا من لا يؤمن بالوجود العربي وإن اهـــتزت الثقة به جماهيريا بشكل خطير في السنوات الأخيرة كما أن بعض المفكريـــن والسياســـيين والكتاب يجاهرون الآن ليس فقط بنفيه تماما، وإنما يدعون أيضا أن العروبة والدعوة إليها كانت خاطئة من أساسها، ويشترك في ذلك الانعزاليون القطريون والإسلاميون الأمميون).

شخصـــيا، أنطلق في مداخلتي وفي اشتراكي في هذه الندوة من الاقتناع العمـــيق بالوجود العربي وهو وجود لا يتعارض مع الهويات القطرية كما لا يتـــناقض مـــع الهوية الإسلامية فالأولى (الهويات القطرية) هي من مكوناته والثانية (الهوية الإسلامية) هي مصدره ومجاله وحافظته التاريخية.

العروبة باختصار هي الأرض واللغة، وهذان ثابتان مستقران.

لقد حددت اللجنة التحضيرية لهذه الندوة ستة عشرة محورا، عشرة منها تتعلق بالمستقبل والباقية تتعلق بالوضع الراهن، والحوار يجري كله في هذا الوضـــع الراهن الذي لا يمكن لأحد منا أن يتخلص من آثاره عند التفكير أو التدبـــير، ولا يخفـــى عليكم جميعا أننا مهما نقلنا أفكارا موروثة وتعمقنا في دراستها فإن مناقشتنا للوضع الراهن تجعلنا **انتقائيين** بالنسبة لأفكار الماضي بل وربما فهمنا تلك الأفكار على غير ما فهمه أصحابها ولكننا **نقدّس** أفكارنا الحاضـــرة ونتمســـك بهـــا ويمـــيل أكـــثرنا إلى البحث عن مستقبل يضمن استمرارها.

لا يعنـــي ذلك بالطبع أن هناك من يرفض **التغيير**، قولا على الأقل، بل أن فكـــرة تغيير الوضع الراهن هي من الأفكار الموروثة والمتجددة حتى في التراث الشعبي، ولكن المشكلة هي تصورنا للتغيير المطلوب ومن ثم المتوقع وكذلك السرعة والطريقة التي يمكن أن يتم بها التغيير وهل تتوفر وسائله أم

هي غير متوفرة، والأرجح أن يميل المرء إلى تغيير أقرب إلى تصوره وإلى طـريقة أقـرب إلى قدراته وأن يقلل من قيمة وجدوى التصورات الأخرى المقترحة.

نـتوقع إذا أن تـتراوح الأفكار بين **المحافظة على الوضع الراهن** مع تغيير بسيط وبين **قلب الوضع الراهن تماما** والوصول به إلى الغاية المطلوبة أو المتصورة أيديولوجيا.

وعـند مناقشـة الوضـع الراهن بالنسبة لظاهرة محددة المكان والبشر والزمان تبرز إشكالية حول التأثير المتنامي للعوامل الخارجية على العوامل الداخلـية التـي ظلت لفترة طويلة تحفظ استقلالية الظواهر الاجتماعية على الكوكـب الأرضي فلم يكن من الممكن في العصور السالفة أن تؤثر العوامل الخارجـية علـى ظاهـرة مـا إلا عندما تنتشر أفكارها ولو بالقوة وتتحول المجموعات البشرية المعنية إلى هذه الأفكار.

أما الآن والحديث متزايد عن النظام الدولي الجديد والذي يعني محاولة تنظيم العالم كله كوحدة واحدة فإن الدراسات المستقبلية تتأثر بالتسارع التقني والاجتماعـي وشـيوع الاتصالات وانهيار الحدود وتعميق الاعتماد المتبادل وتغـير تقسـيم العـالم إلى محاور متصارعة جديدة ليست فقط من الشرق والغـرب إلـى الشمال والجنوب وإنما أيضا بين الحضارات الموزعة وبين الثروات غير الموزعة.

وقبل الاشتباك في جدل حول هذه التقسيمات يبرز سؤال مستقبلي حاسم يـتعلق بمسـتقبل تطور الظواهر الاجتماعية ومؤسساتها وهل يتحتم تاريخيا وصـول الظواهـر الاجتماعية "المتخلفة" في عالم اليوم إلى ما وصلت إليه ظواهـره "المتقدمة"؟ وهل من الصحيح قياس التقدم والتخلف بالمقاييس التي تجعـل المـتقدم مـتقدما والتي تنعت الآخرين بالتخلف؟ وهل يمكن تخطي المراحل الاجتماعية المتفق عليها عالميا الآن على طريق التطور؟ وماذا لو اتخذنا مقياسا آخر يرى فيما يسمى تقدما مستقبلا أسود يجب تحاشي الوصول إلـيه ولذا يرى عند من يسمون بالمتخلفين مقدرة أكبر على العودة عن هذا

الطـريق واختيار طرق أخرى مستقلة وأصيلة ؟ قد تكون اليمن التي تنعت الآن بمختلف أوصاف التخلف، هي أكثر بلاد العرب تقدما.

ومع ذلك لابد من الاعتراف بأن بلادنا العربية جميعا ومجتمعاتها ونخبها وأقساما متزايدة من شعوبها تسير على نفس الطريق التي سارت عليها بلاد الغرب بل هي تتسابق في محاولة التشبه به والاعتماد عليه وترويج أنماطه الحياتية في كافة المجالات.

ومـن ثم يمكن توصيف الوضع الراهن الحالي لبلادنا العربية في إطار ارتباطه الكامل بالعالم كله الذي تقوده بالتأكيد أفكار الغرب وآلياته. ولعل تلك النظرة هـي التي ساهمت في تحديد محاور هذه الندوة. فليس من بينها أي محـور يـناقش احـتمال الإفـلات من تلك السيطرة العالمية، وإن ناقشت احـتمالات تحسين قدرات النظام العربي وتشكيل قوة إقليمية (أي داخل إطار العالم) مع الإشارة إلى إمكانية اعتماد العالم الصناعي ولمدة قرن كامل على مخزون المنطقة البترولي كما جاء في المحور الخامس عشر.

وفـي كـل حـال من الأحوال وسواء انطلق المفكر من تقييمه للوضع الراهـن بمقـياس علاقـته بالعالم أو بتقييمه للوضع الراهن بمقياس إمكانية الإفـلات مـن سـيطرة العالم، فإن الحالتين تحتمان دراسة **التغيير** وإسقاط الوضـع الراهن بعد أن سلم الجميع بأن هذا الوضع الراهن هو الذي تتم في إطاره الأزمة الخليجية وتؤثر فيه.

وعلى طريق التغيير وفي سياق التفكير لابد من التوقف عند الإشكالية التـي شغلت ولا تزال أذهان المفكرين، أهو تغيير بقوة واعية مسيطرة أم هو تغيير عفوي تلعب فيه القوى الواعية أدوارا متنوعة يقدر البعض أنها هـي الأخـرى ثمـرة لوعـي مكتسب عفويا من جانب الأفراد في سياق معايشتهم الحياتية للظاهرة ؟

وبالإضافة إلى مشكلة العفوية والوعي يطرح التغيير وضرورته سؤالا آخر: هل من الضروري أن يتم التغيير بالعنف أم من الممكن أن نتفادى هذا العـنف؟ وعندما نتحدث عن العنف فإننا لا نتحدث عن أشكاله والقائمين به

وأسبابه المباشرة وإنما نتحدث عنه كضرورة شأنها شأن عملية القيصرية التي لابد منها لتحقيق الولادة.

ومن المصادفة أن مفكرا عربيا إسلاميا استعرض خبرته الشخصية في الواقع العربي في أول أيام هذا العام وقال أنه "لا يسعه إلا أن يقرر بأن فرص التفاؤل بالمستقبل جد متواضعة... وأن التحاقنا بمجرى التاريخ يحتاج إلى جهد لم يحدث بعد... وفرصه المتاحة لن تتحقق بولادة طبيعية وإنما لابد لها من عملية قيصرية"، (فهمي هويدي، بيان عن الأمة، الأهرام ١/١/ ١٩٩١).

وبغض النظر عن عدم تفاؤل الكاتب وهو ينطلق من التسليم بمجرى التاريخ (أي التسليم بتطور المراحل) فإنه يسلم بضرورة العنف وهو في ذلك يعبر عن رأس كثيرين تخيفهم الفكرة ومترتباتها ولكنهم يعرفون أنها قائمة.

عند توقع العنف وقياسه لا يجب استبعاد العنف الفردي الشائع في المجتمعات، بل أن قياس حالات العنف الفردي (الجنائي) يمكن أن يكون مؤشرا على تخمر عوامل العنف في المجتمع. كذلك عنف الطبيعة والكوارث البيئية والصحية بالإضافة بالطبع إلى أشكال العنف المنظم المختلفة. إن العنف يأتي منظما وعفويا ولأسباب ظاهرة وأخرى كامنة، ومتوقعا ومفاجئا.

ويوفر منطق اللحاق بمجرى التاريخ صورة للأهداف المرجوة لبلادنا على شاكلة الأهداف التي تحققت في شمال العالم على الأقل (أي غربه أو رأسماليته أو ليبراليته... إلخ) ولكي يمكن تصور الطريق إلى هذه الأهداف لابد من التذكير بأن أوروبا وأمريكا والبلاد المشتركة فيما نسميه الحضارة الغربية احتاجت إلى ٣٠٠ عام من الحروب الداخلية وفيما بينها والحروب العالمية وإلى ثورات عالمية أحدها صناعية وأخريات اجتماعية وسياسية، وأنها ما تزال تبحث عن أطر لنظم العلاقات فيما بينها لكي تمنع اشتعال الحرب من جديد.

إن البعض يؤمن بإمكان القفز على المراحل الاجتماعية وبالعنف واكتساب وعيها (اقرأ فرض أفكارها على الناس) وتلك تجربة يبين واقع

الاتحــاد الســوفييتي الآن فشــلها. وليس معنى ذلك أنه من الضروري عند اللحاق بمجرى التاريخ والمرور في مراحله المختلفة أن يتطلب الأمر ٣٠٠ عامــا لكــي نصل، بل أن التطور التقني والمتسارع والاتصالات من شأنه تكثيف الفترة الزمنية المطلوبة، ولكنه يحتمل أيضا تكثيف قدر العنف المتوقع فــي عملية التغيير خاصة إذا كانت رواسب الماضي تملك من القوة والقدرة والمســاندة الخارجية ما يجعلها تقاوم العنف والتغيير ولا تسمح بمصالحات تجنب استعمال الحروب.

كمــا أن البعض يتصور إمكان توقف العنف في الحياة البشرية، وذلك بــتقدمها الاجتماعــي. وقد يكون ذلك ممكنا إذا ما أمكن تحقيق المساواة في درجــة الــتقدم الاجتماعــي وحــتى عندئذ سيكون للعنف أشكال جديدة من الكــوارث الطبيعية والأوبئة وتدمير البيئة. أليس معنى عبارة "محاربة عدم الاســتقرار" التــي تــرددها القــوى العظمى الآن هي تأكيد عدم الاستقرار والعــنف؟ أنهم فقط يتحدثون عن استقرار وسلم في داخل ديارهم ويصدرون لــنا الأزمــات ويحاصــرون العنف في منطقتنا خوفا من انتشاره إليهم كما يحاصــرون حــركة شعوبنا خوفا من انتشارها إليهم ومع ذلك فإن معدلات العنف بأشكاله المختلفة داخل المجتمع الأمريكي مثلا أعلى من معدلاتها في بلادنا المتهمة بالتخلف وشيوع العنف والتوتر وعدم الاستقرار.

*

انطلاقــا من هذه الأفكار السابقة التي لا يتوقع أن تجد اتفاقا كاملا فإن قــراءة المحاور الستة عشر المقدمة في ورقة الدعوة تكشف أنها تحدد حدود الحوارات للأزمة الحالية وانعكاساتها المنظورة، وذلك باستثناء المحور الأول المتعلق بمنعكسات الأزمة على الذهنية العربية بمختلف اتجاهاتها، والمحور الأخــير المــتعلق بالبحث في سلبيات النظام التربوي والتعليمي ودوره في القصــور التقني وإشاعة روح الوهن، وكلا المحورين يدرس تأثير الوضع الراهن على المستقبل البعيد للأمة كلها. فالذهنية العربية ستحدد مسار أفعال النخب الحاكمة وفي الوقت نفسه ستؤثر على وعي الجماهير السابق والراهن والمســتقبلي. وكذلــك النظام التربوي والتعليمي وخاصة فيما يتعلق بإشاعة روح الوهن، أي الاستسلام والتبعية.

إن كل ما قيل ويقال في المحاور الأربعة عشر الأخرى، هي اجتهادات سينجح بعضها ويفشل بعضها كما أنها تتنوع بتنوع خبرات الموصين بها، بل وتتكامل إذا ما اختار أهل السلطة أن يأخذوا منها ما يتوافق مع مصلحتهم أو رؤيتهم لسبل معالجة مشكلات المجتمع وسيتبين في ظل العالم المتغير ووتيرة تسارعه العالية أننا في حاجة إلى ما يسمى الآن **بمنهج التخطيط لغير المتوقع** وذلك لمواجهة المفاجآت، ناهيكم عن الاستعداد لمقابلة التوقعات.

ولكن المحور الحادي عشر يلفت النظر إذ يقول **بالمنظور المستقبلي للأزمة، لا على أساس إرجاع الأمور فقط إلى ما كانت عليه** (التشديد لي) ولكن على أساس معالجة جذور الأزمة لمنع تكرارها. فهل من المطلوب التفكير في وسيلة لإرجاع الأمور إلى ما كانت عليه، وهل هذا ممكن؟ فإذا كانت الأزمة هي ظاهرة تغييرية، أي هي ظاهرة تعبر عن ضرورة التغيير، فهل من المطلوب تحاشي التغيير، أم تحاشي شكل التغيير، وهو "الأزمة" على النحو القائم حاليا. وخاصة أن المحور الثاني عشر والثالث عشر يتحدثان عن دور العوامل الخارجية وتأثيرها على مستقبل الظاهرة العربية الشاملة.

إن محاور الندوة تدور في معظمها حول انعكاسات أزمة الخليج على "الخليج" والنظام العربي الإقليمي والجماعي ودول الأركان في إطار النظام الدولي الجديد، أي أنها تحدد الزمان والمكان المنظور بالنسبة لنا. ولكن ماذا لو اعتبرنا أن أزمة الخليج هي بداية لتغيير شامل ومتوال لن يتوقف عند حدود ما هو قائم الآن إقليميا ودوليا.. هناك قراءة لما يحدث ترى إن مجيء القوات الأمريكية إلى هذه المنطقة يتوافق – وربما يستهدف – مع احتمالات انهيار الإمبراطورية السوفييتية، ومن نتائج هذا الانهيار المتوقعة بروز حزام إسلامي عريض طويل يمتد من شرق المتوسط (تركيا والعرب حتى حدود الصين "سينكيانج") مرورا بإيران والجمهوريات الإسلامية الآسيوية السوفييتية السبع. فهل نتوقف بأنظارنا عند حدودنا الحالية عند الدراسة ؟..

*

تلــك أســئلة مطروحة، ليس بهدف الوصول إلى تقييم أخلاقي للأزمة وإنما بهدف البحث عن دور **مفيد** للأزمة عند التخطيط لمستقبل العرب.

*

الوضع الراهن زائل وأفكاره متقادمة ومؤسساته، إن وجدت، لا علاقة لها بالحداثة، وهي عقبة في وجه التغيير.

والتغيـــير حتمي بوعي أو بدون وعي، بقصد أو بدون قصد هو تغيير بالعنف والعنف معاناة لابد منها ولا سبيل إلى تقليل هذه المعاناة إلا بالتوصل إلـــى أشكال متفق عليها لممارسته، أو استيعاب الأشكال السلبية بردع أقوى، تســانده شــرعية القــوة ومصالح الجماهير، ومن لطف الله علينا أن حقوق الإنســان تــتحول في عالم اليوم إلى قضية عالمية لها قوانينها ومؤسساتها. **والمستقبل** قادم وأشكاله متغيرة وتصوراته متأثرة بالعالم من حولنا وليس من السهل توقعه زمانا ولا مكانا ولا أشخاصا ومن ثم تشيع كلمة **المفاجأة** على ألسنة المحللين والباحثين والمسئولين وغيرهم.

وتتمــيز مرحلة التغيير الحالية بأنها تحمل رواسب الماضي ويدفع فيها الــناس والــدول والمؤسسات والأفراد ضريبة عدم تحقيق التغيير في الوقت المناســب وعــدم الاستعداد لملاقاته عندما يحدث وفي بعض الأحيان يأتي التغيير على شكل ضريبة يدفعها الذين حاولوا القفز فوق حقائق الكون وسننه علــى حد تعبير المرحوم الدكتور فؤاد مرسي في رسالته الأخيرة قبل وفاته المفاجئة التي حذر فيها "**أنه لا يمكن أن يفرض الفكر على الواقع إنما يخرج الواقع فكره الملائم له ولهذا فإن الواقع سوف يعاقب أولئك الذين يحاولون فرض فكرهم عليه أو يتجاهلون فكره الذي ينبغي عليهم أن يحترموه مهما يكن عفويا وتلقائيا**" (فؤاد مرسي، يناير ١٩٩٠).

ولكــن الواقــع متبدل ومتغير، والتطور غير المتكافئ يخلق التناقضات ويــزيدها احــتداما ولــيس من السهل اتفاق الجماعات على خطوات متسقة موحدة وإن كان الناس جميعا متفقين على ضرورة السير نحو الأفضل وهذا مــتفق عليه فإن السبل إلى ذلك لابد وأن تتعدد وتختلف بل وقد تتناقض إلى

درجـــة الحرب، وخاصة إذا لعبت العوامل الخارجية دورها في احتدام هذه التناقضات.

ما العمل إذن ؟

إذا افترضـــنا أن الهـــدف المنطقي لمجموع منطقتنا هو الوحدة بأشكال مخـــتلفة (ليس بالضرورة أن تكون دولة مركزية) فإن دور القوى السياسية التغييرية العربية هو **تحقيق الاستقلال بأشكاله في مواقعها هي** بما في ذلك استقلالها هي كقوة سياسية ليست تابعة لهذا الحاكم أو ذاك وليست متعارضة مع مثيلاتها من القوى التغييرية في الوطن، ثم تتقدم هذه القوى نحو **الوحدة** بخطـــوات بنائـــية مـــتراكمة بحيث ينبني مع الزمن إطار هرمي قمته وحدة مؤسســـية لا تقـــوم ولا يمكن أن تقوم بدون تحقيق مساواة في الحرية وفي القـــرار وفـــي احـــترام حقـــوق الإنسان ولها آليات تحقق الشورى فتعكس المصلحة المتغيرة دون توقف أو جمود.

الأمر يشبه دور **القبلة** في جمع المؤمنين فهم لا يصلون جميعا في وقت واحـــد ولا فـــي مكان واحد ولكن اتفاقهم على موقع القبلة يجعلهم يتوجهون بأنظارهم نحو هدف واحد.

إن الســـنوات الماضية تبين أن محاولة فرض فكرة الوحدة من أعلى لم تكـــن ناجحـــة وأن مـــا تبقى منها هو بعض الأفكار هنا أو هناك التي يرى أصـــحابها مصـــلحتهم فـــي التمســـك بشعار الوحدة. والأجدى أن نسلم بأن المؤسســـات العربـــية هـــي ظواهر منطقية تعكس درجة التطور الاجتماعي العربـــي وظروفه وسيسقط منها بالتأكيد ما لا يتفق مع ضرورة التغيير إلى الأمـــام، وأن نسلم بالمبدأ العسكري المعروف في نشاطنا بأن يكون أولنا هو أبطأنـــا إذا شـــئنا عدم انفراط عقد الطابور ولقد كانت هذه هي الطريقة التي جعلـــت بلـــدا كبـــيرا كالولايـــات المتحدة الأمريكية يختار نظام المجلسين التشـــريعيين أحدهمـــا يمـــثل السكان بتعدادهم والآخر يمثل الولايات بعددها لتحقيق مساواة أفقية ورأسية بقدر الإمكان (وقد لاحظ الأستاذ أمين هويدي أن اتفاقـــية الاتحاد التي عقدت بعد الحرب الأهلية قد تأخرت لمدة عامين لحين

الاتفاق على فكرة فيدرالية القوات أي أنهم قد تحاشوا نقاط الاختلاف بما في ذلك أهمها وهي قضية الأمن القومي).

إن التمسك بالاستقلالية الحقيقية والاعتماد على الذات معناه احترام حقوق الفرد والجماعة والوطن والأمة، معناه البدء من قاعدة الهرم ومؤسساته البنيوية وذلك أساس الحرية واحترام حقوق الإنسان، وجوهر ديمقراطية المؤسسات.

فإذا كانت البداية هي من الاعتماد على الذات وتحقيق الاستقلال مع الانفتاح على المحيط، فإن ذلك يعني أن موجات الانفتاح تتسع لتشكل حلقات متوالية تضم لها، ليس فقط شعوب ودول الأركان، كما جاء في ورقة الدعوة، وإنما أيضا مختلف الدوائر التي تجد فيها الأمة العربية نفسها بما في ذلك الدائرة العالمية. وذلك يجعلنا نشدد على أهمية الانفتاح والتواصل وهو عمل هجومي يقترن دوما بالمبادرة وإشاعة روح التحدي وكذلك بالمحبة ورفض العنصرية والتعصب والتفاعل الإيجابي مع العالم.

وقبل الانتقال إلى كلمات قليلة حول منعكسات أزمة الخليج على القضية الفلسطينية عربيا ودوليا يهمني أن أؤكد على المحورين الذين أشرت لهما. الأول وهو منعكسات الأزمة على الذهنية العربية والأخير وهو البحث في سلبيات النظام التربوي والتعليمي. يضاف إلى هذين المبحثين مبحث آخر لابد من دراسته في ظل عالم تلعب فيه الاتصالات ووسائط الإعلام دورا لا يقل خطورة عن السلاح هو البحث في تأثير **أزمة الخليج إعلاميا**، وما سمي بإعلام الأزمة على الجماهير العربية. لقد أدى هذا الإعلام إلى تعميق مشاعر الرفض والكراهية والحسد والحقد والإحباط والتعالي بين شعوبنا العربية على نحو لم يسبق له مثيل في التاريخ وبشكل يخيف كل العاملين من أجل مستقبل أفضل للأمة العربية، بل وحتى لكل شعب عربي على حدة، وهي خسارة فادحة نتجت عن هذه الأمة ولم تجد حتى الآن من يتصدى لها بقوة، وستترك تأثيرها لسنوات طويلة.

* * *

أمـــا منعكســـات أزمة الخليج على القضية الفلسطينية عربيا ودوليا فإن قـــراءاتها تـــتوقف على زاوية النظر. وإن كانت الآراء قد مالت بعد أربعة أشهر من بداية الأزمة إلى الاتفاق على أن قضية فلسطين وثورتها قد كسبت حتى الآن أكثر مما خسرت، والأمر متوقف على المستقبل.

لقــد خسرت قضية فلسطين مع بداية أزمة الخليج التعاطف الجماهيري الدولي (والإسرائيلي أيضا) وبعض التعاطف بين جماهير دول الخليج ومصر ويـــرى الـــبعض أن القـــيادة الفلســـطينية والشعب الفلسطيني قد افتقدا حجة ضـــرورية لتأكيد عدالة القضية عندما لم يتخذا موقفا واضحا ومحددا بإدانة القـــيادة العراقـــية، ويجيب على ذلك المدافعون عن الموقف الفلسطيني بأن الظـــروف التي **تمر بها القضية الفلسطينية لا تسمح بترف إطلاق الإدانات كما لا يمكن أن تسمح بالالتحاق بموقف تقف فيه أمريكا في مواجهة دولة عربية.**

والـــبعض يلوم جماهير الانتفاضة الفلسطينية التي رفعت أعلام العراق في بعض مظاهراتها، ويقول المدافعون عن الموقف الفلسطيني أنه إذا كانت جماهـــير الأمـــة العربـــية ودولهـــا قد وقفت ساكنة طوال ثلاثين شهرا من الانتفاضـــة فـــإن الفلســـطينيين يشاهدون بأعينهم يوميا رعب الإسرائيليين وخوفهـــم مـــن تصريحات الرئيس صدام حسين وصواريخه على الرغم من طمأنة القيادة الإسرائيلية العسكرية لمواطنيها.

كذلـــك خسر الشعب الفلسطيني قسما كبيرا من الدعم المادي الذي كان يصـــل إلـــى الأراضـــي المحتلة وإلى منظمة التحرير الفلسطينية وقد توقف بعضـــه نتـــيجة غضـــب القيادات الخليجية وجماهيرها وتوقف بعضه نتيجة خســـارة الفلسطينيين العاملين في الكويت وفي دول الخليج، ولا أحد يرحب بذلـــك علـــى الجانـــب الفلسطيني ولكن بعض الإسرائيليين يثيرون إلى أن الانتفاضـــة الفلســـطينية ووســـائلها كانت قد خففت كثيرا من "تكلفة" النضال الفلسطيني العسكري. كما أن الانتفاضة كانت قد بدلت نمط الحياة الاستهلاكي في الأراضي المحتلة مما خفف من خسارة الدعم المادي القادم لها.

ما عدا ذلك هناك مكاسب..

فــلا أحد ينكر أن احتدام أجواء الأزمة في المنطقة كلها هو بمثابة رفع درجــة حــرارة الصــراعات جمــيعا، وفــي مقدمتها الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، ونظرة واحدة للساحة الفلسطينية داخل فلسطين المحتلة وللساحة الأردنية المرتبطة بها بشكل مباشر تؤكد ذلك.

كذلــك فــإن ربــط فلسطين بقضية الكويت هو بمثابة رافعة هائلة في الصراع العربي الإسرائيلي وذلك بغض النظر عن استنكار الأشقاء الكويتيين لهــذا، فــإن جوهر الربط هو في حقيقته ربط بين الاحتلال الإسرائيلي من ناحــية وبين السيطرة الأمريكية على النفط والوجود الأمريكي العسكري في المــنطقة مــن ناحية أخرى. ولا جدوى من التذرع بعبارات مثل المبادئ أو التشــكيك فــي نوايــا صدام حسين أو عدم أخلاقية هذا العمل فكلها تقييمات أخلاقية يختلف عليها الناس.

ولا يــزال الوقــت مبكرا للحكم بخسارة القضية الفلسطينية بسبب أزمة الخليج على المدى الطويل وهناك بالطبع تصورات كثيرة لهذه الخسارة ولكن الواقع الآن يجعل من العصب إقناع الفلسطينيين الذين عانوا طويلا من واقع لا مــبالاة الأمة التي تملك القوة والثروة والتي اكتفت بالدعم اللفظي أو قليل من الدعم المادي، إقناعهم بأن يتوقفوا عن الحلم بقرب الفرج.

إن الأزمــة بالنسبة للشعب الفلسطيني فرصة لكيلا يكونوا وحدهم داخل الحصار، وهي إن حلت سلميا سيكسبون وإن حلت حربا فهم جزء من الأمة كلها يجري عليهم ما سيجري عليها.

ولعل أهم ما كشفت عنه الأزمة هو التأكيد على أن الاستقلالية والاعتماد على الذات والمبادرة الهجومية والاشتباك مع العدو قد مكنا الشعب الفلسطيني مــن امتلاك خيارات متعددة تشبه إلى حد كبير ما كان يقال عن "الخيارات" المــتاحة أمــام "المعدميــن" في نضالاتهم إذ أنهم لن يخسروا شيئا أكثر مما خســروا، بل هم يأملون بأن تؤدي زيادة التسارع إلى اختصار فترة المعاناة الطويلــة التــي اســتمرت ما يقرب من قرن كامل من الزمان، نجح خلاله الوضــع الراهــن المحــيط في تثبيت نفسه، ولو على حساب تأجيل تحرير الأرض.

لست أشدد على هذا المحور مع اهتمامي العميق به ولكنني أتصور أن البداية والضمانة والنهاية مرتبط بفلسطين وأن الطريق الوحيد لتحقيق أهداف الأمـــة، بـــل والتفاعل الاستراتيجي والحضاري بين الوطن العربي وشعوب دول الأركـــان هـــو طريق فلسطين. ولنتذكر جميعا أننا نتحدث عن مستقبل ثوابت لا عن أشخاص ومؤسسات تتبدل وتتغير، وعلى الغاضبين من موقف القـــيادة الفلسطينية والمنكرين الربط على القيادة العراقية، أن ينافسوهما في العمل من أجل تحرير فلسطين.

*

عذرا للإطالة، كما أعتذر عن عدم التدخل في التفاصيل مؤكدا من جديد أن مـــا يقـــال فـــي هذه الندوة وفي مثلها هو اجتهاد مخلص يحمل قدرا من الحقيقة الواجبة وهو مشورة مخلصة لعل القائمين على الأمور يسمعونها ولو كان تمسكهم بالوضع الراهن رافضا للتغيير ومتمسكا بالقائم الموجود.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

محجوب عمر

١٩٩١/١/٦

خاتمة

"روح وريحان.."

وجدنـــا أن مســك الخــتام لهــذه الصفحات التى صورت المأساة الفلســطينية أصــدق تمثيل، هى الكلمة التى عبّرت عن وجدان الشعب العــربى وصــورت الحزن والألم لفقده الزعيم الرمز الذي لا يعوض، والفـــارس الـــذي لم يترجل والقائد الذى لم يستسلم وعاش طول حياته يـــتلقّى الســـهام من كل ناحية، صابراً فى سبيل تحقيق الكرامة والعزة لفلســطين، وكتبها حبر جليل، وشاهد أمين هو البطريرك غريغوريوس الثالث..

جمال البنّا

طُهرُ الكوفيّة*

عندما يلف الطُهر جسدا يسقط عنه القلق ويجعله سابحا في فضاء لا يتسع إلا لعيني إله ولا يمكن إدراكه بالحواس. عندها، يتلمس الحس حوافي العقل فيشعر بطمأنينة من لمس العرش الإلهي فارتاح بعد تعب وحصار.

هذا الختيار الذي سكن بيننا زمنا، صار ممتزجا بتاريخ النقاوة وهو حكما لم يخرج من بيننا إنما كنا نتوكأ عليه في أوجاعنا وأحلامنا، واليوم صرنا نطلبه أكثر لأنه امتزج بين الكون والكان.

في القدس، لم يكن الحمام الزاجل يعرف ان يزعق غضبا قبل سطوة عنفوانه، ومنذ زمن المسيح افتقد الهيكل لمن يحمل سوطا فكان هو. أخاف أرجاس الشر فخشوه وهو حي ومائت فمنعوا أن يرتاح في تراب القدس.

بين مجد الله في السماء والسلام على الأرض زرع إيمانياته، ما آمن بالعنف إلا ليوقف العنف، وما طالب إلا بالسلام لكن القدر شاء أن يكون أمامه أعداء السلام.

في المسيحية، كلما تقدّسنا في الأرض أصبحنا على مسار التقديس في السماء، وكلما غمرتنا الأرض باهتماماتها صارت طريق السماء متعرجة، لكن عندما يكون الاهتمام أوجاع الناس فإن قوس قزح يرتسم بين نفوسنا

---

* كلمة نعي وتحية من بطريرك إنطاكية وسائر المشرق والإسكندرية وأورشليم، غريغوريوس الثالث.

عن موقع جريدة "السفير" اللبنانية، ملحق خاص، بتاريخ ٢٠٠٤/١١/١٢

والعرش الإلهي لأنه عند ذلك تصبح الجغرافيا أجسادنا والتاريخ رحيلنا الدائم نحـو إحقـاق الحـق. وهذا الرجل ربط التاريخ والجغرافيا بجسده فكان هو وحبيبـته فلسـطين وجهي عملة. خبأ حبيبته بكوفيته وستبقى رمزا إلى أن تتحرر الحبيبة.

الأب الكبـير لقضـية كبـيرة، كـان يحمل الصغار المصابين بأسلحة الصهاينة، يقبّلهم بفرح لأن ألمهم أكبر منهم لا يمكنهم إدراكه أما هو فيدرك.

كانـت له الجـرأة أن يتجاوز ألمه عندما وضع يده بيد أعدائه ليبرهن للعـالم أنـه لا يـدع الحقـد يسـيطر على مصلحة شعبه وعندما بكى أمام المصورين الصحافيين أدرك العالم أن هذا الرجل الحديدي يحمل في صدره قلبا.

أبـو عمّـار ليس أسطورة، إنه حكاية ستبقى ترويها الجدات للأحفاد، والبندقية لن تقبل أن يكون بديلا منها إلا غصن الزيتون، هذا ما حمله الختيار ذات يـوم إلـى الأمم المتحدة، وهذا ما سيستمر ما دام هناك طفل يولد في صبيحة كل يوم جديد. هيرودس مات ولعنه التاريخ، لكن طفل السلام ما زال حيا في قلوب الناس.

رحم الله أبا عمّار، فقد كان قضية في رجل، وهو إن رحل إلا أنها باقية في ضمائر الفلسطينيين ويا ليتها تبقى حية أيضا في ضمائر العرب.

فهرس

محجوب عمر وملحمة العصر

فى خمسينيات القرن الماضى كانت الاشتراكية «حصبة» تصيب شباب المثقفين من ذوى الضمير الاجتماعى فلم يكن عجيبًا أن يصاب بها الدكتور محجوب عمر وأن يساق إلى السجون وينال حظه من التعذيب ولكن ما أثار الدهشة أنه هجر مهنة الطب التى كان يمكن أن تحقق له ثراء عريضا، وذهب إلى الجزائر ليشارك المجاهدين، ومنها انتقل إلى فلسطين فعاش مع المقاومة أحلك ساعاتها فى أيلول الأسود وتل الزعتر، وبيروت المحاصرة كان فيها جميعًا يدرّب الشباب ويعالج المرضى ويقدم التوجيه السليم والمنهجية الرشيدة وأمانة الأداء وقداسة الالتزام.

لم أدهش لذلك كما دهش الآخرون فقد عرفت فيه حكمة خافية عميقة تجعله يجمع ما بين محمد والمسيح، ماركس وأبى ذر، الداعية والمحارب، وكأن القدر يدخّر له أن يشترك فى الملحمة الجديرة به والجدير بها والتى ستحدد مصير المنطقة، وربما العالم كله.

ما أحوج المقاومة الفلسطينية اليوم إلى صوت الحكمة، ما أحوجها إلى أن تراجع دروس الماضى ما أحوجها إلى الذكرى، وهذا هو ما يقدمه الكتاب.

إنه ليسعد دار الفكر الإسلامى -ويشرفها- أن تقوم بنشره فتقدم بذلك مساهمتها فى أشرف وأنبل حركات المقاومة فى العصر الحديث. مقاومة يجابه فيها الأطفال الدبابات بالحجارة، ويشترك فيها النساء والرجال ويتعرضون جميعًا لتدمير البيوت واقتلاع أشجار الزيتون وأقسى ممارسات القبضة الحديدية دون أن يتطرق إليهم يأس أو ينال منهم ضعف، وستكون فصلاً من فصول التاريخ تتداوله الشعوب ويتناقله الأبناء من الآباء.

جمال البنا

مدير دار الفكر الإسلامى

